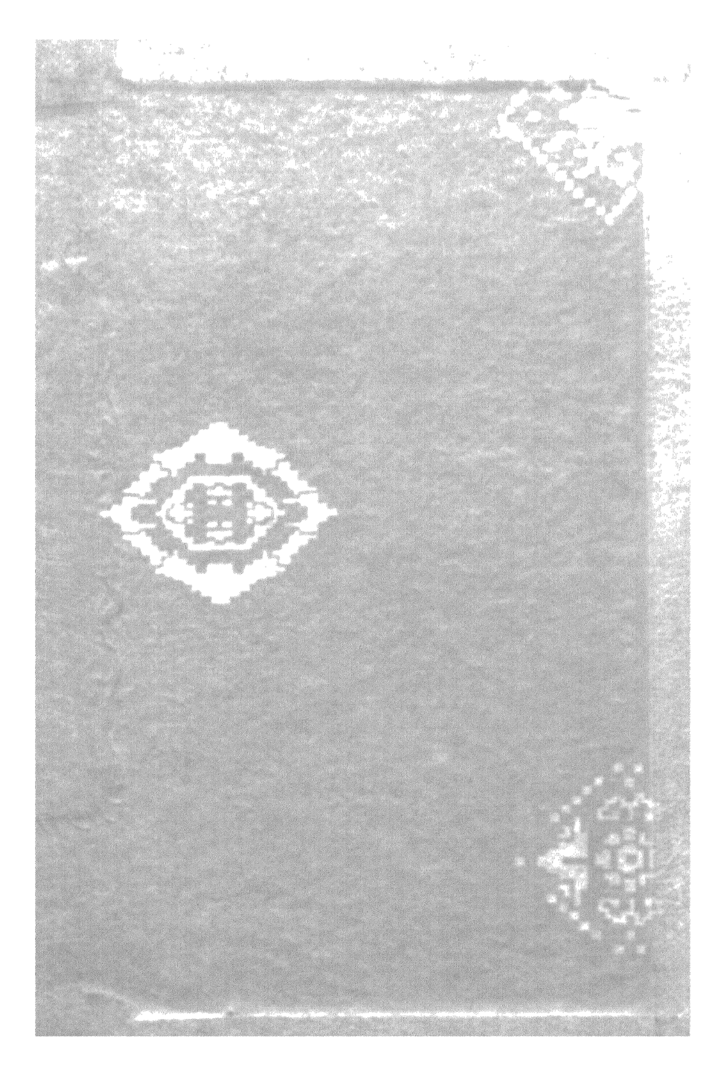
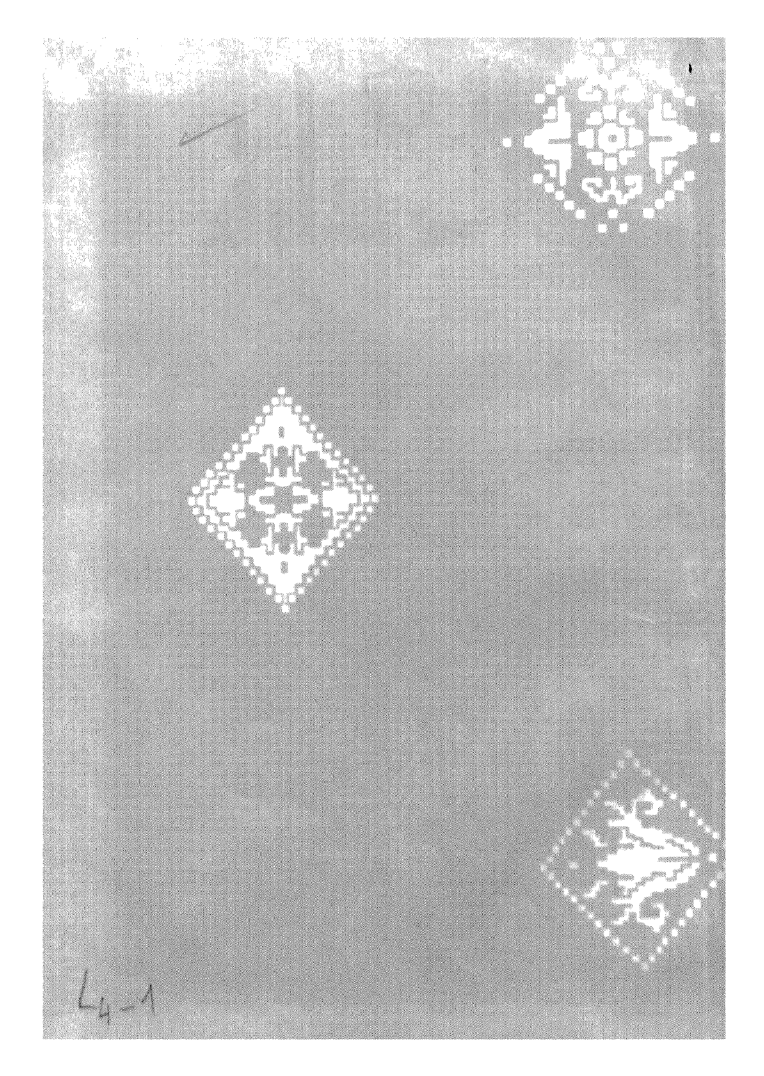
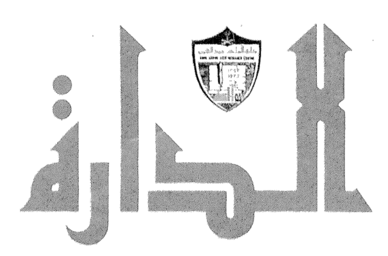






هدية
كشاف السنة (١٦)



مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز بالرياض

العدد الأول ● السنة السابعة عشرة ● شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤١١هـ

لا إله إلا الله محمد رسول الله

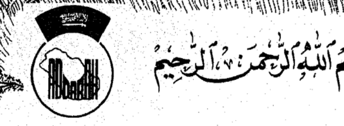




-الأنفال ٢٥-

صدق الله العظيم





مجلة فصلية مُحكَمَة تصدر عن
دارة الملك عبد العزيز بالرياض

دارة الملك عبد العزيز بالرياض

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/ ٤٥، في ٥/ ٨/ ١٣٩٢هـ، كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية، يديرها مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها.

والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة وجغرافيتها، وآدابها، وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة وبلاد العرب والإسلام بعامة، وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها، وجلب الوثائق والمخطوطات وتحقيقها، وإصدار مجلة تحمل اسمها.

كما أنها «المركز الوطني للوثائق والمخطوطات»، بمقتضى الموافقة السامية رقم ٥/ ١٢٦٠٨ في ٢٠/ ٥/ ١٣٩٦هـ.

العدد الأول ● السنة السابعة عشرة ● شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٤١١هـ

✉ ٢٩٤٥ ـ الرياض. ١١٤٦١ المملكة العربية السعودية
رقم الفاكسيميلي: ٠٠/ ٩٦٦/ ١/ ٤٤١٧٠٢٠

آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

- ترسل البحوث مطبوعة على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر على ألا تزيد عن ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وأن يكون اسم الباحث رباعيًا، وأن يذكر عنوانه مفصلاً.
- ترسل البحوث سريًا إلى محكمين، ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها لمنهج المجلة.
- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.
- لن ينظر في البحوث غير المستوفية لشروط المجلة.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

قيمة العدد

السعوددية : ثلاثة ريالات ـ الإمارات العربية : أربعة دراهم
قطر : أربعة ريالات ـ مصر : ٤٠ قرشًا ـ المغرب : خمسة دراهم ـ تونس : ٤٠٠ مليم
خارج البلاد العربية : دولار للعدد

الاشتراكات السنوية

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية.
وفي البلاد العربية ما يعادلها.
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية.

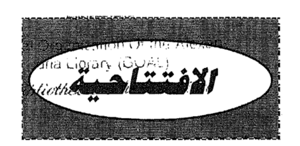
الموزعون

- السعودية : الشركة السعودية للتوزيع
✉ ١٣١٩٥ جدة ٢١٤٩٣ ☎ ٦٦٩٤٧٠٠
☎ ٤٧٧٩٤٤٤ الرياض
- أبو ظبي : مكتبة المنهل
✉ ٣٧٧٨ أبو ظبي ـ ☎ : ٣٢٣٠١١
- دبي : مكتبة دار الحكمة
✉ ٢٠٠٧ ـ : ☎ ٢٢٨٥٥٢
- قطر : دار الثقافة
✉ ٣٢٣ : ☎ ٤١٣١٨٠
- البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع
✉ ٢٢٤ المنامة ـ ☎ : ٢٦٢٠٢٦
- مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء ـ القاهرة ☎ : ٧٥٥٥٠٠
- تونس : الشركة التونسية للتوزيع
✉ 5 نهج قرطاج
- المغرب : الشركة الشريفية للتوزيع
✉ 683 الدار البيضاء 5

طالع: من الملامح الاقتصادية في نجد قبل قرنين ونصف ص٨

●صورة الغلاف●

في هذا العدد





• بقلم رئيس التحرير •



نجد بين الشام، والعراق

وهذا العنوان لا بد أن يكتب اليوم وإن كان استقراء التاريخ يمنحني البرهان على ما أزعم أنه فقه التاريخ لا تجديده ولا تبديله، فالشام من باديتها على حدود الجوف «دومة الجندل» إلى أقصى شمالها سواءً كان جبال طوروس، أم مدينة آذنة «أطنه» فهذا الإقليم، قومي العروبة لم يشذ عن عروبته إذا ما اعتنق أي مذهب، ومن الغرابة بمكان أن كان في الجاهلية عربيّ العرق فلا بدع أن يكون قوميّ العروبة أما الغرابة فإن الشام بعد ملك تدمر وملك أولاد جفنة وملك أمية تكاثر فيها المستعربون

ألبانياً بيت المؤيد العظم، كردياً إبراهيم هانانو، وتركياً وغير هؤلاء ولكنهم على الذروة في القومية العربية كأنما الأرض واللغة والمسجد كل هؤلاء طوعوه بالرغبة الصادقة والحنين إلى الوطن حتى لا يحسبهم من لا يعرف أصولهم أنهم عربٌ أقحاح عروبة الشام يمنية قحطانية لكن وبكل ما تقدم لا تشذ عن نجد لم تشن حرب عليها ناصرةً لها بل ومنصورة بنجد ويشهد بذلك وادي السرحان ودومة الجندل يوم احتضنه سلطان الأطرش عبد الرحمن الشاه بندر ومن إليهم أيام ثورتهم على فرنسا؛ فالأمر إذاً الشام لنجد نصيره ونجد للشام حضان ناصره.

ودعونا نأتي إلى العراق ففي الجاهلية كان فارسياً أو كلدانياً أما بعد القادسية فقد أصبح العراق إقليمًا عربيًا أكثر شعبه نجدي تميمي عنزي شمري مزني ويعني ذلك أنها عدنانية العروبة، ويدعو ذلك أن تكون مع نجد الناصر والمنتصرة أكثر من الشام؛ فأكثرية شعب العراق عربٌ أقحاح بينما عروبة الشام بعد ملوك الطوائف قليل فيها العرق العربي وما انتشى فيها بعد الدروز إلا بالفداعين في حلب والرولة في حوران ومن لف لفهم وكلاهما من عنزة الوائلية العدنانية جدّها ربيعة بن نزار (ربيعة الفرس).

إن شعب العراق العربي العرق الكثير النسل ما كان قومياً كما الشام، ولكنه الفخور بعروبته فما الذي جعله حرباً على نجد وليس ذلك من اليوم وإنما هو حين أصبح شعوبي الزعامة فالشعوبية الزعامة أبادت قومية الشام أعني بني أمية واستطاعت بوازع الثأر ونازع الغل أن تستحوذ زعامة الشعوبية الخراسانية على العباسيين وهم أعني العباسيين على الذروة في العروبة ولكن الثارات والغل

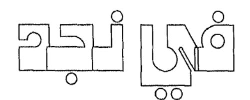
أهلك أمية في لحظة واحدة بل وقاد أبـو مسلم المنصور أن يجهز على عمه عبد الله بن علي لأن أبا مسلم خشي من عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أن يستقل قومياً وعـربياً في الشام ولا أخشى غضـب أحد إذا ما قلت الآن إن بنـي العباس حتى في عصرهـم الذهبـي بعد المعتصـم كان في طاعـة الشعوبيـة خرسـانية أول الأمر، وتركيةً بعد.

فعن هذا كله كان زعامة العـراق تشن الحرب على نجد بينما أكثر شعبها من نجد طغيان الزعـامة وشهوة الشعوبية والآن أكثرية الجيش العـراقي الصدامي من نجد الـولود كما قالت العرب (نجـد ولود، والعراق داية) طغيان الـزعامة شعوبي ضيع القوميـة العربية حتى إن الثورة على ياسين الهاشمـي عظيم العراق والعرب كـانت من طغيـان الشعوبية فـلا تستبعدوا هذه الحرب شنهـا شعوبي ليس فيه دمٌ عربي

والخلاصة الشام القحطـانية مـع نجد العـدناني، والعـراق العدنـاني شن الحرب من عهـد المنصور على نجـد وما إليها . . حتـى الحجاز . . حتـى المدينة المنورة . . بـل حتى مـدينة فـاس في المغرب يـوم دس الرشيـد السم لابـن عمه إدريس حفيد الحسن المثنى . . أهو الجوار أم هو الجور؟!

• محمد حسين زيدان •

من الملامح الاقتصادية



«قبل قرنين ونصف»

د. محمد بن سعد الشويعر

التجارة جزء من حياة البشر ، من حيث التعامل والأخذ والعطاء ؛ وذلك أن البيع والشراء ضرورة من ضرورات البشر . فكل فرد بائع ومشتر ، ووسيلة ذلك أنفس المعادن وأخفها حملاً ، وهما الذهب والفضة . . فكان البيع والشراء يتم بها ، وفي حالة فقدهما أو ندرتهما تتم المقايضة بنوع من المعروضات للبيع والشراء ، مع المفاضلة بينهما بحسب ما يتراضى عليه الطرفان .

والتجارة هي عبارة عن الاهتمام بالأشياء الضرورية، وبيع وشراء ما يحتاجه الناس في حياتهم اليومية، من ملبس ومركب، ومسكن وغذاء. وما ينتج عن ذلك من نفع تتصرف به حياة الناس، وتتدبر به أمور حياتهم ومعيشتهم.

ونجد قبل قيام الدولة السعودية الأولى، حيث تصافحت يدا الإمامين محمد ابن سعود، ومحمد بن عبد الوهاب رحمهما الله في الدرعية عام ١١٥٨هـ، وتعاهدا على إقامة شرع الله، والدعوة لدينه والجهاد في سبيل ذلك.. كانت تعتمد في اقتصادها على البساطة لضعف مواردها، ويمكن تصنيف الأمور الضرورية وفق متطلبات الناس في حالتين:

● موارد محلية تغطي الحاجة، ويصدر الفائض للبلدان المجاورة، ليحقق مصدراً معيناً على توريد الضروريات... ويتمثل هذا في المواشي بأنواعها، وما ينتج عنها من صوف وجلود، وسمن وغزل. ويتبع ذلك بعض المحاصيل الزراعية الناتجة عن النخيل.

فمن الموارد المحلية الزراعية والحيوانية ينظم البشر هناك حيواتهم، ويتعاملون فيما بينهم، فالبدوي يبيع في الحاضرة ما عنده، ليشتري ما يتوافر لديهم من طعام ولباس وأوانٍ وغيرها وهكذا الفلاح والحضري، ويقوم على تلك المنتجات المحلية صناعات وحرف يدوية..

● وموارد خارجية مما لا يتوافر إنتاجه في البيئة، مما يحتاجه الناس من أوانٍ وقدور وملابس وأدوات... فهذا يستورد بقوافل جماعية، تتعرض لمخاطر البادية، وقطاع الطريق: بالتعدي نهباً ومقاتلة... ولذا يعمد أصحابها إلى دفع ضريبة باسم «أخاوة» لشيوخ القبائل للحماية أثناء مرور القافلة بأراضي هذه القبيلة، وتنتهي المسئولية إذا دخلت القافلة حدود القبيلة الأخرى، مما يستوجب

دفع عـدة أخاوات لأكثر من قبيلـة، حتى تبلـغ القافلـة مقصدهـا في إحدى الحواضر كما نبه إلى ذلك نـاصر خسرو في رحلته عام ٤٤٣هـ، عنـد مسيرته من الطائف إلى الأفلاج «فلج» فقد قال في واحدة من وقائع سفره: نزلنا عند أكبرها وتسمـى حصن بنـي نمير، وهنـاك قليل مـن النخيـل، وبيـت الأعرابي الـذي استأجرنا جمله في الجزع هذه، ولبثنا هناك خمسة عشر يوماً، إذ لم يكن معنا خفير يهدينـا الطـريق، ولكـل قـوم مـن عـرب هـذا المكان أرض محددة، تـرعـى بها ماشيتهم، ولا يستطيع أجنبـي أن يدخلها، فهم يمسكون كل مـن يدخل بغير خفير، ويجردونه مما معـه، فيلزم استصحاب خفير من كـل جماعة، حتى يتيسر المرور مـن أراضيهم، فهـم وقايـة للمسافـر، ويسمـونه أيضـا مرشـد الطريـق «جلاوز» وقد اتفق أن جاء إلى الجزع رئيس الأعراب الذين كانوا في طريقنا، وهم بنو سـواد، واسمه أبو غـانم عيسى بـن البعير. فاتخذناه خفيراً، وذهبنـا معه، وقابلنـا قومـه. فظنوا أنهم لقوا صيـدًا، إذ إن كل أجنبـي يرونـه صيد، فلما رأوا رئيسهم معنـا أسقط في أيديهم، ولـولا ذلك لأهلكـونا، وفي الجملة لبثنـا معهم زمناً، إذ لم يكن معنـا خفير يصحبنا، ثم أخذنـا من هناك خفيرين، أجـرة كل منهما عشرة دنانير، ليسيرا بنا بين قوم آخرين [١].

وقد استمر هذا الوضع في نجد وغيرها مـن أطراف الجزيرة، حتى قيام الدولة السعودية الأولى، حيث أبطلهـا قادتها بتوفيق من الله، ثم بقـوة الوازع الديني، والوازع السلطـاني، لأن الأمن اتسعـت أرجاؤه كما ذكـر ابن بشر في تـاريخه. ثم عادت الحالة لـوضعها السابق إلى أن أرسـى دعائمه الملك عبـد العزيز رحمه الله فانمحـت هذه الظـاهرة، واستتـب الأمن، ونمـت الحركة الاقتصـادية، وأمـن الناس والحجاج بشيء لم يعـرف له نظير من قبل. . . . ولله الحمـد والشكر على ذلك.

كان في نجـد ذلك الـوقت طبقـة من التجـار، وفئـة من المتصلين بـالمناطـق المجاورة للبيع والشراء، وكـان التواصل التجاري مرتبطاً، بحسـب وضع الناس ذلك الوقت داخلياً، ومع جيرانهم.

وفي النبذ اليسيرة التي جاءت في الرصـد التاريخي عن تلك الفترة، دلالة على أهميـة القـوافل التجـاريـة، لأنها شريـان الحيـاة الإقتصادي، إذا سلمـت مـن الاعتداء.

وللملامح الاقتصادية ذكر في النبذ التاريخية التي رصدت بعض الأحداث في نجد، فمن ذلك:

أولاً : القوافل التجارية :

١ ـ يذكر ابن بسام [١٢٦٨ ـ ١٣٤٦هـ] في مخطوطته تحفة المشتاق في أخبار نجـد والحجـاز والعراق. مقتطفـات تنبئ عـن التعـامل التجـاري، والحركـة الاقتصادية، بيعاً وشراء، ونقـلاً ومتاجرة، ولكن باقتضاب شأنـه شأن كل من كتب عن تاريخ المنطقة فمن ذلك قوله:

- في عام ٨٧٨هـ كثرت الأمطار والسيول، وعمّ الرخاء في البلدان (٢).
- وفي نفس السنـة ٨٧٨ هـ أخـذ آل كثير والعوازم وزغـب، قافلـة كبيرة لأهل نجد على اللصافة ــ ماء ـ وهي قادمة من البصرة وفيهـا من الأموال والأمتعة الشيء الكثير (٣).
- وفي عام ٨٨٥هـ يقـول : أخذ آل كثير قافلة لعنزة في الوشـم، وفيها أخذ آل مغيرة قافلة للدواسر خارجة من الأحساء (٤).
- وفي ٨٨٩هـ يقـول: أخذ سبيـع والدواسر قـافلة كبيرة لعنـزة ، خارجـة من الأحسـاء وذلك في الـدهناء. وقتـل شيخ القـافلـة، ماضي بـن صلال مـن الدواسر(٥).

● وفي ٨٩٤هـ ، يقول أخذوا عنزة قافلة للفضول في سدير[٦].

● وفي عام ٨٩٩هـ ، يقول : أخذوا الدواسر قوافل آل مغيرة وآل كثير على بنبان[٧].

● وفي عام ٩٠٥هـ ، يقول: أخذوا سبيع قوافل الفضول في الخرج. وفيها أخذوا الدواسر قافلة للفضول خارجة من الأحساء[٨].

ومن هذه النماذج نستنتج أن قوافل النقل كانت تتولاها قبائل البادية ، لتجمعها واستعدادها للمجابهة من جانب ، ولما يدر عليها من موارد متاجرة ، أو عوضاً عن أجرة النقل .

ويعتبر الاعتراض على القوافل التجارية ، من أبرز الأحداث التي يرصدها المؤرخون كثيراً ، ويتناقلها الناس في مجتمعاتهم أخباراً ذات أهمية .

٢ ـ كما يذكر ابن بشر [١٢١٠ ـ ١٢٩٠هـ] ، في سوابقه شيئا من ذلك أيضاً ، إلا أن الجديد عنده اهتمامه بأخبار وقوافل الحاضرة وأسعارهم ومن ذلك قوله :

ـ في عام ١٠٧٢هـ ، أخذ أهل البير قافلة من اللباس لأهل العيينة ، لأن رئيسها عبد الله بن معمر أخذ لهم إبلاً من سوانيهم فأخذوا القافلة من أجلها[٩].

● ومكانة العيينة ذكرها الفاخري [١١٨٦ ـ ١٢٧٧هـ] ، في تاريخه في حوادث عام ١١٣٨هـ ، عندما قال : وفيها كانت وجبة ـ أي كثرة الموت ـ العيينة ، حلّ بهم وباء أفنى غالبهم ، ومات فيهم رئيسهم عبد الله بن محمد بن معمر الذي لم يذكر في زمانه ولا قبله في نجد ، من يدانيه في الرئاسة . ولا سعة الملك والعدد والعدة ، والعقارات والأثاثات[١٠].

● وفي عام ١٠٩٦هـ، يقول ابن بشر [١٢١٠ ـ ١٢٩٠هـ] وفيها : غلا الطعام من الحنطة وغيرها، وصارت الوزنة بمحمدية والصاع بثلاث (١١)، وإذا أطلقت الوزنة فيعني بها من التمر، أما الصاع فمن الحنطة، وهاتان السلعتان هما أبرز ما يرصد في النبذات التاريخية باعتبارهما الغذاء الرئيسي للسكان ومناط اهتمامهم. وبمعرفة سعرهما تبرز الناحية الاقتصادية ومستوى المعيشة في البلاد.

● وفي عام ١١٢٥هـ، يقول الفاخري [١١٨٦ ـ ١٢٧٧هـ] وفيها: كثرت القوافل من عنزة جاء والتمر على مائة بالأحمر، وآخرها انتهى إليه عند رحيلهم خمسين، ورخصت الجلايب ـ ويعني بها الإبل ـ وبيعت الفاطر ـ وهي كبيرة السن من الإبل السمينة ـ أدناها خمس محمديات، وأعلاها أربعين، وأعلا بيع ثمن الركاب ـ وهي من الإبل ما استخدم للركوب ـ ثمانين جديدة، والسمن عشرة أصواع (١٢).

● وما نجده كثيراً لدى الفاخري، وابن بسام، وابن بشر، نجد مثله مختصراً في النبذ التاريخية الأخرى كابن ربيعة العوسجي، والمنقور، وابن لعبون وغيرهم.. لكننا لا نراهم يذكرون سلعاً تجارية أخرى ولا عن تكاليف الصناعات البسيطة المحلية.. مما يعطي مؤشراً على ضعف المصادر الاقتصادية.

شراء المدن:

العقار مصدر من مصادر الحركة الاقتصادية، والإنسان فطر الله فيه حبّ الأرض والاستئناس بها، ومن هنا ندرك سبب كثرة القتال في نجد ذلك الوقت، حسبما رصد في النبذ التاريخية، ورغبة بعض الأسر في إجلاء أسر أخرى عن

البلدان. لأن موارد ذلك البلد ضاقت بـأهله فأراد القوي أن يبعد الضعيف عن طريق القوة.

لكن بعض الوجهاء والأثرياء، لا يلجؤون لمثل هذا الأسلوب، وإنما يعمدون إلى إحدى حـالتين: إما الإحياء والمصـالحة مع أهـل المنطقة ليجاوروهـم، وإما بالشراء والتملك.. والحالة الأخيرة، تعتبر أسلوباً اقتصاديا بالدفع والتملك..

ومن ذلك المدن التالية:

١ ـ العيينة: فقد ذكر ابن عيسى [١٢٧٠ ـ ١٣٤٣هـ]، أن حسن بن طوق، جدّ آل معمـر قد اشترى العيينة في عـام ٨٥٠هـ من آل يـزيد من بنـي حنيفة، أهـل الوصيـل والنعميـة الذيـن مـن بقيتهـم اليوم آل دغيثـر المعـروفون في بلـد الرياض، ورحل من ملهم، ونزلها وتداولتها ذريته من بعده (١٣).

٢ ـ حريملاء: ذكر ابن طعيس في بحثه عن هذه المدينة، أن أحمد أبو ريشة، بعث ابنه يوسف في القرن التاسع، ليختار مكاناً صالحاً للسكنى ويعمره، ووقع نظره حسب وصيـة والده على حريملاء، وأمضى سبع سنـوات في حفر الآبار، وتنظيم القنـوات، وإنشاء المساكـن، وبناء السـور، ووالده يمده بـالمال الذي ضاق ذرعاً وأمره بالعودة إلى الشام، فتركها في عام ٨٩٣هـ (١٤).

أما ابن بشر فقد ذكر في سابقة سنة ١٠٤٥هـ، أن آل رباع نزلوا بلد حريملاء المعـروفة وغـرسوهـا، وذلك أن آل حمد بنـي وائل وقع بينهـم وبين آل مدلـج في التويم خـلاف، فخرج علي بن سليمان آل حمد، واشتروا بلد حـريملاء من حمد ابن عبد الله بن معمر، وكانت في ملك حمد المذكور (١٥).

ـ كما تبرز المغارسة وهي استثمار اقتصادي: الموقع «الأرض» لشخص والجهد الزراعـي لشخص آخـر. فيقام الغـرس مشتركاً في غلـة بينهما... وهذا كثير في

الملكيـات الخاصـة بـالأفـراد. كما تظهـر المبايعـات الفـرديـة بـالشراء أيضـا في التملكات الفردية والأسرية. التي لم ترصد تـاريخياً، وإنما يفصح عنها ما يتوافر لدى الناس من عقود مبايعات . .

وعن المغارسات تأتي لمحات تشير لذلك، فقـد ذكر ابن بشر في سوابقه أنه في عام ١٠١١هـ، : غرس الحصون القـرية المعروفة في سـدير، والذي غـرسوه آل تميّم، غارسهـم عليه صـاحب القـارة، المعـروفة بصبحـا في سديـر عند بلـد الجنوبية(١٦).

العملات:

النقود ـ فضية أو ذهبيـة ـ هي محور الاقتصاد ومسيرتـه. . . ولم يكن في نجد ذلك الوقت عملة مستقلة، كما أن تجارتهم وتعاملهـم لم يكن مع بلد بذاته حتى يأخذوا عملته . . ولذا فإن الإشارات التاريخية تنبئ عن وجود عملات عديدة، وذكر بعضها هو مـن باب الإبانة عن الواقع، وليس مـن قبيل الاستقصاء ذلك أن قوافل البادية، هي التي تقوم بأغلبية النقل، في التوريد والتصدير، من نجد وإليها إلى ما يجاورها وكـل قبيلة تتولى ما يليها من ديـار وحواضر، هذه التجارة تستـوجب التـداول النقـدي، ولما لم يكن في المنطقـة عملـة خاصـة بها، إلا أن التعـامل التجـاري مع البلـدان المجاورة، يحتـم وجود عملـة معتبرة، فكانـت العملات السائدة في كل بلد هي محور التعامل الاقتصادي.

وفي اللمحات التاريخيـة المرصودة، تمر بنا أخبار اقتصادية، ومعلـومات عن النشرة التسعيريـة لكل سنـة، بحسـب الوضـع الاقتصـادي السائد في البيئـة: عرضاً وطلباً. . كما يحصل في النشرات الاقتصادية والتجارية في عصرنا الحاضر.

لكننا لا نعلم عن تلك العملات التي كانت متداولة في المنطقة، وإلى أي جهة تنتمي ولا شك أن بعضها يرتبط بأكبر دولة تتعامل مع المسلمين وتسيطر على أغلبية الرقعة الإسلامية، إنها الدولة العثمانية، وقد يكون بعضها سبقها، أو يرتبط بجهات أخرى كالحكومة البريطانية.

ومن هنا فإن ما يمر علينا من أسماء العملات، قد تكون غير أسمائها الحقيقية المعروفة به في بلادها وإنما هي مصطلحات ودلالات أطلقها أهل المنطقة عليها، فأصبحت اصطلاحاً ينبئ عما ترمز إليه، ولا مشاحة في الإصطلاح لأن الاسم الحقيقي أعجمي يثقل نطقه على ألسنة العرب . . . وقد يكون لسبب آخر لا نحيط به، والعرب إذا أعيتهم معرفة الحقيقة عن أي شيء وارتباطه باسمه قالوا: إن الأسماء لا تعلل.

ومن العملات التي تتكرر كثيراً ما يلي:

١ الدينار : وهو عملة ذهبية مضروبة، والدرهم وهو وحدته.

٢ الدانق : عملة ذهبية توزن. ويأتي للدانق ذكر في كتب الفقه.

٣ الأحمر: عملة ذهبية.

٤ المحمدية : عملة فضية، مجزأة من الأحمر. كتجزئة الدرهم الفضي من الدينار الذهبي

٥ المشخص : عملة ذهبية ، يظهر أنه أثمن من الأحمر وأعلى قدراً.

٦ المحلّق: عملة نحاسية مشقوقة الوسط، وبعضهم يرى أنها فضية. ولعل التسمية من كونه على هيئة حلقة.

٧ المطبّق : عملة نحاسية تماثل المحلّق في القيمة.

٨ **الحرف : دراهم فضية كانت معروفة في ذلك الزمن .**

٩ **الجديدة : عملة مستطيلة وهي بمثابة القرش ، وكانت سائدة في الأحساء والرياض في بداية عهد الملك عبد العزيز «يرحمه الله» .**

● فالدينار ذكره ناصر خسرو في أجرته للجمال من الفلج إلى البصرة ، واشترط عليه تسليمه ذلك المبلغ في البصرة لنفاد ما معه من نقود [١٧] ، كما نقد أحد الجمالين عشرة دنانير في رحلته من الطائف إلى الفلج عندما مرّ بديار بعض القبائل . لأن كل قبيلة تأخذ عليه عشرة دنانير لكل خفير يحميه في حدودها وهم كثيرون [١٨] . كما أوضح الدرهم ، وأن تعامل أهل الأفلاج بالذهب النيشابوري[١٩] . وهذا يدل على أن الدينار عملة الدولة العباسية ذلك الوقت سنة ٤٤٣ هـ معروف في المنطقة . .

● ولقلة توافر النقد ذلك الوقت فإن كثيراً من المعاملات الاقتصادية كانت تتم بالمقايضة ، فقد ذكر ناصر خسرو أن أهل قلعة الفلج «الأفلاج» : أجروه على نقش محراب مسجدهم بمائة منّ من التمر ، ومائة من تمر عندهم شيء كثير، فقد أتى وأنا هناك ، جيش من العرب وطلب منهم خمسمائة من تمر فلم يقبلوا وقاتلوا . وقتل عشرة رجال من أهل القلعة . وقلعت الف نخلة ، ولم يعطوهم عشرة أمنان تمراً [٢٠] .

● أما الأحمر والمحمدية : فيبدو أنهما عملتان مرتبطتان ببعضهما كارتباط الدينار بالدرهم ، وأن المحمدية جزء من الأحمر، لأنهما يأتيان متلازمين في التسعير، والأحمر أكثر قيمة من المحمدية ، مما نستنتج منه أن الأحمر مأخوذ اسمه من لونه ، وهو الذهب . إذ طالما سمعنا جذوراً لدى كبار السنّ بتسميتهم الذهب : الأحمر أو الأصفر، وتسميتهم السلاح كالسيف بالأخضر. ولدى كثير من العامة ذكر لذلك . وفي الأشعار أيضا .

يقول ابن بشر [١٢١٠ ـ ١٢٩٠هـ] ، في سوابقه : ففي عام ١٠٩٩هـ ، كثرت الكمأة والعشب والجراد ، ورخص الطعام رخصاً عظيماً ، وبلغ التمر عشرين وزنة بالمحمدية ، والبر خمسة آصع بالمحمدية ، وذلك في ناحية سدير، أما العارض فبيع التمر في الدرعية ألف بأحمر(٢١).

وقد أرّخ تلك السنة وأسعارها بعضهم فقال :

بحمد الله والشرك نعج لسحب تثج وأرض تمج

وتمر ثلاثة أصواعه بدفع المحلّق فيها تزج

وبرّ فحرف بوسقينه وتاريخه كساد يشج

ثم قال ابن بشر: الحرف نوع من الدراهم يتعاملون بها في زمانهم ، والوسق قال المنقور ستون صاعاً بصاع العارض (٢٢).

ومن هذا نتوقع تزامن هذه العملات الأربع : الأحمر والمحمدية ، والمحلّق والحرف . . . وأن بعضها مرتبط ببعض ، وقد يكون الحرف أكبرها لأن الوسقين وهما ١٢٠ صاعاً بحرف . أو يفضله الأحمر لأنه ذهبي لأن الألف وزنة من التمر بأحمر.

والمحمدية تفضل المحلق . . . ولو تهيأ الحصول على شيء من هذه العملات لأمكن تقدير ثمنها .

ـ وفي سنة ١١٠٠ هـ ، قال ابن بشر في سوابقه : وفي تمام المائة بعد الألف : أتى الحواج الثلاثة ، ونزلوا بعنيزة في ناحية القصيم وغلا الطعام (٢٣)، مما ينبئ على أن عنيزة كانت مركزاً تجارياً مهماً وأنها ملتقى قوافل الحجاج ، ولهذا دوره من الناحية الاقتصادية في المنطقة كلها .

ـ والمحلّق التي مر بنا ذكر لها في بعض الأسعار، عملة كانت معروفة في الحجاز، قال لي من رآها إنها تشبه القرش مستديرة ومشقوقة في وسطها، وهي بمثابة الدرهم بالنسبة للدينار، ويعادلها المتحدث عنها بنصف الريال السعودي الفضة. . . وقد قرن ذلك بالمثل العامي: يا من أدخلني بمحلّق يخرجني بإثنين. . . ولما كان لكل مثل قصة، فقد سألته عن قصة هذا المثل فأخبرني أن مستبضعًا من أهالي شقراء ذهب مع قافلة «الحدرة» إلى مكة للتجارة وقد استبضعه شخص سمناً ليبيعه في مكة، ويشتري بقيمته نوعاً من البضائع حددها له صاحب السمن، والربح بينهما: من هذا المال، ومن الآخر الجهد. . . ولما وصل مكة باع سمنه على سمّان كالعادة، ووعده بالقيمة بعد أيام لكن السمّان اختفى ولما سأل عنه قيل إنه في السجن بسبب قضية، فطال انتظاره، وقاربت القافلة على الخروج إلى نجد، ولم يخرج هذا من السجن فقرر الاتصال به بأي ثمن، ووجد الحيلة مع السقاء الذي يموّن السجن بالماء، فقال له: أدخلك السجن بمحلّق فتلتقي بصاحبك وتتفق معه فوافق ولم يفكر في العاقبة، ولما التقى بصاحبه وعده خيراً بأن يعطيه حالما يخرج من السجن وإن كان سيسافر فليوكل وكيلاً عنه ليعطيه الحق. . فوافق مرغماً. . وعندما اتجه للباب ليخرج منعه السجّان ظانًا أنه من نزلاء السجن، وانتظر حتى جاء وقت مجيء السقاء فقال له: مثلما أدخلتني أخرجني. فقال: ولكن بمحلقين هذه المرة. . فوافق وقال ذلك المثل: يا من أدخلني بمحلّق يخرجني باثنين.

● أما الفاخري فيقول: في عام ١١٢٧هـ، فيها بيع الطّلّيّ بأحمرين(٢٤)، والطلي هو ذكر الضأن.

● وفي عام ١١٣٣هـ يقول أيضا: وفيها بيع التمر على مائة وعشرين وزنة

بـالأحمر، ـ الـوزنـة كيلـو ونصف تقـريبـاً ــ والحب على خمسة وأربعين صـاعـاً بالأحمر (٢٥).

● وابـن ربيعة العـوسجي [. . . . ــ ١١٥٨هـ] يقـول قي تـاريخه عن عـام ١١٣٩هـ : ورخـص فيها الزاد والتمر وصـار عشرين وزنة ، والعيش ستـة آصع بالمحمـدية ، وهي رجعـان سحيّ (٢٦) . وقد علـّق المحقق الـدكتور الشبـل على المحمديـة بأنها : نوع مـن العملة ينسب إلى السلطـان العثماني محمد بن إبـراهيم الذي تولى السلطة عام ١٠٥٨هـ ، و خلع عام ١٠٩٩هـ (٢٧).

● والمطبّق عملـة كان عبـد الله بن محمد بـن طوق بن معمـر قد اعتمـدها في العـارض، حيث سمـى أهـل العـارض عبد الله هـذا بـالمطبـّق لأن معاملتهـم بالمطابق، ضمـن أحداث عام ١٠٩٦هـ (٢٨)، وقد علق المحقق الـدكتور عبد العزيز الخويطر بأن المطبق : دراهـم معروفة كما قال ابن بشر (٢٩).

● أما عن المشخص، فقد أشار إليه كل من :

ـ الفاخـري [١١٨٦ ـ ١٢٧٧هـ] في أخبار عام ١١٢٧هـ، بقـوله : وفيها : بيع صاع السمن بمشخص والطليّ بأحمرين (٣٠) ويرى الدكتور الشبل محقق هذا الكتاب أن المشخص نوع من العملة أحدث وأثمن من الأحمر .

● والمنقور [١٠٦٧ ــ ١١٢٥هـ] في حـوادث عام ١١١٣هــ ، بقولـه : وفيها غلاء عظيم حتى أنهم أكلوا الميتة، وسوي التيس خمسة مشاخص (٣١).

ونماذج ذلك كثير، ومـا ذكرنـاه ما هو إلا مـن باب التقـريب، لكـن ما يجب التسليم به أن هـذه العملات لم تكن مضروبة محلياً . وإنما هي عمـلات متداولة في بلدان مجاورة، دعت الحاجـة إلى التعامل معها وهي فضية وذهبيـة ونحاسية ونيكليّة .

أما الأسماء فهي اصطلاحات محلية ، تختلف به عما هو معهود في المكان الذي ضربت فيه ، أو في البلدان التي تتعامل بها .

ومن باب المقاربة . فإنه و إلى عهد قريب ، وفي بداية عهد الملك عبد العزيز رحمه الله ، وقبل أن يضرب عملة رسمية للدولة ، كان يتم تداول عملات عديدة في أجزاء البلاد ، وتعرف بأسماء محلية متعددة .

ومن ذلك :

● الليرة : الذهبية العثمانية كانت تعرف باسم عِصْمَلِّيّ . وهناك جنيه يعرف باسم أبو بنت وهو إنجليزي أو أوروبي .

● الباوند الذهبي الإجليزي : لاختلاف سعره كان الأجود منهما يعرف باسم جورج ، والأقل يعرف باسم : الأعور. ولعل هذا الأخير هو جنيه ذهبي لحكومة الهند الشرقية التابعة لبريطانيا .

● الريال العثماني الفضيّ : كان يعرف باسم المجيدي ، ووحدته النحاسية تعرف باسم البيشلي وهاتان العملتان ضربهما السلطان عبد المجيد وتحملان اسمه .

● عملة فضية بلجيكية تحمل صورة الملكة تريزيا : كانت تعرف في الحجاز ونجد واليمن باسم : الريال الفرانسي . .

وقد عودل بالريال السعودي الأول الذي ضربه الملك عبد العزيز عام ١٣٤٣هـ ، . وهذا الأخير كان بعض العامة لا يعرفونه إلا بالكبير أيضا لأنه في حجم الريال الفرانسي ، وكان وزنه أثقل من الريال الفضي المعتاد .

● الروبية الهندية لعموم حكومة الهند الشرقية قبل الاستقلال عن بريطانيا ،

كانت سائدة في الخليج والأحساء ووسط نجد، وكانت تعرف باسمها مخففة : ربّية. ووحدتها النحاسية تعرف بالبيزة وجمعها بيزات والأقل يعرف بالآنة.

لكن الذي تعارف عليه بعض الناس في نجد أن البيزتين : يطلق عليهما اسم : تفلسيّة، ولست أدري ماذا تعنيه إلا إذا كانت من الإفلاس لضعف القيمة.

وأن الأربع بيزات تسمى ربع، وقد عودل الربع هذا بالقرش السعودي بعد ضربه، فكان الريال السعودي يساوي عشرين ربعاً أي ثمانين بيزة.

وفي أيام الحرب العالمية الثانية عندما اشتد الطلب على النحاس، بدأت البيزات النحاسية تختفي تدريجياً حتى أصبحت أثراً بعد عين.

● وفي الرياض كانت تعرف الجديدة. وهي عملة نيكلية عثمانية، فاستمر الناس في إطلاقها بعد اختفائها على القرش السعودي، وصار العامة فترة من الزمن لا يعرفون القرش إلا بالجديدة حتى تمكن الاسم من ألسنتهم.

● وفي الأحساء كانت الطوالة. والبارة وهما من النيكل أيضا.. وقد رأيت قطعا من البارة هذه فهي مستديرة تشبه الهللة رخيصة القيمة بيضاء اللون لها وحدات ٥ بارات، ١٠ بارات.

● كما كان من اصطلاح الناس في المزايدات، والبيع والشراء مسمّى : القرش وتنطق بين القاف والسين والجيم. وتعني في مفهومهم ثلث ريال... ولا يوجد مقابل له عملة بذاتها.

ولما كان العرب يقولون في أمثلتهم : لا مشاحة في الاصطلاح.. فإن مثل هذه المسميات قد تكون محلية، وقد تختلف من مكان إلى مكان... كما يلمس ذلك من يتعامل مع العامة والقرويين في كل بلد عربي أيضاً..

أهم مصادر البحث

١ الأخبار النجدية تأليف محمد بن عمر الفاخري : دراسة وتحقيق د . عبد الله الشبل . منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض برقم ١٠

٢ تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد تأليف : إبراهيم بن صالح بن عيسى . منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض الطبعة بعناية الشيخ حمد الجاسر .

٣ تاريخ ابن ربيعة العوسجي تأليف : محمد بن ربيعة العوسجي الدوسري ـ دراسة وتحقيق د . عبد الله الشبل : طبع النادي الأدبي بالرياض عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

٤ تاريخ المنقور تأليف : أحمد بن محمد المنقور ، تحقيق ونشر الدكتور عبد العزيز الخويطر ـ الطبعة الأولى عام ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م .

٥ مخطوطة تحفة المشتاق في أخبار الحجاز ونجد والعراق : تأليف عبد الله ابن محمد البسام .

٦ سفرناصر : رحلة ناصر خسرو نقلها إلى العربية ، د . يحيي الخشاب ـ نشر دار الكتاب الجديد بيروت لبنان ، الطبعة الثانية عام ١٩٧٠م .

٧ عنوان المجد في تاريخ نجد ، تأليف : عثمان بن بشر ، الطبعة الرابعة . مطبوعات دارة الملك عبد العزيز . الرياض عام ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٨ مدينة حريملاء ، تأليف صالح بن ناصر الطعيس ، الجزء الأول عام ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م

الهوامش

(١) سفر ناصر ١٣٨ ـ ١٣٩ .
(٢) انظر مخطوطة تحفة المشتاق ورقة ١٢ .
(٣) نفس المصدر والورقة .
(٤) نفس المصدر ورقة ١٤ .
(٥) نفس المصدر ورقة ١٥ .
(٦) نفس المصدر ورقة ١٦ .
(٧) نفس المصدر ورقة ١٦ .
(٨) نفس المصدر ورقة ١٧ .
(٩) عنوان المجد ٢ : ٣٣٧ .
(١٠) الأخبار النجدية ص ١٠٠
(١١) عنوان المجد ٢ : ٣٣٩ .
(١٢) انظر الأخبار النجدية ص ٩٥ . والمحمدية والجديدة نوع من العملات .
(١٣) انظر كتابه تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، طبع إشراف الشيخ حمد الجاسر ص ٣٥ .
(١٤) مدينة حريملاء ١ : ١٨ ـ ١٩ .
(١٥) عنوان المجد ٢ : ٣٢٠ — ٣٢١ .
(١٦) عنوان المجد ٢ : ٢٠٦ .
(١٧) انظر سفر ناصر ص ١٣٩ .
(١٨) نفس المصدر ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
(١٩) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٢٠) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٢١) انظر عنوان المجد ٢ : ٣٤٢ ، وانظر تاريخ المنقور ص ٦٤ . حيث قال ووصل الحب أربعة عندنا والتمر عشرين وفي العارض ألف بأحمر

(٢٢) نفس المصدر ٢ : ٣٤٣ وانظر تاريخ الفاخري الأخبار النجدية : ٨٢

(٢٣) عنوان المجد ٢ : ٣٤٣ .

(٢٤) الأخبار النجدية ٩٦ .

(٢٥) نفس المصدر ٩٧ .

(٢٦) تاريخ ابن ربيعة ٩٠

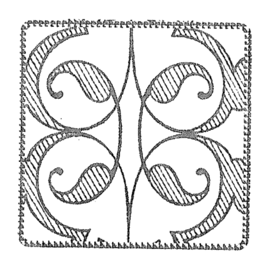
(٢٧) نفس المصدر هامش ص ٩٠ .

(٢٨) تاريخ المنقور ص ٦١ .

(٢٩) حاشية ص ٦١ من نفس المصدر.

(٣٠) الأخبار النجدية ص ٩٦ . وانظر حاشية المحقق .

(٣١) تاريخ المنقور ص ٧٦ .



نحو أطلس لغوي سعودي

د. عبد العزيز بن إبراهيم السويل

تتمتع دراسة جغرافية اللهجات أو ما يعرف بعلم اللغة الجغرافي بتاريخ طويل جداً في كل من أوروبا وأمريكا . وقد ذاع صيت بعض الأطالس اللغوية ذيوعاً يؤهلها لأن تكون نماذج تحتذى في مجالها . وأشهر تلك الأطالس كل من الأطلس الفرنسي والسويسري . ويتبع هذين النموذجين أطالس اللهجات في كل من ألمانيا وإنجلترا واسكندنافيا وبولندا وغيرها .

ولا مندوحة من الإشارة هنا إلى أن العمل في الأطالس اللغوية أو اللهجية عمل متصل لا ينتهي ولا أدل على ذلك مما عبر به المستشرقان الألمانيان ثويدش



وبنشقيت (*انظر دراسات في اللجهات العربية* ١٩٨١م ص ١٤٩) حيث يقولان «*إن العمل في أطلس اللهجات الألمانية لم ينته بعد، ذلك العمل الذي بدأ قبل مائة عام. بل حدث أكثر من هذا أن فكر بعض الناس، بل بدءوا فعلاً في إعداد أطلس جديد تراعى فيه مقتضيات ومتطلبات الأحوال والظروف الجديدة*».

غير أن اللهجات العربية لم تحظ بحظ وافر في مجال الدراسات اللغوية الحديثة، وظلت تتغير من نمط إلى آخر بلا رصد أو دراسة، وأتاح ذلك الجو للمستشرقين القيام بمثل هذه الأبحاث والدراسات في العالم العربي. فقد قام الألماني جوتهلف برجشتراسر بإعداد أطلس اللهجات في سوريا وفلسطين، وتولى الفرنسي كانتينو دراسة اللهجة في منطقة جبال حوران وتدمر في سوريا، وغيرهما كثيرون (انظر المعتوق ١٩٨٦م، وخاصة المقدمة ص ٩، وما بعدها).

ولعل في تأخر دراسة لهجات الجزيرة خيرا، فلم يفتح الباب للأجانب للقيام بذلك بدلاً ممن يتحتم عليه ذلك، وأولئك هم أبناء هذه الأرض ممن يعتزون بتراثها، ويقدرون موروثها الحضاري. وقد عاد بعض هؤلاء من رحلة الدراسة في الغرب مزودين بزاد البحث الحديث من أساليب استقراء ومناهج بحث وتحليل، ويستند هؤلاء ـ إلى ذلك ـ على كنز بحثي جم وتقليد لغوي خالد تمثَّل في دراسة النحويين المسلمين العرب من أجدادنا، ممن وهبوا أنفسهم للدرس النحوي، ووقفوا جهدهم عليه متبعين أساليب ومناهج غاية في الدقة والحصافة لم ينتبه إليها الغرب إلا مؤخرا. وهذان العنصران، التقليد البحثي العريق، والمنهج اللغوي الحديث يمتزجان لِيُوَلِّدا ـ بمشيئة الله ـ نتاجاً علمياً ثرًّا يحفظ للأجيال القادمة مآثر أجدادهم، ومفاخر أمتهم بأسلوب علمي رصين لا مجال للحدس والتخمين فيه.

إن التفكير الجدي والمخلص في إعداد أطلس لهجي متكامل لهذه البلاد

مهمة وطنية تتطلب الاقتناع والجد والإخلاص وبذل الوقت والجهد والمال، على أن يتم ذلك في صروح علمية، وبأساليب أكاديمية مقننة ولسنا نعدم ذلك ولله الحمد. إن إعداد أطلس لهجي لبلد باتساع بلادنا تضم بين جوانحها هذا الكم الكبير من السكان الذين رغم عيشهم في هذا البلد الآمن، وتَفَيُّئِهم ظلاله الوارفة، يتمايزون اجتماعياً وثقافياً تمايزاً قلما تجود به الظروف إلا في البلاد الكبرى، ليس بالسهولة التي يتصورها العامة، ولا أشك أن إهمال هذا الزخم الحضاري مضيعة حضارية يجب ألا نسمح بها، وهدر علمي يقع على عاتقنا تشريحه في معامل جامعاتنا ودرسه أسوة بأجدادنا واقتداءً بهم.

ولا بد أن يسبق ذلك مسح لهجي متكامل، ويتطلب هذا هو الآخر جهداً علمياً وبحثياً هائلاً، ويتمثل هذا الجهد في مظهرين بحثيين مهمين.

أولاً: البحث الميداني، وما يتطلبه ذلك من إعداد وتنفيذ قد يمتد إلى سنوات عديدة، إذا ما توافر له التوجيه العلمي والتخطيط السليم، مدعوماً بالقدرات البشرية والمادية اللازمة.

ثانياً: تحليل النتائج وتقديم التقارير النهائية عنها، ليتم رسم ذلك على شكل خرائط لهجية تكوّن الأطلس المنشود.

وسنفصل فيما يلي هذين المظهرين:

●● أما من حيث المظهر الأول أي البحث الميداني، فيشتمل على عدد من العناصر الهامة، منها ما يلي:

١ - تحديد المناطق الجغرافية السكانية التي تكون منطقة الدراسة وهي هنا المملكة العربية السعودية.

٢ - تحديد أسلوب البحث أو المنهج العلمي الذي يزمع الباحث استخدامه.

٣ ـ اختيار أفراد العينة التي يرى الباحث أنها تمثل سكان المناطق خير تمثيل وتعريف هذه العينة تعريفاً دقيقاً يميزها عن غيرها من الفئات السكانية كتحديد الجنس والسن والمستويات الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية . . . إلخ .

٤ ـ تصميم استبيان لغوي متكامل يمكِّن من رصد أكبر قدر ممكن من المعلومات اللغوية .

٥ ـ تعيين وسيلة الجمع كأن يكتفي الباحث بكتابة المعلومات صوتيًا [١]، أو وصفها بلغة عادية، أو يقوم بتسجيلها على أشرطة ممغنطة تكوّن فيما بعد ما يعرف بالأرشيف الصوتي، الذي يمثل مرجعاً دائماً يمكن لكل من يريد الاطلاع عليه في المستقبل أن يفعل ذلك بلا عناء [٢].

ويمكننا تطبيق هذه العناصر على الأطلس اللهجي السعودي على النحو التالي :

١ـ يمكن تحديد المناطق الجغرافية السكانية تبعاً لتقسيمها الإداري ؛ أي أن تعتبر كل منطقة إدارية منطقة لهجية متميزة (بوصفها مجموعة كبرى) ومع ما في ذلك من تجاوز علمي فإنه يفي بالغرض كخطوة أولى نحو تحقيق التحديد النهائي، ولنأخذ مثلاً لذلك منطقة كمنطقة القصيم. يمكن اعتبار هذه المنطقة الإدارية (إمارة القصيم) منطقة لهجيّة متميّزة. والواقع أن التباين اللهجي ضمن هذه المنطقة محدود ولكن لا مندوحة للباحث من تحديد مناطق هذا التباين ضمن إطار منطقة البحث الكبرى (القصيم) ويكون ذلك بتخصيص دراسات مستقلة للتجمعات السكانية الثلاثة الكبرى في المنطقة وهي بريدة وعنيزة والرس ثم يمكن النظر إلى

التجمعات القروية والهجر وتجمعات الواحات الزراعية على أنها نماذج لهجية تابعة للثلاثة الكبرى، وهكذا يمكن إلحاق المذنب وما يليه من الجنوب حتى السر بلهجة عنيزة ويمكن إلحاق قرى الرس (عطا وعطي والشنانة وغيرها) بلهجة الرس ويمكن إلحاق قرى الجنوب مما يلي بريدة بلهجة الأخيرة مع ما بين بعضها من اختلاف وتبقى بعض التجمعات مما لا يكاد الباحث يجزم بتبعيته لغيره كلهجة عيون الجواء أو لهجة البدائع أو لهجة (أو لهجات) قرى البكيرية والخبراء ورياض الخبراء والهلالية وغيرها. ويلزم إرجاء البت في ذلك إلى الانتهاء من إجراء المسح الميداني.

وهكذا الأمر بالنسبة لغير هذه المنطقة حتى يتم حصر كل مناطق البحث وتحديد تقسيمها الجغرافي وقد يتطلب الأمر مناقشة أهل الجغرافيا والعالمين بأصولها وفروعها وخاصة من يهتم منهم بجغرافية المملكة الطبيعية والسكانية وفي العلماء بجامعاتنا الخير الكثير.

٢ ـ إن من أهم القرارات التي يتحتم على الباحث البت فيها هو الأسلوب الذي سينتهجه في بحثه. ويميِّز علماء اللهجات بين أسلوبين من أساليب جمع المعلومات وهما (انظر فرانسيس ٨٣م):

أ ـ المسح المباشر، ويكون ذلك بأن يقوم الباحث نفسه بالنزول إلى الميدان، ومباشرة العمل، وأن يجري المقابلات مع أفراد العينة بنفسه. ولهذا الأسلوب مميزات متعددة لن نسهب في ذكرها هنا ولكن لا بأس من المرور عليها. وأهم هذه المميزات أن هذا الأسلوب يمكِّن الباحث من السيطرة المباشرة على مجريات الأمور، ومن ذلك مثلاً، التأكد من صلاحية الفرد

الممثل للعينة، ومدى تمثيله للهجة موضوع الدرس، ومنها إتاحة الفرصة للباحث للتأكد من تغطية اللهجة المطلوبة فقط واستبعاد ما لا فائدة من دراسته، بل ربما سبب التشويش وشوّه الدراسة، ومن المميزات المهمة لهذا الأسلوب أن الباحث الذي يقوم بالمسح فيه هو العالم اللغوي الذي يصمِّم الاستبيان، ويحدِّد المناطق مما يعني تناسقاً في العمل وسيطرة تامة على كل مراحل المشروع، الأمر الذي يصعب التحكم فيه لو قام بالبحث أفراد آخرون حتى ولو عملوا بإشراف مباشر، وتوجيه دائم من اللغوي المشرف.

وأخيراً يمتاز هذا الأسلوب في كونه يحول دون الكثير من سلبيات الوسطاء كالوهن والتكاسل والجهل وعدم الحماس، وغير ذلك، ويضمن أكبر قدر من الدراية إذ إنّ من يقوم به يكون محترفاً مؤمناً بما يقوم به صابراً على بلائه متقبلاً برحابة صدر كل ما يمكن أن ينجم عنه من إحراج وضيق. ولكن على الرغم من كل ما تقدم من محاسن يبقى هذا الأسلوب حلما صعب التحقيق، وخاصة إذا كانت منطقة الدراسة واسعة فسيحة كما هي الحال هنا. أما إذا كان التباين على ما هو عليه في المملكة فالأمر يصبح مستحيلاً لا قبل لفرد من البشر عليه. إن اللغوي مهما أوتي من حماس وسعة صدر وتفان يبقى إنساناً محدود الطاقة والجهد والعلم، ويتحتم عليه الاستعانة بغيره من الزملاء والطلاب والمعارف وغيرهم، وهذا ما يعرف بالأسلوب غير المباشر وسنلمح إليه فيما يلي.

ب ـ المسح غير المباشر، ويكون ذلك بأن يعمد اللغوي إلى تكليف عدد من

الأفـراد، بعد إعـدادهم وشحـذ هممهـم واجتذاب حماسهـم للمشروع، بـالقيام بـالعمل بـدلاً منه. ولهذا الأسلـوب كما لسـابقه مميـزات عديـدة جعلت منـه منافسـاً حقيقياً لـلأسلوب المبـاشر. ولعلَّ أهـم محاسن هـذا الأسلوب واقعيتـه، وإمكان تحقيق العمل بمـوجبه. فهو يقـوم على مبدأ التعاون، وإتاحة الفـرصة لجماعة من الناس للقيام بالمسح بـدلاً من تركه لفـرد محدود الموارد. كما أن هذا الأسلـوب يمكِّن مـن جمع كـم هائل مـن المعلـومات اللغـويـة في مدد تبـزُّ ما يصرف في سـابقـه بأضعـاف، وعلى مساحات تفوق الأسلوب المباشر مرات عديدة أيضا. ولا شك أن في ذلك ميزة هامة تجعل منه أسلوباً يجتذب اللغويين ممن يقومون بمسح اللهجات بقصد إعـداد أطالس لهجيـة. ويمتاز هـذا الأسلوب أخيراً، بأنـه يمكِّن اللغوي من تعيين مساعدين (بـاحثين ميدانيين) من أهالي النواحي والمدن والقرى، للقيام بتغطية أمـاكن انتمائهم مما يتيح فرصـة ذهبية للتَّغلغل في المجتمعات وخاصة القروية المغلقة التـي قد يصعب أو يستحيل الدخول فيها من قبل الأجانب.

٣ـ العنصر الثالث الذي يتحتم على اللغوي الالتفـات إليه قبل البدء بالمسح هو تحديـد أفراد العينة، ويتـم ذلك بأن يحدد البـاحث نوع اللهجـة التي يرمـي إلى دراستها، فإن كـان يرمي إلى دراسـة التباين اللهجـي المبني على أسس جغرافية فقـط، فإنه بذلك يبحث عمن يمثـل لهجة إقليم أو تجمع سكاني بعينه، ولكـن الأمر ليس بهذه السهولة. فكلنا نعلـم أن لهجة كل طبقة اجتماعيـة تتميز عـن لهجة غيرها في نفـس التجمع اللغـوي، بل إن لهجات الأفراد تتباين تبعاً لأعمارهـم فنجد لهجة للشيوخ ولهجة للشباب،

ثم إن لهجات الأفراد تتبـاين تبعاً لجنسهم ، ولذلك فنحن غـالباً ما نسمع عن لهجة الـرجال ونميزها بشفافيـة وثقة عن لهجة النسـاء ، بل إن بعض الناس يضحكون أو ينتقـدون من يتكلم بلهجة «الحريـم» مـن الرجال ، ويصمونـه بالتخنث والشَّك في رجـولته . وهكذا فالاهتمام بهذا الأمـر يبدأ عند اللغوي بأن يحدد العينة المطلوبة ، ويُعرِّفها تعريفاً يخصِّصها وينفي ما عداها من كل النواحي ذات العلاقة بالأمر.

٤ ـ ويأتي بعد ذلك تصميم الاستبيان اللغوي ، والهدف من الاستبيان اللغوي هو حفـز أفراد العينـة للتلفظ بجمـل وعبارات وكلمات تكـوِّن لهجتهم ، وتمكِّن البـاحث وغيره من دراستهـا وتحليلها فيما بعـد . ويتم تكويـن هذا الاستبيـان تبعاً للمظهـر أو المظاهـر اللغـوية المطلـوب درسها . ويمكـن تقسيمـه إلى أجـزاء ، يخصص كـل منهـا لـدراسة مظهـر لهجـي معين . فيخصص جزء لدراسة التراكيب اللغوية مثلاً ، ويكون ذلك عادة بطلب رواية قصة ، أو حكاية ، أو طرفـة ، أو مثل سائر ، فيتكلم الفرد بطبيعية ، وبلا تعسف ، ويرصـد قوله ويسجله ثم يقطَّع فيما بعـد ويدرس ويحلَّل . ويخصص جزء آخر للمفردات الشائعـة في منطقة الدراسة ، ويكون ذلك بإلقـاء عدد من الأسئلة على الفـرد ، لحفزه للتلفظ بالمسمَّيـات والصفات والمفردات العامة المستخدمة في لهجتـه للدلالة على أشياء معينة ، ويتم فيما بعد جمع هذه الكلمات وفرزها وتحديـد سماتها ومقارنتها بغيرها . ويخصص جزء ثالـث لأصوات اللهجة المدروسة ، ويكـون ذلك بتحديد المهـم من هذه الأصـوات ، وحفز الفـرد على استخدامها في بيئـات صوتيـة متعددة تمكـن البـاحثين من حصر استخـدامـاتها ، وتعـدد صورهـا ، واستنبـاط القواعد المحدِّدة لتلك الاستخدامات والصور

ويتكون الاستفتاء من أسئلـة عن نواح حياتية متعددة مستنبطـة من حياة

أفراد الجماعة التي تستخدم اللهجة موضوع الدرس، ويتم التركيز على ما يُميِّز تلك الجماعة بالذات وقد لاحظ بعض من قاموا بأعمال المسح أن ذلك يُشعر الأفراد بالفخر والاعتزاز ببيئاتهم، والزهو بمأثورهم مما يساعد في التغلغل إلى داخل نفوسهم، ويسهل الوصول إلى ما في عقولهم بطبيعية وبلا حياء أو تردد.

٥ - ثم تأتي بعد ذلك وسيلة الجمع التي ينتهجها الباحث في التسجيل، فقد يكتفي بعض اللغويين بكتابة ما يقوله الفرد كتابة صوتية، ويكون ذلك في الغالب خاضعًا لظروف أخرى خارجة عن جهد الباحث، وذلك بأن يسيئ سماع لفظة ما فيكتبها خطأً على غير المقصود، وحيث إنَّ كل كلمة تقال تذهب في الهواء ولا يمكن استرجاعها فإن ذلك الرصد قد يكون البداية لتحليل خاطئ لتراكيب وألفاظ اللهجة، كما أن مهارة الباحث في الكتابة الصوتية أو جهله بها يلعب دورًا في تسجيل اللهجة تسجيلاً دقيقاً يُمكِّن من درسها وتحليلها على الوجه المطلوب. وقد كان أسلوب الكتابة الصوتية متبعاً في معظم حالات المسح اللغوي القديمة؛ وذلك لكونه الأسلوب الوحيد المتوافر وقتئذٍ، أما في أيامنا هذه فقد لجأ الباحثون إلى أساليب التسجيل الإلكتروني على أشرطة مسجلة، وهذه تتيح فرصة تكرار المسجَّل مرات عديدة حتى يصل الباحث إلى بغيته. وقد تطورت أساليب التسجيل مؤخراً تطوراً مكَّن العلماء من إعداد نسخ تكاد تفوق اللفظ الإنساني، بل إن هناك أجهزة تنقي الصوت وتركز على المطلوب تركيزاً يجعل من الصعاب السابقة تاريخاً قديماً وبدائياً[٣]. كما أن وجود الأشرطة المسجلة يمكِّن من إقامة ما يطلق عليه علماء المأثور الشعبي

«بالأرشيف الصـوتي» أو الشفهي (٤)، وهذا أشبه ما يكـون بمكتبة تمكن عددًا كبيرًا مـن المهتمين من الاطـلاع عليها، والادلاء بما يـرون حيالها وفي ذلك تطور كبير لم يكن ممكناً من قبل .

أسهبنا فيما تقدم من الحديث عن المظهر البحثي الأول فيما يتعلق بالعمل على إيجاد أطلس لهجـي للمملكة العربيـة السعوديـة، وتطرقنا إلى مـا يجب على من يقـوم بهذا العمل مـن إعداد، وركـزنـا على المظهر البحثـي الأول وهو البحـث الميداني لرصد وتسجيل لهجات المناطـق المختلفة، وسنركز في هذه العجالة على المظهر الثـاني وهو تحليـل نتائج المعلـومات المجمـوعة وتـرجمة تلك النتـائج إلى خرائط على الورق، تسهـل للدارسين تكوين فكـرة عن الوضع اللهجـي بنظرة واحـدة .

نحـن إذاً أمـام خطـوتين رئيستين، وهما تحليـل النتـائج وتمثيلهـا في خـرائط وسنحاول ذلك كما يلي :

أولاً:تحليل النتائج

يمكـن البدء بهذه المرحلـة قبل انتهـاء المرحلـة السابقـة، أي مرحلـة الجمع، وإن كـان الأفضل الانتظار حتـى الانتهاء من جمع المعلـومات . ويشارك في هذه العمليـة أفراد باحثون آخرون ولا يكونـون بالضرورة نفس الباحثين الميدانيين الذين قاموا بجمع المعلومات . فبينما لا تتطلب عملية الجمع إلا قـدراً يسيراً من التدريـب، ويقوم بها الطلبة والأهـالي والمعارف الشخصية للبـاحث الـرئيسي، تعتبر عملية التحليـل عملية فنيـة علمية تخصصية، لا يمكن أن يقوم بها إلا لغويـون محترفون، ولهم باع طويل في

التحليل اللغـوي، ونظريات علـم اللغة واللهجات الحديثـة. ولتحليل نتائج البحـوث الميدانية في علـم اللهجات مظهـران مهمان وهما الاستقراء والمقارنة.

(١) الاستقراء

ويقصـد بالاستقـراء أن تستنبط المعلـومـات المسجلة مـن مصادرهـا الأسـاسيـة، أي بطـاقـات التسجيل أو الأشرطـة المحفـوظـة، بحسـب الأسلوب الـذي تم به الجمـع، ويصار إلى جمع وفهـرسة هذه المعلـومات بحسـب انتمائها. ولنضرب مثـالاً على ذلـك بـأن نبدأ بتحليـل اللهجـة المدروسة من حيث المفردات. يقوم البـاحـث باستقراء المفردات الواردة في إجـابات الأفـراد الـذين تـم اللقاء معهـم، وذلـك بحصر إفاداتهم عـن المسمَّيات والأوصاف والأدوات والآلات المستخدمـة في منطقة لهجتهم، ثم تفهرس هذه المجاميع بناء على الجزء الكلامي الذي تتبعه، فيُصار إلى حصر الأسماء والصفات والظـروف والأفعال والحروف وغير ذلـك، حتى يتكون لدى الباحث قوائم تمثل نماذج لأجزاء الكلام في اللهجة، وتسجل كل هذه المعلومـات على بطاقات منفردة مرتبة بحسـب الألفبائية ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة، وترتب البطاقات في حاويات خاصة كما ترتب مداخل المعجم، أو كما ترتب بطاقات الكتب في المكتبات العامة. وتكرر هـذه العمليـة لكـل مظهـر لهجـي يـرى البـاحـث إدراجـه في البحـث كالأصـوات والتراكيب والدلالات والمقـاطع والجمل والعبـارات وغيرها، وتكون الحصيلة النهـائية كمًّا ضخمًا من المعلومـات المفهرسة والمرتبة تـرتيبًا سهلاً يجعل منها مادة في متناول الباحث لما يلي ذلك من خطوات.

وقد يكتفي بعـض الباحثين بذلك فينتج ما يعـرف في علم اللهجات بالدراسة الوصفية، ويكون ذلك بأن يقدِّم الدارس وصفًا دقيقًا هو عبارة عن سرد لهذه المعلومات أملاً في أن يتم عمل دراسات وصفية مماثلة لعدد من اللهجات، يتم بعدها الانتقال إلى المرحلة الثانية من مراحل التحليل اللغوي وهي دراسات المقارنة. أما من يتوق إلى التوصُّل إلى أطلس لهجي متكامل، ولا يكتفي بـدراسات وصفية متفرقة فلا بـد له من أن يعمد إلى المرحلـة الثانيـة حتى يتمكـن مـن تكويـن صـورة جماعية ويـركب منهـا خارطةأو خرائط لهجية مفصَّلة.

(٢) *المقارنة*

ويقصد بالمقارنـة أن يعقد الباحـث مقارنات بين النتـائج التي توصل إليها خلال عملية الاستقراء، ويتم ذلـك بسرد أوجه التشابه والاختلاف بين السّمات الخاصة بكل مظهر لهجي جرت دراسته لكل الأنماط اللهجية الدَّاخلية في منطقة البحث. وتمثل القوائم الناتجة عن ذلك أوجه التطابق أو التبـاعـد بين اللهجـات. فـالأنماط التـي تشترك بكـل السمات لكـل المظـاهـر اللهجية تكـون لهجـة واحـدة. بينما تتحـدد شقة التبـاعـد بين اللهجات بحسب عدد أوجه الاختلاف، إمـا بتعدد السمـــات المختلفة أو بحجـم ذلـــك الاختـلاف، ولا يمكـن إجــراء عمليـة المقـــارنـة إلا بالاحتساب لها أصلاً عند تصميم الاستبيان اللغوي. إذ على الباحث أن يحرص غـاية الحرص في الحصـول على معلومـات يمكـن أن تتيح عمليـة المقارنـة. فلو اختلفـت الأسئلة بشكـل يجعل الإجـابات مختلفـة إلى حد

يصعب معه إجراء المقارنة ، لاستحالت مقابلة المظاهر اللهجية في نمط ما بما يقابلها في الأنماط الأخرى . وعلى ذلك فالباحث اللغوي الحاذق يجعل عملية المقارنة نصب عينه عند تصميم الاستبيان ، وإن كان ذلك يتم في مرحلة متقدمة من البحث كما أسلفنا .

بهذه يكون قد تكون أمام الباحث صورتان ، الأولى : وصف مفصل لكل نمط لهجي تم مسحه ، والثانية : ما يتميز به كل نمط لهجي عن غيره ، ولم يبق إلا ترجمة ذلك على خرائط جغرافية مفصَّلة .

ثانياً : تكوين الأطلس اللهجي

بعد أن يتوافر للباحث اللغوي وصف مفصل لكل نمط لهجي ، يمكن الشروع بترجمة ذلك في خرائط جغرافية ويمكن أن يتم ذلك على مرحلتين ، الأولى : تصنيف دقيق للسمات المميزة لكل نمط لهجي وتخصيص رمز لكل منها لتمثيلها على الخارطة ، والثانية : العناية بتحديد مناطق الحدود اللهجية بين نمط وآخر ، أو ما يعرف في مجال الدراسات اللهجية بالأيسوكلوس (Isogloss)[٥] وسنفصل ذلك بعد قليل .

وقبل الخوض في تفاصيل كل من هاتين المرحلتين ، أرى أن أنبه أن على اللغوي (عالم اللهجات) أن ينسق مع جغرافي يتقن رسم الخرائط ، ويُفضَّل من له إلمام بمنطقة البحث اللغوي أو متخصص بها . والتنسيق مع الجغرافي لا ينتهي برسم الخرائط وتحديد معالم المنطقة جغرافيا . بل له أهمية خاصة تتبلور في العمل جنباً إلى جنب مع اللغوي عند تفريغ المعلومات اللغوية على الخرائط« الخام» ؛ أي الخالية من أية معلومات .

والسبب طبعـاً هو جهل اللغوي بهذه العمليـة المتخصصة بالمقارنـة بعالم الجغرافيا الذي لا بد وأن يكون على اطلاع على الأساليب المتبعة في تفريغ المعلومـات على الخرائط، إذ لا فرق بين المعلـومات اللغـوية وغيرهـا من المعلومات الجغرافيـة الأخرى كالزراعية والاجتماعية والعـرقية والاقتصادية وغيرها مما يمكن تمثيله بخرائط جغرافية.

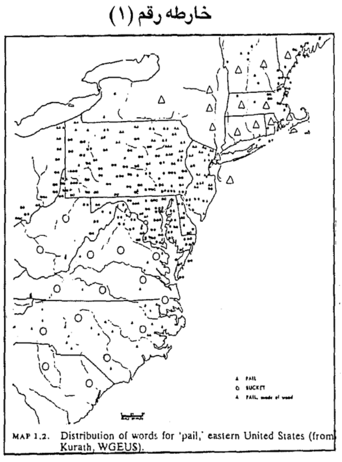
ومن الواضح هنـا أننا أمام نوعين من الخرائط اللهجية، ممـا يدعو إلى إتمام العمـل على المرحلتين السـابـق ذكـرهما، النـوع الأول: هـو الخرائط الخاصة بـالتوزيـع الجغرافي لنمـط لهجي معين. وهـذا النوع يحتـوي على السمات المميزة لكل نمـط لهجي على حدة. فإذا كان الهدف هـو توضيح التوزيع الجغرافي لظاهرة الكسكسة في لهجـات الجزيرة العربية مثلاً، فإن الخارطة تخصـص لهذا الغرض فقط. ولهذا أهميـة خاصـة إذ إن تخصيص خارطة مستقلـة لظاهرة واحدة مما يـوضح التوزيع الجغـرافي لهذه الظاهرة بالـذات ويركـز عليه. كما أن مـن شأن ذلـك أن يساعـد على فهم هـذه الظاهرة بالذات بمعزل عن غيرها من الظواهر. وهذا النوع يأتي في الغالب قبل غيره.. ولعل في ذلك إشارة من علماء اللهجات إلى أهميته من جهة وصعـوبة التـوصل إلى تـوزيع صحيـح وحقيقـي على أساسـه من جهـة أخرى.

وتخصيص خـارطة مستقلـة لكل مظهـر لهجي أو سمـة لهجية مميـزة لنمط لهجي مـا يعني تخصيص عدد مـن الخرائط يعادل عدد السمات أو المظاهر اللهجية المميزة لذلـك النمط. ويمكن أن يكون ذلك عددًا كبيرًا من الخرائط مما قـد يستوجب تخصيص فصـل كامل بل ربما تطلـب الأمر

تخصيص مجلد خاص لكل نمط لهجي لتمثيل كل سماته المميزة له عن سائر الأنماط الأخرى. وسيلاحظ اللغوي في المحصلة النهائية للتمثيل الجغرافي أن كل السمات المميزة لنمط لهجي معين تتركز في جهة معينة من الخارطة هي بالطبع الجهة التي يحتلها متكلّمو ذلك النمط بعينه. ولكن أحد المظاهر قد يمتد إلى مساحات أخرى غير منطقة هذا النمط، وذلك عندما يكون ذلك المظهر مشتركاً لأكثر من نمط لهجي. إذ إن هذا النوع من الخرائط مخصص للسمات وليس للأنماط اللهجية نفسها. والمفترض أن يستنتج اللغوي انتماء ما ينتمي منها لنمط لهجي ما بعد تمثيلها على الخارطة. واتفاق أكثر من سمة أو مظهر على الظهور بشكل متكرر في نفس المكان يعني أنها كلها تميز ذلك النمط اللهجي بالذات. كما أن امتداد بعضها إلى غير ذلك المكان يعني اشتراك أنماط لهجية أخرى بها مع ذلك النمط. وتمثل الخارطة رقم (١) هذا النوع، وهي توضح التوزيع الجغرافي للمفردات المستخدمة للدلالة على إناء نقل الماء "Pail" ويمكن ترجمتها بـ (سطل). وتغطي هذه الخارطة الولايات الشرقية من أمريكا (مأخوذة عن كتاب كوراث «جغرافية المفردات في شرقي الولايات المتحدة» وهي هنا نقلاً عن فرانسيس ١٩٨٣م.

أما النوع الثاني من الخرائط اللغوية (اللهجية) فيخصص لتمثيل الأنماط اللهجية التي تغطي تلك البقعة. فإذا أردنا أن نوضح التوزيع الجغرافي للهجات المملكة العربية السعودية مثلا فإن الخارطة تكون وعاءً لسمات تلك اللهجات جميعها في آن واحد. ولا يقل هذا النوع من الخرائط اللغوية أهمية عن سابقه.

خارطه رقم (١)



MAP 1.2. Distribution of words for 'pail,' eastern United States (from Kurath, WGEUS).

توزيع المفردات الدالة على (سطل) في شرقي الولايات المتحدة
(كوراث «جغرافية المفردات في شرق الولايات المتحدة)

وأهم ما فيه أنه يعطي فكرة شاملة عن الوضع اللهجي في منطقة الدراسة بنظرة واحدة. وهو في العادة يأتي بعد النوع الأول في الترتيب. ولذلك أهمية خاصة. إذ إن القارئ يحظى بنظرة شاملة بعد أن يستوعب الخرائط المفصلة المستقلة. ولكن أهميته الحقيقية تأتي في كونه المصدر الوحيد المضمون لإجراء المقارنة بين كل الأنماط اللهجية المنتشرة في منطقة البحث. ويكون مقاس الرسم في هذا النوع من الخرائط كبيراً نظرا لكثرة التفاصيل التي تحتاج إلى مساحات يمكن تمثيلها على

على الخارطـة بلا ضيـق . وقـد يلجأ بعـض اللغـويين إلى تقسيم منطقـة البحث الكبرى إلى منـاطق أصغـر ليتمكنوا مـن ذلك . فيخصـص مثلاً خـرائط للمناطـق الإدارية كنجـد والحجـاز والمنطقة الشرقيـة والجنوبيـة (عسير) والشمالية . . . وهكذا . ولكن لا بد مـن جمع ذلك كله في خارطة واحـدة كبيرة وهو مـا يمكن أن يطلـق عليه «الجغـرافيا اللغـوية» لمنطقـة الدراسة .

وهكـذا نرى أن هـذا النوع مـن الخرائط مخصـص للأنماط اللهجيـة وليس للسمات اللغوية التي تميزها وذلك بخلاف النوع السابق .

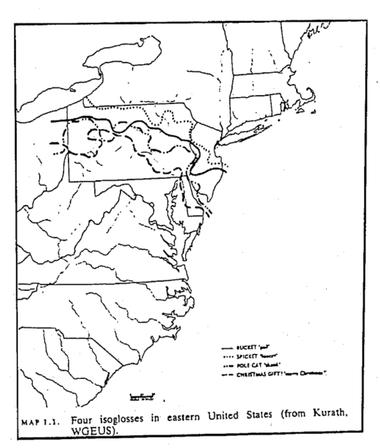
ويَرْتَبِـطُ بهذا النوع مـن الخرائط عنصر مهم جـداً في دراسة جغـرافيا اللهجـات . وذلـك هـو منطقـة الحدود الفـاصلـة بين الأنماط اللهجيـة المختلفة . فـاللغة ــ كغيرهـا من الأنشطة الإنسـانية ــ ليسـت لها حدود واضحة ودقيقة ، كما هو الحال في الحدود السيـاسية بين الدول المتجاورة ، بل قد تمتد المنطقة الحدوديـة بين نمطين لهجيين على منطقة من الأرض قد تفـوق مساحـة أحد النمطين أو كـلا منهما . إذ لا يمكن أن يتصـور المرء نفسه وقـد تخطى حـداً وهمياً يتوقـف الناس عنده عـن الكلام بلهجـة ما ليبدءوا باستخـدام لهجة أخرى . والذي يحدث في الواقـع أن التحول يتم بتدرج بطـيء لا يكاد يلحظـه المرء . فتبدأ سمات نمـط لهجي بـالتلاشي تـدريجيا حتـى تكاد تختفـي تماماً . وتبـدأ في نفس الـوقت تتضـح سمات النمط اللهجـي المجاور حتى تستقـل تماماً مبنية عـن هوية ذلـك النمط بالذات . وينشأ عن هذا التدرج (التلاشي ثم الوضوح) نمط لهجي ثالث هو منطقة الحدود أو الايسوكلوس (Isogloss) وتكون سمات هـذا النمط

هجيناً مـن سمات النمطين ويكون ذلك على وجهين، إمـا بشيوع سمات مشتركة مـن النمطين الرئيسين. فـإذا كانـت منطقة الحدود اللهجيـة بين نمط كسكسـة (قلب الكـاف إلى صوت مـزدوج من التـاء والسين كما في لهجة نجـد) ونمط كشكشـة (قلب الكـاف إلى صوت مـزدوج من التـاء والشين كما في لهجات الخليـج والعراق) فـإن النمط الحدودي (الثـالث) يحتوي على المظهـرين أي الكسكسة والكشكشـة جنباً إلى جنـب، فنجد بعـض النـاس «يكسكسون» وبعضهـم «يكشكشـون» أو تجد أن نفـس الأفراد يستخـدمون كلتا الظـاهرتين في كلامهم بـلا تمييز. والوجـه الثاني لشيوع سمات النمطين اللهجيين المتجـاورين في منطقة الحدود هـو نشوء ظاهرة ثـالثة تكون وسطًا بين الظـاهرتين الشائعتين في النمطين اللهجيين الرئيسين. ومثـال ذلك ما لاحظته في لهجـة «الزلفي» فيما يتعلـق بتركيب حرف الجر مـع الضمير (بِهْ) وتنطـق بكسر الباء وتسكين الهاء المهملـة، وهذا وسط بين لهجـات جنوب نجد كلهجة سدير حيـث يشيع التركيب (فيه) وبين لهجات شمال نجد كلهجة القصيـم حيث يشيع التركيب (بُهْ) وتنطق بضـم البـاء وإهمال الهاء الساكنة. وينطبق ذلـك على التركيب من حرف الجر واسم الإشارة فيقولون في الزلفي (بذا) بكسر خفيف مبتور بعد صوت الذال، ومن الواضح أن هذا وسـط بين (فيذا) كمـا هي في سدير و(بذا) بفتح كامل بعد الذال كما في القصيم.

وترسـم منطقة الحدود اللهجية عـادة على شكل خطوط تمثـل حدود انتشار الظـواهر اللغويـة الشائعة في كـل من النمطين المتجاوريـن ويتم

تركيب عدد من الخطوط تمثل عدد الظواهر ذات العلاقة حتى يتم تكوين «حزمة» (bundle) مـن الخطوط تـوضح حـدود كل الظـواهر اللهجيـة الشائعة في النمطين وتمثل الخارطة رقم (٢) هـذا النوع ، وهي توضح أربع مناطق لهجيـة في شرقي الولايات المتحـدة الأمريكية (مأخـوذة عن كتاب كوراث «جغـرافية المفـردات في شرقي الـولايات المتحـدة» وهي نقـلاً عن فرانسيس ١٩٨٣)

خارطة رقم (٢)



MAP 1.1. Four isoglosses in eastern United States (from Kurath, WGEUS).

أربعة حدود لهجية في شرقي الولايات المتحدة

(كوراث «جغرافية المفردات في شرقي الولايات المتحدة»)

وبعد فهذا اقتراح مختصر لأطلس لهجي سعودي وقد يَتَسَاءَلُ القارئ الكريم عن جدوى كل هذا العناء، ولن أسهب في هذا بل سأحاول تقديم أطر للإجابة على شكل نقاط مختصرة:

أولاً:

لا شك بالعلاقة الوطيدة بين لهجات العربية الفصحى القديمة ولهجاتها المعاصرة. والكشف عن اللهجات المعاصرة وربطها بمواقع جغرافية قد يساعد على معرفة علاقتها باللهجات القديمة التي كان يستخدمها أناس يقطنون نفس المواقع. وقد تكون هذه هي الحلقة المفقودة في سبيل إعادة بناء (Reconstructing) تلك اللهجات ولهجات المملكة العربية السعودية خاصة والجزيرة العربية بشكل عام هي المرشح الأجدر، والذي يعول عليه في هذا القصد[٦].

ثانياً:

تهتم الدول المتحضرة بتحديد ما يسمى «بالسياسة اللغوية» وتهدف هذه الدول من ذلك إلى وضع خطط حكومية للتدريب على اللغة واستخدامها. فلا سبيل للإبداع إذا افتقر الإنسان إلى وسيلة الاتصال الضرورية وهي اللغة. والكل يعلم أن اللغة المتعلّمة لا تنافس اللغة المكتسبة طبيعياً في القدرة على الاتصال. وهكذا فإلمام المخططين اللغويين بالقدرات اللهجية للمجتمع تمكنهم من وضع الخطط لتعليم اللغة القومية وهي الفصحى. ومن أهم الأمور التي يجب أن تشغل بال أولئك

المخططين هي مسألة الازدواج اللغوي أو وجود مستويين من اللغة وهما العامي والفصيح ومناقشة إمكانية تقريب كل منهما للآخر وخاصة رفع العامي إلى مستوى الفصيح ولن يتسنى ذلك بدون فهمه ووضوحه في أذهانهم، وأظن من يدرس العامي بعمق كافٍ سيفاجأ بقربه الشديد أصلاً للفصيح وأن الأمر لا يتطلب أكثر من نفض غبار اللحن عنه (٧).

ثالثاً: إن للتراث الشعبي أهمية خاصة عند كل أمم الأرض. ولا يجوز بأي شكل من الأشكال إهمال جزء من حضارتنا، ومرحلة مهمة من تاريخ بلادنا. وهي في الواقع أشد تلك المراحل تعرضاً لخطر الاندثار والزوال التام. فالجهل الذي ساد فيها وفقدان الكتابة والفقر والعوز اللذان كانا صبغتها الرئيسية كلها أمور تساعد على ذلك. ولا يمكن أن نحفظ هذا التراث بلا حفظ اللغة في مجتمعه. الوقت إذاً يسير سريعاً وإن لم نتدارك ما في ذاكرة كبار السن بيننا قد نعدم الوسيلة إلى الأبد (٨).

رابعاً:

إن لم ننبر لدرس تراثنا بأنفسنا فسيقوم عليه أقوام آخرون ممن اعتادوا على أن يتخذوا من العالم النامي ميادين لأبحاثهم ومعامل لتجاربهم باسم علم الإنسان ودراسة الفلكلور وغير ذلك. وهم غالباً ما يشوهون ما يجدون إما بجهل أو بسوء نية. أو بتطبيق نظريات إلحادية منافية لديننا وأعرافنا وتقاليدنا. وهي وإن لم تكن كذلك في مجتمعاتهم فهي على الأقل أحياناً ليست الإطار الفكري المناسب لإدراك حضارتنا وفهم تراثنا.

خامسًا :

تُعَدُّ اللغة من أهم المؤشرات التي تستخدم لفهم الشخصية الفردية والتركيب الاجتماعي التي تعتمدها بوصفها وسيلة للاتصال الشفهي. ونحن نعني هنا اللغة الشفهية التي يتكلمها الأفراد بسليقة وطبيعية. ولا غرو فهي حقا مفتاح تلك الشخصية، وربما كانت المفتاح الوحيد لها ولا سبيل للتخطيط المدروس والمبرمج وخاصة في النواحي التعليمية بلا تغلغل في أعماق شخصية الفرد، ناهيك عن التركيبة الاجتماعية للجماعة. إذًا فوجود مرجع لهجي مفصل للهجات مناطق البلاد يسهل على المختصين من مصممي خطط التنمية المختلفة عملهم ويزودهم بالخلفية الاجتماعية المطلوبة للوصول إلى أفضل المقترحات في هذا الشأن(٩).

سادسًا :

لعل القارئ يلمس طرافة البحث اللغوي وخاصة في مجال اللهجات ولقد كانت لي تجارب في الميدان مع أناس كبار في السن تعقد الفرحة ألسنتهم عندما يجدون أحداً من الجيل الجديد يبدي اهتماماً بلهجاتهم وموروثهم الحضاري من ألعاب شعبية وحكم وأمثال وأقوال وغيرها. ولنا في علماء اللغة المُسْلمين أسوة في حماسهم للدراسات الشعبية واحتفائهم بها، ولعل نظرة إلى كتب الجاحظ مثلا تغري بالولوج إلى هذا الميدان واقتفاء أثره.

الهوامش

(١) لا بد أن يسبق ذلك الاتفاق على ألفبائية صوتية عربية. انظر في ذلك المحاولة التي نشرتها عام ٨٦م «السويل، ١٩٨٦م».

(٢) لتفصيل ذلك انظر بحث السويل «لهجات وسط الجزيرة العربية؛ النظرية والمنهج: دراسة حالة» مجلة المأثورات الشعبية، السنة الأولى، العدد الثالث يوليو ١٩٨٦م.

(٣) انظر Francis (1983)

(٤) انظر الصويان (١٩٨٥م).

(٥) انظر Francis 1985 وغيره كثير من الكتب والأبحاث التي تعنى بعلم اللهجات.

(٦) يشيع في أدبيات اللغويات العربية كثير من الأمثلة التي تثبت هذه العلاقة بما لا يدع مجالاً للشك. انظر مثلاً أبحاث الدكتور رمضان عبد التواب ومنها عبد التواب (١٩٨١) وغيرها.

(٧) انظر مثلاً بحث المستشرقة الأمريكية مس آن رويال (١٩٨١م).

(٨) انظر بحث الدكتور سعد الصويان (١٩٨٥م).

(٩) انظر في ذلك كتاب "Introduction to Linguistic" لمؤلفه crane وآخرين (١٩٨٣) وكذلك بحث الدكتور أحمد سيد محمد (١٩٨١م).

المراجع العربية

١ ثويدش مانفريد وبيتر بينشتيت (١٩٨١م) «الأطلس اللغوي المصري وملاحظات حول لهجات مصر» في كتاب دراسات في اللهجات العربية، كلية الآداب بسوهاج ص ص ١٤٩ ـ ٢١٧.

٢ رويال، مس آن (١٩٨١م) «علم اللغة والسياسة اللغوية في مصر» في كتاب دراسات في اللهجات العربية، كلية الآداب بسوهاج ص ص ١٨٥ ـ ٢٤٠.

٣ السويل، عبدالعزيز (١٩٨٦م) «نحو ألفبائية صوتية عربية موحدة اقتراح لعلماء

الصوتيات العرب» مجلـة كلية الآداب بجامعة الملك سعود المجلـد الثالث عشر ، العدد الأول ص ص ٢٢٧ ــ ٢٦٥ .

السويل ، عبدالعـزيز (١٩٨٦) «لهجات وسط الجزيرة العربيـة ، النظرية والمنهج : دراسة حالة «مجلة المأثورات الشعبية السنة الأولى العدد الثالث . الدوحة . قطر

٤ الصويان ، سعد (١٩٨٥ م) «جمع المأثورات الشفهيـة» مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطر .

٥ عبد التواب ، رمضـان (١٩٨١ م) «عن امتداد اللهجات العربية القـديمة في بعض اللهجات المعاصرة» في كتـاب دراسات اللهجات العربية ، كليـة الآداب بسوهاج ص ص ١٧ ــ ٤٠ .

٦ محمد ، أحمد سيد (١٩٨١ م) «اللهجة العامية ودورها في الكشف عن الشخصية من خـلال الأمثـال الشعبيـة» في كتـاب دراسات في اللهجـة العـربيـة ، كليـة الآداب بسوهاج ص ص ٨٤ ــ ١٠٨ .

٧ المعتـوق ، شريفة (١٩٨٦ م) «لهجـة العجمان في الكويـت ، دراسـة لغويـة» مركـز التراث الشعبي لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطر .

المراجع الأجنبية

1 - Crane, B. et al (1981) "An Introduction to Linguistics" Little, Brown and Co. Boston.

2 - Francis, W. (1983) "Dialactology: An Introduction" Longman London.

3 - Kurath, H. (1949) "A Word Geography of the Eastern United States" Ann Arbor; University of Michigan Press.

تنبيهات على بعض سنوات الوفيات في كتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني «تقريب التهذيب»

د. شاكر ذيب فياض



فيعتبر كتاب تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - من أهم كتب الرجال وأكثرها فائدة ونفعا، وذلك تبع لجلالة قدر مؤلفه، وسعة علمه، وعلو منزلته، ورسوخ قدمه في علوم الحديث جميعا، ومنها علم الرجال والجرح والتعديل. وتبع أيضا لكونه مختصرا غير مطول، مما يوفر على الباحثين عناء الترجيح بين أقوال العلماء في الرواة، وهو أمر لا يكاد يتقنه، إلا الخاصة.

وكان من اهتمامات الحافظ في هذا الكتاب ، **ذكر طبقات الرواة :**

استغناء عن ذكر الشيوخ والتلاميذ . إذ الطبقة عنده تعرف بعصر الراوي وتقوم مقام ذكر شيوخه والرواة عنه [١] ، واستغناء عن ذكر لفظ المائة أو المائتين حين يبين سنوات الوفيات . قال الحافظ [٢] : (وذكرت وفاة من عرفت سنة وفاته منهم ، فإن كان من الأولى والثانية فهم قبل المائة ، وإن كان من الثالثة إلى آخر الثامنة فهم بعد المائة ، وإن كان من التاسعة إلى آخر الطبقات فهم بعد المائتين . ومن ندر عن ذلك بينته) .

وهذا يعني أن الحافظ ـ رحمه الله ـ يكتفي بذكر العدد الأحادي والعشرين في سنة الوفاة إلى جانب ذكر طبقة الراوي ليدلل إن كانت سنة الوفاة قبل المائة ، أو بعدها أو بعد المائتين .

يقول في ترجمة أسامة بن زيد بن حارثة [٣] :

صحابي مشهور مات سنة أربع وخمسين .

ويقول في ترجمة الأسود بن يزيد بن قيس النخعي [٤] :

من الثانية ، مات سنة أربع أو خمس وسبعين .

ويقول في ترجمة أبان بن صالح بن عمير [٥] :

من الخامسة ، مات سنة بضع عشرة وهو ابن خمس وخمسين .

ويقول في ترجمة أبان بن تغلب الكوفي [٦] :

من السابعة ، مات سنة أربعين .

ويقول في ترجمة أحمد بن إبراهيم بن خالد [٧] :

من العاشرة ، مات سنة ست وثلاثين .

ويقول في ترجمة أحمد بن إبراهيم بن فيل [٨]:

من الثانية عشرة، مات سنة أربع وثمانين.

ففي هذه الأمثلة جميعا لا يذكر لفظ المائة أو المائتين مكتفيا بدلالة الطبقة عليها.

وهكذا يفعل في عامة تراجم الكتاب التي يذكر فيها سنوات الوفيات: من كان من الصحابة (وطبقتهم هي الطبقة الأولى) أو من الطبقة الثانية فهم دون المائة ومن كان من الثالثة إلى آخر الثامنة فهم من بعد المائة، ولا يذكر الحافظ ـ غالبا ـ لفظ المائة في سنوات وفياتهم. ومن كان من التاسعة إلى آخر الطبقات فهم بعد المائتين ولا يذكر الحافظ ـ في الغالب أيضا ـ لفظ المائتين.

وقول الحافظ (ومن ندر عن ذلك بينته) يُشعر بوجود رواة تخالف طبقاتهم سنوات وفياتهم منهجه الذي سار عليه وقاعدته التي ذكرها. ولذا شرط على نفسه أن يبينهم وينبه عليهم.

وقد كان بيانه ـ رحمه الله ـ بصور متنوعة:

١ ـ منها التصريح بذكر لفظ المائة أو المائتين. كأن يكون الرجل من الطبقة الأولى، أو الثانية وتأخرت وفاته إلى ما بعد المائة كما في ترجمة الصحابي عامر بن واثلة، رضي الله عنه ـ حيث قال الحافظ [٩]: (مات سنة عشر ومائة، وهو آخر من مات من الصحابة).

وكما في ترجمة يزيد بن عبد الله بن الشخير [١٠] حيث قال الحافظ: (من الثانية، مات سنة إحدى عشرة ومائة)

ففي هاتين الحالتين لا يكفي ذكر الطبقة للدلالة على سنة الوفاة بدقة لذا يبين الحافظ ـ كما شرط ـ ويصرح بذكر المائة.

ومثل ذلـك أن يكون الـراوي من الطبقـة السابعـة ، أو الثامنـة ويتوفى بعـد المائتين كما في ترجمة معمر بـن المثنى[١١]، حيث قال الحافظ : (مـن السابعة ، مات سنة ثمان ومائتين) .

وهنا يبين الحافظ أيضا سنة الوفاة بذكر المائتين لأن الطبقة لم تدل عليها .

وقد تتقدم سنة وفاة الـراوي مع كونه من طبقة متأخـرة مثل أن يكون الراوي من الطبقـة الثالثة أو الـرابعة أو الخامسة وتكـون سنة وفاتـه دون المائة أو يكون الراوي من الطبقة التاسعة أو العاشرة وتكـون سنة وفاته دون المائتين فلا يتحقق ما ذكره الحافظ مـن منهجه أن من كان من التاسعة إلى آخـر الطبقات فهم بعد المائتين وحينئذ قد يـوقع ذلك في اللبس والإشكـال لذا قال الحافظ : ومـن ندر عن ذلك بينته .

مثال ذلك قـوله في تـرجمة سعيد بـن مرجـانة[١٢]: (مـات قبل المائة بثـلاث سنين ، من الثالثة) .

وقوله في ترجمة سعيد بن خيثم[١٣]: (من التاسعة ، مات سنة ثمانين ومائة) .

وقوله في ترجمة معـن بن عيسـى : (من كبـار العاشرة ، مـات ثمان وتسعين ومـائة) . فلو قـال في ترجمة سعيـد بن مـرجانـة مات سنـة سبع وتسعين ، مـن الثالثة) لتبادر للـذهن أن ذلك بعد المائة لما تقدم من قوله (وان كـان من الثالثة إلى آخر الثامنة فهـم بعد المائة) . لذا كان لا بد من البيـان كما شرط بقوله (ومن ندر عن ذلك بينته) فبينه بذكر الوفاة قبل المائة .

وكذلك فعل في ترجمة سعيد بـن خيثم (من التاسعة) ومعن بـن عيسى (من العاشرة) . فلو أنه لم يصرح بذلك المائة في سنتـي وفاتيهما لتبادر إلى الذهن أنهما توفيا بعد المائتين لما تقدم من قوله (ومن كان من التاسعة إلى آخر الطبقات فهم بعد المائتين) . لذا كان بيانه بالتصريح أن الوفاة قبل المائتين .

٢ ـ ومنها أن يصرح الحافظ أن سنة الوفاة بعد الثلاثمائة، لعدم دلالة الطبقة عليها، لما تقدم من قوله: (وإن كان من التاسعة إلى آخر الطبقات فهم بعد المائتين).

ففي ترجمة عباس بن الفضل بن زكريا الهروي[١٤] يذكر الحافظ أنه من الثانية عشرة بل من التي بعدها وأنه مات سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

وفي ترجمة علي بن حسين بن حرب[١٥] يقول (من الثانية عشرة، مات سنة تسع عشرة وثلاثمائة). فلو ترك الحافظ ذكر الثلاثمائة في الترجمتين المذكورتين لتبادر إلى الذهن أن سنتي وفاتيهما بعد المائتين لا بعد الثلاثمائة لما تقدم من قوله (وإن كان من التاسعة إلى آخر الطبقات فهم بعد المائتين). لذا بين الحافظ ذلك بتصريحه أن الوفاة بعد ثلاثمائة والتزم بشرطه (ومن ندر عن ذلك بينته).

٣ ـ ومن صور البيان عند الحافظ أن يذكر أكثر من قول في سنة وفاة الراوي، ويكون في أحدها ـ وإن كان مرجوحا ـ الدلالة الواضحة على تحديد سنة الوفاة بدقة.

ففي ترجمة ابن المليح بن أسامة بن عمير يقول الحافظ[١٦]: (من الثالثة مات سنة ثمان وتسعين وقيل ثمان ومائة، وقيل بعد ذلك). فذكر القول الثاني في سنة الوفاة ـ وإن كان بصيغة التعريض ـ وجه من وجوه البيان عند الحافظ يرحمه الله.

٤ ـ وقد يكون بيان الحافظ لمن يندر عن قاعدته ـ بذكر حدث تاريخي معروف يوضح سنة الوفاة بدقة إن كانت قبل أو بعد المائة أو المائتين.

كما في ترجمة عبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق[١٧] حيث يقول الحافظ: (من الثالثة قتل بالحرة سنة ثلاث وستين).

وكما في ترجمة عقبة بن وساج الأزدي[١٨] حيث يقول الحافظ: (من الثالثة، قتل بعد الثمانين بالزاوية أو بالجماجم).

أو كما في ترجمة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان(١٩) حيث يقول الحافظ: (ولي الخلافة سنة ستين ومات سنة أربع ولم يكمل الأربعين من الثالثة).

فالحرة أو الزاوية أو الجماجم أو خلافة يزيد وهو أموي (ومعروف أن الدولة الأموية لم تمتد إلى سنة ستين ومائة) أحداث وقعت دون المائة يعرفها كثير من الناس.

فلو أن الحافظ رحمه الله لم يذكر الحرة أو الزاوية أو الجماجم أو كون يزيد من خلفاء بني أمية لتبادر إلى الذهن أن سنوات من ذكروا جميعا كانت بعد المائة لأنهم جميعا من الطبقة الثالثة وقد ذكر الحافظ أن من كان من الثالثة إلى آخر الثامنة فهم بعد المائة. لذا التزم الحافظ بشرطه وبين أن سنوات وفيات هؤلاء دون المائة وذلك بذكر حدث تاريخ مشهور أنه دون المائة.

وبمثل ما تقدم يبين الحافظ عددا كبيرا ممن ندروا عن قاعدته ولم تنطبق عليهم. غير أن هناك عددا من الرواة فات الحافظ بيانهم فلم يتعرض لتحديد سنوات وفياتهم بأي من الصور المتقدمة ولم ينبه عليهم، ولا بد أن يكون له عذره يرحمه الله.

وعدم بيان هؤلاء قد يوقع بعض طلبة العلم أو المتسرعين من الباحثين في الخطأ والزلل، لذا حرصت على جمع هؤلاء الرواة في هذا البحث مع بيان سنوات وفياتهم دون اختصار، رغبة في خدمة هذا الكتاب الجليل.

ولست بهذا أدعي فهما لم يدركه الحافظ ـ يرحمه الله ـ أو معرفة يعجز عنها، معاذ الله أن يخطر هذا على البال فإن للحافظ منزلة ـ في هذا الفن ـ لم يصل إليها بعد أحد ممن جاء بعده. كما لا أدعي أنه معصوم ـ يرحمه الله ـ من الخطأ والزلل والنسيان، ومن يشتغل بالكثير ويتقنه فلا بد أن يفوته النزر اليسير، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وقبل سرد أسماء هؤلاء والاستدلال على سنوات وفياتهم الصحيحة أود بيان أربعة أمور اتبعتها في هذا البحث هي :

أولا: أن الحافظ قد يذكر أكثر من سنة في وفاة الراوي . وليس غرضي التحقيق في صحتها أو ترجيح سنة على أخرى . وإنما غرضي بيان ما فات الحافظ من ذكر لفظ «المائة» أو «المائتين» .

ثانيا : وقد يذكر الحافظ سنة واحدة في وفاة الراوي ، ويذكر غيره سنوات أخرى . فأحرص في هذه الحالة على ذكر المصدر الذي اعتمده . وأعرض عن ذكر الأقوال الأخرى في سنة الوفاة .

ثالثا : تذكر أغلب المراجع سنوات الوفيات بلا اختصار. ومنهجي في هذا البحث أن أذكر بعض هذه المراجع لا أستقصي رغبة عن الإطالة . وأرجو أن يفي ما أذكره بالمقصود .

رابعا : إن عددا غير قليل ذكرت سنوات وفياتهم دون المائة وهم من الطبقة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة ، والتصرف العادي أن تذكر السنوات دون اختصار لكن ذكر الطبقة مشعر ـ للوهلة الأولى المتسرعة ـ أن ذلك بعد المائة . لذا رأيت أن أذكرهم في هذا البحث وأن أذكر سنوات وفياتهم في المصادر الأخرى خالية من ذكر المائة وعندي أن هذا من البيان المطلوب . والله أعلم .

خامسا : تقدم في البند رقم (٤) من صور بيان الحافظ لمن ندروا عن قاعدته أنه يذكر معلومات تاريخية معروفة ليدل إن كانت سنة وفاة الراوي دون المائة أو بعدها ، ولكن لما كان احتمال عدم الانتباه لهذه المعلومات التاريخية وعدم معرفتها من قبل بعض طلبة العلم فقد عمدت إلى ذكرهم ضمن هذا البحث .

سادسا : سأبين ـ إن شاء الله ـ في التراجم الخمسة الأولى فقط من الرواة

المقصودين بالبحث كيف فات الحافظ بيانهم وكيف أنه ـ رحمه الله ـ نسي شرطه الذي ألزم نفسه به، وما يمكن أن يترتب عليه من اللبس والإشكال. وأرجو أن يقاس باقي التراجم عليها، فإن حالاتهم متشابهة، والأمر لا يحتاج إلى التكرار والإطالة.

سابعاً: اختصرت أسماء بعض المراجع على النحو التالي:

التذكرة	أريد به	تذكرة الحفاظ
التقريب	أريد به	تقريب التهذيب
التهذيب	أريد به	تهذيب تهذيب الكمال
الخلاصة	أريد به	خلاصة تذهيب تهذيب الكمال

هذا وقد سميته تنبيهات على بعض سنوات الوفيات في كتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني «تقريب التهذيب».

وبعد فأرجو أن أكون قد وفقت فيما أردت، وأن يكون ذلك في سبيل الله. والحمد لله رب العالمين.

والرواة المقصودون في هذا البحث هم:

١ ـ **إبراهيم بن يزيد بن شريك التميمي**: من الخامسة مات سنة اثنتين وتسعين. وله أربعون سنة. (التقريب ٩٥).

لم يبين الحافظ سنة وفاته إن كانت قبل المائة أو بعدها. ولما كان المترجم له من الطبقة الخامسة فالمتبادر إلى الذهن أنه بعد المائة لما تقدم من قول الحافظ (وإن كان من الثالثة إلى آخر الثامنة فهم بعد المائة). والصحيح أن وفاته كانت دون المائة وقد فات الحافظ بيانه، ففي

التهذيب ١/ ١٧٦ والثقات ٤/ ٧ ، والخلاصة ٢٠ ، والتذكرة ١/ ٣ (مات سنة ٩٢).

٢ ـ **إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي**: من الخامسة مات سنة ست وتسعين، وهو ابن خمسين أو نحوها. (التقريب ٩٥).

وهذا أيضا لم يبينه الحافظ كالذي قبله. فهو من الطبقة الخامسة الذين ذكر الحافظ أن سنوات وفياتهم بعد المائة فالمتبادر إلى الذهن مرة أخرى أن سنة وفاة إبراهيم النخعي بعد المائة لكونه من الخامسة، وليس كذلك إذ الصحيح أن وفاته كانت دون المائة. ولم يبين ذلك الحافظ. ففي التهذيب ١/ ١٧٨، والخلاصة ٢٠ (قال أبو نعيم مات سنة ٩٦). وفي التذكرة ١/ ٧٣ (مات سنة ٩٥) وقال ابن حبان بفي الثقات ٤/ ٨ (مات سنة ٩٥ أو ٩٦).

٣ ـ **أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد**: من الثالثة مات سنة سبع وثمانين (التقريب ١١٤).

لم يبين الحافظ أن وفاة أمية كانت دون المائة وظاهر كلامه مشعر بأنها بعد المائة ـ لكونه من الطبقة الثالثة وهي طبقة يتوفى من كان منها ـ إلا من ندر ـ بعد المائة ـ كما تقدم في قول الحافظ. وأمية هذا قد ندر عن قاعدة الحافظ ومع ذلك لم يبينه. وفي التهذيب ١/ ٣٧٢ (قال المدائني مات سنة ٨٧). وفي الثقات ٤/ ٤٠ (مات في طاعون الفتيات سنة ٨٦). وفي الخلاصة ٣٤ (مات سنة ٨٤ أو ٨٧).

٤ ـ **أوس بن عبد الله الربعي**: من الثالثة مات سنة ثلاث وثمانين. (التقريب ١١٦).

والكلام على أوس كالكلام على أمية فكونه من الثالثة مشعر أن وفاته بعد المائة. ولكن أوسا هذا قد ندر عن قاعدة الحافظ، ومع ذلك لم يبينه. ففي التهذيب ١/ ٣٨٤ والثقات ٤/ ٤٢ والخلاصة ٣٥ أنه قتل في الجماجم سنة ٨٣. وليس في الخلاصة ذكر الجماجم.

٥ـ **بشر بن السري**: من التاسعة مات سنة خمس، أو ست وتسعين وله ثلاث وستون (التقريب ١٢٣).

وهذا أيضا لم يبين الحافظ سنة وفاته بدقة. وظاهرها أنه توفي سنة خمس وتسعين ومائتين أو ست وتسعين ومائتين لكونه من الطبقة التاسعة لما مضى من قول الحافظ (وإن كان من التاسعة إلى آخر الطبقات فهم بعد المائتين). لكن بشرا هذا قد ندر عن هذه القاعدة وكانت وفاته سنة خمس وتسعين ومائة، ولم يبين ذلك الحافظ. والذي في التاريخ الصغير ٢١٢، وثقات ابن حبان ٨/ ١٣٩، والخلاصة ٤٠ (مات سنة خمس وتسعين ومائة).

٦ـ **تميم بن طرفة الطائي**: من الثالثة مات سنة خمس وتسعين (التقريب ١٣٠). في التهذيب ١/ ٥١٣ (قال ابن أبي عاصم مات سنة ٩٥). وفي الخلاصة ٤٧ (مات سنة ٩٥) وفي الثقات ٤/ ٨٥ (مات سنة ٧٣ أو ٨٤).

٧ـ **جعفر بن عمرو بن أمية الضمري**: من الثالثة مات سنة خمس أو ست وتسعين (التقريب ١٤٠). في التهذيب ٢/ ١٠٠ والخلاصة ٥٤ (قال خليفة: مات سنة ٩٥ أو ٩٦). وانظر قول خليفة في تاريخه ١/ ٤١٢.

٨ـ **الحارث بن عطية البصري**: من التاسعة مات سنة تسع وتسعين. (التقريب ١٤٧). في التهذيب ٢/ ١٥١ (قال ابن سعد: توفي سنة ١٩٩) وهو كذلك في الطبقات الكبرى (٧/ ٤٩٠).

٩ـ **الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب**: من الرابعة مات سنة سبع وتسعين.
(التقريب ١٥٩).
في التهذيب ٢/ ٢٦٣ والخلاصة ٦٥ (توفي سنة ٩٧).

١٠ـ **حكيم بن جابر بن طارق الأحمسي**: من الثالثة مات سنة اثنيتن وثمانين وقيل سنة خمس وتسعين. (التقريب ١٧٦).
في التهذيب ٢/ ٤٤٤ (قال ابن حبان: مات في آخر امارة الحجاج... وأرخه ابن زبر سنة ٨٢ وأرخه أبو يعقوب القراب سنة ٩٥) وقول ابن حبان مذكور في الثقات ٤/ ١٦٠. وفي الخلاصة ٧٧ (توفي سنة اثنتين وثمانين أو خمس وتسعين).
قلت: انتهت إمارة الحجاج سنة ٩٥ كما في تاريخ خليفة ١/ ٤١٠.

١١ـ **خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي**: من الثالثة مات سنة تسعين (التقريب ١٩١).
في التهذيب ٣/ ١٢٨، والخلاصة ٨٨ (مات سنة تسعين).

١٢ـ **خبيب بن عبد الله بن الزبير بن العوام**: من الثالثة مات سنة ثلاث وتسعين (التقريب ١٩٢).
في التهذيب ٣/ ١٣٥ والثقات ٤/ ٢١١ والبداية والنهاية ٩/ ٨٧ (مات سنة ٩٣).

١٣ ـ **خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة** : من الثالثة مات بعد سنة ثمانين . (التقريب ١٩٧) .

في التهذيب ٣/ ١٧٩ ، وتاريخ خليفة ١/ ٤٠١ (مات بعد سنة ثمانين) . وفي التهذيب أيضا وفي الخلاصة ٩٢ (مات سنة ثمانين) .

١٤ ـ **زرارة بن أوفى العامري** : من الثالثة ، مات سنة ثلاث وتسعين . (التقريب ٢١٥) . في التهذيب ٣/ ٣٢٢ والخلاصة ١٠٣ (قال ابن سعد : توفي سنة ٩٣)

قلت : الذي في طبقات ابن سعد ٧/ ١٥٠ (مات زرارة سنة ثلاث وسبعين في خلافة الوليد بن عبد الملك) . وأرى أن ذكر السبعين خطأ صوابه «تسعون» كما في التهذيب والخلاصة ، لأن خلافة الوليد كانت من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ كما في تاريخ خليفة ١/ ٣٩٦ ـ ٤١٣ . وفي الثقات ٤/ ٢٦٦ (مات في ولاية عبد الملك بن مروان في أول قدوم الحجاج العراق قبل ابن سيرين . وقيل مات سنة ٩٣)

قلت : كانت ولاية عبد الملك من سنة ٦٥ إلى سنة ٨٦ كما في تاريخ خليفة ١/ ٣٢٩ ، ٣٨١ .

١٥ ـ **زياد بن ربيعة بن نعيم الحضرمي** : من الثالثة مات سنة خمس وتسعين . (التقريب ٢١٩) . في التهذيب ٣/ ٣٦٠ (مات سنة ٩٥) .

١٦ ـ **سعيد بن جبير الأسدي** : من الثالثة قتل سنة خمس وتسعين . (التقريب ٢٣٤) .

في التهذيب ٤/ ١٣ ، والثقات ٤/ ٢٧٥ والخلاصة ١١٦ (قتله الحجاج سنة ٩٥) .

١٧ ـ **سعيد بن فيروز أبو البختري**: من الثالثة مات سنة ثلاث وثمانين. (التقريب ٢٤٠). في التهذيب ٤/ ٧٣ والثقات ٤/ ٢٨٦ والخلاصة ١٢٠ أنه مات في الجماجم سنة ٨٣.

١٨ ـ **سفيان بن حبيب البصري**: من التاسعة مات سنة اثنيتن وقيل ست وثمانين وله ثمان وخمسون سنة. (التقريب ٢٤٤).

في التهذيب ٤/ ١٠٧، الخلاصة ١٢٣، والتاريخ الصغير ١٩٩ أنه مات سنة اثنتين وثمانين ومائة (وذكره البخاري فيمن مات من بين الثمانين إلى تسعين ومائة وقال (حدثني نصر بن علي قال: أظن مات سفيان بن حبيب سنة ثنتين وثمانين).

وزاد في التهذيب (قال أبو بكر بن أبي عاصم: مات سنة ست وثمانين. وقال ابن حبان مات أول سنة ثلاث وثمانين ومائة) وقول ابن حبان في الثقات ٦/ ٤٠٥.

١٩ ـ **سلمة بن الفضل الأبرش**: من التاسعة مات بعد التسعين وقد جاز المائة. (التقريب ٢٤٨).

في التهذيب ٤/ ١٥٤ (قال البخاري: مات بعد التسعين ومائة. قرأت بخط الذهبي:

مات سنة ٩١ وكأنه أخذه من قول البخاري). يعني سنة ١٩١. وهو في العبر ١/ ٢٣٨. وقول البخاري موجود في التاريخ الصغير ٢١٠ ومثله في الثقات ٨/ ٢٨٧.

٢٠ ـ **سلامة بن روح بن خالد**: من التاسعة مات سنة سبع أو ثمان وتسعين. (التقريب ٢٦١).

في التهذيب ٤/ ٢٩٠، والخلاصة ١٣٦ (مات سنة سبع وتسعين ومائة).

٢١ - **سليم بن أسود بن حنظلة أبو الشعثاء المحاربي**: من كبار الثالثة مات في زمن الحجاج. وأرخه ابن قانع سنة ثلاث وثمانين. (التقريب ٢٤٩).

ذكر في التهذيب ٤/ ١٦٥ عن خليفة أنه مات سنة ٨٢ وعن ابن قانع سنة ٨٥. وقول خليفة ثابت في تاريخه ١/ ٣٧٣ ومثله قول الذهبي في العبر ١/ ٧٠.

٢٢ - **سليمان بن قيس اليشكري**: من الثالثة. مات قديما قبل الثمانين. (التقريب ٢٥٣) في التهذيب ٤/ ٢١٥ والثقات ٤/ ٣٠٩ والخلاصة ١٣٠ أنه مات في فتنة ابن الزبير.

قلت: مات ابن الزبير سنة ٧٣ كما في تاريخ خليفة ١/ ٣٤٢، والتقريب ٣٠٣.

٢٣ - **شعيب بن إسحق بن عبد الرحمن الأموي**: من كبار التاسعة مات سنة تسع وثمانين. (التقريب ٢٦٦).

في التهذيب ٤/ ٣٤٨ والثقات ٦/ ٤٣٩ والخلاصة ١٤١ أنه مات سنة ١٨٩.

٢٤ - **طارق بن عمرو المكي الأموي أمير المدينة لعبد الملك**: من الثالثة مات في حدود الثمانين. (التقريب ٢٨١).

لم أجد من ذكر سنة وفاته لكن في التهذيب ٥/ ٥-٧ أنه سمع جابر بن عبد الله وأنه كان واليا لعبد الملك على المدينة سنة ٧٢ ثم عزله سنة ٧٣ وولى الحجاج بن يوسف.

٢٥ ـ **طريف بن مجالد الهجيمي أبو تميمة**: من الثالثة مات سنة سبع وتسعين أو قبلها أو بعدها. (التقريب ٢٨٢).
نقل في التهذيب ٥/ ١٣ عن الواقدي أنه مات سنة ٩٧ وعن ابن أبي عاصم أنه مات سنة ٩٩. وفي الثقات ٤/ ٣٩٦ والخلاصة ١٥١ (مات سنة ٩٥).

٢٦ ـ **طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ابن أخي عبد الرحمن**: من الثالثة مات سنة سبع وتسعين وهو ابن اثنتين وسبعين (التقريب ٢٨٢).
وفي التهذيب ٥/ ١٩ والخلاصة ١٥٢ عن ابن سعد قال: مات سنة ٩٧. وانظر قوله في الطبقات الكبرى ٥/ ١٦١. وبمثل قول ابن سعد قال ابن حبان في الثقات ٤/ ٣٩٢.

٢٧ ـ **طلق بن حبيب العنزي**: من الثالثة مات بعد التسعين (التقريب ٢٨٣).
نقل في التهذيب ٥/ ٣١ عن الطبراني في الأوسط أنه مات ما بين التسعين والمائة. وفي الخلاصة ١٥٣ (قتله الحجاج هو وسعيد بن جبير). وقد مضى في ترجمة حكيم بن جابر أن الحجاج توفي سنة ٩٥.

٢٨ ـ **عاصم بن ضمرة السلولي**: من الثالثة مات سنة أربع وسبعين (التقريب ٢٨٥). في التهذيب ٥/ ٤٥ والخلاصة ١٤٥ نقلا عن خليفة أن عاصما مات سنة ١٧٤. وزاد في التهذيب (في ولاية بشر بن مروان).
قلت: ذكر المائة فيهما بعد سنة ٧٤ خطأ قطعا لأمور:
أحدها: أن في تاريخ خليفة ١/ ٣٥٠ ــ وهو مصدرهما ــ أن عاصما مات سنة ٧٥.

وثانيهـا : النظر في سنوات وفيـات شيوخـه وتلاميذه وتغليـب أن سنة وفاته كـانت وسطا بينها ، فمـن شيوخه ـ كما في التهـذيب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ قتل سنة ٤٠ كما هو مشهور، ومن تلاميذه ـ كما في التهذيب أيضا : حبيب بن أبي ثابت (مات سنة ١١٩) والحكم بن عتيبة (مـات سنة ١١٣) وأبـو إسحق السبيعـي (مات سنـة ١٢٩) . (انظر سنوات وفياتهم في التقريب ١٥٠ ، ١٧٥ ، ٤٢٣ على التوالي) .

وثالثها : أن ولايـة بشر بن مروان ـ وفيها مـات عاصم ـ كـانت ما بين سنة ٧٤ وأول سنة ٧٥ كما في تاريخ خليفة ١/ ٣٤٩ .

٢٩ ـ **عبد الله بـن عبد الله بن الحارث بن نـوفل** : من الثالثة مـات سنة تسع وتسعين . (التقريب ٣٠٩) .

في التهذيب ٥/ ٢٨٤ والخلاصة ١٧٢ أن السموم قتلته سنة ٩٩ .

٣٠ ـ **عبد الله بن عمر بن غانم** : من التاسعة مات سنة تسعين . (التقريب ٣١٥) .

في التهذيب ٥/ ٣٣٢ والخلاصة ١٧٦ (مات سنة ١٩٠) .

٣١ ـ **عبد الله بن عمرو بن عثمان الأموي** : من الثالثة مات سنة ست وتسعين (التقريب ٣١٥) .

في التهذيب ٥/ ٣٣٩) والخلاصة ١٧٦ (مات سنة ٩٦ بمصر) .

٣٢ ـ **عبد الله بن غالب الحداني** : من الثالثة قتل مع ابن الأشعث سنة ثلاث وثمانين . (التقريب ٣١٧) .

في (التهذيب ٥/ ٣٥٤ والتاريخ الكبير ٥/ ١٦٦ (قتـل بالجماجم سنة ثلاث وثمانين) .

٣٣ـ **عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري** : من الثالثة مات سنة خمس وتسعين . (التقريب ٣١٨) .
قال ابن حبان في الثقات ٥/ ٢٠ : (مات سنة ٩٥)، وكذا في الخلاصة ١٧٨ نقلا عن ابن حبان . لكن لما نقل في التهذيب ٥/ ٣٦٠ سنة الوفاة عن ابن حبان قال سنة ٩٩ . وأيها كان فهو دون المائة .

٣٤ـ **عبد الله بن كثير الدمشقي** : من التاسعة مات سنة ست وتسعين . (التقريب ٣١٨) .
في التهذيب ٥/ ٣٦٩ والخلاصة ١٧٨ (مات سنة ١٩٦) .

٣٥ـ **عبد الله بن كليب بن كيسان المرادي** : من التاسعة مات سنة ثلاث وتسعين . (التقريب (٣١٩) .
في التهذيب ٥/ ٣٧٠ والثقات ٧/ ٥٧ (مات سنة ١٩٣) .

٣٦ـ **عبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق** : من الثالثة قتل بالحرة سنة ثلاث وستين .
(التقريب ٣٢٠) .
في التهذيب ٦/ ٧ . (قتل بالحرة في ذي الحجة سنة ٦٣) وفي الخلاصة ١٨٠ (قال مصعب : قتل يوم الحرة) .
قلت : كانت الحرة سنة ٦٣ كما في تاريخ خليفة ١/ ٢٨٩ .

٣٧ـ **عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب** : من الرابعة مات سنة تسع وتسعين . (التقريب ٣٢١) .
في التهذيب ٦/ ١٦ عن الهيثم بن عدي وخليفة بن خياط أنه مات سنة ٩٩ . و(انظر تاريخ خليفة ١/ ٤٣٣) . وذكر أيضا عن غيرهما أنه مات سنة ٩٨ . وفيها أرخ وفاته صاحب الخلاصة ١٨٠ .

٣٨ـ **عبد الله بن محيريز الجمحي**: من الثالثة مات سنة تسع وتسعين. (التقريب ٣٢٢). في التهذيب ٦/ ٢٣ والتذكرة ١/ ٦٨ والعبر في خبر من غبر ١/ ٨٨ أنه توفي سنة ٩٩. وفي الخلاصة ١٨١ أنه مات في خلافة عمر بن عبد العزيز (هي من سنة ٩٩ إلى سنة ١٠١ كما في تاريخ خليفة ١/ ٤٢٧، ٢/ ٤٦١).

٣٩ـ **عبد الله بن مسافع**: من الرابعة مات سنة تسع وتسعين. (التقريب ٣٢٢).

في التهذيب ٦/ ٢٦ (مات مرابطا مع سليمان بن عبد الملك ومات سليمان بعده بيسير سنة ٩٩ بالشام) وفي الخلاصة ١٨١ (مات مرابطا بدابق سنة ٩٨).

٤٠ـ **عبد الله بن المسيب بن أبي السائب**: من الثالثة مات سنة بضع وستين. (التقريب ٣٢٣).

يلاحظ أن الحافظ هنا لم يحدد بالضبط سنة وفاته، لكن واضح أنه قدره تبعا لما نقله في التهذيب ٦/ ٣٣ عن ابن حبان أنه مات في أيام ابن الزبير. وفيه أيضا نقلاً عن الزبير بن بكار أن عمار بن ياسر حمله على ظهره. وأيام خلافة ابن الزبير كانت ما بين سنة ٦٤ وسنة ٧٣ كما ذكره خليفة بن خياط في تاريخه ١/ ٣٢٣، ٣٤٣. وفي ثقات ابن حبان ٥/ ٤٩ أن عبد الله بن المسيب روى عن عمر وأن ابن أبي مليكة (توفي سنة ١١٧ كما في التقريب ٣١٢) روى عنه. وبذا يظهر قدمه وأنه مات دون المائة قطعا.

٤١ـ **عبد الله بن مطرف بن عبد الله بن الشخير**: من الثالثة مات سنة سبع وثمانين. (التقريب ٣٢٣).

في الخلاصة ١٨٢ (قيل: مات سنة ٨٧). ولم أجد من ذكر سنة وفاته هكذا غيره. لكن في التهذيب ٦/ ٣٥ والتاريخ الكبير ٣/ ١/ ١٩٦ والثقات ٥/ ٦ أن عبد الله مات قبل أبيه مطرف، وكان موت مطرف سنة ٩٥ كما في التهذيب ١٠/ ١٧٤ والتذكرة ١/ ٦٥ والخلاصة ٣٢٤.

٤٢ـ **عبد الله بن معقل بن مقرن المزني**: من كبار الثالثة مات سنة ثمان وثمانين. (التقريب ٣٢٤).

ذكر في التهذيب ٦/ ٤٠ نقلا عن ابن حبان أنه توفي سنة بضع وثمانين، وعن البخاري أنه مات ٨٨. (وانظر الثقات ٥/ ٣٥ والتاريخ الكبير ٣/ ١/ ١٩٥).

٤٣ـ **عبد الله بن نمير الهمداني**: من كبار التاسعة مات سنة تسع وتسعين. (التقريب ٣٢٧).

في التهذيب ٦/ ٥٨) والثقات ٧/ ٦١ والتذكرة ١/ ٣٢٧ والخلاصة ١٨٤ (مات سنة ١٩٩).

٤٤ـ **عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي**: من التاسعة مات سنة سبع وتسعين. (التقريب ٣٢٨).

في التهذيب ٦/ ٧٣ والتذكرة ١/ ٣٠٦ (مات سنة ١٩٧). لكن في الخلاصة ١٨٥ (مات سنة ١٩٩).

٤٥ـ **عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد النخعي**: من الثالثة مات سنة تسع وتسعين. (التقريب ٣٣٦).

في التهذيب ٦/ ١٤٠ نقل عن خليفة بن خياط أن عبد الرحمن مات

قبل المائة في آخر خلافة سليمان . ونقل عن ابن حبان أنه مات سنة ١٩٩ . وهذا الأخير خطأ . ففي الثقات ٥/ ٧٨ مات سنة ٩٩ في ولاية خالد بن عبد الله . (كانت ولاية خالد بن عبد الله ما بين سنة ٨٩ وسنة ٩٩ كما في تاريخ خليفة بن خياط ١/ ٤٠٠ ، ٤٢٨ . وفي الخلاصة ١٩٠ (مات سنة ٩٨) .

٤٦ ـ **عبد الرحمن بن جبير المصري** : من الثالثة مات سنة سبع وتسعين . (التقريب ٣٣٨) .

في التهذيب ٦/ ١٥٥ ذكر أنه توفي سنة ٩ أو ٩٨ . وفي الخلاصة نقل عن ابن يونس أنه مات سنة ٩٧ .

٤٧ ـ عبد الرحمن بن حجيرة : من الثالثة مات سنة ثلاث وثمانين . (التقريب ٣٣٨)

في التهذيب ٦/ ١٦٠ والخلاصة ١٩١ (قال ابن يونس : مات سنة ٨٣) وزاد في التهذيب (وقال العجلي مات سنة ٨٠) .

٤٨ ـ **عبد الرحمن بن عبد الله بن عبيد** : من التاسعة مات سنة سبع وتسعين . (التقريب ٣٤٤) .

في التهذيب ٦/ ٢٠٩ والخلاصة ١٩٤ (مات سنة ١٩٧) .

٤٩ ـ **عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن حفص العمري** : من التاسعة مات سنة ست وثمانين (التقريب ٣٤٤) .

في التهذيب ٦/ ٢١٤ (قال البخاري : مات سنة ١٨٦) . والذي في التاريخ الكبير ٣/ ١/ ٣١٦ (مات سنة ست وثمانين) وقال محققه (أي بعد المائة) .

قلت: وهو الصحيح ويؤيده النظر في سنوات وفيات شيوخه وتلاميذه: فمن شيوخه كما في التهذيب أبوه عبد الله بن عمر العمري (توفي سنة ١٧١) وعمه عبيد الله بن عمر (توفي سنة بضع وأربعين ومائة) وهشام بن عروة (توفي سنة ١٤٥) (انظر التقريب على التوالي ٣١٤، ٣٧٤، ٥٧٣. ومن تلاميذه ـ كما في التهذيب أيضا ـ الحسن بن عرفة (توفي سنة ٢٥٧ وسريج بن يونس (سنة ٢٣٥) ومحمد بن مقاتل المروزي (توفي سنة ٦ـ٢). (انظر التقريب ١٦٢، ٢٢٩، ٥٠٨ على التوالي).

٥٠ ـ **عبد الرحمن بن عبد الحميد المهري**: من التاسعة مات سنة اثنتين وتسعين. (التقريب ٣٤٥).
في التهذيب ٦/ ٢١٩ والخلاصة ١٩٥ (مات سنة ١٩٢).

٥١ ـ **عبد الرحمن بن عبد الملك بن سعيد بن حيان**: من كبار التاسعة مات سنة إحدى وثمانين. (التقريب (٣٤٥).
في التهذيب ٦/ ٢٢١ والطبقات الكبرى ٦/ ٣٩٠ (مات سنة ١٨١).

٥٢ ـ **عبد الرحمن بن عثمان بن أمية الثقفي**: من التاسعة مات سنة خمس وتسعين. (التقريب ٣٤٦). في التهذيب ٦/ ٢٢٧ والتاريخ الصغير ٢١٢، والتاريخ الكبير ٥/ ٣٣١ أنه مات سنة خمس وتسعين ومائة.
قلت: ذكره البخاري في التاريخ الصغير فيمن مات من بين مائة وتسعين إلى مائتين ثم قال مات سنة خمس وتسعين.

٥٣ ـ **عبد الرحمن بن غزوان الضَّبيِّ**: من التاسعة مات سنة سبع وثمانين. (التقريب ٣٤٨). في التهذيب ٦/ ٢٤٨ (مات سنة ١٨٧). وهو

الذي اختصره الحافظ في التقريب. لكن في الثقات ٨/ ٣٧٥ والتذكرة ١/ ٣٤٠ والخلاصة ١٩٧ (توفي سنة ٢٠٧).

٥٤ - **عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقي**: من كبار العاشرة مات سنة إحدى وتسعين (التقريب ٣٤٨).

في التهذيب ٦/ ٢٥٣ والتذكرة ١/ ٣٥٦ والخلاصة ١٩٧ (مات سنة ١٩١).

٥٥ - **عبد الرحمن بن قيس بن محمد بن الأشعث الكندي**: من السادسة قتل بعد التسعين (التقريب ٣٤٨).

في التهذيب ٦/ ٢٥٦ والبداية والنهاية ٩/ ٥٤ (قيل إن الحجاج قتله بعد سنة تسعين)، وفي الخلاصة ١٩٨ (قيل قتله الحجاج).

٥٦ - **عبد الرحمن بن محمد بن زياد المحاربي**: من التاسعة مات سنة خمس وتسعين. (التقريب ٣٤٩).

في التهذيب ٦/ ٢٦٥ والتاريخ الكبير ٣/ ١/ ٣٤٧ والتذكرة ١/ ٣١٣ (مات سنة ١٩٥).

٥٧ - **عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة**: من الثالثة مات سنة تسعين. (التقريب ٣٥٠).

في التهذيب ٦/ ٢٦٩ والثقات ٥/ ١٠١ والخلاصة ١٩٨ (مات سنة تسعين).

٥٨ - **عبدي الرحمن بن معاوية بن حديج**: من الثالثة مات سنة خمس وتسعين.

(التقريب ٣٥٠).

في التهذيب ٦/ ٢٧٢ والخلاصة ١٩٨ (توفي سنة ٩٥).

٥٩ - **عبد الرحمن بن مغراء الدوسي**: من كبار التاسعة مات سنة بضع وتسعين. (التقريب ٣٥٠).

قلت: لم أجد من ذكر سنة وفاته - فيما بحثت - ويظهر أن المراد سنة بضع وتسعين ومائة لا مائتين لأمور:

منها: النظر في سنوات وفيات شيوخه وتلاميذه والتوسط في ذلك. فمن شيوخه في التهذيب ٦/ ٢٧٤ سليمان بن مهران الأعمش (توفي سنة ١٤٧ ويحيى بن سعيد الأنصاري (توفي سنة ١٤٤) (انظر ترجمتيهما في التقريب ٢٥٤، ٢٩١). ومن تلاميذه (كما في التهذيب أيضا) إبراهيم بن موسى الفراء (توفي سنة ٢٢٠) وحسين بن منصور ابن جعفر (توفي سنة ٢٣٨) (انظر ترجمتيهما في التقريب ٩٤, ١٦٨).

ومنها: أن الحافظ نفسه في التهذيب حكى عن وكيع وابي خالد الأحمر وهو سليمان بن حيان أنهما قالا في عبد الرحمن هذا: (طلب الحديث قبلنا وبعدنا) وأنهما كانا يثنيان عليه. فهذا يدل على أنه من أقرانهما. (توفي أبو خالد الأحمر سنة ١٩٠ كما في التقريب ٢٥٠. وتوفي وكيع سنة ١٩٦ كما سيأتي في ترجمة رقم ١٢٥ من هذا البحث).

ومنها: أن لأبي زرعة الرازي (توفي سنة ٢٦٤) وعثمان بن أبي شيبة (توفي سنة ٢٣٩) وعلى بن المديني (توفي سنة ٢٣٤) (انظر التقريب ٣٧٣، ٣٨٦، ٤٠٣ على التوالي) - أن لهؤلاء كلاما فيه. وبه يثبت أنه كان موجودا قبلهم.

٦٠ - **عبد الرحمن بن مهدي**: من التاسعة مات سنة ثمان وتسعين. (التقريب ٣٥١).

في التهذيب ٦/ ٢٨١ والثقات ٨/ ٣٧٣ والتذكرة ١/ ٣٣١ والخلاصة ١٩٩ (مات سنة ١٩٨).

٦١ـ **عبد الرحمن بن يزيد بن قيس النخعي**: من كبار الثالثة مات سنة ثلاث وثمانين. (التقريب ٣٥٣).

في التهذيب ٦/ ٢٩٩ (مات في الجماجم سنة ثلاث وثمانين) وذكر خليفة بن خياط في كتاب الطبقات ١٤٨ أنه مات قبل الجماجم.

٦٢ـ **عبد السلام بن شعيب البصري**: من التاسعة مات سنة أربع وثمانين. (التقريب ٣٥٥).

في التهذيب ٦/ ٣١٩ والثقات ٧/ ١٢٨ (مات سنة ١٨٤).

٦٣ـ **عبد العزيز بن مروان بن الحكم**: من الرابعة مات بعد الثمانين. (التقريب ٣٥٩).

في التهذيب ٦/ ٣٥٦ والخلاصة ٢٠٤ (مات سنة ست وثمانين) وزاد في التهذيب أقوالا أخرى.

٦٤ـ **عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي**: ملك ثلاث عشرة سنة استقلالا وقبلها منازعا لابن الزبير تسع سنين: من الرابعة مات سنة ست وثمانين. (التقريب ٣٦٥).

في التهذيب ٦/ ٤٢٣ والخلاصة ٢٠٨ وتاريخ خليفة ١/ ٣٨١ (مات سنة ست وثمانين).

٦٥ـ **عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود**: من الثالثة مات سنة أربع وتسعين وقيل سنة ثمان. (التقريب ٣٧٢).

في التهذيب ٧/ ٢٤ والخلاصة ٢١٣ أقوال في سنة وفاته: قيل توفي سنة ٩٤ وقيل سنة ٩٥ وقيل سنة ٩٨ وقيل سنة ٩٩. وفي الثقات ٥/ ٦٣ (مات سنة ٩٨).

٦٦ـ **عبيد الله بن عبيد الرحمن الأشجعي** : من كبار التاسعة مات سنة اثنتين وثمانين . (التقريب ٣٧٣) .

في التهذيب ٧/ ٣٥ والتذكرة ١/ ٣١٢ والخلاصة ٢١٣ (مات سنة ١٨٢) .

٦٧ـ **عروة بن الزبير بن العوام** : من الثالثة مات سنة أربع وتسعين ومولده في أوائل خلافة عثمان . (التقريب ٣٨٩) .

في التهذيب ٧/ ١٨٤ والثقات ٥/ ١٩٤ والخلاصة ٢٢٤ أقوال متعددة في سنة وفاته فقيل سنة ٩١ وقيل ٩٢ وقيل ١٠٠ وقيل ١٠١ وقيل غير ذلك . وفي التذكرة (مات سنة ٩٤) .

٦٨ـ **عروة بن المغيرة بن شعبة** : من الثالثة مات بعد التسعين . (التقريب ٣٩٠) .

في التهذيب ٧/ ١٨٩ نقلا عن خليفة بن خياط في تاريخه أن الحجاج ولاه الكوفة سنة ٧٥ وأنه (أي خليفة) ذكره في تسمية عمال الوليد بن عبد الملك سنة ٩ .

قلت : هكذا في التهذيب ، والذي في تاريخ خليفة ١/ ٤١٤ (سنة ٩٥) وفي الثقات ٥/ ١٩٥ أن عروة هذا كان عاملا لعلي على الكوفة .

٦٩ـ **عقبة بن صهبان الأزدي** : من الثالثة مات بعد السبعين . (التقريب ٣٩٥) .

في التهذيب ٧/ ٢٤٢ والثقات ٥/ ٢٢٥ ، والخلاصة ٢٢٧ أنه مات في أول ولاية الحجاج على العراق .

قلت : في تاريخ خليفة ١/ ٣٤٧ أن قدوم الحجاج العراق كان سنة ٧٥ .

٧٠- **عقبة بن عبد الغافر الأزدي**: من الرابعة قديم الموت مات سنة ثلاث وثمانين. (التقريب ٣٩٥).
في التهذيب ٧/ ٢٤٦ والثقات ٥/ ٢٢٤ والخلاصة ٢٢٧ أنه قتل في الجماجم سنة ٨٣.

٧١- **عقبة بن وساج الأزدي**: من الثالثة قتل بعد الثمانين بالزاوية أو الجماجم. (التقريب ٣٩٥).
في التهذيب ٧/ ٢٥٢ نقل عن خليفة أنه قتل بالزاوية سنة ٨٢ وعن ابن حبان أنه قتل في الجماجم سنة ٨٣. وانظر تاريخ خليفة ١/ ٣٦٤ والثقات ٥/ ٢٢٦ ففيهما ما حكاه الحافظ عنهما. وفي الخلاصة ٢٢٨ اكتفى بذكر قول خليفة.

٧٢- **علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب**: من الثالثة مات سنة ثلاث وتسعين وقيل غير ذلك. (التقريب ٤٠٠).
في التهذيب ٧/ ٣٠٧ والثقات ٥/ ١٥٩ والخلاصة ٢٣١ (مات سنة ٩٢) وفيها أقوال أخرى في سنة وفاته.

٧٣- **علي بن ظبيان العبسي**: من التاسعة مات سنة اثنتين وتسعين. (التقريب ٤٠٢). في التهذيب ٧/ ٣٤٣ والخلاصة ٢٣٣ (توفي سنة ١٧٢). وزاد في التهذيب أن هارون الرشيد ولاه. (كانت إمارة هارون الرشيد من سنة ١٧٠ إلى سنة١٩٣ كما في تاريخ خليفة ٢/ ٧٠٩، ٧٤٠). وفي تاريخ خليفة أيضا ٢/ ٧٣٩ أن علي بن ظبيان مات سنة ١٩٢.

٧٤- **علي بن مجاهد بن مسلم القاضي**: من التاسعة وليس في شيوخ أحمد أضعف منه. مات بعد الثمانين. (التقريب ٤٠٥).

في التهذيب ٧/ ٣٧٨ (قال أحمد بن حنبل إنه سمع منه سنة ٨٧ . وكأنه مات سنة بضع وثمانين أي ومائة). ثم إن وفاة الإمام أحمد كانت سنة ٢٤١ (التقريب ٨٤).

٧٥ـ **علي بن نصر بن علي الجهضمي**: من كبار التاسعة، مات سنة سبع وثمانين. (التقريب ٤٠٦).

في التهذيب ٧/ ٣٩٠ والثقات ٨/ ٤٦٠ (مات سنة ١٨٧) وفي الخلاصة ٢٣٥ (مات سنة ١٨٩).

٧٦ـ **عمر بن أيوب العبدي**: من التاسعة مات سنة ثمان وثمانين. (التقريب ٤١٠).

في التهذيب ٧/ ٤٢٩ والثقات ٨/ ٤٣٩ والخلاصة ٢٣٨ (مات سنة ١٨٨).

٧٧ـ **عمر بن هارون بن يزيد الثقفي**: من كبار التاسعة مات سنة أربع وتسعين. (التقريب ٤١٧).

في التهذيب ٧/ ٥٠٤ والتذكرة ١/ ٣٤١ والخلاصة ٢٤٣ (مات سنة ١٩٤).

٧٨ـ **عمرو بن سلمة بن الخرب الهمداني**: من الثالثة مات سنة خمس وثمانين. (التقريب ٤٢٢).

في التهذيب ٨/ ٤٢ والثقات ٥/ ١٧٢ والخلاصة ٢٤٥ (مات سنة ٨٥).

٧٩ـ **عمرو بن محمد العنقزي**: من التاسعة مات سنة تسع وتسعين. (التقريب ٤٢٦).

في التهذيب ٨/ ٩٩ والخلاصة ٢٤٩ (مات سنة ١٩٩).

٨٠ ـ **عمران بن حطان السدوسي**: من الثالثة مات سنة أربع وثمانين. (التقريب ٤٢٩).

في التهذيب ٨/ ١٢٨ والخلاصة ٢٥١ (مات سنة ٨٤).

٨١ ـ **عوف بن مالك بن نضلة الجشمي**: من الثالثة قتل في ولاية الحجاج على العراق. (التقريب ٤٣٣).

لم يحدد الحافظ هنا سنة وفاته لكن كونه من الثالثة مع عدم التنبيه على أنه دون المائة جعلني أذكره في هذا البحث. وقد نقل الحافظ في التهذيب ٨/ ١٦٩ عن ابن حبان (وهو في الثقات ٥/ ٢٧٥) أن الخوارج قتلت عوفا أيام الحجاج بن يوسف. و ذكره البخاري في التاريخ الصغير ١٠١ فيمن مات ما بين سنة ٨٠ وسنة ٩٠.

٨٢ ـ **فروة بن نوفل الأشجعي**: من الثالثة قتل في خلافة معاوية. (التقريب ٤٤٥).

لم يحدد الحافظ سنة وفاة فروة هذا وإنما ذكرته في هذا البحث لكونه من الثالثة ومات دون المائة ولم ينبه الحافظ عليه. وقد ذكر في التهذيب ٨/ ٢٦٦ أنه كان خارجيا خرج على المغيرة بن شعبة في صدر خلافة معاوية، فقتل سنة خمس وأربعين.

٨٣ ـ **الفضل بن موسى السيناني**: من كبار التاسعة مات سنة اثنيتن وتسعين. (التقريب ٤٤٧).

في التهذيب ٧/ ٢٨٧ عن ابن حبان أنه مات سنة إحدى أو اثنتين وتسعين ومائة. وهو كذلك في الثقات ٧/ ٣١٩. وفي التذكرة ١/ ٢٩٧ (مات سنة ١٩٢).

٨٤ـ **قبيصة بن حريث الأنصاري**: من الثالثة مات سنة سبع وستين. (التقريب ٤٥٣).

في التهذيب ٨/ ٣٤٦ والثقات ٥/ ٣١٩ (مات في طاعون الجارف سنة ٦٧) وفي الخلاصة ٢٦٨ (مات سنة ٥٦).

٨٥ـ قسامة بن زهير المازني: من الثالثة مات بعد الثمانين. (التقريب ٤٥٥).

في التهذيب ٨/ ٣٧٨ وتاريخ خليفة ١/ ٤٠١ (توفي بعد سنة ٨٠).

٨٦ـ **كريب بن أبي مسلم الهاشمي مولى ابن عباس**: من الثالثة مات سنة ثمان وتسعين. (التقريب ٤٦١).

في التهذيب ٨/ ٤٣٣ والثقات ٥/ ٣٣٩ والخلاصة ٢٧٥ (مات سنة ٩٨). وزاد في التهذيب (في آخر خلافة سليمان بن عبد الملك).

٨٧ـ **محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي**: من التاسعة مات سنة اثنتين وثمانين. (التقريب ٤٦٥).

في التهذيب ٩/ ١٢ والثقات ٧/ ٤٤٠ والخلاصة ٢٧٦ (توفي سنة ١٨٢).

٨٨ـ **محمد بن إبراهيم بن أبي عدي**: من التاسعة مات سنة أربع وتسعين. (التقريب ٤٦٥).

في التهذيب ٩/ ١٣ والثقات ٧/ ٤٤٠ والتذكرة ١/ ٣٢٤ والخلاصة ٢٧٦ (مات سنة ١٩٤).

٨٩ـ **محمد بن أسامة بن زيد بن حارثة**: من الثالثة مات بعد التسعين. (التقريب ٤٦٧).

في التهـذيب ٩/ ٣٥ والطبقـات الكبرى ٥/ ٢٤٦ والثقـات ٥/ ٣٥٣ والخلاصـة ٢٧٨ (توفي في خـلافـة الوليـد بن عبـد الملـك). وكانـت خلافتـه ما بين سنـة ٨٦، وسنة ٩٦ كما في تـاريخ خليفـة ١/ ٣٩٦، ٤١٣.

٩٠ ـ **محمد بـن ثور الصنعـاني**: مـن التاسعـة مات سنـة تسعين تقريبـا. (التقريـب ٤٧١). في التهذيـب ٩/ ٨٧ والثقات ٩/ ٥٧ والخلاصـة ٢٨١ (مات سنة ١٩٠ أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل).

٩١ ـ **محمـد بـن جعفـر الهذلي** : مـن التـاسعـة مات سنـة ثـلاث أو أربـع وتسعين. (التقـريـب ٤٧٢). في التهذيـب ٩/ ٩٨ والخلاصـة ٢٨٢ قـولان في سنـة وفاتـه: (قيـل سنـة ١٩٣ وقيل سنـة ٩٤) والـذي في الخلاصة في القـول الثاني (سنـة ٤) وهو ظـاهر في أن المراد سنـة ١٩٤ عطفا على الرقـم قبله. وفي الثقات ٩/ ٥٠ والتذكـرة ١/ ٣٠١ (مات سنة ١٩٣).

٩٢ ـ **محمـد بن حـرب الخولاني**: مـن التاسعـة مـات سنة أربـع وتسعين. (التقريب ٤٧٣). في التهذيب ٩/ ١٠٩ والتذكرة ١/ ٣١٠ والخلاصة ٢٨٣ (مات سنة ١٩٤).

٩٣ ـ **محمد بـن خازم أبـو معاويـة**: مـن كبـار التاسعـة مـات سنـة خمس وتسعين. (التقريب ٤٧٥).
في التهذيب ٩/ ١٣٩ والثقات ٧/ ٤٤١ والتذكرة ١/ ٢٩٥ والخلاصة ٢٨٤ (مات سنة ١٩٥).

٩٤ ـ **محمد بن خالد بن محمد الوهبي**: من التاسعة مات قبل سنة تسعين. (التقريب ٤٧٦).

في التهذيب ٩/ ١٤٣ والخلاصة ٢٨٥ (قال ابن حبان مات قبل التسعين ومائة). وهو في الثقات ٩/ ٦٦ .

٩٥ـ **محمد بن ربيعة الكلابي**: من التاسعة مات بعد التسعين. (التقريب ٤٧٨).

لم أجد ـ فيما بحثت ـ من ذكر سنة وفاته، ويبدوالي أن ما ذكره الحافظ إنما هو تقدير منه ومراده بعد المائة تبعا لسنوات وفيات شيوخه وتلاميذه: فممن ذكر في التهذيب (٩/ ١٦٣) من شيوخه سليمان بن مهران الأعمش (توفي سنة ١٤٧) وهشام بن عروة (توفي سنة ١٤٥) انظر: التقريب ٢٥٤، ٥٧٣. ومن تلاميذه أحمد بن حنبل (توفي سنة ٢٤١) ويحيى بن معين (توفي سنة ٢٣٣) انظر التقريب ٨٤، ٥٩٧ .

٩٦ـ **محمد بن سعد بن أبي وقاص**: من الثالثة، قتله الحجاج بعد الثمانين. (التقريب ٤٨٠).

في التهذيب ٩/ ١٨٣ والثقات ٥/ ٣٥٤ أن الحجاج قتله. وحدد خليفة في تاريخه ١/ ٣٦٨ والذهبي في العبر ١/ ٧٠ أن ذلك كان سنة ٨٢.

٩٧ـ **محمد بن سلمة بن عبد الله الباهلي**: من التاسعة مات سنة إحدى وتسعين على الصحيح. (التقريب ٤٨١).

في التهذيب ٩/ ١٩٤ والخلاصة ٢٨٩ (مات في سنة ١٩١) وزاد في التهذيب (وقال ابن حبان: مات سنة إحدى أو اثنتين وتسعين ومائة). لكن الذي في الثقات ٩/ ٤٠ (مات سنة إحدى أو اثنتين وسبعين ومائة). وفي التذكرة ١/ ٣١٦ (توفي سنة ١٩٢).

٩٨ـ **محمد بن سواء السدوسي**: من التاسعة مات سنة بضع وثمانين. (التقريب ٤٨٢). في التهذيب ٩/ ٢٠٨ والثقات ٩/ ٤٢ والخلاصة

٢٩٠ (مات سنة ١٨٧) وزاد في التهـذيب قولا آخر في سنة وفـاته هو سنة ١٨٩ .

٩٩ ـ **محمد بن فضيـل بن غزوان**: من التـاسعة مـات سنة خمس وتسعين . (التقريب ٥٠٢) .

في التذكرة ١/ ٣١٥ والخلاصة ٣٠٤ (مات سنة ١٩٥) . وفي التهذيب ٩/ ٤٠٦ (قال البخاري وغير واحد مات سنـة ٢٩٥) وهو خطأ قطعا لأن البخاري مات سنة ٢٥٦ .

ولأنـه فيـا لتـابـريـخ الكبير ١/ ١/ ٢٠٧ ــ ٢٠٨ كما في التـذكـرة والخلاصة .

١٠٠ ـ **محمد بـن فليح بـن سليمان الأسلمي**: من التـاسعة مات سنـة سبع وتسعين . (التقريب ٥٠٢) .

في التهـذيـب ٩/ ٤٠٧ والثقـات ٧/ ٤٤٠ والعبر في خبر مـن غبر ١/ ٢٥٣ (مات سنة ١٩٧) .

١٠١ ـ **محمد بن يزيد الكلاعي**: من كبار التاسعـة مات سنة تسعين أو قبلها أو بعدها . (التقريب ٥١٤) .

ذكر في التهذيب ٩/ ٥٢٨ عدة أقوال في سنـة وفاته : ذكر سنة ١٨٨ ، وسنة ١٨٩ ، وسنة ١٩٠ ، وسنـة ١٩٢ . حكاها عن ابـن حبان وابن سعـد وأسلـم الـرزاز. (وانظر الثقـات ٧/ ٤٤٢ ، ٩/ ٤٧ ، وتـاريـخ واسـط ١٥٧ ، والطبقـات الكبرى ٧/ ٣١٤ . وفي الخلاصـة ٣١١ ـ ٣١٢ (مات سنة ١٨٨) .

١٠٢ ـ **مالك بـن الحارث السلمي**: من الـرابعة مـات سنة أربـع وتسعين . (التقريب ٥١٦) .

في التهذيب ١٠/ ١٣ والخلاصة ٣١٣ (مات سنة ٩٤) وفي الثقات ٥/ ٣٨٤ (مات في آخر ولاية الحجاج سنة ٩٥).

١٠٣ ـ **مالك بن الحارث الهمداني**: من الثالثة مات سنة خمس وتسعين. (التقريب ٥١٦)

في التهذيب ١٠/ ١٣ (قال ابن حبان: مات في آخر ولاية الحجاج سنة ٩٥).

قلت: ذكره ابن حبان في الثقات ٧/ ٤٦٠ لكن لم يتعرض لذكر وفاته. وله ترجمة في التاريخ الكبير ٤/ ١/ ٣٠٧ فيها أنه سمع من ابن عباس.

١٠٤ ـ **ماهان الحنفي**: من الثالثة قتله الحجاج سنة ثلاث وثمانين. (التقريب ٥١٨).

في التهذيب ١٠/ ٢٦ والخلاصة ٣٣٨ (قتل سنة ٨٣، قتله الحجاج).

١٠٥ ـ **مبشر بن عبد الله بن رزين السلمي**: من كبار التاسعة مات سنة تسع وثمانين. (التقريب ٥١٩).

في التهذيب ١٠/ ٣٢ والثقات ٩/ ١٩٣ والخلاصة ٣١٥ (مات سنة ١٨٩).

١٠٦ ـ **مخلد بن الحسين المهلبي نزيل المصيصة**: من كبار التاسعة مات سنة إحدى وتسعين. (التقريب ٥٢٣).

قال في التهذيب ١٠/ ٧٣ (قال ابن أبي عاصم: مات سنة ٩١ وهو قول البخاري. وقال ابن سعد سنة إحدى وكذا أرخه ابن حبان).

قلت الذي في الطبقات الكبرى ٧/ ٤٨٩ والثقات ٩/ ١٨٥ (مات

سنة ١٩١) والـذي في التاريـخ الكبير للبخاري ٤/ ١/ ٤٣٧ (مـات سنة ١٩٦). ولعل ما في التاريخ الكبير أولى ممـا في التهذيب نقلا عن البخاري بدليـل أنه جعل قول البخـاري وابن أبي عاصم مغـايرا لقول ابن سعد وابن حبان.

١٠٧ـ **مخلد بن يزيد القرشي**: من كبـار التاسعة مات سنـة ثلاث وتسعين. (التقريب ٥٢٤).

في التهذيـب ١٠/ ٧٧ والثقات ٩/ ١٨٦ والخلاصة ٣١٨ (مـات سنة ١٩٣).

١٠٨ـ **مرثـد بن عبـد الله اليزني**: من الثـالثة مات سنة تسعين. (التقـريب ٥٢٤).

في التهذيب ١٠ ٨٢ والخلاصة ٣١٨ (مات سنة ٩٠).

١٠٩ ـ **مسكين بـن بكير الحراني**: مـن التـاسعـة مـات سنـة ثمان وتسعين. (التقريب ٥٢٩).

في التهذيب ١٠/ ١٢١ والثقات ٩/ ١٩٤ والخلاصة ٣٢٠ (مات سنة ١٩٨).

١١٠ـ **مسلم بن أبي بكرة بن الحارث الثقفي**: من الثالثة مات في حدود سنة تسعين. (التقريب ٥٢٩).

في التهذيـب ١٠/ ١٢٣ (قال خليفة: مـات بعد سنة ٨٠ وقبـل سنة ٩٠) وهو كذا في تاريخ خليفة ١/ ٤٠١.

١١١ـ **معاذ بـن معاذ بـن نصر العنبري**: من كبـار التاسعة مات سنـة ست وتسعين. (التقريب ٥٣٦).

في التهذيب ١٠/ ١٩٥، والتذكرة ١/ ٣٢٥ والخلاصة ٣٢٥ (مات سنة ١٩٦) وفي الثقات ٧/ ٤٨٢ (مات سنة خمس أو ست وتسعين ومائة).

١١٢ـ **المعافى بن عمران الأزدي** : من كبار بالتاسعة مات سنة خمس وثمانين وقيل سنة ست. (التقريب ٥٣٧).
في التهذيب ١٠/ ٢٠٠ (قال ابن عمار : مات سنة ١٨٥ وقال الهيثم ابن خارجة مات سنة ست). وفي الثقات ٧/ ٥٢٩ (مات سنة ١٨٥).

١١٣ـ **معبد بن خالد الجهني القدري** : من الثالثة قتل سنة ثمانين. (التقريب ٥٣٩). في التهذيب ١٠ / ٢٢٦ (قال خليفة : مات بعد سنة ٨٠ وقبل سنة ٩٠. وأرخ سعيد بن عفير قتله في سنة ٨٠) وانظر تاريخ خليفة ١/ ٤٠١. وفي تاريخ ابن كثير البداية والنهاية ٩/ ٣٤ أن قتله كان سنة ٨٠ أيضا.

١١٤ـ **معتمر بن سليمان التيمي** : من كبار التاسعة مات سنة سبع وثمانين. (التقريب ٥٣٩). في التهذيب ١٠/ ٢٢٧ والثقات ٧/ ٥٢١ والتذكرة ١/ ٢٦٧ والخلاصة ٣٤١ (مات سنة ١٨٧).

١١٥ـ **معمر بن سليمان النخعي** : من التاسعة مات سنة إحدى وتسعين. (التقريب ٥٤١). في التهذيب ١٠/ ٢٥٠، والثقات ٩/ ١٩٢ والخلاصة ٣٢٩ (مات سنة ١٩١).

١١٦ـ **ميمون بن أبي شبيب الربعي** : من الثالثة مات سنة ثلاث وثمانين في وقعة الجماجم. (التقريب ٥٥٦).

في التهذيب ١٠/ ٣٨٩ والثقات ٥/ ٤١٦ أنه قتل في الجماجم سنة ٨٣. واكتفى الخزرجي في الخلاصة ٣٣٨ بأن ذكر قتله في الجماجم.

١١٧ـ **ناعم بن أجيل الهمداني**: من الثالثة مات سنة ثمانين. (التقريب ٥٥٧).

في التهذيب ١٠/ ٤٠٤ والخلاصة ٣٤٨ (توفي سنة ٨٠). ٨٤.

١١٨ـ **نافع بن جبير بن مطعم**: من الثالثة مات سنة تسع وتسعين. (التقريب٥٥٨).

في التهذيب ١٠/ ٤٠٥ والخلاصة ٣٤٥ والبداية والنهاية ٩/ ١٨٦ (مات سنة ٩٩).

١١٩ـ **النعمان بن عبد السلام بن حبيب التيمي**: من التاسعة مات سنة ثلاث وثمانين. (التقريب ٥٦٤).

في التهذيب ١٠/ ٤٥٤ والخلاصة ٣٤٥ (توفي سنة١٨٣) وزاد في التهذيب (وقيل سنة ١٧٣).

١٢٠ـ **نوفل بن مساحق بن عبد الله القرشي**: من الثالثة مات بعد السبعين (التقريب٥٦٧).

نقل في التهذيب ١٠/ ٤٩١ قول البخاري وأبي حاتم وابن حبان إن نوفلا مات في أول خلافة عبد الملك بن مروان. وأن ابن حبان حدد ذلك في سنة ٧٤. وهو كذا في الثقات ٥/ ٤٧٨. وانظر التاريخ الكبير ٤/ ٢/ ١٠٨ والجرح والتعديل ٤/ ١/ ٤٨٨.

١٢١ـ **هشام بن يوسف الصنعاني**: من التاسعة مات سنة سبع وتسعين. (التقريب٥٧٣).

في التهذيب ١١/ ٥٧ والتذكرة ١/ ٣٤٦ والخلاصة ٣٥٢ (مات سنة ١٩٧).

١٢٢ - **هقل بن زياد السكسكي**: من التاسعة مات سنة تسع وسبعين أو بعدها. (التقريب ٥٧٤).

في التهذيب ١١/ ٦٥ والتذكرة ١/ ٢٨٤ والخلاصة ٣٥٥ (مات سنة ١٧٩).

١٢٣ - **هني بن نويرة الضبي**: من الثالثة قتل قبل الثمانين. (التقريب ٥٧٥).

لم يذكر في التهذيب ١١/ ٧٣ سنة وفاته لكن ذكر أن شبيب بن يزيد الخارجي قتله. وشبيب قتل سنة ٧٧ كما في تاريخ خليفة ١/ ٣٥٥ والبداية والنهاية ٩/ ١٩.

١٢٤ - **الهيثم بن الأسود المذحجي**: من الثالثة مات بعد الثمانين. (التقريب ٥٧٧).

قال في التهذيب ١١/ ٨٩ (أدرك عليا وروى عن معاوية وعبد الله بن عمرو، ونقل عن البخاري في الأوسط أنه مات ما بين الثمانين إلى التسعين).

١٢٥ - **وكيع بن الجراح الرؤاسي**: من كبار التاسعة مات في آخر ست وأول سنة سبع وتسعين وله سبعون سنة. (التقريب ٥٨١).

ذكر في التهذيب ١١/ ١٣٠ أن وكيعا ولد سنة ١١٧ أو ١١٨ وأقوالا أخرى قريبة. ثم قال: (قال خليفة وغيره مات سنة ست وتسعين). وهو يدل على أن مراده بعد المائة لما ذكر من سنة ولادته وعمره. وفي

الخلاصة ٣٥٦ ونقلا عن خليفة (مات سنة ست وتسعين ومائة).
قلت: لكن الذي في تاريخ خليفة ٢/ ٧٥٧ أنه مات سنة ١٩٧. وفي التذكرة ١/ ٣٠٩ (توفي سنة١٩٧) وقال ابن حبان في الثقات ٧/ ٥٦٢ (مات سنة ست أو سبع وتسعين ومائة).

١٢٦ـ **يحيى بن أبي زكريا الغساني**: من التاسعة مات سنة تسعين. (التقريب ٥٩٠).
في التهذيب ١١/ ٢١١ (قال محمد بن وزير الواسطي (مات سنة ١٩٠). وفي التهذيب أيضا والخلاصة ٣٦٣ قول آخر في سنة وفاته، فيهما أنه مات سنة ١٨٨.

١٢٧ـ **يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص الأموي**: من كبار التاسعة مات سنة أربع وتسعين وله ثمانون سنة. (التقرير ٥٩٠).
في التهذيب ١١/ ٦١٤ والثقات ٧/ ٥٩٩ والتذكرة ١/ ٣٢٦ والخلاصة ٣٦٣ (مات سنة ١٩٤).

١٢٨ـ **يحيى بن سعيد بن العاص الأموي**: من الثالثة مات في حدود الثمانين. (التقريب ٥٩١).

●● لم أجد من ذكر سنة وفاته ـ فيما بحثت ـ ويظهر لي أن ما ذكره الحافظ إنما هو تقدير منه. فإنه ذكر في ترجمته في التهذيب ١١/ ٢١٥ أن له رواية عن أبيه وعثمان بن عفان وعائشة ومعاوية. وأنه كان مع ابن الزبير ثم أمنه عبد الملك بن مروان بعد أن قتل ابن الزبير. وكل ذلك يبين أن ذكر الثمانين إنما هو قبل المائة.

١٢٩ـ **يحيى بن سعيد بن فروخ القطان**: من كبار التاسعة مات سنة ثمان وتسعين. (التقريب ٥٩١).

في التهـذيـب ١١/ ٢١٩ والثقـات ٧/ ٦١١ والتـذكـرة ١/ ٣٠٠ والخلاصة ٣٦٤ (مات سنة ١٩٨).

١٣٠ ـ **يحيى بـن سلمة بـن كهيل** : مـن التاسعـة مات سنـة تسع وسبعين. (التقريـب ١٩٨). في التهذيب ١١/ ٢٢٥ والثقـات ٧/ ٥٩٥ (مات سنة ١٧٩).

١٣١ ـ **يحيى بـن سليم الطائفـي** : من التـاسعة مات سنـة ثلاث وتسعين أو بعدها. (التقريب ٥٩١).

في التهذيب ١١/ ٢٢٦ (قال ابن حبان : مات سنة ٣ أو ١٩٤، وقال البخـاري : مـات سنة ٩٥) أي قبـل المائتين كما في التـاريـخ الصغير ٢١٢.

ولم أجد مـا حكاه الحافظ عن ابـن حبان في الثقات ٧/ ٦١٥ لكـن فيه (مات بمكة في آخر ولاية هارون).

قلت : توفي هارون الرشيد سنة ١٩٣ كما في تاريخ خليفة ٢/ ٧٤٠.

١٣٢ ـ **يحيى بـن عباد الضبعـي** : مـن التـاسعـة مـات سنـة ثمان وتسعين. (التقريب ٥٩٢).

في التهذيب ١١/ ٢٣٦ والثقات ٩/ ٢٥٦ (مات سنة ١٩٨).

١٣٣ ـ **يحيى بن عبد الملك بـن حميد بن أبي غنية** : من كبار التاسعة مات سنة بضع وثمانين. (التقريب ٥٩٣).

في التهذيب ١١/ ٢٥٢ (قـال الواقدي : مات سنـة ٦ أو ١٨٧. وقال مطين : سنة ٨٨). وفي الثقات ٧/ ٦١٤ (مات سنة ١٨٧).

١٣٤ ـ **يحيى بـن يمان العجلي** : مـن كبار التـاسعة مـات سنة تسـع وثمانين. (التقريب ٥٩٨).

في التهـذيـب ١١/ ٣٠٧ والثقـات ٩/ ٢٥٥ والتـذكـرة ١/ ٢٨٦ والخلاصة ٣٦٩ (مات سنة ١٨٩).

١٣٥ ـ **يزيد بن السمط الصنعاني**: من كبار التاسعة، مات بعد الستين. (التقريب ٦٠١). قال في التهذيب ١١/ ٣٣٤ (مات في حدود ١٦٠).

١٣٦ ـ **يزيد بن معاوية بن أبي سفيان**: ولي الخلافة سنة ستين ومات سنة أربع ولم يكمل الأربعين. ليس بأهل أن يروى عنه. من الثالثة. (التقريب ٦٠٥). في التهـذيب ١١/ ٣٦٠ وتاريخ خليفة ١/ ٣١٨ والعبر في خبر من غبر ١/ ٥١ (مات سنة ٦٤).

١٣٧ ـ **يونس بن بكير بن واصل الشيباني**: من التاسعة مات سنة تسع وتسعين. (التقريب ٦١٣).
في التهذيب ١١/ ٤٣٥ والتذكرة ١/ ٣٢٧ والخلاصة ٣٧٩ (مات سنة ١٩٩)

١٣٨ ـ **يونس بن جبير الباهلي**: من الثالثة مات بعد التسعين وأوصى أن يصلي عليه أنس بن مالك. (التقريب ٦١٣).
في التهذيب ١١/ ٤٣٦ والثقات ٥/ ٥٥٤ (مات بعد ٩٠).

١٣٩ ـ **أبو أيوب المراغي الأزْدِي**: من الثالثة مات بعد الثمانين. (التقريب ٦٢٠).
في التهذيب ١٢/ ١٦ (قال أبو حاتم يريد ابن حبان): مات في ولاية الحجاج.
وقال خليفة: مات بعد الثمانين. وكذا في الثقات ٥/ ٥٢٩ وتاريخ خليفة ١/ ٤٠١.

١٤٠ ـ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي: من الثالثة مات سنة أربع وتسعين وقيل غير ذلك. (التقريب ٦٢٣).

في التهذيب ١٢/ ٣١ والثقات ٥/ ٥٦٠ (مات سنة ٤ أو ٩٥). وفي التذكرة ١/ ٦٤ والخلاصة ٣٨٢ (مات سنة ٩٤).

١٤١ ـ أبو العالية البراء البصري: من الرابعة مات سنة تسعين. (التقريب ٦٥٣).

في التهذيب ١٢/ ١٤٣ والثقات ٤/ ٢٥٨ والخلاصة ٣٩٠ (مات في شوال سنة ٩٠).

١٤٢ ـ أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: من كبار الثالثة مات بعد سنة ثمانين. (التقريب ٦٥٦).

في التهذيب ٥/ ٧٥ وتاريخ خليفة ١/ ٣٦٦ أن أبا عبيدة افتقد ليلة دجيل وكانت سنة ٨٢). وفي الخلاصة ١٥٦ مثل ذلك غير أنه قال (سنة ٨١).

١٤٣ ـ أبو النجيب العامري: من الرابعة مات سنة ثمان وثمانين. (التقريب ٦٧٨).

في التهذيب ١٢/ ٢٥٤ والخلاصة ٣٩٧ (توفي سنة ٨٨).

١٤٤ ـ أم الدرداء الصغرى زوج أبي الدرداء واسمها هجيمة: من الثالثة ماتت سنة إحدى وثمانين. (التقريب ٧٥٦).

في التهذيب ١٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧ والتذكرة ١/ ٥٤ (حجت في سنة٨١). وزاد في التهذيب ومثله في الثقات ٥/ ٥١٧ (ماتت بعد سنة٨١) وفي الخلاصة ٤٢٩ (بقيت إلى بعد الثمانين).

ثبت المصادر

١ ـ البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير. دار الفكر / بيروت ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

٢ ـ تاريخ خليفة بن خياط. تحقيق سهيل زكار. مطابع وزارة الثقافة والسياحة/ سوريا.

٣ ـ التاريخ الصغير لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. المكتبة الأثرية / باكستان.

٤ ـ التاريخ الكبير لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية / الهند ١٣٦٣ هـ.

٥ ـ تاريخ واسط لأسلم بن سهل الرزاز الواسطي. تحقيق كوركيس عواد. مطبعة المعارف بغداد ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٦ ـ تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبي. تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي. دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

٧ ـ تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني. دار نشر الكتب الإسلامية / باكستان. الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٨ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني. مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية. الهند ١٣٢٥ هـ.

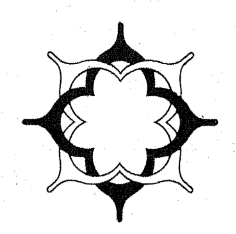
٩ ـ الثقات لابن حبان. مطبعة دائرة المعارف النظامية / الهند. الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٠ ـ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم. مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية / الهند ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م.

١١ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجي. المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٢٢هـ.
١٢ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد. دار بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
١٣ ـ العبر في خبر من غبر لشمس الدين الذهبي. دار الكتب العلمية/ بيروت.

الهوامش

(١) تقريب التهذيب ٧٣.
(٢) تقريب التهذيب ٧٥.
(٣) تقريب التهذيب ٩٨.
(٤) تقريب التهذيب ١١١.
(٥) تقريب التهذيب ٨٧.
(٦) تقريب التهذيب ٨٧.
(٧) تقريب التهذيب ٧٧.
(٨) تقريب التهذيب ٧٧.
(٩) التقريب ٢٨٨.
(١٠) التقريب ٦٠٦
(١١) التقريب ٥٤١.
(١٢) التقريب ٢٤٠.
(١٣) التقريب ٢٣٥.
(١٤) التقريب ٢٩٤.
(١٥) التقريب ٦٧٥.
(١٦) التقريب ٣٩٥.
(١٧) التقريب ٤٠٠.
(١٨) التقريب ٣٢٠.
(١٩) التقريب ٦٠٥.



التُّرك في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري

د. مسعد بن سويلم الشامان

الشعر هـو ديوان العـرب ، جمع وحـوى معارفهم وعاداتهم وأيامهم. وحفظ لنا صوراً من علاقتهم بما جاورهم من الأمم والأجناس. وكان الأتـراك من الأقـوام التي تـداخلـت مع العـرب بعلاقات وثيقة. وسجلت كتب التاريخ تفاصيل تلك العلاقات وأطوارهـا. ولكن الشعر أبقى لنا الانطباع العـربي نحو الترك، وأشـار إلى صفاتهم التي رسخـت في أذهان الناس عنهـم، كما سجل لنا طـرفاً مـن أثرهـم في حياة المجتمـع وفي الحياة السيـاسية. ونـريـد هنا أن نتتبع بعـض ملامـح صورة الترك التـي رسمها الشعراء العـرب، وما

سجلوه عن علاقة الترك بالعرب منذ الجاهلية وحتى بداية عصر المماليك الأتراك الذين سادوا فيما تلا من عصور.

العلاقات الأولى:

تحدثنا كتب التاريخ عن وجود علاقة بين عرب الجزيرة وبين الأتراك في بلاد آذربيجان وما وراء النهرين. وكانت نشأة تلك العلاقة نتيجة للصراع القائم آنذاك بين الفرس والترك، والذي كان العرب يتدخلون فيه أحيانا لنجدة الفرس.

فمن دلائل نجدة العرب للفرس ضد الترك ما ورد من ذكر لقيام ملك اليمن الرائش الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بغزو بلاد الترك في آذربيجان في مائة ألف وخمسين من فرسانه بتحريض من كسرى الفرس المهزوم من الترك، فقال الرائش في شعر نسب إليه:

أنا الملكُ المُقَدَّم حين أمضي   جلبت الخيلَ منْ أوطانِ سام
لأغزُو أعبُداً جهلوا مكاني   من ابنا يافثٍ وقبيل حام [1]

والترك من أبناء يافث كما كانت تقول العرب[2]، ونظم نشوان بن سعيد الحميري (المتوفى عام ٥٧٣هـ) هذه الوقعة فيما بعد ضمن قصيدته المشهورة حيث قال:

والتُّركُ كانتْ قد أذلَّتْ فارسا   لم يُسْتَروا من شرِّهم بوجاحِ
فشكَوا إليه، فزارهُم بمقانبٍ   فيها صُراحُ ينتمي لصُراحِ
تركوا سبايا التُّرك فيما بينهم   للبيع تُعرض في يَدِ الصيَّاحِ [3]

وبعد هذا الانتصار العظيم للملك الرائش، نجد الملك اليمني الرائد، أحد ملوك التبابعة، يغزو بلاد الترك عقب استيلائهم على بابل، فيوقع بهم الهزيمة ويردهم على أعقابهم، ثم ينطلق من بلاد الترك صوب الصين فيستبيحها ويقتل ملكها (يَعْبُر)، وقد أنشد شعراً **قال فيه :**

أَنَا تُبَّعُ الأملاك من نسل حمير	مَلكنا عِبادَ اللهِ في الزمنِ الخالي
ملكناهم قهرا وسارت جيوشنا	إلى الهند والأتراك تردى بأبطالِ
وتلك شروق الأرض منها وطأتها	إلى الصين والأتراك حالاً على حال

ونظم نشوان الحميري أيضاً هذه الحادثة **فقال :**

والرائدُ الملكُ المتوج تُبَّع	ملكٌ يروضُ الأرض كالمَسَّاحِ
فَتَحَ المدائنَ في المشارق وانتحى	للصِّين في بَرِيِّة وبَرَاحِ
فأذاق يَعْبُر حتفَهُ فدَحَى به	في قعْر لحْدٍ للمنية داحي
والتّرك قبلَ الصين كان لهم به	يوم شتيمُ الوَجْهِ والأكلاحِ [(٤)]

ويصادفنا شاهد آخر على النجدات العربية لكسرى الفرس من غارات الترك في عصر ما قبل الإسلام، فهذا حسان بن حنظلة بن حيّة الطائي يحمل كسرى أبرويز على فرسه (الضُبيْب)، حين انهزم كسرى من بهرام جوبين والذي كان فيما يبدو قد استعان بالترك يوم النهروان. **فقال حسان بن حنظلة :**

تلافيتُ كسْرَى أن يُضام ولم أكُن	لأتركُه في الخيل يعثُر رَاجلا
بذلتُ له ظهرَ الضبيبِ وقد بدت	مسوّمةٌ منْ خيلِ تُرك وكابُلا [(٥)]

ولعل الشعراء الذين أقاموا في الحيرة أو كانوا يترددون عليها، يعرفون الترك، ويميزونهم عن بقية أجناس الأعاجم الأخرى. ويمكن اعتبار ذكر الترك في شعر عدي بن زيد العبادي (قتل في حدود عام ٦٠٠م) أقدم إشارة إليهم في الشعر العربي، فقد قال يذكر المنون وصروفها:

فبتّ أُعدي كم أسافت وغيّرت وقوع المنون من مسودٍ وسائدِ
صرعن قباذاً ربَّ فارس كلّها وحشَّتْ بأيديها بوارقَ آمد
و جئن بترك من قرار بلادهم يسير بجمعٍ كالدّبا المتساند [٦]

فالترك من الكثرة حيث شبهوا بالجراد.

ويأتي النابغة الذبياني (المتوفى في حدود عام ٦٠٢م) بإشارة إلى الترك، ويذكر أنهم كانوا من بين الأقوام التي تنتظر رجوع الملك الغساني النعمان بن الحارث، فقال في رثائه:

قُعُوداً لهُ غسّانُ يرجُون أَوْبَهُ وتُرْكٌ ورهطُ الأَعْجَمِينَ وكَابُلُ [٧]

ويذكر الأعشى (المتوفى عام ٥هـ) التّرك، ومن نسائهم من يرقصن في مجالس الشراب، فقال:

ولقد شربتُ الخمر ترْ كُضُ حولنا تُرْكٌ وكَابُلْ [٨]

وبعد الإسلام، وبعد امتداد حركة الفتوح الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية لتشمل بلاد الترك، ازدادت صلة العرب بالترك، ووقعت بينهم مواجهات عنيفة في القتال. وقد حفل شعر الفتوح بذكرهم وبجلدهم وصلابتهم في الحرب، وامتدح الشعراء فرسان العرب ومقاتليهم الذين صمدوا أمام شراسة الأتراك العتاة، فهذا ربعي بن عامر التيميّ (المتوفى بعد عام ٢٢هـ)

لما كان في جند الأحنف بن قيس الذي فتح خراسان عام ١٨هـ ، يقول في شعرٍ نُسبٍ له :

وبَلْخ ونَيْسَابُور قَدْ شَقِيَتْ بِنَا ... وطوس ومرو قَدْ أَزَرْنَا القَنَابِلا

. . . .

فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَنَا مَعاً ... غَدَاةَ أَزَرْنَا الخَيْلَ تُرْكَاً وكَابُلا (٩)

وقال شاعر آخر شهد وقائع فتح جوزجان عنوة عام ٣٣هـ:

سَقَى مُزْنُ السَّحَابِ إذا استقلَّتْ ... مَصَارِعَ فِتْيَةٍ بالجُوزْجَانِ

. . . .

لَقَوا التُّرْكَ العُتَاة بأَرضِ خُوطٍ ... عَلَى خَيْلٍ أُعِدَّتْ للرِّهَانِ (١٠)

وقال كعبُ بن مَعْدَان الأشقري (المتوفى ٩٥هـ) وقد شهد حروب المسلمين وفتوحهم في خراسان سنة ٩٣هـ:

هل تذْكُرون ليالي التُّرْكِ تَقْتُلُهُمْ ... مَا دُونَ كَازَةَ والفَجْفَاجُ مُلتحِفُ

لَمْ يَرْكَبُوا الخَيْلَ إلاَّ بَعْدَمَا كَبِرُوا ... فَهُم ثِقَالٌ عَلى أكتافِها عُنُفُ(١١)

ويصف نهارُ بن تَوْسِعَة التميمي (المتوفى بعد عام ١١٢هـ) عنف القائد المسلم قتيبة بن مسلم ضد الترك بقوله :

وَمَا كَانَ مُذْ كُنَّا ولاَ كَانَ قَبْلَنَا ... ولا هُوَ فِيمَا بَعْدَنَا كَابنِ مُسلِمِ

أَعَمَّ لأهلِ التُّرْكِ قتْلاً بسيْفِهِ ... وأَكثَرَ فِينا مَقْسِماً بَعْدَ مقْسِمِ (١٢)

وأشار بعض الشعراء إلى كثرة عدد جند الترك ، وهذا ما جعل قلوب العرب تصاب بالخوف والوجل ، وذلك ما حدث في وقعة (يوم الشِّعْب) التي دارت بين المسلمين يقودهم الجنيد وبين الترك بقيادة خاقانهم عام ١١٢هـ، فقال ابن السِّجف مخاطباً الخليفة هشام بن عبد الملك :

اذْكُرْ يَتَامَى بِأَرْضِ التُّرْكِ ضَائِعَةً	هَزْلَى كأنَّهمُ في الحَائِطِ الحَجَلُ
وارْحمْ، وإلاَّ فهَبْهَا أُمَّةً دَمِرَتْ	لا أنفُسٌ بَقِيَتْ فِيهَا ولا ثَقَلُ

. . . .

لاَقَوْا كَتَائِبَ مِنْ خَاقَانَ مُعْلِمَةً	عَنْهُم يَضِيقُ فَضَاءُ السَّهلِ والجبَلُ
لَمَّا رأَوهُمْ قليلاً لا صَرِيخَ لَهُمْ	مَدُّوا بأَيْدِيهِمُ للهِ وابْتَهَلُوا[١٣]

ويصف الشَّرَعَبيُّ الطائي نفس الوقعة، وكان من شهودها، في قصيدة طويلة منها:

تَذَكَّرْتُ هِنْدًا في بِلادٍ غَرِيبَةٍ	فَيالَكَ شوْقاً، هَلْ لِشَمْلِكَ مُجْمَعُ
تَذَكَّرْتُهَا والشَّاشُ بيْني وبينهَا	وشِعْبُ عِصَامٍ و المَنَايَا تطَلَّعُ
بِلاَدٌ بِها خَاقانُ جمٌّ زُحُوفُهُ	وَنَيْلاَنُ في سَبْعِينَ ألْفاً مُقَنَّعُ
إذا دَبَّ خَاقَانٌ وسَارَتْ جُنُودُهُ	أتَتْنَا المنَايَا عِنْدَ ذلكَ شُرَّعُ[١٤]

وأكثر شعراء الفتوح الإسلامية في آسيا ذكر مواطنهم والحنين إليها، مثلما قال ثابت بن كعب الأزدي المعروف بثابت قُطنة الذي استشهد في الحرب ضد الترك عام ١١٠هـ:

دِيارُ لَيْلَى قِفَارٌ لا أَنِيسَ بِهَا	دُونَ الحَجُونِ وأيْنَ الحجن من دارِي
بُدِّلْتُ منها وقد شَطَّ المَزَارُ بِها	وادي المَخَافة لا يَسْرِي بِهَا السَّارِي
نُقَارِعُ التُّرْكَ مَا تَنْفَكُّ نائحةٌ	مِنَّا ومِنْهُم على ذي نَجْدَةٍ شَارِ[١٥]

وكانت الحرب سجالاً بين العرب والترك طوال العصر الأموي، فهذا عبيد الله ابن قيس الرقيات (المتوفى عام ٧٥هـ) يذكر خروج مصعب بن الزبير بالعراق، وكيف أن فرسانه قد أنزلوا بنات الترك سبايا من حصونهن في زرنج من بلاد الترك، فصرن يأتين طائفة بعد أخرى:

جلب الخَيلَ مِنْ تِهامةَ حتَّى ... وَرَدَتْ خَيْلُهُ قُصُورَ زَرَنْج
أنزلُوا مِنْ حُصُونِهِنَّ بَنَاتِ التُّرْكِ يأْتِينَ بعد عَرْجٍ بعَرْجِ (١٦)

ويشير جرير بن عطية (المتوفى عام ١١٤هـ) إلى هذا الصراع في مدحه لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الذي كان قد غزا بلاد الترك:

فيَوْمٌ تَحُوطُ المُسْلِمِينَ جِيادُه ... ويَوْمٌ عَطاءٌ ما تُغِبُّ نَوَافِلُهُ
ولِلتُّرْكِ مِن عبد العزيز وقيعَةٌ ... ولِلرُّومِ يومٌ ما تتمُّ حُوَامِلُهُ (١٧)

ووجد الشعراء في ثبات قومهم أمام بأس الترك مدعاة للفخر، وخاصة الشعراء من بني تميم، مثلما قال الوليد بن حُنيفة المعروف بأبي حُزابَةَ التميمي «المتوفى عام ٨٣هـ) يفتخر بعقبة بن زهير يوم منازلته الأتراك، وقد ناجزهم على كثرة عددهم فلم يجبن ولم يعجز عن الإقدام:

من كان أَحْجَمَ أو خَامَتْ حقِيقَتُهُ ... عِنْدَ الحِفَاظِ فَلَمْ يُقْدِمْ عَلَى القُحَمِ
فَعُقْبَةُ بنُ زُهَيرٍ يَوْمَ نَازَلَهُ ... جَمْعٌ مِنَ التُّرْكِ لَمْ يُحْجِمْ ولَمْ يَخِمِ
وهم مِئونَ أُلُوفًا وَهْوَ في نَفَرٍ ... شُمِّ العَرانِينِ ضَرَّابِينَ للبُهَمِ (١٨)

وللشاعر ثابت قُطْنَة شعر افتخر فيه بنفسه وبقومه أمام كماة الترك العتاة فقال:

فَدَتْ نفْسِي فَوَارِسَ مِن تَمِيمٍ ... غَدَاةَ الرَّوعِ في ضَنْكِ المُقَامِ
فلولا اللهُ ليسَ لَهُ شريكٌ ... وضَربي قونسَ الملكِ الهُمَامِ
إذًا لسعَتْ نساءُ بني دِثارٍ ... أمَامَ التُّرْكِ بَادِيَةَ الخِدَامِ (١٩)

وقال يهجو القائد الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي وقومه ويعيرهم بزيمة انهزموها على يد الترك:

تـوافـتْ تميـمٌ في الطِّعـان وعــــرَّدَتْ بُهَيْلـةُ لمَّا عَايَنـــتْ معْـــشرًا غُلْبَــا
كُماة كُفَـاة يـرْهـبُ النـاسُ حدَّهــم إذا مـــا مَشـوا في الحربِ تَحْسبهُـم نُكْبـا[٢٠]

وفي هذه الفترة بـدأت تظهر إشـارات من الشعـراء لبعض صفـات وعادات الترك والتي أدركها العرب بالمخالطة للترك وبمعاشرتهم. من ذلك أنهم يسكنون في قباب سود، وقد تـراءت لهم عند فتح المدائن[٢١]. ولما رآها مالك بن الريب (المتوفى عام ٥٧هـ) وهـو في خراسان تذكر مضارب أهله في نجـد، فأثارت فيه الحنين للأهل والوطن فقال:

تـــذَكــرُني قِبــابُ الــتُّرْكِ أهْلِي وَمَبْـدَاهُــمْ إذا نـــزَلــوا سَنـامــا

وشبه مسكين الـدارمـي (المتوفى في حـدود عـام ٨٩هــ) قدور قـومـه في كبر حجمها وسوادها بقباب الترك:

كـأنَّ قـــدور قـومــي كـلّ يـوم قِبـــابُ بـالتُّركِـب ملبّسـةُ الجِلالِ
كــأنَّ المُوقِـدُونَ لـــها جِـــمَالٌ طَـلاهـــا الـــزّفـتُ والقطـــران طـــالِ

وقد لاحظ الشعراء ضخامة جثة الرجل التركي وكثافة شعره، كما قال حميد بن ثور الهلالي (المتوفى في زمـن خلافة عثمان رضي الله عنه) يصـف وطباً عظيماً صنع من جلد الشاة،

وقد مليء باللبن حتى استـدار، فكان أشبه ما يكون برجل تـركي عظيم الجثة وقد رقد[٢٣]:

فجـاءتْ بـذِي أوْنَينِ أُعْبِرَ شَـــاتُه وعُمـرَ حتَّى قِيـلَ هَـلْ هُـوَ خــــالِدُ
وغـرَّرَهُ حتـَّى استــــدارَ كــأنَّهُ على القــــروِ عُلفُـوفٌ مــن التُّرْكِ رَاقِـدُ[٢٤]

ومن أخلاقهم وطباعهم التي لمسها العرب شدة العداوة، كما عبر عن ذلك عمَلَّس بن عقيل بن عُلَّفَة المريَّ (توفي في بداية القرن الثاني الهجري) بقوله:

تَبَدَّلْتُ مِنهُ بَعْدَمَا شَابَ مَفْرِقِي عَدَاوةَ تُركيٍّ وبغْضَ أَبيس حِسْلِ [٢٥]

ومنها عدم الوفاء بالعهود ونقضها، كما في قول بنصر بن سيّار (المتوفى عام ١٣١هـ):

ولَلتُّركِ أوْفَى من نِزَارٍ بِعَهْدِهَا فلا يأمَنَنَّ الغَدْرَ يوماً عهيدُهَا [٢٦]

ففي رأيه أن الترك المشهورة بالغدر ونقض العهود صارت أوفى من نزار. وأكد هذه الصفة عند الترك ـ وقد عُلِمَتْ من نقض الترك للمعاهدات في الحرب ـ قول يزيد بن الطّثريّة (المتوفى عام ١٢٧هـ) في امرأة كان يتحدث إليها ويُعجب بها:

فيَوْمًا تراها بالعُهودِ وَفيَّةً ويومًا على دين ابن خَاقَانَ دينُهَا [٢٧]

ومن خلال الحرب أيضاً لمس العرب في الترك صفة دقة الرمي في حالة الإقبال أو الإدبار، وهذه مهارة وقدرة لا يملكها كل رامٍ. وبهذه الصفة افتخر يزيد بن الوليد بن عبد الملك، والذي كانت إحدى جدات أمه ابنة لخاقان الترك[٢٨] فقال:

فإنْ كُنْتُ أَرْمِي مُقْبِلاً ثُمَّ مُدْبِرًا وأطْلَعُ مِنْ طَودٍ زليقٍ على مُهْرِ
فخاقانُ جَدي فاعرِفي ذاكَ واذكُرِي أخَابيرَهُ في السَّهلِ والجبلِ الوعرِ [٢٩]

وكانوا يلعبون بالكرات، وسجلها الشاعر جرير وهو يرد على الفرزدق ويهجو الزبرقان فقال:

وقَدْ دَمِيَتْ مَوَاقِعُ رُكبَتَيْهَا مِن التَّبْرَاكِ مِن الصَّلاةِ
تبيتُ اللّيلَ تُسلِقُ إسكتاهَا كدأبِ التُّركِ تَلْعَبُ بالكُرَاتِ

العلاقات السياسية:

وعندما انقضى عصر بني أمية وتلاه عصر بني العباس، زادت الصلات بين العرب والترك، وأصبحت العلاقات أكثر قرباً وتوثقاً. وانتهت تقريباً بالفتوحات في بلاد الترك، وجلبوا إلى بغداد، حاضرة الخلافة العباسية، ليعملوا في خدمة الأمراء والقادة وفي الجيش.

فأصبح لهم نفوذ قوي في بغداد، ونراهم يشتركون في أحداث فتنة الأمين والمأمون عام ١٩٧هـ، وقد أشار إلى دورهم فيها أبو يعقوب إسحاق بن حسان الخرَيمي (المتوفى عام ٢١٤هـ) في قصيدته الطويلة التي وصف فيها ما حل ببغداد من خراب ودمار، فقال:

بَلْ هَلْ رَأَيْتَ السُّيوفَ مصْلَتَةً أَشْهَرَهَا في الأسواقِ شاهِرُهَا

والخيلَ تسْتَنُّ في أزقَّتِها بالتُّرْكِ مَسْنُونةً خَنَاجِرُهَا [٣١]

وكان الخليفة المعتصم بالله (تولى ما بين عام ٢١٨هـ و عام ٢٢٧هـ) ـ الذي كانت أمه تركيّة تسمى ماردة[٣٢] ـ أول من اتخذ من الترك جنداً له، ليتخلّص بهم من سيطرة العنصر العربي والفارسي على أمور الدولة. وأنشأ لهم مدينة سامراء (أو سرّ منْ رأَى). واعتز المعتصم بحماية الترك، ويدل على ذلك بيتان نُسبا له:

قرِّب النحام واعجلْ يا غُلامْ واطرح السرج عليه واللجامْ

أعلِم الأتراكَ أنِّي خائضٌ لُجَّةَ الموتِ فَمَنْ شَاءَ أقَامْ [٣٣]

وعبر عن ذلك علي بن الجهم (المتوفى عام ٢٤٩هـ) في قصيدة مدح بها المعتصم حيث قال:

ورافِضَةٍ تَقُولُ بِشِعْبِ رَضْوى إمَامٌ، خَابَ ذلك من إمامِ

إمامِيّ مَنْ لَهُ سَبْعُونَ ألفاً منَ الأتراكِ مُشْرَعَةُ السِّهامِ

إذا غضِبُوا لِدينِ اللهِ أرضَوْا مَضَارِبَ كلِّ هِنْدِيٍّ حُسَامِ [٣٤]

وبهذا بدأ عصر السيطرة التركية على أمور الدولة ، س وبرزت أسماءُ قواد الترك من أمثال أشناس ، ووصيف ، وبُغا ، وابن طولون ، وباغِر ، وتوزون وغيرهم كثير ، واستطاعوا في نهاية الأمر أن يكونوا هم الحكام الفعليين للدولة الإسلامية وتغلبوا على الخلفاء وخلعوا وقتلوا من لا يعمل حسب رغباتهم وكان ما أقدم عليه المعتصم مثار سخط العرب ، فقال دِعْبِل بن علي الخزاعي (المتوفى عام ٢٤٦هـ) يهجو المعتصم :

لقد ضَاعَ أَمرُ الناسِ إذ سَاسَ مُلْكَهم (وَصِيفٌ) و أشناسٌ) وقد عَظُمَ الكَرْبُ
وهمُّكَ تُركيٌّ عليه مَهَانَةٌ فأنتَ لَهُ أُمٌّ وأنتَ لَهُ أَبُ (٣٥)

وقال صاحب الزنج علي بن محمد الذي ظهر في فرات البصرة عام ٢٥٥هـ يخاطب بني العباس ، ويعاتبهم على ما قاموا به من تقديمهم الترك على العرب :

بنِي عمِّنَا إنَّا وأنتُمْ أناملٌ تَضَمَّنَهَا من راحتَيْهَا عُقُودُهَا
بنِي عمِّنَا ولَّيتُم التُّرك أَمرنا ونحنُ قديماً أَصْلها وعمُودُها
فما بالُ عُجْمِ التُّركِ تُقْسِمُ فيْئَنَا ونحنُ لديها في البِلَادِ شُهودُها (٣٦)

والمعتصم باتخاذه الترك حماة وسنداً له كان يظن أنهم سوف يمنعونه ويمنعون أبناءه من بعده من الفتن والنوائب ، ولكنهم كانوا هم أصل الفتن والنوائب من بعد وفاته .

فطغى قواد الأتراك لما وجدوا في الخلفاء ضعفاً ، واستفردوا بالحكم ، وكان المتوكل على الله ابن المعتصم من زوجته التركية (شجاع) أول ضحايا الترك ، فهجموا عليه مع وزيره الفتح بن خاقان وقتله باغر التركي عام ٢٤٧هـ ، وفي

ذلك يقول يزيد بن محمد المهلبي (المتوفى عام ٢٥٩هـ وهو يرثيه، ويعرِّض بسياسة الخلفاء العباسيين في تقديمهم للترك على العرب الأحرار الذين يملكون القدرة على حمايتهم لو بذلوا عطاياهم ونعمهم لهم:

جاءُوا عظيماً لِدُنْيَا يسْعَدُونَ بِهَا ... فقد شَقُوا بالذي جَاءُوا وما سَعِدُوا

. . . .

لَمَّا اعتقدْتُم أُناساً لا حُلُومَ لهم ... ضِعْتُمْ وضَيَّعْتُمُ مَنْ كَانَ يُعْتقَدُ

ولو جَعلْتُم على الأحرارِ نِعْمَتكُمْ ... حَمَتْكُم السَّادَة المذكورةُ الحُشُدُ (٣٧)

ومقال علي بن الجهم ـ الذي أيد المعتصم من قبل في هذا الأمر ـ مشيراً إلى هذا الصنف من العبيد:

فيَالِجُنُودٍ ضيّعتْهَا مُلوكُهَا ... ويَا لُملُوكٍ أَسلَمَتْهَا جنُودُها (٣٨)

فلا طَالَبٌ للثأرِ من بعدِ موتِهِ ... ولا دافِعٌ عن نفسه من يُريدُها

عبيدُ أميرِ المؤمِنِينَ قَتَلْنَهُ ... وأعظمُ آفاتِ الملوكِ عبيدُها

نعم فلا طالب للثأر، ولا يمكن للتالي أن يدفعهم عن نفسه، فبعد مؤامرة قتل المتوكل فُتح الباب على مصراعيه للعبث التركي بمصير الخلفاء وللفتن والشغب، فعندما قتل بُغَا التركي بَاغِرَ التركي وهاجت الأتراك على المستعين بالله في عام ٢٥١هـ وخافهم وانحدر من سرَّ من رأى إلى بغداد قال أحمد بن الحارث الخرّاز (المتوفى عام ٢٥٧هـ):

لَعَمرِي لئن قَتَلُوا باغِراً ... لقد هَاجَ باغرُ حرْباً طَحُونا

وفرَّ الخليفَةُ والقائِدَا ... نِ باللَّيْلِ يلْتَمِسُونَ السَّفِينَا

وحلَّ بِبَغْدَادَ قَبْلَ الشُّرُوقِ ... فَحلَّ بِهِمْ مِنهُ ما يَكْرَهُونَا

فَلَيْتَ السَّفِينَةَ لم تأْتِينَا ... وغرَّقَهَا اللهُ والراكِبِينَا (٣٩)

وبعد هذا الرعب الذي عاش فيه المستعين خلعوه عام ٢٥٢هـ، في ذلك يقول واحد من الشعراء:

خُلِعَ الخَلِيفَةُ أحمدُ بنُ مُحَمَّدٍ وسيُقْتَلُ التالي لَهُ أو يُخْلَعُ
ويَزُولُ مُلْكُ بني أبيه ولا يُرَى أَحَدٌ تَمَلَّكَ مِنْهُمُ يستَمْتِعُ

ثم قتَلُوا المستعين، فقال شاعر يظن أنه البحتري:

للّهِ دَرُّ عِصَابَةٍ تُرْكِيَّةٍ رَدُّوا نوائبَ دَهْرِهم بالسَّيْفِ
قَتَلُوا الخليفةَ أحمدَ بن محمدٍ وكَسَوْا جَمِيعَ الناسِ ثَوبَ الخَوْفِ
وطَغَوا فأصبح مُلْكُنا مُتَقَسَّماً وإمامُنَا فيه شَبِيهَ الضَّيْفِ (٤١)

وقال شاعر آخر:

أطَافت بِنَا الأتراكُ حولاً مُجرَّما ومَا بَرَحَتْ في جُحْرِهَا أُمُّ عَامرِ
أقَامتْ على ذُلٍّ ومهَانةٍ فَلَمَّا بَدَتْ أبْدَتْ لُؤْمَ غادِرِ
لم تَرْعَ حقَّ المسْتعِين فأصبحتْ تُعِينُ عليه حادِثاتِ المقادِرِ (٤٢)

وتعرض المعتز بالله لمؤامرات الترك بعد أن أغدق عليهم وأمّرهم، ويشير البحتري إلى مؤامرة بُغَا الصغير للوثوب على المعتز وطمعه في الحكم، وذلك بقوله:

طَلَبَ العِمامةَ والقَضيبَ وأيْنَ لم تَبْلُغْ حَمَاقَةُ ذَلِكَ الحَجّام؟
أتُراهُ وُهِّمَ أنَّهُ أهلٌ لَهَا سَفَهًا تَعَدِّي هذه الأوْهامِ
قَدْ رَامَ تَّرِيقَ المَوالِي بعدما جُمِعُوا عَلَى مليكٍ أغَرَّ هُمامِ
مُتَعَزِّزٍ باللهِ، أصبح نِعْمةً لله سابغةً على الإسلامِ
....
مَا غَرَّكُمْ منهُ وقدْ جَرَّبْتُمُ سَطَواته في سالِفِ الأعْوَامِ

إلى أن يقول في قضائه على بُغَا :

فـاليـوْمَ عـاوَدَتِ الخلافـةُ عـزَّهـا وأضـاءَ وجـهُ المُلكِ بعـد ظـلَامِ
أضْحـى بُغَـاءُ وأقْـرَبـوهُ وحـزْبُـهُ وكـأنَّهُمْ حُلـمٌ مـن الأحـلامِ
طـاحُوا فما بَكَـتِ العُيُـونُ عَلَيْهِـم بِدُمُـوعِهَا، ومَضَـوا بغيْرِ سَـلَامِ

ولكن المعتز بـالله لم يسلم منهم وكان مصيره مثـل مصير والده المتوكـل، فقد خلع ثم قتل وفي ذلك قال بعض الشعراء :

عَيْنِ لا تَنْجَلي بسفـحِ الـدُّمـوعِ وانـدبي خيرَ فـاجعٍ مفْجـُوعِ
. . . .
بَكَـرَ التُّركُ نـاقمينَ عَلَيْـهِ خـالِعيـهِ، أفـديـه مـن مخْلـُوعِ
. . . .
أضْبـحَ التُّرْكُ مـالكـي الأمـر والعـا لَمُ مـا بين سـامعٍ ومُطِيـعِ
وتـرى الله فيهـم مـالـك الأمـر سيخـزيهم بقتـلٍ ذريـعِ (٤٤)

وقال شاعر آخر يتوعدهم وينذرهم جزاء ما اقترفوا في حق المعتز:

أَيُّهَا التُّرْك سوف تلقون للدهـر سُيُوفاً لا تسْتَبِلّ الجَريحـا
فاستعدوا للسَّيْفِ عاقبة الأمـر فقد جِئْتُم فِعَالاً قَبِيحا (٤٥)

وكان هذا حصاد سياسة المعتصم ، ولخص هذا الأمر الشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيـب (المتوفى عام ٧٧٦هـ) بعد عدة قـرون في وصفه للمعتصم في البيت التالي :

وهـو الـذي تـألَّفَ الأتْرَاكَـا فنَـصَبُوا لِقَـوْمِـهِ الأشْـرَاكَا (٤٦)

وكان أبو الطيب المتنبي (المتوفى عام ٣٥٤هـ) مدركاً لحقيقة هؤلاء القوم، فقال وهو يعزي سيف الدولة الحمداني عن عبده التركي يماك وينبهه إلى كفاية العرب لكل أمر فهم خير من الترك:

إنَّ الذي أمْسَتْ نِزَارٌ عَبِيدَهُ ... غَنِيٌّ عن استعبادِهِ لغريبِ (٤٧)

ورسم لنا صورة لبلاد الإسلام التي طاف بها من العراق والشام ومصر وفارس، فوجد العرب تحكمهم الترك الذين لا يملكون مقومات الحكم من الأدب والحسب والوفاء بالعهد، فقال:

وإنَّمَا النَّاسُ بالمُلُوكِ وَمَا ... تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ

لا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ ولا حَسَبٌ ... ولا عُهُودٌ لَهُمْ ولا ذِمَمُ

بِكُلِّ أرْضٍ وطِئْتُهَا أُمَمٌ ... تُرْعَى بِعَبْدٍ كأنَّهَا غَنَمُ (٤٨)

وقال أبو طايب المأموني (المتوفى عام ٣٨٣هـ) في مدح أحد الوزراء ببخارى:

سألْتُ اللهَ مبْتَهِلاً مُنَاكَا ... فأَضْعَفَ ما سألْتَ وقالَ: هاكَا

وردَّ على يَدَيْكَ المُلْكَ لَمَّا ... غَدَا بالتُّرْكِ يُنْتَهَكُ انتهاكَا (٤٩)

وعندما أسس الملك الصالح نجم الدين أيوب جيشه من المماليك الأتراك واستكثر منهم في منتصف القرن السابع الهجري قال شاعر يتألم لذلك:

الصَّالح المُرْتَضَى أيُّوبُ أكثَرَ مِنْ ... تُرْكٍ بدَوْلَتِهِ يا شرَّ مَجْلُوبِ

قدْ آخَذَ اللهُ أيُّوبًا بفَعْلَتِهِ ... فالناسُ كُلُّهُمْ في ضُرِّ أيُّوبِ (٥٠)

وبالرغم من ذلك، فإن القادة الأتراك كانوا سنداً للخلفاء طالما اتفقت المصالح، فأظهروا الولاء والنصح والنصرة. فلو تصفحنا ديوان الشاعر البحتري (المتوفى عام ٢٨٤هـ) ـ الذي كان شاهداً على أحداث عصره، وحضر وقعة قتل

المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ــ نجد صورة أخرى للترك أو (الموالي كما كان يسميهم)، فهم حماة الخليفة ويده في البطش بخصوص وهم ناصحوه والأمناء على العهد. ومما يستغرب له أن البحتري لم يذكرهم ولم يوضح دورهم في مقتل المتوكل. وهذا جزء من الصورة التي رسمها البحتري للترك، فيقول في مدح الفتح ابن خاقان وهو تركي الأصل:

غَدَا وهو طَودٌ للخلافةِ ماثلٌ وحَدُّ حُسَامٍ للخليفةِ مِقْضَبِ
إنِ العَرَبُ انقادَتْ إليكَ قُلوبُهَا فقد جِئْتَ إحساناً إلى كُلِّ معْرِبَ
شَكرتُكَ عن قَوْمِي وقومِكَ، إنَّني لِسانُهُمَا في كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبِ (٥١)

وقال أيضاً يمدحه:

أَمِينُ بنِي العَبَّاسِ في سِرِّ أمْرِهِمْ وعُدَّتُهُمْ للخَالِعِ المُتَمَنِّعِ
فَمَا هُوَ بالسَّهلِ الشَّكِيمَةِ دُونَهمْ ولا فِيهِم بالمُدْهِنِ المُتَصَنِّعِ (٥٢)

وقال:

يَصُونُ بَنُو العبَّاسِ سَطْوَةَ بأسِهِ لشغْبِ عِدًى يَعْتَادُ أو حَادِثٍ يَعْرو
يَبِيتُ لَهُم حيثُ الأمَانةُ والتُّقَى ويَغْدُو لهم حيثُ الكِفَايةُ والنَّصرُ (٥٣)

وقال في نصرتهم للمعتز وفي الإشادة بفضل الموالي الثلاثة بُغَا وسِيمَا الشرابي وشيخهم (وَصِيف):

أمَّا المَوَالي فجندُ الله حَمَّلهُمْ أنْ يَنْصُرُوكَ فقَدْ قامُوا بما احتَمَلُوا
بَقَاؤهمْ عِصْمةُ الدنيا، وعِزُّهُمُ سِتْرٌ على بَيْضَةِ الإسلامِ مُنْسَدِلُ
. . . .

قدْ جَاهِدُوا عنكَ بالأمــوالِ وافِــرَةً وبـالنُّفُـوسِ ونـارُ الحَـرْبِ تشتعِـلُ

يُواتِـرون تِبَـاعَ الكَـرِّ إنْ رَكِبُـوا ويَصدقـونَ دِراكَ الطَّعـنِ إنْ نَـزَلُـوا

. . . .

مـا مِثْـلُ شيْخِهـم حـزْمًـا وَتَجْرِبَـةً ولاَ كَبَـأسِ فَتَاهُـمْ حينَ يَعْتَمِـلُ

ثلاثـةٌ جِلَّةٌ إن سُـوروا نَصَحُـوا أو استُعِينوا كَفَـوْا أو سُلِّطـوا عَـدَلُوا

فاسْلَـمْ لَهُمْ ما دَعَتْ صُبْـحًا مُطوَّقـةٌ وَلْيَسْلَمُوا لَكَ مـا حنَّتْ ضُحَـى إبِلُ (٥٤)

وفي القواد الأتراك الثلاثة أيضاً يقول البحتري :

أَوْلَتْكَ آراءُ المــوالـي نُصْـرَةً بسُيُـوفِهـمْ والمُلْكُ جـدُّ مُـمَـزَّقِ

مِـنْ نـاصرٍ بِحُسَامِـهِ، ومُخَذِّلٍ عَنـكَ العَـدُوَّ برَأيِـهِ المُسْتوثِـقِ

كـلٌّ رِضًـى، وأرَى ثـلاثَتَهُـم كَفَـوْا قَسْـرَ المُمـانِعِ وافتتـاحَ المُغْلَقِ

لَهُمْ احتيـاطُ المعتنـي ومَقَـاوِمَ الـكَـافي ورَفْرَفَةُ النَّصيـحِ المُشفِقِ (٥٥)

بل نجده يمـدح القائد صالح بـن وصيف الذي كـانت له يد في قتـل المعتز وإهانة أمه قبيحة ، فقال :

نَصِيـحُ أميرِ المؤمنـينَ وسِيفُـهُ ومـا مُضْمِـرٌ غِشـا كآخَـرَ نـاصِحِ

تُـؤيـدُ رُكْنَيْـهِ المـوالي ويَعْتَـزِي إلى مَـذْهَبٍ عند الخليفة واضح (٥٦)

وأشار إلى مساندة الأتراك للخليفة المهتدي بالله بقوله :

كَتـائِبُ نصرُ اللهِ أمضَـى سِلاَحِهَـا وعـاجلُ تَقْـوَى الله أكْـبَـرُ زَادِهـا

عليهـن مـن شُـوسِ الموالي فـوَارِسٌ عِـدادُ حَصَـى البطحـاءِ دُونَ عِـدَادِهـا (٥٧)

وقال يمدح القائد التركي اسحاق بن كُنداجيق الذي قلده المعتمد السيفين وتوجه عام ٢٦٩هـ :

وأُرُومـةٍ في المُلْكِ خَاقَانيّةٍ تَعْتَمُّ أفنانـاً وتكـزمُ عُنْصـرًا (٥٨)

وقال فيه أيضاً :

قَادَ آباؤُهُ الجيادَ مُلُوكـاً قَبْلَ قَوْدِ الجِيَادِ مِن ذي رُعَيْنِ (٥٩)

وإذا تركنا البحتري الذي أسرف في مديح الأتراك ، نجد شعراء آخرين مدحوا القواد الأتراك ، يدفعهم إلى ذلك ما يرونه من حمايتهم للخلافة الإسلامية ، كما فعل الشاعر والأمير العربي ابن حيُّوس (المتوفى عام ٤٧٣هـ) بمدحه القائد التركي أنوشتكين الدزبري والي دمشق فقال :

فلْتَعلُ أرضُ الترك أنّ تُرابَهَا مَا حازَ أصلاً فَرْعُهُ لا يُنْجِبُ (٦٠)

وقال في مدحه أيضاً :

مَا لعِرْقِ الأتْرَاكِ لا اجتثَّهُ الدَّهرُ ولا مَالَ دَوحُهُ لانقِصافِ
فَأراهُم قَوادِمًا في جَنَاحِ العِزِّ والنَّاسُ دُونهمْ كالخَوافِي
مَعْشَرٌ يُنْسَبُ الفَخارُ إليهِمْ فَتكَاتٌ لِكلِّ ضَيمٍ نَوَافِ (٦١)

وقال الشاعر الأرّجاني (المتوفى عام ٥٤٤هـ) يمدح الخليفة المستظهر بالله (ما بين عامي ٤٦٧ ـ ٤٨٧) و يشير إلى نصرة الجيوش التركية له :

والليلُ كالرايةِ السَّوداءِ قدَّمها للصُّبْحِ خيلٌ تُرى مُبْيَضَّةَ الغُرَرِ
يَحْكِي لواءَ بني العبَّاسِ يَوْمَ وغى إذا بَدَا، وجيوشُ التُّرْكِ في الأثر

لا حائدٌ عَنْهُمَا يَنْجو على بُعُدٍ   أن يُدْرِكَاهُ ، ولا يأوي إلى وَزَرِ
هُمَا اللَّذانِ إذا مَالاَ عَلَى أُمَمٍ   لم يُبْقِ مَرُّهما شيئاً ولم يَذَرِ [٦٢]

وكثر الثناء على الأتراك وقيادتهم للجيوش في زمن الحروب الصليبية ، ودفاعهم عن حوزة الإسلام ، فهذا ابن الخياط (المتوفى عام ٥١٧هـ) يمدح الأمير مجد الدين عضب الدولة أبق أمير دمشق ويحضه على الجهاد ضد الصليبيين و يذكره بما قدمه السلطان السلجوقي ألْب أرسلان ، **فقال** :

فإن ألْب رَسْلانَ في مِثْلِها   مَضَى وهو أَمضَى من السَّيفِ حَدَّا
فأَصْبَحَ أبقَى من الفرْقَدَيْـ   ـنِ ذِكْرًا وأَسْنَى من الشمسِ مَجْدَا
ولَعَلَّكُم أنْ تُعِيدُوا مِنَ الـ   ـمَآثر والمجدِ مَا كَانَ أبْدَا
وهذا ابنُهُ قَائمًا فيكُمُ   مقام المُفاخِرِ جدًّا وجدَّا

إلى أن يقول :

بَقِيتُمْ ولا زِلْتُمْ في اللقاءِ   بُدُوراً تُوافِقُ في الأفقِ سَعْدَا
ولا بَرِحَ العِزُّ للمُسْلِـ   ـمِينَ من بَحْرِكُمْ أبداً مُستَمَداً
فَلَسْنَا نَرَى بعد طُول البَقَا   ءِ أكْرَمَ مِنْكُمْ على اللهِ وَفْدَا
وقَدْ قِيلَ في التُّرْكِ إنَّ الذي   يُتَارِكَهُم أسْعَدُ الناسِ جَدًّا [٦٣]

وقال ابن سناء الملك (المتوفى عام ٦٠٨هـ) يمدح صلاح الدين الأيوبي ودولته التي جمعت شمل المسلمين وصموده في وجه الصليبيين :

بدولة التُّرْكِ عزّت ملّةُ العَرَبِ   وبابن أيُّوبَ ذَلَّت شِيعَةُ الصُّلُبِ [٦٤]

وقال شهاب الدين محمود (المتوفى عام ٧٢٥هـ) في انتصار السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون على الصليبيين في معركة عكا سنة ٦٩٢هـ :

الحمد لله زَالَتْ دَولةُ الصُّلُبِ   وعَزَّ بالتُّرْكِ دِينُ المُصْطَفَى العَرَبي

وفي زمن الغزو المغولي أيضاً تصدى سلاطين المماليك لهم واستطاعوا أن يدحروهم ويكسروا شوكتهم، وأن ينقذوا ديار المسلمين من شرهم، ولهذا كثر مدح هؤلاء المماليك الأتراك لما قاموا به من حماية للإسلام، ففي انتصار السلطان قلاوون على التتار سنة ٦٨٠هـ في حمصث يقول الشاعر محمد بن سراج المنبجي البزاز (المتوفى عام ٧٢٣هـ):

وغَــزَوتِ تُـرْكَهـم بتُـرْكٍ مثْلها ... فتَقَطَّعَـتْ مـا بينهـا الأرحـامُ (٦٦)

وقال عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة (المتوفى عام ٦٦٥هـ) في انتصار سيف الدين قطز المملوكي على التتار في موقعة عين جالوت عام ٦٥٨هـ:

غَلَبَ التتارُ على البِلادِ، فَجَاءهم ... مِـن مِصْـرَ تُرْكِيٌّ يَجُودُ بِنَفْسِهِ
بالشَّامِ أهْلَكَهُمْ، وبَدَّدَ شَمْلَهُمْ ... ولكُلِّ شيءٍ آفـةٌ مِنْ جِنْسِهِ (٦٧)

الشعوبية:

لما أطَلّت الشعوبية بوجهها القبيح في العصر العباسي واستفحل أمرها لم نجد للترك دوراً فيها. ولم نجد لهم شاعراً يذود عنهم ويمجدهم، فهم ليسوا طرفاً في القضية التي دارت بين العرب والفرس. إلا أنّه قد ترد أحياناً إشارات إلى وجود شيء من افتخار الترك بأنفسهم بشكل خفي، كما في تلك المفاخرة التي جرت في مجلس القُتبي صاحب بيت حكمة المأمون ورواها على بن زُريق (المتوفى عام ٤٢٠هـ)، وقد جرت بين عربي وفارسي وتركي ورومي، فافتخر المنتمي للترك بقوله:

التُّركُ لَمْ يُمْلَكوا في دَارِ مُلْكِهِم ... والفُرْسُ قـد مُلِكُوا والرُّومُ والعَرَبُ
هـذا لَعَمرُكَ فَضْل ليس يَجْحَدُهُ ... إلاّ حسـودٌ عَنيدٌ مـا لـه أدب (٦٨)

وقال شاعر من العجم هو أبو عبد الله البنداري الديلمي (من شعراء القرن الخامس الهجري)، يرد على من عاب عليه أن أخواله من الترك :

أخْوَالِيَ التُّركُ لا أبْغِي بهم بـــدَلاً ... ولَيْسَ رَأيُ الرِّضَى مِنِّي بمَغْبُونِ (٦٨)

وقال شاعر آخر هو أبو الحسين الطّوْلَقي (من أهل القرن الخامس الهجري) يدافع عن الأتراك :

ألا يا عائبَ الأتْرَاكِ مَهْلاً ... فَلَيْسَ إلى مَعَائبهِم سُلُوكُ

. . . .

فحرُّهُمُ على الأحرَار مَلْكٌ ... وعَبْدُهُم لِمَالِكِهِ مَلُوكُ

كفى الأتْرَاكَ أنَّ الناس طُرّاً ... رعاياهم وأنَّهُم مُلُوكُ (٧٠)

ولا نكاد نعثر على أمثلة أخرى لافتخار الترك بأنفسهم وأمجادهم كما فعل الفرس، بل نجد أن الترك اختاروا الانحياز إلى الجانب العربي، والتقرب إلى أصحاب الخلافة وافتخروا بأنهم موالي العرب (٧١) . وفي سبيل التقرب من العرب زعموا أنهم من نسل رجل من مَذْحِج كان قد هبط إلى بلاد الترك فأنسل نسلاً كثيراً(٧٢) . وقابل الشعراء العرب هذا الادعاء بالاستهجان والعجب، فقال شاعر يستنكر ادعاءات غير العرب في قصيدة منها :

متى شَاءَ مِنكُم مُفْرَج كان جدُّهُ ... عُمارةَ عَبْسٍ خيْرَ تلكَ العَمائِرِ

فَقَدْصِرْتُ لاَ أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ نَاسِيًا ... لَعَلَّ نِجَارًا مِنْ هِلاَلِ بْنِ عَامِرِ

وعَلَّ رِجَالَ التُّرْكِ مِن آلِ مَذْحِجٍ ... وَ عَلَّ تَمِيمًا عُصْبَةٌ مِنْ يُحَابِرِ (٧٣)

وفي روايةلله أوردها الجاحظ يقول :

زعمتم بأنَّ التُّركَ أَبْنَاءُ مَذْحِجٍ ... وبيْنكُمْ قُرْبَى وبيْنَ البَرَابِرِ

وردَّ شاعر آخر على زعم الأتراك أنهم من مذحج بقوله :

مَتَى كـانـت الأتـراك أبنـاء مـذحِجٍ ألاَ إنَّ في الدُنْيَـا عَجِيبـًا لِمَنْ عَجِـبْ (٧٥)

وكانت العرب تعلم أن الترك من أبناء يـافث بن نوحٍ (٧٦) ، كما ورد في شعـر الملـك الرائش الـذي مر ذكـره في أول المقـال ، وفي قول الأبيـوردي (المتوفى عـام ٥٠٧هـ) :

عليها كماةُ التُّركِ مـن فـرعِ يـافثٍ كَثـيـر بمُسْـتَنِّ المَنَايـا نُزُولُهَا (٧٧)

وقول الزمخشري (المتوفى عام ٥٣٨هـ) :

ويَـارُبَّ يـَوْمٍ أُهـدِيـَتْ لِي وَصِيفَـةٌ مـن اليـَافِثِيَّاتِ المِـلاحِ لَعـُـوبُ (٧٨)

الصراع العسكري:

كان العصر الأموي عصر الفتوح في بلاد الترك ، وفي العصر العبـاسي توقفت تقريبـاً هذه الفتوح ، وأصبحت معظـم بلاد الترك تحت ظل الخلافة العبـاسية ، ولهذا لا نكاد نعثـر على شعر يـذكرالقتـال ضد الترك إلاَّ النـزر اليسير كما في قول مسلم بن الوليد صريع الغواني (المتوفى عام ٢٠٨هـ) يمدح المأمون :

وَرَدَتْ على (خـاقـان) خَيْلُـكَ بعْدَمـا كـره الطِّـعانَ وقـد أطَلْـنَ عِـرَاكـا

حتَّى وردنَ وراء (شاشَ) بمـنـزلٍ تَرَكَـتْ بـِهِ نفَـلاً لَـهُ الأتْرَاكـا (٧٩)

إلا أن هناك صفحة أخرى من الصراع العسكري قد فتحت بين العرب والترك في داخل بلاد الإسلام ، وتمثلت هـذه في الفتن والخروج على الخليفة والثورات في كل عصر. كما تمثلت في هجـوم التتار أو المغول وهم جنس مـن الترك لم يدخلوا الإسـلام . فمن مظـاهر الصراع الـداخلي قول السّرى الـرَّفَّاء (المتـوفى بعد عـام ٣٦٠هـ) في مدح سيف الدولة الحمداني :

فَقَـدْ تـارَكَتـهُ التُّرْكُ لمَّا تأمَّلَتْ سُطـاه ولـو لاقتـهُ لاقـتْ مُبيرَهـا
أزارَهُم أُسْدَ العَرِيـنِ خَـوادِرًا تـُرَدِّدُ في غـابِ الرِّمـاحِ زئيرَهـا (٨٠)

وقال عبدان الأصفهاني المعروف بالخوزي (من القرن الرابع الهجري) يصف فتنة الترك:

تـرَكْنا لخَوفِ الخَيْلِ والتُّرْكِ دُورَنـا فللّـهِ صـرف الدهـرِ كيفَ تـرَدَّدا
دَهاليـزُنا ضـاقَتْ لِـخَوْفِ نُزُولِهـم كـأنَّا يَهودٌ نـدخلُ البـابَ سُجَّدا (٨١)

والشاعر ابن حيُّوس (المتوفى عام ٤٧٣هـ) الذي طالما تغنى بمدح قواد الترك تذكر عروبته في غمرة ذلك الصراع، فقال يمدح أحد أمراء العرب وهو مسلم ابن قريش العقيلي صاحب الموصل لما استولى على حلب:

في يَوْمِ قَارٍ رَايـةٌ لـكَ فَهَّـمَتْ مِنْ قادَةِ الأتـْرَاك مَـنْ لَـمْ يَفْـهَمِ

. . . .

في عُصْبةٍ كعْبِيَّـةٍ تَـرَكـوا القَـنَا مُتَعَوِّضِـين بكـلِّ أبيـضَ مِخْـذَمِ

. . . .

مِنْ مُرْهَفَاتٍ لَمْ تَـزَلْ أيمـانُكُم أنصعارَهَا فـي كُـلِّ يَـوْمٍ أيْـوَمِ
ما عايَنَتْها التُّرْكُ تعحْكُمُ فـي الطُّلَى حتَّـى طـائـشَاتِ الأسهُـمِ (٨٢)

وقال يمدح أحد أمراء المرداسيين من بني كلاب بحلب:

وكـانت التُّرْكُ بـالأعرابِ جـاهِلَةً حتى أَتَحْتَ لَـهَا أنْ تَعْرِفَ العَرَبَا
لاقَـوْهُم بِرِمـاحٍ طَالَمَا انحطَمَتْ واستَخْلَفَتْ في العِدَى الهنْدِيَّةَ القُضُبا

وللشاعر الحسين بن جعفر الضرير البندنيجي الهمذاني (من أهل القرن الخامس الهجري) مدح في سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد ويذكر فيها

فعله يوم آمد في الوقعة بين مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل وفخر الدولة بن جهير يقول فيها :

كيَوْمِ عَقِيلٍ والرِّمَاحُ شَوَاجِر ... وبِيضُ الظُبَى يُرْدِي الكُماةَ ضِرَابُها
غَدَاةَ غَدَتْ للتُّرْكِ في الحَيِّ وَقْعَةٌ ... أباحَتْ حِمَى دارٍ عزيزٍ جَنَابُها
فأُقسِمُ لولا نَخْوةٌ مَزيَدِيَّةٌ ... لبَاتَتْ على حُكْمِ السِّباءِ كِعَابُهَا
ولكن سيفَ الدولة ابنَ بَهَائِهَا ... حَمَى عِرْضَهَا والترك تحْرُقُ نابُها [٨٤]

وقال في مدح ألْب قَرَا البكجي أمير التركمان :

وأختارَكَ الله للأعرابِ مثلَ عَصَا ... موسى ليقْلِقَهُمْ ضَرْباً على الهادِي
لما عبرت إلى غَرْبِيِّ دِجْلَةَ في ... جَيْشٍ من التُّركِ سَيْرًا غَيرَ إروادِ [٨٥]

ولكن أعظم الخطوب التي حلت بالبلاد الإسلامية كان الغزو المغولي، وسجل الشعر العربي ما حل بديار المسلمين من خراب ودمار على يد الجيش التتري [٨٦] . ونشير هنا باختصار إلى ظلم ووحشية هذا الصنف من الترك، ومقاومة العربي له : فقال علي بن المقرب العيوني (المتوفى عام ٦٢٩هـ) يمدح صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ الذي تجهز لقتال التتار والصليبيين :

فقاد إلى الإفْرنْجِ جَيْشًا زُهَاؤُهُ ... عَدِيدُ الحَصَا ذا أَزْمَلٍ وَزَمَازِمِ
وَجَيْشًا يُوارِي الشَّمسَ رَيْعَانُ نَقْعِهِ ... إلَى التُّركِ إذْ جَاءُوا لِهَتْكِ المَحَارِمِ
إذَا التَّتَرُ الباغُونَ ذَاقُو لِقَاءَهُ ... تَمَنَّوْا بأَنْ كَانُوا دَمًا في المَشَائِمِ
سَتَبْقَى بِهِ الإفْرِنْجُ والتُّرْكُ ما بَقَتْ ... كَأنَّ حَشَايَاهَا ظُهُورُ الشَّيَاهِمِ [٨٧]

وعندما استعد الخليفة العباسي المستعصم بالله للقاء التتار الذين توجهوا صوب بغداد مدحه الناصر بن المعظم (المتوفى عام ٦٥٥هـ) بقوله :

لَقِيتَ مُلُوكَ التُّرْكِ إذْ جاءَ جَمْعُهَا ... تُجَالِدُ دِينَ الله بالكِبْرِ والكُفْرِ

وقد نهب هـؤلاء الترك الجدد القرى وتـركوهـا أثـراً بعد عين ، فقـال يحيى بـن يوسف الصرصري الذي استشهد عند دخول التتار إلى بغداد عام ٦٥٦هـ :

مَحَقَتْ طُغَـاةُ التُّرْكِ أطْرافَ القُرَى   فالـمَـال نَـهْبٌ والـمَـنَازِلُ بَلْقَعُ (٨٩)

وسبـوا نساء المسلمين وهتكـوا المحـارم ، كما قال تقـي الـديـن إسماعيل بـن إبراهيم التنوخي (المتوفى عام ٦٧٢هـ) وهو يبكي بغداد وما حل بها على يد التتر الأتراك :

وكَـمْ حـرِيـمٍ سَبَتْهُ التُّرْكُ غَـاصِبَةً   وكَـانَ مـنْ دُونِ ذَاكَ السِّتْرِ أسْـتَارُ (٩٠)

صفات الترك :

لقد اتسعـت مجالات الاختلاط بـالترك في العصر العبـاسي بصـورة أوسع ممـا كانت عليه في العصر الأموي ، فكان ذلك أدعى لأنّ تزداد معرفة العرب بأخلاق الترك وطبـاعهم وصفـاتهم . فمـن أبـرز ما اتصفـوا بـه الشجـاعة والشراسـة في القتـال ، ودقـة الرمـي ، والمهـارة في نصـب الأوهـاق وكـل ما يتصـل بـالحرب والجنديـة . ففي نصـب الأوهاق يُشبّه علي بـن الجهم مـلاحي السفينـة وهـم في وضع الانحناء ليشدوا حبـالها التي التفت حول أوساطهم بـالأسرى الذين وقعوا في وهق للترك ويحاولون الهرب وقد ألتفت حولهم الأناشيط ، فقال :

وجمع ابن الرومي (المتوفى عام ٢٨٣هـ) كل صفات الترك الحربية في قصيدة له مليئة بالصور الحيـة : فهم الأسود وُجُوهاً ولكنهم أدهـى ، لهم سهام هي (بنات المنايـا) لا تخطىء من صوبـت نحوه ، متعطشون للدم ، يسـددون الضربات في حالة الإقبـال والإدبار ، أشداء في النزال والطعان وفي الكرّ ، لهم شهـامة الليث ، والغنيمة في ترك ملاقـاتهم ، وشهد لهم عدوهم قبل صديقهـم . ولنقرأ الآن هذه

القصيدة الرائعة لابن الرومي والتي حشد فيها صوراً بلاغية شتى :

ولكنَّهم أدْهى دَهاءً وأنْكَرُ ... ترى شبهَ الآسادِ فيهم مبيَّناً
وألحاظُهُم ألحاظُها حين تَنْظُرُ ... وُجُوهُهُم عِنْدَ اللقاء وُجُوهُها
لَهُمْ منظرٌ مِنْها مَهِيبٌ ومَخْبَرُ ... هُم هي ، لولا إرْبهُم وحُلُومُهُم
بناتُ المَنَايا والجيُّ المُدَثّرُ ... لهم عُدَّةٌ تكْفيهِمُ كُلَ عدةٍ
بتسمِيَةِ القرآن فيها يُفَسَّرُ ... هي القوةُ الحقّ المُسَمَّاة قوة
خِفَافاً مع الآجحال تَعْلُو وتَقْصُرُ ... يزُلُّون عن أكْبادِ كل حَنيَّةٍ
مواقعُها فيها يَشاءُون يُقْدَرُ ... نواها نَواهم في الرَّمايا كأنَّما
يَكادُ لُعابُ الموتِ مِنهُنَّ يَقْطُرُ ... لها ألْسُنٌ ما تستَفِيقُ لَهَاتُهَا
لها مَوْرِدٌ من غير مأتاه تَصْدُرُ ... ظِماءٌ إلى وَرْدِ الدماءِ نَوَاهِلٌ
حقيقتُه لم يخزَ منه المذمَّرُ ... يولي المُوَليِّ منهم وهو مانعٌ
يليكَ بحدٍّ مِثْلِه حينَ يُدْبِرُ ... يَلِيكَ بحَدٍّ شائكٍ وهو مُقْبِلٌ
تَلَقَّاكَ مِنْها جانبٌ يتسعَّرُ ... هو النارُ من أي النَواحي غشيتها أو
رهقْتَ حِمَامَ الموتِ أو يتأخَّرُ ... الرمح ذُو النَّصْلَيْنِ كيفَ رَهِقْتَهُ
يُدَمِّرُ فيها سادِرًا ما يُدَمَّرُ ... تكونُ له إجفالةٌ ثم كرَّة
تكون له إجلاءة ثم يَعْكُرُ ... كذلك تلقى الليث فضل شهامة تراكُهُمُ ما
شهيدِي رسول الله والحقُّ يَبْهَرُ ... تارَكُوكَ غنيمةٌ
وهل نشاهم جاهلٌ أو مغمَّرُ ... فإنْ كُنْتَ مِنْهُم جَاهِلاً أو مُغَمَّرًا
تُخَبِّرَكَ أن لم يبقَ منهم مُخَبِّرُ(٩٢) ... فسَائل بهم أعداءَهُم أو دَيارَهُ

وابن الرومي أيضاً شبَّه تأثير عيون النساء الجميلة على الرجال ، بالنبال التي لا تصمد لها كتائب الترك العظيمة التي يقودها الخاقان ، فقال :

ومن عَجَائِبِ ما يُمْنَى الرِّجَالُ بِهِ ... مُسْتَضْعِفاتٌ لَهُ منهُنَّ أقْرَانُ
مُنَاضِلاتٌ بِنَبْلٍ لا تَقُومُ لَهُ ... كَتَائِبُ التُّرْكِ يُزْجِيهنَّ خاقانُ (٩٣)

وسهام الترك ، ونبال الترك يضرب بها المثل (٩٤)، فهي (بنات المنايا) كما قال ابن الرومي ، وشبه بها أبو العلاء المعري (المتوفى عام ٤٤٩هـ) انطلاق الخيل في

سرعة فائقة فقال :

فَوُجِدْنَ أَمْضَى مِنْ سِهَامِ التُّرْكِ بَلْ أَمْضَى وأَنْفَذَ مِنْ حِرَابِ الدَّيْلَمِ (٩٥)

ولا تصمد أمامها رماح العرب على شهرتها ، كما في قول الأبيوردي (المتوفى عام ٥٠٧هـ) :

ومَنْ أينَ يَسْتَولِي من العُرْبِ رَامِحٌ عَلَى بَلَدٍ فيهِ منَ التُّرْكِ نَابِلُ (٩٦)

وفيهم قال الشاعر التركي الأصل علم الدين أيْدَمر المحيوي (المتوفى بعد منتصف القرن السابع الهجري) حين أشاد بجيش الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والذي كان كله من الترك المماليك ، وخاض به الحرب ضد الصليبيين :

مِنَ الكُماةِ التي تُطْوَى ضُلوعُهُم عَلَى العزيمة والإقْدَام ، لا الفَشَلِ

مِنْ كُلِّ أمْضَى مِنْ الهنْدِيِّ في يده عَزْمًا وأنفَذَ إقْدَامًا مِنْ الأَسَلِ

لَيثٌ مِنَ القومِ ، مَا (خَفَّانَ) موطنُهُ رَامٍ مِنَ التركِ لا يُعْزَى إلى (ثُعَلِ)

يَكُونُ أثبَتَ يَوْمَ الروعِ من جَبَلٍ رَاسٍ وأجْوَلَ في الصَّفَّيْنِ مِنْ مَثَلِ

هم عبيدُكَ من قَوْمِي ، ومن جَمَعْتَ دعوى ولائكَ تَحْتَ الحَادِث الجَلَلِ

بَعُدْتُ عَنْهُمْ ، فلم أَشْهَدْ مَشَاهِدَهُمْ فجِئْتُ بالقولِ ، إذْ جَاءُوكَ بالعملِ (٩٧)

وعن شجاعتهم تحدث كثير من الشعراء ، فقال ابن حيوس :

والتُّرْكُ بَعْضُ النَّاسِ إلاَّ أنَّهم أقْوَى وأصْلَبُ في الكريهَةِ مَكْسِرَا (٩٨)

والترك هو بنو الحرب ولا طاقة لأحد بحربهم ، وهم ملازمون لظهور خيولهم ، كما وصفهم جبرائيل بن ناصر المثنى السُّلمي (المتوفى عام ٧٣هـ) بقوله :

ومَنْ يُطِيقُ التُّرْكَ في الحربِ إنَّهم بَنُوهَا وكلُّ النَّاس زُورٌ وبَاطِلُ

حُمَاةٌ كُمَاةٌ كالضَّرَاغِمِ ، خَيْلُهم مَعَاقِلُهُم ، والخيلُ نِعْمَ المَعَاقِلُ (٩٩)

وقال شاعر آخر (من أهل القرن الخامس الهجري) يصف معركة للترك ضد الروم :

وجاء كالريح يَسْفِي الرَّمْلَ عَاصِفُهَا فاجْتاحَ جيشاً يُوازِي النَّمْلَ في العَدَدِ
أتْرَاكُهُ بسيوف الهندِ ما تَرَكَتْ للرومِ إذْ رَامَهَا رأساً على جَسَدِ (١٠٠)

وامتدح شهاب الدين محمود (المتوفى عام ٧٢٥هـ) بسالة جيوش الترك في صد الصليبيين، فقال:

جَيْشٌ من التُّرْكِ تَرْكُ الحَرْبِ عندهم عَارٌ، وراحتُهُم ضَرْبٌ مِنَ الوَصَبِ
....
تَسَنَّمُوها، فَلَمْ يَتْرُكْ ثَبَاتُهُمْ في ذَلِكَ الأفقِ بُرْجاً غَيرَ مُنْقَلِبِ (١٠١)

وقال أيضاً فيهم:

ليُوثٌ مِنَ الأتراكِ آجامُهَا القَنَا لَهَا كلَّ يَوْمٍ ذُرَى ظَفَرٍ ظُفْرُ
فلا الرِّيحُ تَسْرِي بَيحنَهُم لاشتباكِهَا عَلَيْهِم ولا يَنْهَلُّ مِنْ فوقهِم قَطْرُ
يُرَى المَوْتُ مَعْقُوداً بِهَدْبِ نِبَالِهِم إذا مَا رَمَاهَا القَوْسُ والنَظَرُ الشَّزَر (١٠٢)

وقال في شجاعتهم الأبيوردي:

عَلَيْهَا كُمَاةُ التُّرْكِ مِنْ فَرْعِ يَافَثٍ كَثيرٌ بمُسْتَنِّ المَنَايَا نُزُولُهَا
هُم الأُسْدُ بأسًا في اللقاءِ وأوجُهاً إذَا غَضِبُوا والسَّمْهَرِيَّةُ غِيلُهَا (١٠٣)

وإلى جانب الشجاعة الحربية والبأس في القتال، حاز الترك صفة الحسن والجمال، فقال في ذلك إبراهيم بن عثمان الكلبي الغزي (المتوفى عام ٥٢٤هـ):

في فِتْيَةٍ مِنْ مُلوكِ التُّرْكِ ما تَرَكَتْ للرَّعدِ كَرَّاتُهُمْ صَوتًا ولا صيتَا
قومٌ إذاَ قُوبِلُوا كانوا ملائكَةً حُسْناً وإن قُوتِلُوا كانوا عفَارِيتَا (١٠٤)

وأشار ابن سِبْط التعاوذي (المتوفى عام ٥٨٣هـ) إلى شجاعتهم وحسنهم بقوله:

وأسُودٍ مِنْ غِلْمَةِ التُّرْكِ لا تأ لَفُ إلاَّ غِيلَ القَنَا المشْجُورِ
يُنْحِلُونَ البُدُورَ حُسْناً وإنْ خَا ضُوا وَغَى ونَاحَلُوا القَنَا بالخُصُورِ

مـن لُيُـوثِ الشَّرى إذَا دَارَت الحَرْبُ وفـــي السِّلْـمِ مِـنْ ظِبـاءِ الخُدُور(١٠٥)

وقال ابن النبيه المصري (المتوفى عام ٦١٩هـ) في ذات المعنى :

إيـَّاكَ والأتـْرَاكِ إنَّ لِبَعـْضِهِـم أشْخَـاصَ غـُزْلانٍ وفِعـْلَ أُسـُودِ(١٠٦)

وقال فتيان الشاغوري (المتوفى عام ٦١٥هـ) أيضًا :

كـأنَّ كُمَاةَ التُّرْكِ عِنــدَ نِزَالِهِـم مَلاَئكَـةٌ بـالشُّهـبِ تـَرْمِي الأبَـاليسَـا(١٠٧)

ومن صفاتهم الجسدية بياض البشرة التي تشبه ضياء الصبح كما قال ابن هانيء الأندلسي المتوفى عام ٣٦٢هـ) وهو يصف ضياء الفجر فجعله كأنّه خاقان الترك وجعل الليل كأنّه النجاشي :

كـأنّ عَمُودَ الفَجْرِ خَاقَانُ عَسْكَرٍ مِنَ الترك نَادَى بالنَّجَاشيّ فاستخفى(١٠٨)

وشبه أبو العلاء المعري بياض الترك بجبال طيىء، وشبه السودان بحجارة الحرّة فقال :

أتَتْنَا مِنَ الأتْـرَاكِ أعْـلاَمُ طيِّءٍ تَقُودُ مِـنَ السُّودانِ حرَّةَ رَاجِل(١٠٩)

وكانوا يعتادون إطالة شواربهم، فقد شبه أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (المتوفى عام ٣٥٦هـ) الهرَّ في طول شاربه برجل تركي، فقال يذكر تخليص الهرّ له من همِّ الفئران :

زال همِّـي مِنـْهُنَّ أزْرَقُ تـُرْكِـيُّ السِّبَالَيْنِ أنْمَـرُ الجِلْبَـاب(١١٠)

ومن طباعهم وخالهم غير الحميدة عدم الوفاء، وهي صفة سبق أن عرفت في العصر الأموي، ولها صدى في العصر العباسي، فقال عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (المتوفى ٤٦٦هـ) :

إن كـانـتِ التُّرْكُ فِيهِـم غَيْرَ وَافِيـةٍ فَما تَزيـدُ عَلَى غـَدْرِ الأعَـارِيبِ(١١١)

ووصف ابن حيّوس أحد ممدوحيه بأنه يشبه الترك في الإقدام، أما في الوفاء فهو من العرب:

ويُشْبِهُ الـتُّـرْكَ إقـداماً ومَحْمِيَـةً   فإنْ دَعَـاهُ وَفَاءٌ عَـاوَدَ العَرَبَا [١١٢]

ومن خصالهم غير الحميدة النهب والسرقة، كما وصفهم بذلك إبراهيم الكلبي الغزي بقوله:

مدَّتْ إلى النَّهبِ أيْدِيهُمْ وأعيُنُهُم   فَزَادَهُـم قَلَـقُ الأحْـدَاقِ تَثْبِيتـا
بِدَارِ قَارُونَ لو مَرُّوا على عَجَـلٍ   لَبَـاتَ فـي فَاقَةٍ لا يَملكُ القُوتَا [١١٣]

ومن هنا فقد تميزوا بخصال حميدة وأخرى غير حميدة، فوصفهم البلخي (من شعراء القرن الخامس الهجري) بأنهم هم مُرُّ الزمان وهم حلاَةُ:

عَلَيْـكَ التُّرْكَ مِنْ هـذا الأنـام   فَهُـمْ زَيْـنُ المَحَاضِـرِ والمَوامِـي
وهُمْ مـُرُّ الزمـان وهـم حـلاَةٌ   وقـد حُمِدَ الـمـرارةُ فـي المُـدَامِ
بأوسـاطِ الفَلاءِ لَـهُـم بُيُـوتٌ   تُحَصِّنُهَا بـأطْـرافِ السِّهَـامِ [١١٤]

وإلى جانب بيوتهم التي تقام بأوساط الفلاة كانت لهم ملاعب يلعبون بها، جاء ذكرها في بيت للشاعر أحمد الحضرمي (من شعراء القرن الرابع الهجري) حيث يقول في وصف الفرس:

شَنَج النَّسَا زَجِـلٍ كـأنَّ سَرَاتَـهُ   زُحْـلُوقُ لعْبٍ أو سَـرَاةُ مَـدَاكِ
ينقضُّ كالنَّجمِ انبـرَى للرَّجـم أو   كـالسَّهـم طَاحَ بمَلْعَبِ الأتراك [١١٥]

وفي وقت الغضب والثورة يتكلمون بألفاظ غير مفهومة، فقال في ذلك أبو بكر بن أحمد ابن حمدان المعروف بالخباز البلدي (من أهل القرن الرابع الهجري) وهو يصف الساقية أو دولابس الماء:

نُجُـومُ مَـاءٍ يُـدِيـرُهَا فَلَـكٌ   يَكْثُـرُ مِنْـهُ تَعَجُّـبُ العَـجَبِ
مُزَمْـزِمٌ مـا يبيـنُ مَنـطِقُـه   كقـائِدِ التُّرْك غـدْوةَ الشَّغَب [١١٦]

ولقد وجد الشعراء إعراضاً وانصرافاً من الترك عن الشعر، فلم يقَرِّبوا الشعراء من مجالسهم كما كان يفعل حكام العـرب، ولهذا قال المهذب بن أسعد المعروف بابن الدهان الموصلي (المتوفى عام ٥٨١ هـ) :

أأمْدَحُ التُّرْكَ أبْغِي الفَضْـلَ عِنْـدَهم   والشّعْـرُ مـــا زالَ عِنـْدَ التُّرْكِ مَتْروكـا(١١٧)

وعرض بهم أبو الطيـب المتنبي في قصيدته التـي عزى فيها سيف الـدولة عن مملوكه التركي (يماك)

فقال :

لأبْقَى يَمَاكٌ في حَشَـايَ صَـبابــــةً   إلى كُـــلِّ تُرْكـــي النّجَــارِ جَلِيـــبِ

ومـــا كـلُّ وجْـهٍ أبيـــضٍ بمبــارك   ولا كــــلُّ جَفْـنٍ ضَيـقٍ بنجِيـــــبِ(١١٨)

وقال ابن النبيه المصري (المتوفى عام ٦١٩ هـ) في الشكوى منهـم :

صِنـْفٌ مِــنَ التُّرْكِ والخُدَّامِ قَـدْ بَلَغَـا   بـأقْبَحِ الفِعْلِ فِينــــــا غَــايةَ الأمـلِ(١١٩)

التغزل بنساء الترك وغلمانهم:

لما كثر الأتـراك ببغداد كانـت نساؤهم يعملن في بيـوت كبار القوم مـربيات وخـادمات، وبعضهـن كن جـاريـات؛ ولقد وصـل بعض هـؤلاء الجواري إلى قصور الخلفاء وأصبحن أمهات لبعضهم مثـل المعتصم والمتوكل. ونتيجة لكثرة نساء الترك بـدأ الشعراء يطـرون جمالهن ويذكـرون محاسنهن. إلا أن هـذا كان في عصر متأخـر نسبياً. وأصبحنـا نسمع عـن انصراف بعض الشعـراء عن الجمال العربي وعن ليلى وسُعـدى إلى الجمال التركي الوافد. فمن ذلك قـول أبي القاسم محمـود الـزمخشري «المتوفى عـام ٥٣٨هـ» الـذي يدعـو إلى الالتفـات إلى جمال التركيات :

ألاَ قُل لسُعْدَى مَا لَنَا فِيكِ منْ وَطَر ... وما تُطّبِينا النُّجْلُ مِنْ أَعْيُنِ البَقَرْ

فإنّ العيونَ الضّيقات وأَهْلَهَا ... بهم عَلِقَتْ مِنَّا الضَّمائرُ والفِكَرْ

إذا نَظَروا لَمْ تُبْدِ إلاّإحْورارَهَا ... وإنْ ضَحكُوا ضَمُّوا الجُفُونَ عَلَى الحَورْ

وإنّ وجُوه التُّرْكِ واللهُ جَارُهَا ... بُدُورٌ إلى أَثْمانها تُصْرَفُ البِدَرْ

وفي صُوَرِ التُّرْكِ العجائب فلْتكُن ... عُيونُكم صُورٌ إلى هذه الصُّوَرْ (١٢٠)

وقال أيضاً :

فإنَّا اقْتَصَرْنَا بالذين تَضايقَتْ ... عُيونهم واللهُ يَجْزِي مَنْ اقتَصَرْ

مَلِيحٌ ولكِنْ عِنْدَهُ جَفْوَةٌ ... ولَمْ أَرَ في الدُّنْيا صَفَاء بِلاَ كَدَر(١٢١)

فأصبح العيون الضيقة مقياساً للجمال بدلاً من عيون المها الواسعة التي طالما تغني بها العرب. وهذا شاعر آخر يترك البوادي وأهلها إلى الحضر والترك، فيقول ابن الدهان الموصلي «المتوفى عام ٥٨١هـ» :

قَالوا تَركْتَ البَوَادِي قُلْتُ : حُبُّهُم ... مُحَرَّمٌ حَظَرَتْهُ التُّرك والحَضَرُ

ما مَنْزِلُ الحيِّ مِنْ قَلْبِي بِمَنْزِلَةٍ ... ولا لآثارِ ظَعْنٍ عِنْدَه أَثَرُ(١٢٢)

وعلى نفس المنوال يقول علاء الدين بن ملك الجويني (المتوفى عام ٦٨١هـ) متغزلاً بفتاة تركية :

أَبَادِيَةَ الأعْرَابِ عَنِّي فإنَّنِي ... بِحاضِرةِ الأتْرَاكِ نيطتْ عَلائِقِي

وأهْلَكِ يا نُجْلَ العُيونِ فإنني ... بليت بهذَا النَاظِر المُتضَايِقِ (١٢٣)

وقال أحمد بن محمد بن أبي الوفاء المعروف بابن الحلاوى «المتوفى ٦٥٦هـ» في نفس المعنى معلنا تركه للغزل العربي :

مِنَ التُّرْكِ لا يُصْبيهِ وَجْدٌ إلى الحِمَى ... ولا ذِكْرُ بَانَاتِ الغُويرِ تَشُوقُهُ

ولا حَلَّ في حيٍّ تَلوحُ قِبابُهُ ... ولا سَارَ في رَكبٍ يُساقُ وُسُوقُهُ

ولا بَاتَ صَبًّا بالفُريقِ وأهْلِهِ ... ولكن إلى خَاقَانَ يُعْزَى فَرِيقُه(١٢٤)

ومن سار على هذا النحو فتيان الشاغوري (المتوفى عام ٦١٥هـ) حيث يقول:

دَعْنِي مِنَ الرَّشَأ النَّجْدِي فالرشأ ... التُّرْكِي أُوقعتُ في أشْراكِ حِبِّه(١٢٥)

وكانت عيون التركيات الضيقة محور الإعجاب فأفاضوا في ذكرها، فقال منصور بن محمد الأزدي الهروي (المتوفى عام ٤٤٠هـ) يصف تركيّة ذات شعر كالليل ووجه كالإصباح وعيون ضيقة بقوله:

خِشْفٌ مِنَ التُّرْكِ مِثْلُ البَدْرِ طَلْعَتُهُ ... يَحُوزُ ضِدَّيْنِ مِنْ لَيْلٍ وإصباحِ

كأنَّ عَيْنَيْهِ والتَّفْتِيرُ كُحْلُهُمَا ... آثارُ ظُفْرٍ بَدَتْ في صحْنِ تُفَّاحِ(١٢٦)

وقال الزمخشري:

أعاجم أشْبَاهُ الوحُوشِ أوابِدٌ ... إذا جَرَحُوا كانتْ جِراحُهم هَدَرْ

بنَفْسِي قوي لَحْظُهُ وهو فاترٌ ... كذا اللَّحْظُ ما أقوَى يكونُ إذا فَتَرْ

تَضَايَقَتِ العَيْنَانِ منهُ وإنَّهُ ... يُوسّعُ في القَلْبِ الجِرَاحَ إذا نَظَرْ

ويَقْتُلُ بالجَفْنِ الضَّعِيفِ ولَمْ أَزَلْ ... أعُوذُ بِرَبِّي مِنْ ضَعِيفٍ إذَا قَدَرْ(١٢٧)

ويقول ابن سناء الملك (المتوفى عام ٦٠٨ هـ) الذي يشبه عيون الترك بسيوف الهند:

حَذَارِ سيوف الهند من أعْيِنِ التُّرْكِ ... فَمَا شُهِرَتْ إلا لِتَسْأذَنَ بالفَتْكِ(١٢٨)

وقال الشاعر ابن عُنين (المتوفى عام ٦٣٠ هـ) محذراً من التعلق بهوى التركيات:

لاتَعْرِضَنَّ لِضيِّقِ المُقَلِ ... فَتَبِيتَ مِنْ أَمْنٍ عَلَى وَجَلِ

واتْرُكْ ظِبَاءَ الترك سَانحَةً ... لا تَعْتَرِضْ لِحَبَائلِ الأجلِ

بيضاءُ تَنْظُرُ مِنْ مُضَيَّقَةً ... سَوداءَ تَهزأُ مِنْ بَنِي ثُعَلِ

وبلِيَّتِي مِنْ ضيقِ مُقْلَتِهَا ... إنْ خِيفَ فَتْكُ الأعيُنِ النُّجُلِ(١٢٨)

وما زالت العيون الضيقة موضع إعجاب الشعراء في أواخر العصر العباسي، كما في قول مجد الدين ابن الظهير الأربلي «المتوفى عام ٦٧٧هـ» :

مِنَ التُّرْكِ، لا عَانيـهـم يَبْلُغُ المُنَى ولا هـو مَمْنُـونٌ عَلَيـهِ فَيُعْتَقُ
عُيونُـهُم المَرْضَى ومَرْضَى عهودهم تُؤَكِّدُ أسبـابَ الهَـوى وتُـوثِـقُ
أكُفُّهُم تَرْمِـي ولا دَمٌ طـائحٌ وألْحَاظُهُم تُصْمِي القَلوب وتَرْشُق[١٣٠]

وقال فتيان الشاغوري «المتوفى عام ٦١٥هـ» في عيون الترك :

عُيونُ التُّرْك أنْفَذْ في الوَغَى مِنْ سِهَامِهِم إذا ارتَفَعَ القتَامُ[١٣١]

وقال جوبان القواس (المتوفى عام ٦٨٠هـ) :

حَمَانا التُّرْكُ وانتَهَكوا حِمَانا ولَن يَفِيَّ التَّواصل بالصُّدُودِ
حَمَوْنا بالصَّوارِمِ والعَوالي وجَارُوا باللَّواحِظِ وبالقُدُود[١٣٢]

وقال ابن النبيه المصري «المتوفى عام ٦١٩هـ» في حمرة الخد وتقوس الحاجب :

مِنَ التُّرْكِ في خدَّيْهِ للحُسْنِ جَنَّةٌ بِمَالِكِهاَ مَحْروسَةٌ لا برضْوانِ
رَماني بسَهْمِ اللَّحظِ عَنْ قَوْسِ حَاجِبٍ فَهَلْ حَاجِبٌ من بين عَيْنَيْهِ أصْمَاني[١٣٣]

وبدأت في العصر العباسي عادة سيئة لم تكن تعرفها العرب من قبل، ألا وهي عادة التغزل بالمذكر والغلمان المرد[١٣٤]. وقد جلب الفرس هذه المفسدة معهم إلى بلاد العرب. ومع تكاثر أعداد غلمان الترك الذين تميزوا بالحسن واللين والخلاعة، ومع كثرة استخدامهم في البيوت انتشرت هذه العادة حتى بين كبار القوم، ولم يترفع الشعراء عن الانغماس في التشبيب بالغلمان. وسوف نشير هنا على سبيل الاختصار إلى بعض النماذج من الشعر الذي قيل في غلمان الترك.

فقد قال أبو البركات علي بن الحسين العلوي (من شعراء القرن الرابع) :

يا عُصْبَةُ الأتْرَاكِ أولادُكُم مـن يُوسُفِ الحُسْنِ وبَلْقِيسِ
ألحَاظُكُم تُحْيي وتُردي الورَى وحُسْنُكُم فِتْنَةُ إبليسِ (١٣٥)

وقال أبو الحسن محمد بن عبد الله المخزومي السلامي (المتوفى عام ٣٩٣هـ) يشبب بغلام تركي :

عُلِّقْتُ مفْتَرِسَ الضَّراغِمِ فارِسًا رَحبَ المَدَى والصَّدْرِ والمَيْدَانِ
قَمرٌ مِنَ الأتْرَاكِ تَشْهَدُ أنهُ الخَوْدُ الحصَانُ عَلَى أقبِّ حِصَانِ
البَدْرُ في ظِلِّ الغَمامَةِ والنَقَا في سَرْجِهِ والغُصْنُ في الخفتَانِ
ألْفَت طُرَّته وغُرَّته ومَا كَانَ الدُّجى والصُّبح بيأتَلِفَانِ
وَرَمَى بِلَحْظَيْهِ القُلُوبَ وسَهْمِهِ فَعَجِبْتُ كيفَ تَشَابَهَ السَّهمَانِ (١٣٦)

وشَبَّبَ شَاعِر آخر هو أبو علي الحسن بن محمد الضبيعي (من القرن الرابع) بغلام تركي فقال :

أضَيْغَمٌ أمْ غَزَالٌ ذَاكَ أمْ بَشَرٌ شَمْسٌ تَزَيَّتْ بِزِيِّ التُّرْكِ أمْ قَمَرُ
لَقَدْ تَحَيَّرَ وصْفِي في حقيقتهِ كَما تَحَيَّرَ في أجْفَانِهِ الحَوَرُ (١٣٧)

وقال أحد شعراء القرن الرابع الهجري أيضا في غلام تركي :

لا سُمرةٌ ، لا بياضٌ فيه، لا سِمَنٌ لاهُزَالٌ، ولا طُولٌ ولا قِصَرُ
ذُو قَامَةٍ قَام فيها عُذْرُ عَاشِقِها وصُورةٌ قَبُحَتْ مَعَ حُسْنِهَا الصُّوَرُ (١٣٨)

وقال أبو الحسن محمد بن أحمد المعروف بالمتيم الأفريقي (من شعراء القرن الرابع) :

قَلْبِي أسيرٌ في يَدَيْ مُقْلَةٍ تُرْكِيَّةٍ ضَاقَ لَهَا صَدْرِي
كَنَّهَا مِنْ ضِيقِهَا عُرْوَةٌ لَيسَ لَهَا زرٌ سِوَى السِّحْرِ

و أنشد أيضاً :

قَدْ أكثَرَ الناسُ في الصِّفــاتِ ، وقـَدْ قــالو اجمـيعـاً فــي الأعيُنِ النُّجُلِ
وعَيْنُ مَــولاَيَ مِثْلُ مـَوعِـدِهِ ضَيِّقـةٌ عـَنْ مَرَاوِدِ الـكُحُـل[١٣٩]

ولابن الخيّاط (المتوفى عام ٥١٧هـ) أبيات تغزل فيها بغلام تركي منها :

سَلُـو سَيْفَ أَلحَاظِـهِ المُتَشَـقْ أَعِنـدَ القُـلُوبِ دَمٌ للحـدقْ
تَجَلّى لَـنَا صَـارِمُ المُقْــلَـتَـ يـن مَاضِـي الـمـُوشَـحِ والمـُنتَطَقْ
مـِنَ التُّرْكِ مـَا سَهمـُهُ لـو رَمَـى بأقْتَـلَ مـِنْ لَحْظِـهِ إذ رَمـَق[١٤٠]

وقال المهـذب بن أسعـد الدهان الموصلي (المتـوفى عام ٥٨١) شعـراً في نفس الغرض منه :

وغـَزَالٌ لَـهُ الأُسودُ الضـَوَارِي فـَرَايـسٌ
بـَدْرُ تِـمٍّ عـَلاَ على غُصـْنٍ وهـو مـائس
هـُوَ في الأمـنِ جَنـَّةٌ وهـو فـي الـرَّوع فـارسُ
مـن بَنـِي التُّرك أدَّبَتـهُ ورَبَّتـه فـارسُ
وعَلَى وَرْدِ خـدِّه مـنْ شَبَا اللَّحـْظِ حـارس[١٤١]

وكما مر في الأمثلة السابقـة فقد أعجب الشعراء بالألحاظ الفتّاكـة والتي تشبه سهام الترك ، وأيضاً كما في قول ابن عُنين (المتوفى عام ٦٣٠هـ) :

مِـنَ التُّرْكِ مَيَّاسُ القَـوام مُهَفْهَفٌ لَـهُ الـدُّرُ ثَغـرٌ والـزُّمرُّدُ شَـارِبُ
يُفَوِّقُ سَهْمًا مِنْ كَحِيـلٍ مُضَـيَّـقٍ لـه الهُدْبُ ريـشٌ والقسيُّ الحَوَاجبُ[١٤٢]

ومما قاله ابن النبيه المصري ، الذي أكثر من هذا اللون من الغزل في شعره :

جَـدَّ وَجْـدِي بحُـبِّ لاهٍ وأوْدَى بفـُؤادِي تِذْكـاره وهـو نَـاسِ
من بني التّرك ليِّن العطفِ قَاسِـي الـقَلْبِ سَهْلُ الخـدَاعِ صَعْبُ المِـرَاسِ

ضَيِّقُ العَيْنِ وهو من صِفَةِ البُخْلِ فإنْ جَادَ كانَ ضِدَّ القياسِ
فهو تحت السِّلاح لَيْثُ عَرِينٍ وهو فَوقَ الفِرَاشِ ظَبْيٌ كِناس (١٤٣)

ونظم محمد بن يوسف التلعفري (المتوفى عام ٦٧٥ هـ) في غلام تركي هذين البيتين :

كَلِفْتُ بأَحْوَى مِن بَنِي التُّرْكِ أحْوَرٍ لَه غُصْنُ قَدٍّ بالذَوائب مُورِقُ
رَشِيقُ التَّثَنِي والمَعاطِفِ ألعَسُ المَرَاشِفِ يُصْمِي طَرْفُهُ حِين يَرْمُقُ (١٤٤)

وأسرف الشاعر فتيان الشاغوري في التغزل بالمرد من أبناء الأتراك فقال :

بَنُو التُّرك لو مرَّتْ بأبناءِ عُذْرَةٍ لَمَا كَانَ فِيها بالكواعِب مُغْرَمُ؟
ولا نَسَبُوا إلاَّ بكُلِّ مُذَكَّرٍ بِهِ يُمْدَحُ الطَّرْفُ العتيقُ المُطَهَّمُ
ولا ذَكَرُو لَيْلَى ولا أمَّ جُنْدُبٍ ولا تيَمَّتْهُمْ أمُّ عَمروٍ وكَلْثَمُ (١٤٥)

وقال أيضاً :

وتُرْكيٍّ كأنَّ بفِيه رَاحاً لَهَا مِنْ مِسْكِ نَكْهَتِهِ خِتَامُ
سَبَاني وهو مَمْلُوكٌ رقيقٌ وكَمْ حُرٍّ تَمَلَّكَهُ غُلَامُ
تناسَى صُحْبَتِي وذِمَامَ عَهْدِي وعِنْدَ التُّرْكِ لا يُرْعَى ذِمَامُ
بضَيِّقِ جُفُونِهِ وسَّعْتُ عُذْرِي فزَال العُذْرُ عَنِّي والمَلَامُ (١٤٦)

وبعد أن استعرضنا جانباً من الشعر العربي الذي قيل في الترك ، نصل إلى أن العلاقة بين العرب والترك قديمة ، بدأت في عصر ما قبل الإسلام ثم توطدت وتنوعت بعد الفتح العربي الإسلامي لبلاد أواسط آسيا ، وبعد استجلاب الترك إلى بلاد العرب . ثم استطاع الترك أن يبسطوا نفوذهم على الحكام بعد أن تقلدوا مناصب الجيش . وكانوا عونا للحكام

وحماة لبيضة الإسلام من الغزو الصليبي والمغولي. وفي خلال تلك العصور تعرف العرب على طباع وأخلاق الترك وعاداتهم. وقد تسببوا في نشر أنواع من الفساد الأخلاقي، وكان غلمانهم موضع فتنة للشعراء الذين أبدعوا في التغزل بهم. وكل هذا سجله وحفظه لنا الشعر العربي.

●●●

الهوامش والتعليقات

١) نشوان بن سعيد الحميري ـ ملوك حمير وأقيال اليمن، قصيدة نشوان بن سعيد الحميري وشرحها المسمى «خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار ملوك التبابعة ـ حققها وعلق عليها السيد علي بن إسماعيل المؤيد وإسماعيل بن أحمد الجرافي ـ (القاهرة ١٣٧٨هـ)، ص ٦٥ ـ ٦٧ ـ وانظر أيضا: محمد بن جرير الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٠م) مج ١، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

٢) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ـ كتاب المعارف ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ (القاهرة ١٩٦٩م) ص ٢٦.

٣) الحميري ـ ملوك حمير، ص ٦١. المقانب: جماعات الخيل تجتمع للغارة.

٤) الحميري ـ ملوك حمير ـ ص ١١٣ ـ ١١٤، وانظر الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ مج ١ ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧.

٥) ابن السائب الكلبي ـ أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها ـ تحقيق أحمد زكي ـ (القاهرة ١٩٤٦م) ص ٩٥.

٦) عدي بن زيد العبادي ـ ديوان عدي بن زيد العبادي ـ حققه وجمعه محمد جبار المعيبد ـ (بغداد ١٩٦٥م) ص ١٢٤.

٧) النابغة الذبياني ـ ديوان النابغة الذبياني ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ (القاهرة ١٩٧٧م)، ص ١٢٢ .

٨) ميمون بن قيس ـ ديوان الأعشى الكبير ـ تحقيق د. محمد محمد حسين ـ (القاهرة ١٩٥٠م)، ص ٣٤٧ . «وتركض هنا معناها : ترقص»

٩) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ (بيروت ١٩٥٦م) ، مج ٢ ، ص ٣٥٢ ، «مادة : خراسان» .

١٠) محمد بن عمر الواقدي ـ فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان ـ (مصر ١٣٠٩هـ) ، ص ١٣٦ . ونسبت الأبيات إلى كثير النهشلي في معجم البلدان لياقوت، مج ٢ ، ص ١٨٢ ، «مادة : جوزجان» .

١١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ مج ٦ ، ص ٤٧١ .

١٢) المصدر السابق ، مج ٦ ، ص ٤٧٩ .

١٣) المصدر نفسه، مج ٧، ص ٨١

١٤) المصدر نفسه، مج ٧، ص ٨٥ . «نيْلان : اسم قائد تركي» .

١٥) المصدر نفسه، مج ٧، ص ٥٦ .

١٦) عبيد الله بن قيس الرقيات ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ـ تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم ـ (بيروت ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م) ص ١٨١ .

١٧) جرير بن عطية ـ ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب ـ تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ـ (القاهرة ١٩٧١م) ـ مج ٢ ، ص ٧٠٢ .

١٨) أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي ـ شرح ديوان الحماسة ـ نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ (القاهرة ١٩٥٢م)، ص ٦٨٧ ـ ٦٨٨ .

١٩) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ مج ٦ ، ص ٦١١ .

٢٠) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ـ الأغاني ـ تحقيق أحمد زكي صفوت ـ نشر دار الكتب المصرية ـ (القاهرة ١٩٥٨م)، مج ١٤ ، ص ٢٧٤ . «بهيلة : تصغير باهلة قوم قتيبة بن مسلم. غُلْب : جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة . نُكْب : جمع نَكْباء وهي كل ريح من الرياح الأربع، انحرفت ووقعت بين ريحين وهي تهلك المال وتحبس القطر . »

٢١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ مج ٤ ، ص ١٧ . «يقول الطبري : قال : دخلنا المدائن فأتينا على قباب تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص» .
٢٢) ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ مج ٣ ، ص ٢٦٠ ، مادة : سنام .
٢٣) المرزوقي ـ شرح ديوان الحماسة ـ ص ١٧٠٦ ـ ١٧٠٧ .
٢٤) حميد بن ثور الهلالي ـ ديوان حميد بن ثور الهلالي ـ نشر عبد العزيز الميمني ـ (القاهرة ١٩٥١م) ـ ص ٦٨ .
٢٥) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ مناقب الترك ، ضمن رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ (القاهرة ١٩٦٤م) ، ص ٧٦ .
٢٦) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ـ أساس البلاغة ـ (بيروت ١٩٦٥م) ، ص ٤٤١ «مادة : عهد»
٢٧) محمد بن سلام الجمحي ـ طبقات فحول الشعراء ـ شرح محمود محمد شاكر ـ (القاهرة ١٩٥٢م) ص ٥٨٩ .
٢٨) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ (بيروت ١٩٦٥م) ـ مج ٥ ، ص ٣١٠ .
٢٩) الجاحظ ـ مناقب الترك ـ ص ٨٣ .
٣٠) جرير ـ ديوان جرير ـ ص ٨٢٩ .
٣١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ مج ٨ ، ص ٤٥٢ .
٣٢) علي بن الحسين المسعودي ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ (القاهرة ١٩٦٤) مج ٤ ، ص ٤٦ .
٣٣) أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني ـ معجم الشعراء ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ (القاهرة ١٩٦٠م) ص ٣٦٤ .
٣٤) علي بن الجهم ـ ديوان علي بن الجهم ـ تحقيق خليل مردم بك ـ (دمشق ، ١٩٤٩م) ، ص ١٢ .
٣٥) دعبل بن علي الخزاعي ـ ديوان دعبل بن علي الخزاعي ـ صنعة د . عبد الكريم الأشقر ـ (دمشق ١٩٦٤م) ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

٣٦) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ـ زهر الآداب وثمر الألباب ـ تحقيق وشرح علي محمد البجاوي ـ (القاهرة ١٩٥٣م) ـ مج ١ ، ص ٢٨٨ .
٣٧) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ـ الكامل في اللغة والأدب ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ (القاهرة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)، الجزء ٣، ص ١٢٥٨ ـ ١٢٥٩ .
٣٨) علي بن الجهم ـ ديوانه، ص ٦١ ـ ٦٢
(٣٩) ياقوت الحموي ـ معجم الأدباء المسمى بإرشاد الأريب ـ نشره د. فريد رفاعي ـ (القاهرة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م) ـ مج ٣، ص ٦ـ٧ .
٤٠) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ مج ٧، ص ١٦٨ .
٤١) المسعودي، مروج الذهب، مج ٤، س ١٦٩
٤٢) المصدر نفسه، مج ٤، ص ١٦٤ . «أم عامر: كنية الضبع» .
٤٣) أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري ـ ديوان البحتري ـ تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف (القاهرة ١٩٧٣م) مج ٣، ص ٢٠١٩ ـ ٢٠٢٢ .
العمامة والقضيب: شعار خلفاء بني العباس .
٤٤) المسعودي ـ مروج الذهب ـ مج ٤، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .
٤٥) المصدر نفسه، مج ٤، ص ١٧٩ .
٤٦) أحمد بن محمد المقري التلمساني ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ تحقيق إحسان عباس ـ (بيروت ١٩٦٨م)، مج ٧، ص ١٠١ .
٤٧) عبد الرحمن البرقوقي ـ شرح ديوان المتنبي ـ (القاهرة ١٩٣٠م) ـ مج ١، ص ١٧٨ .
٤٨) المصدر السابق، مج ٤، ص ١٧٩ . «ويقصد بقوله ترعى بعبد: عبيد الخلفاء من الأتراك الذين كانوا يؤمرون على الناس» .
٤٩) أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ (القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م) ـ مج ٤، ص ١٦٧ .

٥٠) أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ (طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) ـ مج ٦ ، ص ٣١٩ .

٥١) البحتري ـ ديوانه ـ مج ١ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٤ . قومي : قوم الشاعر وهم العرب ، وقومك : قوم الفتح وهم الترك .

٥٢) المصدر السابق، مج ٢ ، ص ١٢٤٠ .

٥٢) المصدر نفسه، مج٢ ، ص ٨٤٥ .

٥٤) المصدر نفسه، مج ٣ ، ص ١٧٢٦ ـ ١٧٢٧ . شيخهم : المقصود به (وصيف) .

٥٥) المصدر نفسه، مج ٣ ، ص ١٤٨٢ . المقاومُ : جمع المقام .

٥٦) المصدر نفسه، مج ١ ، ص ٤٦٦ .

٥٧) المصدر نفسه، مج ٢ ، ص ٦٧٨ .

٥٨) المصدر نفسه، مج ٢ ، ص ٩٧٦ ـ ٩٧٧ .

٥٩) المصدر نفسه، مج ٤ ، ص ٢٢٦١ . ذُو رُعين : ملك من ملوك حمير .

٦٠) أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيّوس ـ ديوان ابن حيّوس ـ تحقيق خليل مردم بك ، (دمشق ١٩٥١م) ـ مج ١ ، ص ٨١ .

٦١) المصدر السابق، مج ٢ ، ص ٣٧٩ .

٦٢) أحمد بن محمد الأرّجاني ـ ديوان الأرّجاني ـ تحقيق د . محمد قاسم مصطفى ـ (بغداد ١٩٧٩م) ـ مج ٢ ، ص ٥٥٨ .

٦٣) أبو عبد الله أحمد بن الخياط ـ ديوان ابن الخياط ـ تحقيق خليل مردم بك ـ (دمشق ١٩٥٨) ـ ص ١٨٧ .

٦٤) هبة الله القاضي السعيد بن سناء الملك ـ ديوان ابن سناء الملك ـ تحقيق محمد إبراهيم نصر ـ (القاهرة ١٩٦٩م) ـ الجزء ٢ ، ص ١ .

٦٥) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ـ تاريخ ابن الفرات ـ تحقيق د .

قسطنطين زريق و د. نجلاء عز الدين - (منشورات الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٣٩م) - مج ٨، ص ١١٥.
وانظر: مأمون فريز جرار - الغزو المغولي، أحداث وأشعار - (عمان ١٩٨٤م) - ص ١٣١-١٣٤.

٦٦) مأمون فريز جرار - الغزو المغولي، أحداث وأشعار - (عمان ١٩٨٤م) - ص ١٢٧. نقلاً عن «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة - للأمير بيبرس ركن الدين المنصوري الدوادار - ٩/ ١٦٤.».

٦٧) أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) - مج ٧، ص ٨٢.

٦٨) تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي - طبقات الشافعية الكبرى - تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو - (القاهرة ١٩٦٤م) - مج ١، ص ٣١٢.

٦٩) أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي - دمية القصر وعُصرة أهل العصر - تحقيق د. محمد ألتونجي - (دمشق ١٩٧١م) - مج ١، ص ٤٤٢.

٧٠) المصدر السابق، مج١، ص ٢٣٦ - ٢٣٧. وهو شاعر من أهل المغرب.

٧١) الجاحظ - مناقب الترك - ص ١٢ - ١٤.

٧٢) الجاحظ، مناقب الترك - ص ٧٥

٧٣) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي - العقد الفريد - تحقيق أحمد أمين، إبراهيم الأبياري وعبد السلام هارون - (القاهرة ١٩٤٩م) - مج ٦، ص ١٣٥. «ومذحج من يحابر بن مالك بن زيد بن كهلان من قحطان».

٧٤) الجاحظ، مناقب الترك، ص ٧٥.

٧٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

٧٦) ابن قتيبة - كتاب المعارف، ص ٢٦.

٧٧) أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي - ديوان الأبيوردي - تحقيق د. عمر الأسعد - (دمشق ١٩٧٤م) - مج ١، ص ٦٣٣.

٧٨) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الـزمخشري ـ ديوان الزمخشري ـ مخطوط بمكتبة السليمانية باستانبول ـ رقم ٣٣٠ .
٧٩) مسلم بـن الوليد صريـع الغواني ـ شرح ديـوان صريع الغـواني مسلم بن الـوليد ـ تحقيق د. سامي الدهان ـ (القاهرة ١٩٥٨م)، ص ٣٣١ .
٨٠) السرّيّ الرَّفّـاء الكندي ـ ديـوان السري الرفـاء ـ تحقيق ودراسـة د. حبيب حسين الحسيني ـ (بغداد ١٩٨١م) ـ مج ٢ ، ص ٢٤٨ . مُبيرُها : مُهْلِكُها .
٨١) الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ مج ٣ ، ص ٣٠٢ .
٨٢) ابن حيّوس ـ ديوانه ـ مج ٢ ، ص ٥٧٣ .
٨٣) المصدر السابق، مج ١ ، ص٥٢ .
٧٤) عماد الديـن الكاتـب الأصفهاني ـ خـريدة القصر و جريـدة العصر ـ قسـم شعراء العراق ـ تحقيق محمد بهجة الأثري ـ (بغداد ١٩٧٣م) ـ الجزء الرابع ـ مج ١ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
٧٥) المصدر السابق، مج ١ ، ص ١٤٢ . «الهادي: العنق، أرواد: الرفق.»
٨٦) للتوسع في هذا الموضوع انظر: مأمون فـريز جرار ـ أصداء الغزو المغولي في السعر العربي ـ عمان ١٩٨٣م .
٨٧) جمال الدين علي بن المقـرب العيوني ـ ديوان ابن المقرب ـ تحقيق وشرح عبد الفتاح الحلو ـ (القاهرة ١٩٦٣م)، ص ٥١٧ ـ ٥١٨ .
٨٨) مأمـون جرار ـ الغزو المغـولي أحداث وأشعار ـ ص ٢٧ نقلاً عن مخطوطـة «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة للأمير بيبرس ركن الدين المنصوري الدوادار، مج ٩ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
٨٩) محمد بـن شاكـر الكتبي ـ فوات الـوفيات ـ تحقيق د. إحسـان عباس ـ (بيروت ١٩٧٤م) ـ مج ٤ ، ص ٣٠٤ .
٩٠) أبـو الفلاح عبـد الحي بن العماد الحنبلي ـ شـذرات الـذهب في أخبـار من ذهـب ـ (القاهرة ١٣٥١هـ) مج ٥ ، ص ٢٧٢ .
٩١) علي بن الجهم ـ ديوانه ـ ص ١١٦ .
٩٢) أبو الحسـن علي بن العباس بـن جريج بن الـرومي ديوان ابـن الرومي ـ تحقيق د.

حسين نصار ـ (القاهرة ١٩٧٦ ـ ١٩٨١م) ـ مج ٣ ص ٩٧٩ ـ ٩٨٠ .

٩٣) المصدر السابق، مج ٦ ، ص ٢٤٢٠ .

٩٤) أبو منصور عبد الملك الثعالبي ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ (القاهرة ١٩٦٥م)، ص ٢٧٥ ، ص ٥٣٤ ، ص ٦٢٧ .

٩٥) أبو العلاء أحمد بن محمد المعري ـ شروح سقط الزند ـ (دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٥م) السفر الثاني ـ القسم الأول، ص ٣٤٨

٩٦) الأبيوردي ـ ديوانه ـ ص ٣٧٦ .

٩٧) علم الدين أيدمر المحيوي ـ مختار ديوان علم الدين أيدمر المحيوي ـ (دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣١م)، ص ٩ . «خفّان: أجمة كثيرة الأسود بالكوفة. ثُعَل: قبيلة عربية مشهورة بإصابة الرمي» .

٩٨) ابن حيوس ـ ديوانه ـ مج ١ ، ص ٢٦٨ .

٩٩) العماد الأصفهاني ـ خريدة القصر وجريدة العصر ـ قسم شعراء مصر ـ تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس ـ (القاهرة ١٩٥٢م) ـ مج ٢ ، ص١٤٠ .

١٠٠) الباخرزي ـ دمية القصر ـ تحقيق د. محمد ألتونجي ـ مج ٢ ، ص ١٠٢٥ .

١٠١) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ـ تاريخ ابن الفرات ـ مج ٨ ، ص ١١٦ .

١٠٢) محمد بن شاكر الكتبي ـ فوات الوفيات ـ مج ١ ، ص ٤١٥ .

١٠٣) الأبيوردي ـ ديوانه ـ ص ٦٣٣ .

١٠٤) العماد الأصفهاني ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ـ تحقيق د. شكري فيصل ـ (دمشق ١٩٥٥م) ـ مج ١ ، ص ٩ ، ص ٦٨٢ .

١٠٥) ابن سبط التعاويذي ـ ديوان ابن سبط التعاويذي ـ نشر د. س. مرجليوث ـ (مصر ١٩٠٣م) ـ ص ١٦٥ .

١٠٦) ابن النبيه المصري ـ ديوان ابن النبيه المصري ـ تحقيق عمر محمد الأسعد : (بيروت ١٩٦٩م)ص ٤٤٢ .

١٠٧) فتيان الشاغوري ـ ديوان فتيان الشاغوري ـ تحقيق أحمد الجندي ـ (دمشق ١٩٧٦م)، ص ٢٢٤ .

١٠٨) ابن هانىء الأندلسي ـ ديوان ابن هانىء الأندلسي ـ (بيروت ١٩٦٤م) ـ ص ٢٠٩ .
١٠٩) أبو العلاء المعري ـ شروح سقط الزند ـ ص ١٠٧٨ .
١١٠) ياقوت الحموي ـ معجم الأدباء ـ مج ١٣ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .
١١١) ابن شاكر الكتبي فوات الوفيات ـ مج ٢ ، ص ٢٢١ .
١١٢) ابن حيوس ـ ديوانه ـ مج ١ ، ص ٢٤
١١٣) العماد الأصفهاني ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ـ مج ١ ، ص ٩
١١٤) الباخرزي ـ دمية القصر ـ مج ١ ، ص ٢٣٧ . «المَوَامي : جمع مُومَاة وهي الفلاة» .
١١٥) أبو الحسن علي بن محمد العدوي الشمشاطي ـ الأنوار ومحاسن الأشعار ـ تحقيق السيد محمد يوسف ـ (الكويت ١٩٧٨م)ـ مج ١ ، ص ٣٣١ . «المداك : حجر يسحق عليه الطيب» .
١١٦) المصدر السابق ـ مج ٢ ، ص ٧ . «الشَغَب : تهييج الشر» .
١١٧) العماد الأصفهاني ـ خريدة القصر ـ شعراء الشام ـ مج ٢ ، ص ٢٨٤ .
١١٨) عبد الرحمن البرقوقي ـ شرح ديوان المتنبي ـ مج ١ ، ص ١٧٦ .
١١٩) ابن النبيه المصري ـ ديوانه ـ ص ٤٠٩ .
١٢٠) الزمخشري ـ ديوانه ـ مخطوط ـ الورقة ٩٤ب .
١٢١) زين الدين عمر بن الوردي ـ تتمة المختصر في أخبار البشر ـ إشراف وتحقيق أحمد البدراوي ـ (بيروت ١٩٧٠م) ـ مج ٢ ، ص ٧٠ .
١٢٢) العماد الأصفهاني ـ خريدة القصر ـ شعراء الشام ـ مج ٢ ، ص ٢٨٧ .
١٢٣) ابن شاكر الكتبي ـ فوات الوفيات ـ مج ٢ ، ص ٤٥٣ .
١٢٤) ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة ، مج ٧ ، ص ٦٠ ـ ٦١ . «الفُريق : اسم موضع بتهامة .»
١٢٥) فتيان الشاغوري ـ ديوان ـ ص ٥٨٨ .
١٢٦) ياقوت الحموي ـ معجم الأدباء ـ مج ١٩ ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ .
١٢٧) الزمخشري ـ ديوانه ـ مخطوط ورقة ٩٤ ب
١٢٨) ابن سناء الملك ـ ديوانه ـ ص ٤٢٥ .

١٢٩) ابن عُنين - ديوان ابن عُنين - تحقيق خليل مردم بك - (دمشق ١٩٤٦م) - ص ٤٠ - ٤١ .

١٣٠) ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات - مج ٣ ، ص ٣٠٦ .

١٣١) فتيان الشاغوري - ديوانه - ص ٤١٥ .

١٣٢) الكتبي - فوات الوفيات - مج ١ ، ص ٣٠٧ .

١٣٣) ابن النبيه المصري - ديوانه - ص ١٧٤ .

١٣٤) الثعالبي - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب - ص ٥٥٣ - ٥٥٤ . ينقل عن الجاحظ قوله «ولو كانت هذه الشهوة شائعة في الأعراب لتعشقوا الغلمان، ولو تعشقوهم لنسبوا بهم ولجاءهم فيه باب من النسيب، ولتهاجوا به وتفاخروا، ولتنافسوا في الغلمان . . . و لحدثت فيه أشعار وأخبار . والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني» .

١٣٥) الثعالبي - يتيمة الدهر - مج ٤ ، ص ٤٢١ .

١٣٦) المصدر السابق، مج ٢ ، ص ٤٠٧ .

١٣٧) المصدر السابق، مج ٣ ، ٤١٠ .

١٣٨) المصدر السابق، مج ٤ ، ص ٨٠ .

١٣٩) المصدر السابق، مج ٤ ، ص ١٥٨ .

١٤٠) ابن الخياط - ديوان ابن الخياط - ص ٢٢١ .

١٤١) ابن الدهان الموصلي - ديوان ابن الدهان - حققه وأعد تكملته عبدالله الجبوري - (بغداد ١٩٦٨م) - ص ١٤٥ .

١٤٢) ابن عُنين - ديوانه - ص ٣٤ - ٣٥ .

١٤٣) ابن النبيه المصري - ديوانه - ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

١٤٤) الكتبي - فوات الوفيات - مج ٤ ، ص ٦٦ .

١٤٥) فتيان الشاغوري - ديوانه - ص ٤٠٥ .

١٤٦) المصدر السابق، ص ٣٩٥ .

دراسات في الأدب السعودي:

أثر الثقافة العربية الحديثة في تكوين المقالة الأدبية

للأستاذ محمد عبد الله العوين

ليس في وسع الدارس أن يحصي المؤثرات التي هيأت المقالة الأدبية لتصل إلى ما بلغته من تجويد وإتقان، ذلك أن التأثير لم يأت من ثقافة واحدة، أو مذهب أدبي واحد، بل إنّ الأدباء والمثقفين في الحجاز ونجد، والمنطقة الشرقية والجنوبية كانوا يتلقون تيارات ثقافية وأدبية متعددة، وبالأخص بعد الاستقرار الأمني والسياسي في السنوات التالية لعام ١٣٥١ هـ، إذ تتضح في طرائق التعبير، واختيار المفردة اللفظية، وسيطرة روح رومانسية حينا، واتباعية حينا آخر آثار مختلف المدارس العربية القديمة، والمهجرية، والمصرية، والعالمية أحيانا..

ولكن التأثير القوي البالغ قبل النهضة، وبعد ابتدائها في بشائرها الأولى هو ما كان من أثر الأدبين؛ المهجري، والمصري حيث أسهما في صياغة المقالة الأدبية على النحو الموجود بين أيدينا إلى قرب نهاية القرن الرابع عشر.

ولم تستطع المقالة الأدبية، وألوان الأدب الأخرى أن تتخلص من تأثيرهما العنيف إلاّ مع اتساع منافذ الثقافة، وتعدد مشارب التعليم، وكثرة الطبقات الدارسة للأدب على النمط الأكاديمي، درسا يطلعها على أكثر التيارات الأدبية العربية والعالمية قوة وتأثيرا، مما ساعد على إضعاف آثار المدرستين القديمتين، وتهيئة الراهن لاستقبال المؤثرات التحديثية الجديدة في الأدب، والثقافة بعامة، ووضوح أثر الثقافة العالمية من الأدب الأصلي نفسه مباشرة أو عن سبيل الترجمات النشطة لروائع هذا الأدب، وجيد دراساته.

أما في بداية النهضة فقد كان أثر القرآن الكريم واضحا في كتابة بعض الأدباء، وبرز تأثير الأسلوب القرآني في صياغة الجملة، واستعارة بعض المشاهد، و اقتباس بعض التعابير.

وأكثر الأدباء تأثراً بذلك أحمد السباعي، في كتاباته الأولى حيث استمد شيئا كثيرا من صوره، وأسلوبه من البيان القرآني أولا ومن الاتجاه المهجري وما يتصف به من نزوع إلى الحرية والصوفية، والرغبة في التغيير.

في مقالته «هات رفشك[1]» يقتبس ألفاظا قرآنية كاملة ويصوغها أحيانا بما يلائم نصّه:

«يا صاحبي هات رفشك واتبعني.

هاته وقم في أثري ولا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه أمرا . .

ألست من غراري أنت تعتلج في صدرك الآمال؟؟ .

ألست من أضرابي تختمر في رأسك الأفكار؟؟ .

ألست شابا مثلي تتمتع بدم قوي يجري في عروقك؟؟ .

ألست نشيطا تستطيع أن تترك في الحياة أثرا؟؟ .

قل : إي . . وإذن أي أثر تركته في حياتك؟ وأي أمل مما يعتلج في صدرك ، أو فكرة مما يختمر في رأسك حققت؟ أو أي خدمة أداها دمك القوي لبلادك؟؟ .

أتمتعض ثاني عطفك؟ هوّن عليك ، إن أريدك إلاّ صريحا ، فقل : هل أنت تستحق الحياة؟

لا و ربك ، وإذن أنت مثلي وأنا مثلك فاتبعني ! ، اتبعني ورفشك . اتبعني إلى حيث ترقد الجثث الهامدة . هناك نواري جسمينا بين الحجون و كدا .

فهات رفشك .

هاته يا صاحبي

هاته واتبعني

أتتلكأ . ولم يا صاحبي؟

ألأنك تحب الحياة؟

إن للحياة رجالها ، في كل يوم لهم أثر جديد فيها ، لأنهم ملكوا فجاج الأرض ، وذللوا متن البخار، وسيطروا على الهواء ، ورأوا والجبال في كنوزها فأسلمتهم مفاتيحها ، والحديد فعكفوا على تسخيره في مختلف شؤونهم .

وأنت ماذا فعلت؟ أوجمت .

لا يا صاحبي ، كـن شجاعا ولو مرة واحدة وتعـال فاعترف معي بتقصيرك ، وهلم بعد إلى رفشك وامش معي .

هنـاك في ظل كـدا نهدأ بين ركـام أمي رفـاة سحيقـا وصعيـدا جرزا ، فهـات رفشك .

هاته يا صاحبي ، هاته واتبعني .

لا ، لا تصعّد زفرة فما أغنت الـزفرات يوما ، هاك التاريخ فـاستنطقه هل بلغ شعب بزفراته يوما في الحياة شوطا؟

ألا إنّها الحياة جهاد تتزاحم فيه المناكـب والأقدام فلا تذهب نفسك حسرات على عيش لا تنعم فيه بهذا الزحام .

يا صاحبي بالأمس فرأته اسمـي إلى جانب إسمك في سجل الصدقات ، فما هانت نفسي هونها عليّ يومئذ ، ولا صغرت عندي استصغارك آن اذ ذاك .

أ رجل أنا وأنت ؟ إذن أين هي مميزات الرجولة وأنفتها و إباؤها؟

الحق ـ والحق أقول لـك ـ إنني وإياك لا نستحـق الحياة ، فهلم هلم بـرفشك واتبعني .

اتبعني وتعال نحتفر لأنفسنا هناك في حضن الأبد مأوىً نهائيا . . . [٢].

فالكاتب قد استفاد من الآيات الكريمة :

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾[٣]

﴿ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾[٤]

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾[٥]

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾(٦)

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾(٧)

على أن التأثير البيّن في المقالة يمكن إرجاعه إلى المؤثرين آنفي الذكر

أولاً ـ أثر الأدب المهجري :

والسباعي في النص السابق لا يخلو من آثار جبران خليل جبران في نظرته اليائسة إلى الحياة، ورؤيته القانطة للأحياء، فجبران في مقالته «حفار القبور» يصور الموت على أنه أفضل من الحياة، والجن على أنهم أطهر من بني الإنسان، وأكثر حبا وصفاء، ويدعو إلى أن يتولى كل عاقل «رفشا» ويُدفن فيما يحفر بها الأحياء شكلاً الأموات معنى وجوهراً من بني الإنسان؛ فهم أموات منذ الولادة ولكنّهم لم يجدوا من يدفنهم فظلّوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم(٨). وكأنه يأخذ بوصية محاوره القادم من عالم الغيب ـ كما يزعم ـ الذي علمه الحكمة، وألهمه بما أبصره في حياة الناس من العدمية والعبث وردد مقولته: «علمهم حفر القبور، واعط كل واحد رفشا ثم دعهم وشأنهم(٩). لأن جبران الذي تأكد له يأسه من بني قومه المختلجين أمام العاصفة، الضعيفين عن السير معها يحفر القبور ـ من تلك الساعة وليحد للأموات، «غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني»(١٠).

وقد رأى السباعي خلاف ذلك، إذ التفت إلى قومه فأبصرهم لا يعرفون للحياة معنى، ولا يعتقدون في العمل قيمة، وناجى صاحبه بما يحس من مرّ الشكوى فوجده من صنفه القاعد عن الحياة بمعناها الصحيح، فدعا إلى أن يدفنا نفسيهما، ويحفرا ـ ضمناً ـ لقومهما مثواهم.

وقد اتضحت الآثار المهجرية في هذا النص جليّة في استلهام الطبيعة الحلول لمشكلات الواقع الأليم، ومناجاة الجمال، والكون، والنفس للإفضاء إليها بما تكنه الأرواح من آلام وتمن.

والسباعي يعترف بتأثره هذا صراحةً حيث يقول: «فتح عيني على الأدب جبران خليل جبران، كانت تعجبني فيه جرأته على الأفكار التقليدية، يواجه مساوئها في صراحة قليلة النظير وطريقته تمتاز بأسلوب قوي ممتع. كنت مأخوذا به في فجر شبابي ولم أكن في هذا وحدي، فقد استطاع بسحره أن يترك أثراً واضحاً في أكثر أدبائنا الشيوخ.»(١١).

وأجد شيئا قريبا من ذلك في مقالة عبد الوهاب آشي «على ملعب الحوادث»(١٢) ففيها استجلاب لصور المهجريين، وحوارهم يتم عادة بين الجدول المنساب تحت ظلال كثيف من الأشجار، وخيال يزور، يتمثل في صورة حورية جميلة وادعة، أو شيخ حكيم، أو طيف من الجان يلقي بالحكم، ويعين على استخلاص النتائج في أحداث جسيمة تعصف ببلاد الكاتب، أو خطر داهم يفسد الحياة العامة للشعب.

ويصل الآشي إلى الختام نفسه الذي يصل إليه جبران في حواره مع الأطياف الزائرة في الغابة، فزائرة الآشي، تلك الفتاة «كطلعة الشمس نورا وبهاء» تختم حديثها الحزين عن اللغة العربية للشيخ العربي الكهل (وضيء المحيا مهيب الطلعة)، بعد أن لوت وجهها نحو الوادي الفتح: «وعليكم الخزي والعار أيها الأخلاف الأشرار».

وجبران في نجواه يقول:

«أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم . . [١٣]»

وكان استلهام أدبائنا روح المهاجر ناجما عن رغبتهم في الانطلاق من قيود الأسر الإجتماعي ، والإنفلات من ربقة التخلف العلمي والفكري ، الذي رزحت البلاد تحته قرونا طويلة .

والتقت الأفكار والأخيلة بين أدباء الحجاز وأدباء المهجر، على الرغم من اختلاف التكوين الذاتي لكل أديب في المهاجر، وفي الحجاز، وتكاد هذه النغمة اليائسة المحتجبة تعمر أكثر ما أثر عن أدباء الحجاز قبل الخمسينيات الهجرية ، وقبل أن يشتد التواصل الثقافي مع مصر، أو قبل أن تستطيع التأثير فيمن حولها ، كما حدث فيما بعد .

وبنظرة فاحصة لما كتبه محمد عمر عرب[١٤]، ومحمد حسن كتبي[١٥]، وعزيز ضياء[١٦]، تتبين ملامح تأثير المدرسة المهجرية في ضبابية الأسلوب ، وانتقاء المفردة ذات المدلول الفلسفي ــ في بعض الأحيان ـ والميل إلى الكتابة الشاعرية المنثورة[١٧]، وغيمة من القنوط والنقمة على الواقع تتناثر في ثنايا العبارات الذاتية الشبيهةبالنجوى[١٨].

ومن الطبيعي أن يحدث مثل هذا الإعجاب ، متبوعا بمحاولة جادة في الاحتذاء والتقليد ، ولا يعيب من سلك هذا النهج كونه لم يأت بجديد ، إذ إنّ العناية بالتجديد لم تنضج بعد دعوتها إلاّ مع اشتداد عود الأدباء الرواد ، وتقوّي شكيمتهم ، بحيث استطاعوا فيما بعد أن يظهروا شخصيتهم في نتاجهم ، ويتكئوا على الجديد المثري أيا كان .

وخير ما اتصفت به حركة البداية كونها لم تعد إلى استجداء نصوص العصور الهابطة فنيا، بل تجاوزتها إلى الأدب العربي القديم في عصوره الزاهية، وإلى محاكاة الأدب العصري الحيّ، وقد وضح أثر العودة إلى التراث في قوة الأسلوب، ونصاعة العبارة، وحسن الديباجة، وانتفاء الركاكة والضعف، وقوّى ذلك ما يتدفق في أساليبهم بعد استلهامهم روائع الجديد مع استقرار الأحوال العامة في البلاد من رؤية ذاتية نحو الفكر، والمجتمع، والحياة. فأصطبغ أدبهم بما جاش في نفوسهم من طموحات إلى مجتمع متقدم، وما يرونه حقيقا بالاتباع للنهوض إلى سلّم الحضارة والرقي، وما اضطرب في حياتهم الأدبية من خلاف فكري، وخصام نقدي كان عنوانا لكل ذلك.

وإنّ المتابع لتطور النص المقالي، منذ بداياته الأولى في أم القرى إلى قمة نضجه في منتصف الخمسينيات وما بعدها ليأخذه العجب كيف استطاعت فئة من الشبان أن تنفذ من نير الركود الاجتماعي، وتبحث لها عن نهج ثقافي جديد يختلف عن نمطية التفكير السائد، فامتدت أيديهم وأنظارهم إلى ما يتفق مع نزعتهم العنيفة في تكوين بيئة أدبية جديدة، ووجدوا كثيرا من ذلك في أدب المهجريين «فعشقوا أدبهم، والتهموه، وقلّما تجد شابا متعلما يومذاك إلاّ وقد تأثّر بالثقافة المهجرية، ولو إلى حدّ ما» (١٩).

وقد، اتضحت آثار السمات المهاجرية في أدب السباعي «وبخاصة أول أمره، فقد كان يسير على خطى جبران ثم استقل بطريقة خاصة(٢٠).

وآثر العواد أن يستقل بطريقة خاصة، مبتعدا عن المؤثرات كافة، إلاّ أنه لم يوفق إلى ذلك، ففي نثره سيماء من الأدب المهاجري، يتضح ذلك في رفضه اتباع الثقافة التقليدية، وخروجه على كثير مما تواضع عليه المجتمع، ورغبته في تغيير

طـرائق النظر إلى التراث، ومـا يعـده الناس مـن حولـه آثـاراً تستدعـي الاحترام والقبول، ويـذكر الآشي في مقـدمة خـواطر مصرّحـة أن العوّاد يتحـدى «تجديد المهجريين السوريين ـ ومن على شاكلتهم مـن المصريين الذين ينادون بالتجديد في الأدب وأن هذه الخطة وإن لم ترق لدى المحافظين الرجعيين، غير أنها جارية على سنن حياتنا الحاضرة[٢١].

وخير دليل على أثر أدب المهجر في نثـر العواد تشابه الروح الدافعـة للكتابة، والمثيرة للنقد في مقـالته «البلاغة العـربية» [٢٢]ومقالة جبران «لكـم لبنانكم ولي لبناني» [٢٣]، فكـان العـوّاد يريـد أن يقـول «لكـم لغتكم ولي لغتـي» كما قـال جبران[٢٤].

ثانيًا ـ أثر الأدب المصري

هذا ميدان واسع، ، فسيح الأرجاء، يتعذر حصر أوجه صلته بالمقالة الأدبية في المملكة . وحسبي أن أشير إلى مـا يدل على جوانب من تلـك الصلة، وذلك التلقي.

وتقدم أن أثر الأدب المهجري أسبـق إلى أدب شبه الجزيرة العربيـة من سواه، وأن الجيل الأول الذي بعث النهضة الأدبية لم تخل نصوص كتابه من سمات ذلك اللون من الأدب، مع وجـود صلات ثقافية بأقطار عربيـة أخرى، لكنها لم ترق إلى أن تترك آثارها إلاّ بعد أن كاد الوضع السياسي يقارب الاستقرار قبل منتصف القرن الرابـع عشر الهجري، وبالأخص الأدب المصري، وما كـان ينشره ويذيعه أعلام بارزون، ومفكرون متميـزون كونوا لهم طرائق خاصة في أسلـوب الكتابة، ومنهج التفكير ففي ذلك الوقت كانت الـرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات،

والسياسة الأسبوعية للدكتور محمد حسين هيكل، والهلال لجورجي زيدان، وغيرها من صحف ذلك العهد، وكان يكتب فيها عباس العقاد، وإبراهيم المازني، وطه حسين، ومصطفى الرافعي، وسيد قطب، والدكتور محمد مندور، وعلي عبد الرازق، وأحمد لطفي السيد، وتوفيق الحكيم، وغيرهم من أرباب القلم، وحاملي الفكر، وكانت أعداد من صحف مصر الأدبية وغير الأدبية تصل إلى الحجاز بالأخص، ويتناقلها محبو الاطلاع، وراغبو المعرفة(٢٥)، في وقت كانت البلاد خلوا من صحافة قوية ترعى الكلمة وتقيم شأن الأدب، وليس بين يدي الشداة إلاّ نزر من كتب متفرقة، بعضها تراثي، وبعضها الآخر حديث يتصل في أكثر الأحيان بما يكتبه اللبنانيون والسوريون، في بلادهم، أو في المهجر، مع تجشم عناء كبير يلحق بمن يبحث عن صحيفة أو مجلة تصدر في مصر إلاّ أن ذلك لم يحل دون نشوء طبقة ممتازة من القراء الحريصين على تلقف ما يكتبه أدباء مصر، وحين هدأت الأحوال السياسية، واشتدت صلة السعوديين بمصر ازداد أثر تلك الثقافة وضوحا في أدب الناشئة، واندفعوا إلى تقليد البارزين من أولئك الأدباء، وحاولوا أن يتبعوا أسلوبهم في النقد، وعاداتهم في خصوماتهم الأدبية، وأن يستشهدوا بأقوال بعضهم، وربما يلتقي أديب ناشىء من هنا بعلم من أعلام الفكر هناك، دلالة إعجاب وتقدير، ومحاولة احتذاء مقصودة أو غير مقصودة فيما بعد.

ولم يك هذا الإقبال النهم على الأدب المصري محل اتفاق، فقد انقسم الشبيبة إلى فئتين؛ واحدة لا ترى بأسا في قبول كل ما يأتي من أولئك الأدباء، غير سائلة عن تميّز الشخصية في الجزيرة العربية بصفات خاصة بها، تنبثق من وحي الحياة الاجتماعية التي تعيشها، فاندمجت في هذا المؤثر اندماجا كاملا، وعجزت أن

تتخلص منـه حينما أرادت ، والثانية أنكـرت تلهف قراء البـلاد على قبول الأدب المصري قبـولا مطلقا ، واحتـذاء أسـاليبه ، حتـى صـار الشعـر والنثر لا يمثـل شخصية كاتبه قدر ما يمثّل السمات الأسلوبية المصرية لدى كثيرين من أدبائنا .

وفي مقـدمـة «وحـي الصحـراء» لحظ د. محمد حسين هيكـل أثـر الثقـافـة المصرية ، وغيرهـا «ثم إنّك تـرى أساليب يحتـذي فيها أصحابها بعـض الكتاب المعـروفين في مصر وغير مصر»(٢٦)، ويذهـب إلى أن اندفـاع أدباء الجزيـرة إلى الاقتباس من الآداب العربية مردّه حرصهم على أن تبلغ بلادهم «ما بلغت غيرها في أقصر زمن» تستطيع فيه أن تدرك هذه الغاية(٢٧).

ويقرر أحمد العربي أن الأثر المهجـري كان سابقا غيره «في أدبنـا الحديث حتى عهـد قريـب ، أما الآن فقـد بـدأ يتحرر قليـلا مـن قيود التقليـد ، وأخذ يشتـد ساعـده ، وإن كنّا نجـد لنفثات أقلام الأدبـاء المصريين أثرا متميـزا في السنوات الأخيرة»(٢٨).

ومردّ إعجـابهم بالأدب المصري كونـه ثر الثقافة ، يصـدر من أصالـة وطبع ، وكتّابـه «أفذاذ استطاعوا أن ينهضـوا بالنثر والشعـر نهضة لم تشهدها العـربية في ماضيها في قرن واحد لا في القرون كلها» (٢٩).

ثم إنّ آثار النهضة في مصر تصل إلى الحجاز في وقت يسير، مما كان له صدى طيب في قـراءة مطبوعاتها ، ومتابعـي ثقافتها «فما يلقـى في مصر وغير مصر من محاضرات وخطب نسمعه ونحن في مكة ، وما يكتب فيها يقرأ بعد ثلاثة أيام في مكة وهـي المدّة التي تصل فيها صحفنـا إلى المدينة ، فكأنّ مصر والحجـاز وطن واحد من الناحية الجغرافية»(٣٠).

ويكون العواد شغوفا بتتبع أوجه التعليم، والحياة الاجتماعية في مصر، وداعياً إلى الإفادة منها، وحريصا على أن تتمكن أول بعثة تتعلم في مصر ـ آنذاك ـ من «فهم الحياة العامة فتفحص تلك العقلية التي أمامها، وتقف على ما فيها من استعداد ونشاط، واتجاه، وتدرس ميول تلك النفسية وخبايا أفكارها، وتحاول ما أمكنتها المحاولة التعرف الحقيقي إلى النفس المصرية العامة لتدرك أسرارها واتجاهاتها نحو الفن والعلم والصناعة»(٣١).

وأكاد ألمس تأثير قراءة شبان الحجاز الأدب المصري في تقليد محمد سعيد عبد المقصود إبراهيم المازني في «صندوق الدنيا»، حين يضيق الوقت به، فلا يجد ما يكتبه لأن (المطبعة كجهم لا تشبع ولا تمل قولة «هات»)(٣٢)، وحينئذ لا يجد المازني مخرجا من هذه الأزمة إلاّ في البحث عن موضوع، يقول« . . وأروح أفكر في كلام أكتبه صباح غد وأشرب فلا أسهو، وأضحك فلا أراني ألهو، ويضيق صدري فأتمرد وأخرج إلى الطرقات، أمتع العين بما فيها مما تعرضه الحياة، فإذا بي أقول لنفسي إنّ كيت وكيت مما تأخذه العين يصلح أن يكون موضوع مقال(٣٣).

ويقول محمد سعيد « . . وصدقني أيها القارىء أني خفت من أن أضل في مغارة فقمت هاربا من جهلي المركّب الذي لم يساعدني على أن أكتب في موضوع ما وألقيت القلم من يدي وتركت المكتبة . . وقمت هاربا إلى الشارع، علّني أرى، أرى شيئا يمكنني أن أكتب عنه، اخترقت الشارع العام من أوله إلى آخره وقد رأيت كثيرا ولكن لم أجد من نفسي دافعا يدفعني للكتابة، وأخيرا وأولاً وقع نظري على غربال بيد أحد المارة فلم أشعر إلاّ ولساني يقول: غربال . . لا بأس أن تكتب عن الغربال . . »(٣٤).

والاحتمال وارد أن المغربل الجديد اطلع على كتاب «صندوق الدنيا»، إذ إن

مقالـة محمد سعيـد كتبت في عام ١٣٥٠ هـ ، حوالي عـام ١٩٣٠م، والكتاب أخـرج في طبعتـه الأولى عـام ١٩٢٩م، ومن الجائز أن يكـون مـن بـاب تـوارد الخواطر.

ومن اليسير أن يجد المطلع على أدب فترة النهضة بعامة اقتباسا، أو مقولة، أو ترسـم طريقـة، مما يـدل على المتابعـة والقراءة والإقتـداء، فهذا حسين سرحـان يستشهـد بـرأيين عـن الأدب الكـاذب لسـلامـة مـوسـى الـذي يسميـه (أدب الأوباش).

ويقول سرحان: إنـه لا يلتفت في الجريـدة [٣٥] إلى هـذا اللون مـن الأدب، ويلوم الجريـدة على أن «حظ الأدب الصحيـح فيها مـن أعقم الحظـوظ، وكان صـوتـه فيهـا ضئيـلا خـافتـا بجانـب مـا يعلـو فيهـا مـن أصـوات المواضيـع الأخرى»[٣٦].

ويذكر حسين سرحان أنه قرأ للمازني كثيرا من نظمه ونثره وقصصه [٣٧].

أمّا العطـار فلا يُخفي إعجـابه بالعقـاد، وحين قدم لـزيارة المملكة مـع وفد رسمـي من قبـل الملـك فاروق لمقـابلة الملـك عبـد العزيـز هـبّ أدباء الحجـاز لاستقباله، والاحتفاء به، والتحدث إليه، يقول العطار«أما أنا فمن أشد الناس دراسة لأدب العقـاد واطلاعـا عليه، وإعجـابا به وتقـديرا لـه، بل هـو عندي الكاتـب الأول للعربية في عصرنـا الحاضر، وبيني وبينـه صلات ودية تـرجع إلى تسع سنوات خلت [٣٨]، وهذا ما جعلني أعظم شوقا من غيري إلى لقائه وتحيته في بلادي» [٣٩].

ولما زار محمـد حسين هيكل، وحسـن البنا، وطـه حسين الحجاز للحـج أو

العمرة في الخمسينيات، وفي أوقات متفاوتة التقى بهم طلائع الأدباء، وتحدثوا إليهم، وأقاموا لهم حفلات التكريم، وأعجبوا ببيان هيكل، وفصاحة البنا، وطلاوة حديث طه [٤٠].

وقد وضح تأثر العطار بالعقاد في الشعر بخاصة من حيث نزوعه إلى التأمل الذاتي والفلسفي «وتكاد فيه عاطفة أو إحساسا عميقا إلاّ في النادر[٤١]، وليس من تفسير لرغبة الشباب الناشىء في توثيق صلاته بهذا الأدب إلاّ إحساسه بضرورة البحث عن مسار جديد حي ينقل شعورهم بفيض الآمال الغامرة التي يحسّون بها، ويخرج عن سكون الأدب التقليدي المتهالك «فلقد كانت الحياة في مصر مثلا أو سواها تيارا قويا لا يسع بلدا كالحجاز غير أن يتأثر به، وأن يتطلع إليه و إلى مسايرة الحياة في عهد ها الجديد» [٤٢].

ولا يرى أحدهم في الإشادة بما اقتبسه زملاؤه من طليعة الأدباء بأسا، بل يعد ذلك مدعاة إلى الافتخار والاعتزاز، إذ إن ذلك ـ حسب رأيه ـ سعي إلى الجدة والتوثب والحياة، يدفق في هذا الأدب الناشىء ماء الحياة، ويفتح له منافذ الضوء «وأغلب أدب الشباب هو الأدب العصري السائر مع نواميس الحياة العصرية في نشوئها وتطورها، كما أن أدبهم هذا مقتبس من الأدب المصري الذي تفيض علينا نوره الصحف والمجلات، وهذا تأثير عظيم في الحياة الأدبية ـ طبعا ـ من حيث النبوغ والعبقرية والروعة البيانية [٤٣].

وإذاً قد عرضت آراء من أخلصوا في التقليد لهذا الأدب فإنه لا بد من الإشارة إلى نفر آخر لم يستحسن ذلك القبول المطلق، ولم يستسغ أن تندثر شخصية الأديب هنا في خضم التيار القوي الوافد من مصر.

فحين زار السرحان المدينة كتب نقداً للأنصاري، وأخذ عليه التزامه نهج المدرسة المصرية في الكتابة «وأسلوب عبد القدوس نفسه كما يبدو لي يتأثر إلى حدّ كبير بالأسلوب المصري ــ ولكنه يلتزم السجع في الغالب، ويأنس برنين الألفاظ، وتعجبه الفصاحة، وقوة الأسر، ومتانة التركيب، قبل أن تعجبه جودة المعاني وبلاغتها وسمو الأفكار وجمالها»(٤٤).

رد عليه الأنصاري قائلا إنه «سيحاول في دراساته هذه أن يتخلص من الأسلوب المصري المبثوث في جرائد مصر ومطبوعاتها، ويستقل بأسلوب شخصي رفيع يجمع بين الجزالة العربية القديمة والذوق العصري الحديث (٤٥).

ويعلق على ذلك السرحان «هذه محاولة طيبة نتمنى لها أن تنجح وإن كنت ضعيف الأمل في نجاحها، لأن الأسلوب المصري أو على الأصح الأساليب المصرية ارتسمت في الأذهان، وانطبعت في الأدمغة، وصارت طبيعة لازمة لا نستطيع مقاومتها، ولا التخلص منها مهما حاولنا» (٤٦).

ومن الحق أن نعترف بطغيان أثر الحياة المصرية على غير الأدب أيضا، في الحجاز بالأخص، وأن ذلك ليس فيه من المعيب ما يلام المقلدون على انصياعهم إلى التأثر، لأنّ تلك سنّة الحياة، أن يبحث الوليد عن طريقة للخطو، فيقلد من حوله إلى أن يستقيم له المشي، ويكون قادرا على الانطلاق والعدو، ولو لم يكن مثل هذا التأثر في الحياة بعامة لما تقدمت الشعوب ولما تناقلت المجتمعات معارفها، وطبائعها وما لديها من مكاسب وحسنات.

وإنّ تيقظ ذوي الهمم النابهة في الحجاز ـ باعتباره سابقا غيره من الأقاليم إلى النهوض ـ جعلهم يتأملون سير الحياة العصرية ـ كما أوصى العقاد ـ فيسعون إلى نقل ما يقدرون عليه من الجيد الممدوح «ومن حسنات تأثرنا الفكري بمصر أن

حجازيا مخلصا أقدم على تأسيس مدرسة للبنات في جدة. وإقدامه هذا يعد خطوةً جريئة في سبيل التطور، وقد لقي عنتا من المقاومة الفكرية في بادىء الأمر، ولكنه ضرب مثالاً حيا للناس ببنات أسرته الكبيرة» (٤٧).

بل إن بعضهم بلغ وعيه أن يرى أسلوب الحياة الأوروبية، وغيرها مثلا يُحْتذى، ويتجاوز حياة جيرانه من الشعوب العربية، ويرى أن أدب مصر عاق تقدم الحياة الاجتماعية في البلاد، فهو يشكو من انفصام العلاقة بين الأدب والمجتمع، ويشيد بالأدب الروسي لارتباطه بمجتمعه، ويعلّل ارتباط الحجازيين بالأدب المصري (لأنه لا يجد في آثار أدبائه إلاّ همومهم الخاصة، فالشاعر يشكو غرامه، ويبث أحزانه الخاصة، والكاتب يدافع عن فكرة أدبية هاجمها كاتب آخر، وقد يحتدم الدفاع فينقلب هراء، والأساس في كل ما نمارسه من ضروب الأدب أدبي محض يتأثر بالأوهام الذهنية والخيالات، ولا يتأثر بالحقائق الراهنة، التي تدور عليها حياتنا العامة... ومن يتتبع ما ينشره معظم أدبائنا وكتابنا يهوله أنهم لا يحسبون الحياة بأحداثها الزاخرة إلا كما يحسبها الأطفال، ولو ذهبنا نتلمس صورة حقيقه لحياتنا الاجتماعية فيما يكتب أدباؤها وينظمون لهالنا إفلاس هذه الحياة وإقتارها التام من دلائل الحياة، وأسباب الأمل، مع أن الواقع لا يؤيد ذلك.. لا بد أن يتغير منهج الكتابة.. ويكفي أن الناس الآن يؤمنون بضرورة التعليم، ويرتاحون إلى النقد والنصح، ويكفي أنهم يصطنعون من وسائل الحضارة ما بدل نظرهم إلى الحياة» (٤٨).

ومن أشد الناقمين على تقليد الأسلوب المصري، واقتفاء آثار الكتابة ومدارس الأدب في مصر عزيز ضياء، ولعله لم يرض قط عن مستوى الكتابة بعامة في الخمسينيات وما بعدها، ويرى أن كل ما ينشر في الصحف غثاء،

وإفساد للذوق، وأن «أدباء الحجاز وُفقوا كل التوفيق إلى إتقان الكتابة بأسلوب العقاد وطه حسين وهيكل والمازني».

«ولكني أحب أن يفهموا أن الأسلوب ليس كل شيء، وأن الأدب ليس إتقان الكتابة والنظم، أحب أن يفهموا أن الأسلوب ليس سوى أداة نعبر بها عن أفكارنا، ونعرض بواسطتها عواطفنا وغاياتنا، وأنّنا حين نملك الأسلوب ولا نملك الأفكار والغايات نكون كالذي يعرف أنه إذا مشى على طريق ما سيصل إلى نقطة معينة، ولكنه كسيح أو مقعد، لا يستطيع أن يمد قدمه بخطوة واحدة في هذا الطريق» (٤٩).

وتحتفي صحف الحجاز بما ينشر هناك فتعيد نشر بعضه (٥٠)، وتبشر بما يصدر من كتب لأدباء مصر، فيزيد ضيق عزيز بارتياح أدباء إلى ذلك الأدب، واسترخائهم عن الإبداع الذي يمثل شخصياتهم، ويصور آمالهم «.. وليس كل هذا الذي يطالعك به أدباؤنا في كل أسبوع إلاّ محاكاة فاشلة لما نقرأ من أدب المصريين، وإنه ليس سوى محاكاة فاشلة، وأنت تستطيع أن تدرك درجة فشلها حين تستعرض أدب المصريين وتقارن به أدبنا الحجازي، وأنا أؤكد لك أنك سترى في الأدب المصري نزعات تميّزه وتدلّ على أنه يتمتع بروح قوي يهيمن عليه، ويقوده إلى مثل أعلى». ويمتدح الأدب المصري لأنه يؤدي رسالة، وأدبنا لا يستطيع أن يصل إلى تأدية هذه الرسالة (٥٠).

ويسرف عزيز في إنكاره الأدب الحجازي فيشتط في نظره إلى ما تنشره الصحف، ويكتبه زملاؤه وأقرانه، فيتهكم ويسخر بما يعده الناس مثيراً الانتباه، وداعياً إلى الإعجاب: «هل كل ما يرتكز عليه الأدب هو هذا النوع

المضحك من المقالات التافهة التي تخمت بها جرائد مصر؟ وهل تنحصر مهمة الأديب الحجازي في ترديد صدى الأديب المصري؟ بل هل تنحصر في هذا المجال الضيّق الموحل الذي يضحكنا ويضحك الناس علينا؟ [٥١].

والكاتب نفسه ــ الذي ينكر تقليد أدباء مصر ـ مغرم إلى حد كبير باحتذاء أسلوب طه حسين، واتباع نهجه في الكتابة، فشاع عنده ما شاع عند أستاذه، من التكرار والترداد، والعود على البدء، واستخدام الألفاظ السهلة الموحية، والنقد الساخر المر، والمواجهة الجريئة مع الظاهرات. ويمتد أثر أدب مصر في الأجيال الأخرى إلى قرب نهاية القرن الرابع عشر، حيث تطلع الأدباء إلى مصادر معرفية أخرى، بعد أن توسعوا في الدرس، وأتيحت لهم فرص الاختلاط الواسع، واقتناء الكتب الجديدة، والمجلات الصادرة من مختلف دول العالم.

ويلمس الباحث إعجاب الأدباء السعوديين بمفكري مصر، حين يرحل أحد هؤلاء الأدباء أو المفكرين إلى العالم الآخر، فيسرع أدباؤنا إلى رثائهم، وذكر شمائلهم، ومحاسن آثارهم، ونبوغهم الفني[٥٣].

وإن خير ما أختم به هذا الحديث حول الأثر المصري ما قاله عبد الله بن خميس عن تأثره بالزيات: « . . . ولعلّ كثيراً من إخواني الذين سألوني عن أعظم كاتب عرفته، أو أكثر أستاذ تتلمذت عليه في ميدان القلم إنني لم أزد على أن قلت لهم إنّه الزيات.

إنّ الصلة بيني وبين الأستاذ الزيات قديمة تنيف على خمسة عشر عاما، وهي صلة قراءة لاصلة لقاء، وصداقة أدب لا صداقة أرب، لقد كانت رسالة الزيات هي هوايتي المفضلة، وصديقي من بين سائر الصحافة، وأستاذي الأول والأخير في تكوين قلمي العاجز [٥٤].

استقلالية المقالة الأدبية السعودية.

يطمح بعض الدارسين إلى أن يكون الأدب السعودي مستقلا عن غيره من الآداب، وتزداد حميتهم لأدبهم فيغالون في إظهار مبلغ تأثر الأدب لدينا بالآداب الأخرى.

ويرون في ذلك خطراً داهماً على شخصية الأدب السعودي وقضاءً على خصائصه، وإضاعةً لمعالمه الرئيسية، وينسون أن التأثر والتأثير سنة الحياة، بل هي علامة ممتازة من علامات الحياة القوية النشطة، التي يتبادل فيها الموهوبون نتاجاتهم، ويأخذ فيها الضعيف عن القوي، ليزداد منعة وخبرة، وعن هذا الطريق تكمل المعارف، وتستوي الشخصيات الأدبية والفكرية، ولو دار بخلد أحدنا أن أدبا متقدما لدى شعب من الشعوب حصر في دائرة ضيقة، هي قبول أهله له، وحبسه عن الخروج إلى الآخرين، ومنع أدب الشعوب الأخرى من الدخول إليه، خشية التأثير، وفقدان السمات الشخصية، لضاع منه عنصر القوة، ونقصت لديه القدرة على الاكتمال لأنه فقد خير ما يعين على النضج، وأقدر ما يدفع الأدب إلى السمو، وهو الصلة والاتصال بالثقافات الأخرى؟.

إذاً، فلماذا يخشى عزيز ضياء، أو أحمد عبد الغفور عطار، أو عبد القدوس الأنصاري من سلطة الأدب المصري على أدبهم..؟.

وهم أنفسهم لم يستطيعوا فكاكا من سمات ذلك الأدب، ولم يقدروا على أن ينعزلوا عنه أو ينصرفوا انصرافا كليا إلى غيره من الآداب. وهل كانوا يريدون من أديبنا أن يبقى حبيس تاريخه القصير الناشىء أو ماضيه المتهالك الضعيف؟.

وهل كان الأدباء السعوديون قادرين - من غير تأثرهم بآداب أخرى - على أن يأتوا بأدب حي ناضج متدفق بأسباب الكمال والاستواء؟.

وأكاد أذهب إلى أن الأدب السعودي قد أفاد من صلاته القوية بالآداب الأخرى سواء كان تراثا، أم أدب مهجر، أم أدبا مصريا، أم أدبا عالميا.

وهو لم يستطع إلاّ أن يدور في فلك كل أدب تأثّر به، فحينا طغت عليه السمات المهجرية وحينا المصرية، لأن الأدب الوليد لم يك مستطيعا الوقوف على قدميه بعد، وهو في هذا ليس بدعا، فغيره من الاداب الأخرى مرّ بالأطوار نفسها التي مرّ بها أدبنا. وإنّما المستنكر أن تكون شخصية الأدب المؤثر مثبطةً الأدب المتأثر عن النهوض، وصارفةً إيّاه عن تكوين معالمه الخاصة، عن طريق استفادته أشياء كثيرة، صوراً وأخيلةً، ومعاني وألفاظاً، وأنماطاً تعبيريةً، ومسالك حوارٍ وإقناع

وهذا ما حصل للأدب السعودي، وفيها لمقالة الأدبية، بدأ من ضعف، فتقليد، ومبالغة في الاحتذاء، إلى أن أخذ يقترب من التكوين البنائي الخاص به في الستينيات الهجرية وما بعدها، مع استمرار أثر الأدب المصري في أسلوب الكتابة، وطريقة الأداء الفني للمقال، كابن خميس، وتأثره بالزيات، وعزيز ضياء وتأثره بطه حسين، والسرحان وتأثره بالمازني، والعطار وتأثره بالعقاد.. وهكذا.

«فالأدب السعودي قويّ التأثر بالأدب العربي الحديث، ولكن هذا التأثر لم يقف عند حد التقليد والمحاكاة، بل تعدّاه إلى آفاق رحبة جدا، حيث يستقيم الدرس، ويتم الفهم، وتسمو الغاية» (٥٥).

وأدباؤنا لم يقصروا أنفسهم على مدرسة بعينها، وإن كان للأدب المصري نفوذ على أدبهم، فثقافتهم «تشمل القديم والحديث في الآداب والعلوم والفنون، فعندنا من قرأ آداب الأقدمين، وقرأ آثار العقاد، وتوفيق الحكيم، والمازني، وطه

حسين، وألمّ بمؤلفات جوته[٥٦]، وهوجو [٥٧] ، وشلي [٥٨]، ولامرتين [٥٩]، وتلوستوي [٦٠]، وغير هؤلاء [٦١]» . فكتب محمد حسن فقي عن رواية «روفائيل» للامرتين [٦٢]، وأشار العواد إلى أدباء غربيين يحسن الاقتداء بهم[٦٣].

وترجم عزيز ضياء لأدباء عالميين، [٦٤] دارسا ومعجبا، وواقفا على معالم القوة، ومواطن الجمال في أدبهم، فكتب عن جين دي لافونتين[٦٥]، وموليير[٦٦]، وبرنارد شو، وأميل زولا[٦٧]، وغيرهم.

وترجم قصصا لسومرست موم[٦٨]، ورابندرانات طاغور، وغيرهما.

ولعلّ الدعوة إلى التخلص من آثار المدرسةا المصرية جاءت مبكرة، وإحساس بعض الأدباء بأثرهم البالغ كان إحساسا مبالغا فيه، فهذا العطار يرى أن الأدب السعودي لا شخصية له «لأنا لا نجد فيه أثرا للبيئة ولا للتقاليد والعادات الحجازية، ولا نجد له علامة فارقة تميّزه عن الأدب في البلدان العربية، وأساليب الأداء ذات مظهر يدل على أنه صورة للأسلوب المصري في الآداب، وهذا طبيعي لأنه لم تكن لدينا القوة التي تمكننا من إيجاد أسلوب حجازي صحيح.

إنّ أدبنا ضعيف، ولهذا استطاع الأدب المصري أن يطغى عليه بأسلوبه وفكرته ومنهجه بل الصحيح أن أدبنا هو الأدب المصري لأننا غذيناه وارتضيناه واتخذناه أدبا لنا» [٧٠].

ثم دعا أحمد محمد جمال «إلى الاستقلال التعبيري والاستقلال التفكيري ليكون للحجاز أدب ممتاز، كما لمصر ولبنان والعراق آداب ممتازة، ليكون لنا قصصنا المصبوغ بصبغة بيئتنا أحداثا وأفعالا، وليكون لنا شعرنا المصور لحياتنا واقعا وخيالا»[٧١].

ويسايره في هذا الرأي عبد القدوس الأنصاري حيث لا يؤمن بأن الأدب السعودي له شخصية مستقلة لأن الشخصية المستقلة «هي ذلك الطابع العام الذي يشمل الأدب في شتى ألوان إنتاجه كما نراه الآن متمثلا في الأدب المصري، والأدب المهجري، واللذين أثبت الواقع أن لهما شخصيتين متمايزتين مستقلتين، وأعتقد أن أدبنا الآن يسير في فلك الأدب المصري» (٧٢).

والحق أن المقالة الأدبية مرّت بحالات النشأة والضعف، والبحث عن النماذج الممتازة تحتذيها، وتتلمس مواطن الإبداع في نتاج المبرزين العرب، ثم تضيف إلى حصيلتها ما يقيم لها شأنا، ويرفع لها ذكرا(٧٣)، حتى غدت في الربع الأخير من القرن العشرين، وبالأخص قبل عهد المؤسسات لها سماتها الخاصة، وقضاياها الرفيعة، وجمالها الفني. ذلك أن القائمين على هذه الصحف كانوا من أشد الناس إخلاصا للثقافة، وأكثرهم حرصا على التجويد في الأسلوب، وقد حظيت صحف ذلك العهد بمشاركة كثير من الأدباء الرواد، إشرافا وإدارة حينا، أو تحريرا وكتابةً في كثير من الأحيان.

وإذا بحثنا عن أسماء إدارية أو تحريرية في تلك الصحف فإنّنا واجدون أكثرهم ممن يخدم الأدب وقضاياه، ونـدر أن يدخل في نطاق التحرير والكتابة من ليس له صلة بالأدب، أو ليس ملمّا بفنّ الكتابة والنقد والنقاش، إذ كان من اللازم أن يكون الكاتب مستعدا ـ في الأغلب ـ للمنازلة والدفاع، وإبانة الرأي والدخول في مساجلات كلامية أدبية مختلفة، حول تلك المفهومات التي كانت تستأثر بالقول آنذاك، وتجد الصحافة في إثارتها متابعين وقراءً ونقادًا، فكانت تعمد إلى أن تستجلب انتباه أديب أو ناقد ليرد على من يختلف معه في رأيه الفكري أو الأدبي حول مسائل شتى يحتفل الناس بمتابعتها ودرسها(٧٤).

فعلى سبيل المثال نجد في القمة من هؤلاء الأدباء المشاركين في الصحافة مشاركة ثرة مؤثرة، كما سلف العواد، وشحاته، والعطار وابن خميس، وابن ادريس، والجاسر، وعبد الله عريف، والسرحان، وقنديل، والآشي، والسباعي، والبواردي، الجهيمان، والفقي، والأنصاري، والفلالي، وغيرهم، ومنهم من تولى أمور التحرير الصحفي، وآخرون أسهموا في الكتابة والنقد، والارتفاع بمستوى المشاركة الصحفية، من كونها مهنةً أو ما أشبهها إلى جعلها رسالة فكرية وأدبية تحمل مضامين إصلاحية عميقة، تستمد وجهتها من اهتمام الأديب بالرفيع من القضايا، والشريف من الأماني الإنسانية والوطنية.

ثم أن الكثرة من هذه الصحف لها صلة وثيقة بما وصلت إليه المقالة الأدبية من سمو وتجويد، ونجد على رأس هذه الصحف التي تعنى بالأسلوب الأدبي، أو تحفل بما له مساس بالذوق الفني، أو النقد، أو مسائل الأدب بعامة، أم القرى، وصوت الحجاز، والمنهل، والبلاد السعودية، والمدينةا المنورة. هذا في الفترة الأولى. أما في الفترة الثانية التي تلت عام ١٣٧٠هـ من الهجرة فقد شهدت تدفقا في الإصدار الصحفي غريبا، ولافتاً الانتباه إلى النسبة الجيدة المتنامية من الوعي الأدبي والثقافي، فبعد ذلك العام نجد من الصحف والمجلات التي صدرت ولها إسهام أدبي مجلة اليمامة الشهرية (عام ١٣٧٤هـ)، وجريدة الخليج العربي الأسبوعية (١٣٧٥هـ)، والأضواء الأسبوعية (١٣٧٦هـ)، وجريدة حراء (١٣٧٦هـ) التي انضمت إلى الندوة إبان صدورها عام (١٣٧٧هـ)، ثم في عام ١٣٧٩هـ صدرت مجلات وصحف عدة هي، الرائد، وقريش، ومجلة الجزيرة، وجريدة عكاظ.

وإذا تأملنا الصحف التي لا تعنى بأمور الأدب، أو لا توليه جلّ اهتمامها

وجدناها قليلـةً موازنةً بما سبق تعداده من الإصـدارات الصحفية الأدبية ، فنجد مثلا ، القصيم (١٣٧٩هـ) ، وجريدة اليمامة الأسبوعية (١٣٧٥هـ) ، ومجلة راية الإسـلام (١٣٧٩هـ) ، والإشعـاع (١٣٧٥هـ) ، وأخبـار الظهران (١٣٧٤هـ) وقافلـة الزيـت (١٣٧٣هـ) . وهي في سيـاقها العام لا تتسـم بالطـابع الأدبي ، ولكنها لا تخـلو من مقالات أدبية يسيـرة متفـرقة ، لا نستطيع مـن خلالها أن نصل إلى تصور واضح عن الحالة الأدبية في تلك الفترة .

وتميّز الأسلوب في صحف الأفـراد بميله إلى اقتباس ما كان سـائداً لدى أدباء النهضة في مصر ولبنـان ، فكانـت السهولة والعـذوبة ، والاستفـادة من التراث العربي ، واحتـذاء الجيد منـه ، واستظهار أسـاليب البيـانيين العرب المبرّزيـن ، وخفـة اللفظة ، وسـلاستها ، والبعـد عـن الوعـورة والجفاف ، وتجنّـب الحوشي والغريب ، تلك سمات الأسلـوب في المقالة الأدبية عند كتاب صحـافة الأفراد ، ويُظهـر هـذه الميزات مـا كـان يـدور في تلـك الصحـف من معـارك نقـديـة ، وخصوماف ، ومناقشاتٍ ، وردود ، بعضها له قيمة نقدية عالية ، وبعضها الآخر يرد إلى عاطفـة مؤقتة مبعثها الإثـارة والغضب ، وتبرئة الكاتب مـن اتهام أو نفي مقولة ، أو إظهارٍ لتأييد رأي أدبي أو فكري .

وفي هـذا تـأس بما كـان يجري في الصحـافـة الأدبيــة العـربيـة مـن معـارك وخصومات .

ولعل كثرة هذه الصحف ، وعنف النقـد الدائر في بعضها ، وفداحة أخطاء بعض النـاقدين فيهـا ، وما كان يقـذف به بعـض المحررين والكتـاب أقرانهم وزملاءهـم في الصحف الأخـرى كل ذلك يمكـن أن يكون سببـا في حل كثير منها ، وحجبه ، وإحداث نظـام جديد يرعى الصحافة ، وينظمهـا ، ويعالج ما

قد يحدث فيها من انحراف؛ فصدر نظام المؤسسات الصحفية، عام ١٣٨٣هـ، وانقضى بذلك عهد صحافة الأفراد، وانحسر بغيابه نشاطٌ للأدب، وقوة للأسلوب، وحماسة مثيرةٌ الإعجاب بما يسمو بالكلمة، ويرفعها إلى منزلتها الفنية والذوقية اللائقة بها.

• • •

الهوامش

(١) الرفش أداة لجرف التراب أو حفر الأرض.
(٢) وحي الصحراء، ط ٢، ١٤٠٣هـ. ص ٩٥.
(٣) سورة الكهف، الآية ٧٠.
(٤) سورة الحج، الآية ٩.
(٥) سورة الكهف، الآية ٨.
(٦) سورة فاطر، الآية ٨.
(٧) سورة ص، الآية ٨٤.
(٨) العواصف، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران العربية، دار صادر، بيروت (لم تذكر سنة الطباعة) ص ٣٦٧.
(٩) المرجع السابق.
(١٠) المرجع السابق.
(١١) جريدة المدينة المنورة، عدد ٨٠٨ في ٢٨/ ٧/ ١٣٨٦هـ، مقابلة أدبية مع السباعي. ص ١١. وانظر كتابه «أيامي» وهو سيرة ذاتية، منشورات تهامة، ط ١ ١٤٠٢هـ. ص ٩٦.
(١٢) أدب الحجاز، ص ٩٩.
(١٣) العواصف، (المجموعة الكاملة) ص ٣٩٠.
(١٤) ولد في محرم ١٣١٨هـ بمكة المكرمة، درس في مدرسة الفلاح بمكة، وتقلب في وظائف عدة، وتوفي عام ١٩٧٥هـ. انظر مقالته: إيه من أسطورة الحب (أدب الحجاز ص ١٢٥)، وقصيدته: يا شرق، نظمها مجاراة لميخائيل نعيمة في قصيدته يا نهر، أدب الحجاز ص ٤٠.
(١٥) ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٩هـ، تلقى معارفه بمدرسة الفلاح، وسافر إلى الهند سنة ١٣٤٨هـ

في بعثة دراسية، وأتم دراسته سنة ١٣٥٢هـ، حرر في صوت الحجاز، وتولى وظائف حكومية مختلفة، وعين وزيرا للحج والأوقاف سنة ١٣٩٠هـ.
من آثاره: الأدب الفني، أشخاص في حياتي، دورنا في زحمة الأحداث، هذه حياتي، سياستنا وأهدافنا. انظر: الموسوعة الأدبية جـ٢ ص ٤٩، ومعجم المطبوعات جـ١ ص ٣٤٢. من مقالاته التي تأثر فيها بروح الأدب المهجري: «ساعات من الليل» وحي الصحراء ص ٤٥٤.

(١٦) مقالة «فاجعة» وحي الصحراء ص ٣٣٠. وانظر مقالة «أغنية الليل» لجبران خليل جبران. في (البدائع والطرائف) ضمن المجموعة الكاملة، ص ٦٠٥.

(١٧) يقول د. علي جواد الطاهر: «وصف نثر أحمد سباعي بالشاعرية» مجلة العرب، رمضان وشوال السنة الرابعة، ١٤٠٥هـ جـ٣ ص ١٨٤.

(١٨) انظر: عبد الكريم الأشتر، النثر المهجري، محاضرات ألقيت على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٦٠م.

(١٩) محمد سعيد عبد المقصود، مجلة المنهل، عدد ٢ محرم ١٣٥٨هـ.

(٢٠) عبد الله عبد الجبار، التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، ص ١٥٢.

(٢١) مقدمة خواطر مصرّحة، ص ٢٣.

(٢٢) خواطر مصرحة، (أعمال العواد الكاملة) جـ١، ص ٤١.

(٢٣) البدائع والطرائف (مجموعة أعمال جبران الكاملة) العربية، ص ٥٢٠.

(٢٤) يقول «لكم منها القواميس والمعجمات والمطولات، ولي منها ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم، لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق، ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب، ودمعة في جفن المشتاق، وابتسامة على ثغر المؤمن، وإشارة في يد السموح الحكيم».
انظر: كتاب «بلاغة القرن العشرين» ص ٥١.

(٢٥) انظر: محمد نصيف، مقالة «بعض ذكرياتي من قبل ربع قرن، المنهل، شعبان ١٣٦٩هـ، العدد الثامن، ص ٢٧٥.
ولقاء مع عبد القدوس الأنصاري يتحدث فيه عن بداية النهضة، المنهل، عدد ٤٣٠ مجلد ٤٦، السنة ٥١، محرم وصفر ١٤٠٥هـ.

(٢٦) وحي الصحراء ص ٢٢.

(٢٧) المرجع السابق.

(٢٨) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢٩) مقالة: أدب صالح للتصدير، أحمد عبد الغفور عطار، المنهل، شعبان، ١٣٦٥هـ، ص ٣٦٤، وكتابه «المقالات» ص ٢٠٧، مطبوعات شركة استادرد للطباعة، ط ١، ١٣٦٦هـ.

(٣٠) المرجع السابق.

(٣١) مقدمة كتاب (تاريخ الحجاز) تأليف حسين محمد نصيف.

(٣٢) مقدمة كتاب (صندوق الدنيا)، دار الشروق، ط١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

(٣٣) المرجع السابق ص ٨.

(٣٤) مقالة: مغربل جديد، أم القرى، عدد ٣٧٧، في ٢٦/ ١٠/ ١٣٥٠هـ.

(٣٥) يعني صوت الحجاز.

(٣٦) مقالة: «صوت الحجاز بين عهدين»، العدد ١٥٥، في ٤/ ٢/ ١٣٥٤هـ ص ٤، بمناسبة مرور ثلاث سنوات على صدورها.

(٣٧) مقالة (السخر عند المازني)، البلاد العسودية، عدد ٨٦٥، س ١٤، ، الأربعاء ١١/ ١/ ١٣٦٩هـ، ص ٤.

(٣٨) كتب العطار هذه المقالة ونشرها في صوت الحجاز، عام ١٣٦٥هـ بعنوان «مع الأستاذ العقاد».

(٣٩) المقالات، ص ١٩٩.

(٤٠) مقالة: ساعة مع الدكتور طه حسين بك، أحمد عبد الغفور عطار، صوت الحجاز، عدد ٢٤٣، في ٢٠/ ١١/ ١٣٥٥هـ، ٢ فبراير ١٩٣٧م، وانظر: كتابه «المقالات»، ص ٢١٢.

(٤١) عبد الله عبدالجبار، التيارات الأدبية ا لحديثة في قلب جزيرة العرب، ص ٢٩٢.

(٤٢) مقالة: هل أفاد الأدب؟، المنهل عدد جمادى الأولى ١٣٦٧هـ، للعطار.

(٤٣) عبد المجيد شبكشي، مقالة (أدب الشباب)، صوت الحجاز عدد ١٥١ في ٥/ ١/ ١٣٥٤هـ ١٩ أبريل ١٩٣٥م ٠ ص ٣. وانظر النفثات ص ٢٧.

(٤٤) مقالة (مشاهدات في المدينة ـــ الأدب في المدينة)، صوت الحجاز، عدد ٢٣٤ في ١٠/٩/ ١٣٥٥هـ. ص ١.

(٤٥) المرجع السابق، الأعداد الثلاثة المتوالية ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٤٦) المرجع السابق أيضا. الأعداد الآنفة.

(٤٧) مقالة: تعليم البنات، وقعت المقالة برمز (ح)، صوت الحجاز، عدد ١٥٤، في ٢٦/ ١/ ١٣٥٤هـ. ص ١.

(٤٨) مقالة: الأدب والحياة، وقعت برمز (...)، صوت الحجاز، عدد ١٥٦، في ١١/ ٢/ ١٣٥٤ هـ. وأسلوب الكاتب قريب من مذهب حمزة شحاتة في كتابة المقال، من حيث التركيز، ودقة التأمل، وقوة النقد والاقتصاد في العبارة.

(٤٩) مقالة «غاية الأدب عندنا». صوت الحجاز، عدد ٢٤١ في ٦/ ١١/ ١٣٥٥هـ.

(٥٠) كما فعلت صوت الحجاز، حين نشرت مقالة مأخوذة عن مجلة الهلال، عنوانها: (رسالة الأدب ليست بالشيء المبتذل في الأسواق) بقلم عبد العزيز البشري. انظر عدد ١٥٣ في ١٩/ ١/ ١٣٥٤ هـ.

(٥١) مقالة: غاية الأدب عندنا، عزيز ضياء، صوت الحجاز، عدد ٢٤٣، في ٢٠/ ١١/ ١٣٥٥ هـ،

الحلقة الثانية.

(٥٢) مقالة الأدب في زاوية (حديث الأسبوع)، صوت الحجاز، عدد ١٥٧ في ١٨ / ٢ / ١٣٥٤هـ، ص ٤.

(٥٣) من المراثي:
يأحمد شوقي بقصيدة (كوكب خالد مع الجوزاء)، صوت الحجاز.
عدد ٣٠ في ١/ ٧/ ١٣٥١هـ.
ـ عبد الوهاب الآشي (شوقي يرحل إلى عالم الفناء). في العدد نفسه.
ـ محمد حسن فقي (شوقي بك) وهي مقالة تشاؤمية رثائية تنبعث من نفسية الفقي القلقة، العدد نفسه من صوت الحجاز، ص ٣.
ـ عبد القدوس الأنصاري، يرثى محمد حسين هيكل بمقالة (عَلَمٌ هوى)، المنهل جـ ٥، من السنة ٢١، جمادى الأولى ١٣٧٦هـ، ص٢٧٥.
ـ عبد الرحمن السدحان يرثي الزيات (النجم الذي هوى)، القصيم عدد ٨٤، في ١٩/ ٢/ ١٣٨١هـ، ص ٧.

(٥٤) مقالة (مات الزيات)، رثاء لأحمد حسن الزيات، مجلة الجزيرة، عدد ٥، من السنة ٢، في ١٣٨١هـ، ربيع أول، ص ٣٧.

(٥٥) السيد تقي الدين، المنهل وأثرها في النهضة الأدبية، جـ ١ ص ٢٥٥.

(٥٦) جوتة، يوهان فولفجانج فون، (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م)، شاعر وكاتب ومسرحي ألماني، من مؤلفاته رواية بعنوان «آلام فرتر» و «ديوان الغرب والشرق». انظر: الموسوعة العربية الميسرة، جـ ١، ص ٦٥٨.

(٥٧) شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي. من أهم قصائده «الشرقيات»، ومن أعظم رواياته «البؤساء» (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥م). المرجع السابق جـ ٢ ص ١٩١٤.

(٥٨) شاعر إنجليزي أرستقراطي المولد، كانت له أفكاره التحررية، من أهم أعماله: ترنيمة للجمال الفكري، وأغنية للريح الغربية (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢م). انظر: دليل القارىء إلى الأدب العالمي ص ٢١١.

(٥٩) شاعر فرنسي، عاش حياة مزدوجة كشاعر عاطفي، وكسياسي ورجل حكم، ومن أهم أعماله ديوانه «تأملات شعرية» و«تأملات جديدة» و«انسجام ديني وشعري». (١٧٧٠ ـ ١٨٦٩م) المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٦٠) روائي روسي، انخرط في الجيش عام ١٨٥١م، من أهم أعماله «لوحات من سيباستوبول» و «طفولتي» و «الحرب والسلام». (١٨٢٨ ـ ١٩١٠م) المرجع السابق ص ١١٧.

(٦١) محمد عمر توفيق، صوت الحجاز عدد ٤٤٦، سنة ١٣٥٩هـ.

(٦٢) وحي الصحراء، ص ٤٣٥.

(٦٣) مقالة (البلاغة العربية) أعمال العواد الكاملة ـ خواطر مصرحة، ص ٤١.

(٦٤) انظـر : جسـور إلى القمة ، تهامـة ، الكتـاب العـربي السعودي ، رقـم ٥١ ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م .

(٦٥) شاعـر فرنسي ، ألف كثيرا مـن الحكايات ، وكتـب قصصا وأحاديـث ، ونظم أشعاراً عـن بعض الأساطير اليونانية ، كما نظم مسرحيات فكاهية ، ومن أروع أعماله «الحكايات المنظومة» . (١٦٢١ ـ ١٦٩٥م) .

انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، جـ٢ ، ص ١٥٤١ .

(٦٦) أان بـاتبت بـوكلين ، كـاتب مسصرحيـات كـوميديـة فـرنسي ، من أهـم مسرحيـاته «الأرعـن» و «طرطوف» و «النجيل» . (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣م) .

انظر : دليل القارىء إلى الأدب العالمي ، ص ٣٠٩ .

(٦٦) روائي فرنسي ، بدأ بالكتابة في الصحف ، ثم أصبح المدافع الأول عن المذهب الطبيعي في الأدب ، ومن قصصه العديـدة قصة أسرة «روجون ماكار» . (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢م) . انظر : الموسـوعة العربية الميسرة ، جـ١ ، ص ٩٣٣ .

(٦٨) روائي وكاتب مسرحي إنجليـزي ، ولد في باريس عام ١٨٧٤م ، ومن أشهر روايـاته «حدّ الموسى» و«خبز وبيرة» ، ومـن أشهر مسرحيـاته «الـدائرة» ، انظر : الموسـوعة العـربية الميسرة ، جـ ٢ ص ١٧٨٨ .

(٦٩) شاعر هندي ، ولد بكلكتا ، درس القانون بإنجلترا ، ومن أهم مؤلفاته «الهلال» ، و«البستاني» منح جائزة نوبل للأدب ١٩١٣م عن قصيدته «جيت نجالي» . (١٨٦١ ـ ١٩٤١م) .

المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١١٤٧ .

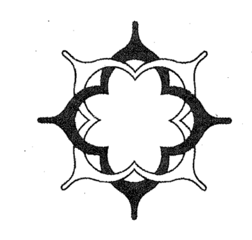
(٦٩) مقالة «أدباؤنا المعاصرون» ، المنهل ، عدد ذي القعدة وذي الحجة ، ١٣٦٦هـ .

(٧٠) مقالة «دعوة إلى التجديد الأدبي» ، المنهل ، محرم ١٣٦٩هـ .

(٧١) المنهل ، عدد جمادى الأولى ١٣٧٧هـ .

(٧٣) انظر مقالة «الأسلوب الأخ ضرمحمد العمران ، المنهل ، عدد صفر ١٣٧٧هـ/ سبتمبر ١٩٥٧م .

(٧٤) وانظر بكري شيخ أمين الحركة الأدبية في المملكة ، ص ٥٢٩ .



آراء ابن شهيد النقدية

بين النظرية والتطبيق

د. يوسف خيرو شنوان

مدخل :

كان النقد الأدبي في الأندلس في بداياته الأولى لا يعدو الأحكام العامة في تذوق الشعر، وبالتالي استحسانه أو رفضه، وتعيين مكانة الشاعر أو الأديب. لقد كان «في أولياته جزئيا ذوقيا يلتفت في الأغلب إلى النحو والصرف واللغة وطرق استعمال الكلمات »[١]، ثم تطورت الحركة النقدية في القرن الخامس الهجري في الأندلس إلى أن انتهت ذات سمات مميزة على يد ابن شهيد وابن حزم»[٢]. ولقد كان لزوال مجد قرطبة أثر ملموس في الحركة النقدية، ذلك لأن الفتنة القرطبية أدت إلى تخلخل المقاييس واضطرابها في الحياة

الاجتماعية والأدبية معا ، مما أدى في النهاية إلى ظهور شخصيات فكرية ونقدية عملت على توجيه الحركة الأدبية في الأندلس من خلال طرحها لوجهات نظر نقدية تتصل بالعملية الأدبية . ومن أبرز تلك الشخصيات : ابن شهيد وابن حزم . « ولقد مر النقد قبلها بحلقات المؤدبين»[٣]*. إننا نجد بعض النظرات النقدية في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، والذي تحدث فيه عن البيان والبلاغة ، وعما يعاب من الشعر ، وعلى تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، وبث فيه بعض آرائه الشخصية التي تتعلق بالشعر والشعراء والضرائر الشعرية وما غلط فيه بعض الشعراء* [٤] *وتشير الدراسات إلى أنه لم يكد يظهر بين ابن عبد ربه وابن شهيد ناقد أندلسي له أثر ندرسه ، وأن النقد الأدبي عاد بعد الفتنة من جديد إلى «حلقات المؤدبين والمعلمين يوجهونه على طرز مستوحاة من معارفهم ومثلهم التي يملونها وإلى ندوات الأدباء ونزهاتهم . . . بأحكام سريعة آراء تذوقية»*[٥]*.*

ابن شهيد ناقدًا:

آثاره النقدية والعوامل التي أثرت في ابن شهيد الناقد:

لم يصلنا انتاج ابن شهيد النقدي والأدبي كاملا لنتمكن من رسم صورة متكاملة لابن شهيد الناقد ، ولا نجد إلا ما سطره لنا ابن بسام من فصول نقلها من أدب ابن شهيد ، وشذرات أخرى مبثوثة في الجذوة للحميدي ، أو المقتبس لابن حيان ، أو النفح للمقري ، وغيرها من المصادر الأندلسية التي تذكر أن له

كتابا اسمه حانوت عطار «ترجم فيه مستغلا قدراته النقدية لشعراء معاصرين . ولا تخلو نظرته في هذا الكتاب من بصر نافذ بالشعر حسب مقاييسه النقدية»[٦] .

أما العوامل التي أثرت في ابن شهيد الناقد فإننا يمكن أن نوجزها بما يلي :

أ ـ عجب ابن شهيد بنفسه وبقدراته الأدبية :

عاش ابن شهيد مرحلة طفولته وبداية شبابه في أوج ازدهار الدولة العامرية ، وكانت أسرته على صلة وثيقة بالعامريين ، وقد سجل لنا بعض ذكرياته التي تصور لنا نشأته المترفة المنعمة ، ومنها نستخلص حبه للظهور، واستشعاره للسيادة منذ سن مبكرة ، وإحساسه بالتميز والعجب[٧] . لقد تعلق ابن شهيد بمدينة قرطبة ، مسرح ذكريات طفولته وأول شبابه ، ورأى التحول الجذري في حياة هذه المدينة بعد الفتنة الكبرى ، فقد تحولت في أكثر أحيائها إلى دمار وخراب ، وهوى نجم العامريين مواليه ، ولم يكن ممكنا التوفيق بين الدوافع التي تحث ابن شهيد على التهافت في الترقي ، وبين الواقع الذي آل إليه ، فالصراع ناتج عن كبت هذا الدافع القوي ، وعن المسافة التي تفصل بين الطموح وبين الواقع ، لذلك نجد أن كثيرا من كتابات ابن شهيد ومن أشعاره مبنية على الحدة والاندفاع ، خصوصا في المواطن التي يعرض فيها لخصومه . وكانت محنة قرطبة من حوافز إبداع ابن شهيد ، بالإضافة إلى ما فطر عليه من حب للأدب ورغبة في تأليف الكلام ، وما اكتسبه من تعليم واطلاع على الشعر القديم والمحدث ، وإدراك واع لتغير الأساليب الكتابية بتغير الأزمة كل هذه الأسباب مجتمعة أتاحت لابن شهيد ان يصبح شاعرا مبدعا وناقدا متميزا يقول «والتمسنا الإبداع فأثبتنا كل معجب ، وأتينا على كل مطرب فما سقطنا على سوقه يهش إلينا ، ولا دفعنا إلى ملك يصبو بنا »[٨] .

ولكنه لم يجد من يقدر ذلك الإبداع وينصف ذلك التميز، فقد دهي بفساد الزمان ـ كما يقول ـ وفساد طباع الناس تبعًا لذلك، وقد وَلَّدَ ذلك في نفسه سوء ظن بالناس، ونظرة سوداوية للحياة. والفتنة في رأي ابن شهيد مسخ للأشياء، فقد رفعت وخفضت بدون معيار صحيح.

لقد وصل بعض أصحابه الذين كانوا دونه في عراقة النسب وفي التفنن في الأدب، إلى مناصب عليا، بينما لم يستطع ابن شهيد الوصول إلى ما كان يسعى إليه. ومن هذه الثنائية بين واقعه لقد كان طبق ابن شهيد، الذي صار إليه وطموحه الذي لا يحد نتجت معاناته والتي كانت من دواعي شعره ونثره ونقده.

ب ـ **كثرة خصوم ابن شهيد**: لقد كان طبع ابن شهيد، بما فطر عليه من عجب وغرور، سببا في كثرة أعدائه وحساده، الذين كانوا يتتبعون سقطاته في شعره ونثره، ويحطون من قدر أدبه ومن قيمة شعره، يكيدون له ويتربصون به الدوائر. ومن أبرز خصومه الذين أورد ذكرهم في رسالة «التوابع والزوابع»[9]. أبو القاسم الافليلي، وأبو بكر، وأبو محمد، وابن الفرضي أحد المشتغلين بالكيمياء وغيرهم. وإزاء هذا الحشد من الخصوم والحساد كان من الطبيعي أن يقف ابن شهيد مدافعا عن شعره وكتابته، ومنتقصا من أشعار غيره وكتاباتهم، وهذا يحتم عليه أن يدلي بآرائه في المنظوم والمنثور، والبيان والبديع، والطبع والصنعة، والسرقة والأخذ، وما إلى ذلك من قضايا نقدية كانت معروفة وحية آنذاك، ولكثرة حساده ولما طبع عليه من حدة واندفاع نراه يخرج أحيانا «عن حدود الناقد النزيه إلى السخرية والذم وبخاصة إذا تذكرنا بأنه منقوص الحظ في عصره»[10].

جـ أندلسية ابن شهيد : يرى بعض الدارسين أن ابـن شهيد يسعى من وراء طرحه لآرائه النقدية «لخلق أدب أصيل يكون أندلسيا في روحه وليس في موطنه، مما قاده إلى نبذ الاتجاهات الأدبية القادمة من بغداد»(١١).

ومن هنا فإنه يجب أن يكون للأنـدلس أدبها الخاص، الذي يناسب طبيعتها وروحها، ويرى الأستـاذ يعقوب زكي أن ابن شهيـد ما عنى نفسه بلقـاء عمالقة الشعـر والأدب في المشرق، غـالبا إيـاهـم تـارة، ومستـوليا على إعجـابهم تـارة أخرى، إلا ليبين أن أدب الأندلسيين يضارع ـ أو على الأقل يمكن أن يضارع ـ أدب المشارقة. والحق أن الباحـث قد بالغ فيما ذهب إليه، ذلـك أن ابن شهيد إنما كان يهدف بـالدرجـة الأولى من مقابلتـه لتوابـع كبار الشعـراء والكتاب إلى غرض ذاتي، وهو أن يجاز شاعرا وخطيبا، وأن يفحـم خصومه، ويثبت مقدرته الأدبية الفائقـة، وهو من خلال معارضـاته ومحاكاته للنماذج المشرقيـة يدلل على تقديـره لتلك النماذج وإعجابـه بها، أضف إلى ذلك أننـا لا نجد أندلسيـة ابن شهيد واضحة وضوحهـا عند صديقه ابن حزم الأنـدلسي. ولكن ابن شهيد في كل حال لم يكن يجد نفسه في مـرتبة أدنى مقارنة بالمشارقة، فقـد نفى زعم تابعه بديع الزمان أن الإبداع مقصور على المشارقة عنـدما قال «هذه نكتة بغدادية أنَّى لك بها يا فتى المغرب؟»(١٢) وقد أثبت ابن شهيد بالدليل العملي تفوقه في وصف الماء على بديع الـزمان. فإذا كان بديـع الزمان قد قـال في وصف الماء أنه «أزرق كعين السنـور، صاف كقضيـب البلور، انتخـب من الفـرات، واستعمل بعـد البيان، فجـاء كلسان الشمعـة، في صفاء الـدمعة» فـإن ابن شهيـد قد وصفـه بقـوله: «انظـر يا سيـدي كأنـه عصير صبـاح أو ذوب قمر ليـاح، له في إنـائه انصباب الكوكب من سمائه...»(١٣).

والفرق واضح بين الوصفين، فبينما يـراعي بديع الزمان في وصفـه المقاربة بين المشبه والمشبه به من خلال وجه شبه حسي بين طرفي التشبيه فإن ابن شهيد يدرك بحسه الشاعري طبيعـة الإبداع الأدبي الذي يرتكـز بالدرجة الأولى على طـريقة تشكيل الصورة. وليس شرطـا أن يكون وجه الشبه حسيـا ملموسا بـل ربما كان نفسيا جماليا. فابن شهيد يصر على إقامة علاقات بين أطراف الصورة لا ندركها إلا بالتأمل الصحيح لهذه العلاقات فصوره تخيلية عقلية لا تدرك إلا بالخيال.

الماء في وصف ابن شهيد هو عصير صباح، إنه وصف ينقلنا عبر خيال محلق إلى عوالم أخرى مـدهشة. وهل الصباح شيء يمكن أن يعصر ومـا يتخلص منه هو الماء؟ وهـو ذوب قمر لياح. وهل القمـر المكتمل يمكن أن يذاب ومـا ينتج عن ذلك هو الماء؟ إن العمل الإبداعي هو الذي يمنحنا مثل هذه الدهشة التي نحسها ونحن نقرأ أوصاف ابن شهيد للماء. إن حياة الصورة الشعرية الكاملة ـ كما يقـول جاستـون بـاشـلار «هي في إشراقهـا المبهـر وفي كـونها متجاوزة لكـل معطيات الإدراك»[١٤].

وعي ابن شهيد بقضايا عصره النقدية وطريقته في عرض آرائه:

كان ابن شهيـد على وعي تام ودقيـق بأكثر القضـايا النقـدية التي كـانت في عصره. وقد دفعتـه مشاركته في الحيـاة الأدبية في الأنـدلس شعرا ونثـرا ونقدا إلى محاولة الإلمام بكل تلـك القضايا، فأبو عـامر ـ كما يقول بطرس البستـاني ـ «من خيرة النقاد في العصر القديم، وله نظرات جريئـة يحمد عليها.. وفيها ما يوافق المذاهب الحديثة في زماننا كبحثه في الألفاظ»[١٥]. ويقول الدكتور محمد رضوان الداية «إن آراء ابن شهيـد النقدية ـ معظمها إن لم نقل كلها ـــ صادرة عن وعي ورأي تجريبي لا رأي نظري، دارت ملاحظاته حول مشـاكل كان له فيها ضلع،

وناقش أمورا أخذهـا عليه غيره، أو عدها خصومه من معايـب كلامه ونظامه، وسنجد في شتات آرائه ما يكون نظرة شاملة متكاملة»(١٦).

أما ما ذهب إليه الـدكتور حازم خضر، من أن أكثر آراء ابن شهيـد النقدية لا تعدو أن تكون «آراء نظريـة لا تستند إلى تحليـل عمـلي مـن الشعـر والنثر سوى بضعة أمثـلة»(١٧)أظن أنه كـان منصفا في ذلك فآراء ابن شهيد تستنـد إلى مراقبة عملية الإبداع الشعري تطبيقـا على شعره ونثـره أولا، وإن جـاء ذلك التحليـل بطريق غير مباشر، كما سنوضح فيما بعد عند حديثنا عن النقد التطبيقي عنده. وليس نقده كما يقول حازم خضر أيضا «مقلدا ومحاكيـا للسابقين الذين يأخذون البيت الواحد أو الجزء الـيسير من القصيـدة ثم يحكمـون للشاعـر أو عليه من خلاله»(١٨) وإذا كان هـذا الرأي يصـدق على بعض آراء ابـن شهيد في معـرض حديثه عن المعنى الذي تعاوره بعض الشعراء. فإن في تعميمه مجافاة للحقيقة. فأبو عـامر قد قام بـدور فعال في نقل الحركة النقـدية في الأندلس مـن حلقات المعلمين والمتـأدبين إلى مستوى التنظير والتطبيـق الـذي يتجاوز حـدود الاهتمام باللغـة والنحو والصرف والغـريب والإشتراك في معنـى ليتناول عمليـة الإبداع، ودور الموهبة فيها، ومفهوم البيان، والتفصيل في ذلـك تفضيلاً دقيقا ـ سنعرض له تاليـًا ، ويحسـن بنا ونحن نتحدث عـن ابن شهيد الناقـد أن نشير إلى مفهوم بعض المصطلحـات التي يستخـدمها أثنـاء عرضـه لآرائه النقديـة، ومن هـذه المصطلحات البلاغة والنقد وصناعة الكلام، والبيان. *

كان أبو عامر متميـزا حتى في طريقة عرضه لآرائه النقدية، والتـي كان يتوقع أن يعر ضها بطريقة واضحة ومحددة ولكنه لجأ إلى طرائق عدة منها:

أ ـ الآراء النقدية المبـاشرة والتي جاءت بصورة تقـريرية في مثل قـوله: «ومن

الواجب على الناقد أن يبحث عن الكلام، ويفتش عن شرف المعاني، وينظر مواقع البيان ويحترس من حلاوة اللفظ»(١٩).

وهذه الآراء تمثل جانب التنظير النقدي.

ب ـ الآراء غير المباشرة: كما في حواره لعتاب تابعة أبي تمام، يقول أبو عامر: «ما الذي أسكنك قعر هذه العين يا عتاب؟ .

قال: حيائي من الشعر وأنا لا أحسنه. فصحت: ويلي منه، كلام محدث ورب الكعبة»(٢٠)

وكأنه في هذا ينقد طريقة أبي تمام في شعره، ويوحي بأنه يبالغ في صناعته: وقد جاء بهذا الرأي بصورة تقريرية مباشرة في موضع آخر في معرض حديثه عن تغير الأساليب الشعرية بتغير الأزمنة. قال: «ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس، وخرج عن العادة، وطاب ذلك منه، وامتثله الناس، فكل شعر لا يكون اليوم تجنيسا أو ما يشبهه تمجه الآذان، والتوسط في الأمور أعدل» (٢١).

وقد جاء طرح ابن شهيد لآرائه النقدية غير المباشرة على **ثلاث صور هي**:

١ ـ **الاختيار النقدي**: ونعني بذلك أنه كان يصدر في اختياره للشعراء والكتاب الذين يحاورهم ويلقاهم عن رأي نقدي، وكان في ترتيبه لهم من حيث التقديم والتأخير يصدر عن رأي نقدي أيضا. فهو يقدم امرأ القيس على شعراء العربية جميعا، ويقدم الجاحظ على كتابها جميعا.

٢ ـ **التقليد الواعي**: يلاحظ أن ابن شهيد يقلد خصائص مميزة في كتابات الكتاب المشاهير، مثل المماثلة والمقابلة والازدواج عند الجاحظ، والاعرابية والفصاحة عند عبد الحميد، وسنعرض لهذا في موضع آخر من هذه الدراسة بشيء من التفصيل، وهذا التقليد الواعي يشير بشكل جلي إلى

أن تلك الخصائص التي ميزت كتابات الكتاب، قد جعلت من نتاجهم الأدبي نتاجا متميزا يستحق أن يحاكى ويقلد في العصور التالية. ولم يقف التقليد الواعي الصادر عن رأي نقدي عند حدود الكتاب فقط بل تعداه ابن شهيد إلى الشعراء، فقلد أبا نواس ـ على سبيل المثال في خمرياته، وما المعارضات التي نجدها في لقائه للشعر إلا ضربا من ذلك التقليد الواعي.

٣ ـ **النقد الساخر**: وقد تبدى ذلك واضحا في توظيف الحيوان توظيفا نقديًا. كأنه وهو يصور الحمق الذي يبدو في تصرفات الحمر والبغال يشير إلى طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الأدباء في عصره بأسلوب يفيض سخرية وهزلا. ويقول بعد أن يطلب إليه الكتاب المفاضلة بين شعر البغل والحمار «وقد كان أنف الناقة» (يعني خصمه أبا القاسم الأفليلي) أجدر أن يحكم في هذا الشعر»(٢٢). لما في ذلك الشعر من سخف وركاكة، ولما تضمنه من ألفاظ غريبة. ويسخر ابن شهيد من شيوخ النحو واللغة والغريب حين يجعل من الإوزة الجميلة يجعل من الحمار والبغل شاعرين، وينطق الطير، ويحاور الجن، كل ذلك بأسلوب قصصي جميل ساخر ليبث من خلاله ما يريد من آراء نقدية، وقد يعرض عن ذلك كله فيعمد إلى الوصف الحسي المباشر، موظفا صوره الحسية الساخرة توظيفا نقديا رائعا، مثل الذي نجده في وصف أبي القاسم الافليلي. يقول أبو عامر في وصفه: «ليست مشيته مشية أديب، ولا جلسته جلسة عالم، ولا أنفه أنف كاتب، ولا نغمته نغمة شاعر»(٢٣).

ويخيل إلي أ ن لجوء ابن شهيد إلى هذا الأسلوب في عرض بعض آرائه إنما كان بدافع من شخصية الكاتب الشاعر المتفاعلة مع شخصية الناقد في ذات ابن شهيد.

ابن شهيد الشاعر الناقد

يتساءل بعض الدارسين المحدثين عن مصلحة النقد في أن يكون الناقد شاعرا مبدعا . وهل يمكن أن يكون الشاعر المبدع ناقدا مبدعا؟ باعتبار أن الشاعر هو الذي تتولد في إطار ذاته العملية الإبداعية ، وأن الناقد هو الذي يرصد نتاج العملية الإبداعية ويحاول توجيهها . ويرى بعض الباحثين أن الشاعر في الغالب يملك أفقا نقديا ضيقا . «وما هو إلا ناقد يهتم بكاتب واحد ولا تعنيه الأعمال التي لم تكتب بعد . . إن كل ما يقوله الشعراء هو اقرءوني : لا تقرءوا سواي»[٢٤] . ذلك لأن الشاعر العظيم تشغله العملية الإبداعية المتفاعلة في إطار ذاته عن كل شيء يحيط به . يقول أوسكار وايلد «ان الفنان العظيم أبعد عن أن يكون أفضل النقاد . لأن الفنان العظيم حقا لا يستطيع أن يحكم على أعمال الآخرين»[٢٥] . وهذا يشير بوضوح إلى أن «اتحاد الناقد والشاعر هو في الأغلب اتحاد قلق»[٢٦] .

ولكن القاريء لنثر ابن شهيد وشعره ونقده يجد أنه يملك أفقا نقديا رحبا وشاعرية فذة ، ولقد كشفت أحكامه النقدية على أعمال الآخرين وإن اتسمت بطابع السخرية والهزل والبعد عن الموضوعية (أحيانًا قليلة) ـ عن قدرة نقدية فائقة يتمتع بها ابن شهيد الشاعر ، ولم نلحظ أن هناك قلقا في ذات ابن شهيد التي اجتمعت فيها شخصية الأديب الشاعر الناقد بل على العكس فإن كل جانب من جوانب هذه الشخصية الواحدة يكمل الجوانب الأخرى . وعلى الرغم مما قدمت آنفا من آراء تتعلق بالشاعر الناقد (أو الناقد الشاعر) إلا أنني أرى أن الشاعر الناقد هو أقدر من الناقد المجرد لكونه أشد اتصالا وتفاعلاً مع العملية

الإبـداعيـة ، ولكـونـه يملــك خيـالا خــلاقـا قـادرا على الجمــع حتـي بين المتناقضات(٢٧) . وقد يكون نقده أكثر دقة وصحة من الناقد غير الشاعر. ذلك لأن صفة الشاعرية التـي يمتلكها الشاعر الناقد تفتح أمام نـاظريه أفقا آخر لا يمكـن للنـاقـد المجرد أن يحلـق فيـه ، وتمنحـه زاويـة رؤيـة جديـدة لـلأشيـاء والموضوعات لا يمكن للنـاقد الشاعر أن ينظر من خـلالها . أضف إلى ذلك أننا نعرف مـن خلال تراثنـا النقدي أن بعض الشعـراء كانوا نقـادًا . غير أن هذا لا يعني بالضرورة أنه ما لم يكـن الناقد شاعرا فلن يكون ناقدا مبـدعا . وقد عد ابن حزم ابـن شهيد «حامـل لواء الشعر والبلاغـة ، لم يخلف لنفسه نظيرا في هـذين العملين جملة» (٢٨) . وفي الغرب نجـد أن دانتي وغوتـة وكولودج واليـوت كلهم شعراء مبدعون ونقاد مبدعون أيضًـا . فلم لا يكون ابن شهيد واحدًا كهؤلاء؟ .

رأي ابن شهيد في البيان

يتبين رأي ابن شهيد في البيان من خلال الحوار الذي دار بينه وبين أبي القاسم الافليلي ، يرى أن البيان يكون تعلما عن طريق الشيوخ والأساتذة ، وأدوات البيان عنده اتقان مسائل النحـو ومعرفة الغريب ، فالمؤدبون هم الـذين علموه البيان . أما ابن شهيد فإنـه يرى رأيا مغايرا ويرد قائلا: ليس هـو من شأنهم ، إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال : «الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان»(٢٩) . وهذا يعني أن البيان عنـد ابن شهيد منحة من الله تعالى ، أو هو موهبـة بالدرجة الأولى يؤتاهـا الإنسان من خلال استعدادات فطـرية تخلق فيه ، من مثـل رهافة الحس ، ورجاحـة العقل ، وقوة الخيال . . ولكـن ذلك لا يعني أن الإنسان يـولد شاعـرًا عظيما أو أديبًا بـارعًا بـالفطرة فقـط . بل لا بـد من التعلـم والجلوس إلى

الأساتيذ، ولذلك يحدثنا ابن شهيد عن نفسه قائلاً: «كنت أيام كتاب الهجاء، أحن إلى الأدباء، وأصبوا إلى تأليف الكلام، فاتبعت الدواوين، وجلست إلى الأساتيذ» (٣٠)**، ولكننا نلحظ من خلال رسالة التوابع والزوابع أن الموهبة هي الأساس في الإبداع وليس التعلم، فالموهبة مثل الأرض الطيبة الخصبة والتعلم هو تشذيب تلك الأرض والعناية بها، ويوضح ابن شهيد أن للموهبة المقام الأول في تعلم البيان متحدثا عن نفسه: «فنبض لي عرق الفهم وبدر لي شريان العلم بمواد روحانية، وقليل الالتماح من النظر يزيدني، ويسير بالمطالعة من الكتب يفيدني، إذ صادف شَنَّ العلم طَبَقَه»**(٣١).

وليس البيان عند ابن شهيد تفسير الشعر وشرحه ومعرفة غريب ألفاظه، وهذا ما كان يفعله الافليلي في شرحه لديوان المتنبي، يقول ابن شهيد عن البيان: «ليس من شعر يفسر، ولا أرض تكسر، هيهات حتى يكون المسك من أنفاسك، والعنبر من أنقاسك، حتى يكون مساقك عذبا، وكلامك رطبا، ونفسك من نفسك، وقليبك من قلبك، وحتى تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسنه (٣٢)، فالإنسان لا يكون أديبا إلا إذا كان أدبه يصدر عن طبع مغروس في نفسه، وإذا كان يمتلك مقدرة على أن يبدع شعره ونثره، بحيث يدخل إلى القلوب بلا استئذان، وتصغى الأفئدة إليه قبل الآذان، لأن ما يصدر من القلب يدخل إلى القلب بلا عناء، والمبدع، عند ابن شهيد، هو الذي يملك القدرة الفنية على تحسين القبيح وتقبيح الحسن، ورفع الوضيع، وخفض الرفيع، وكأن ابن شهيد هنا يستبعد الأخلاق والصدق في الفن كمقاييس للإبداع ويرى أن المقياس الحقيقي هو المقدرة على التصوير وعلى مدى جمال الأثر الفني.

أدوات البيان

يرى ابن شهيد أن إصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب، واستيفاء مسائل النحو[٣٣]. وإذا لم يقم البيان على حفظ كثير الغريب ومسائل النحو فعلى أي شيء يقوم؟ يجيب ابن شهيد عن ذلك بقوله: «ومن الواجب على الناقد أن يبحث عن الكلام، ويفتش عن شرف المعنى، وينظر مواقع البيان، ويحترس من خدع اللفظ، ويدع تزيوق التركيب، ويراطل بين أنحاء البديع... وإنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعمد كرائم المعاني والكلام، وأن ينطق بالفصل، ويركب أثباج الجد، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته، ويذكر بعد فوته، ويتصرف تصرف الملح، ويتلون تلون أبي براقش[٣٤] ومع أن هذه الإجابة لا تشفي الغليل تماما، وكان بودنا أن تكون أكثر وضوحا، إلا أنها تضمنت غير قليل من الإجابة عن السؤال المطروح. ولعل في العتاب الذي يوجهه ابن شهيد إلى الجاحظ حين ذكر هذا الأخير صعوبة تعليم البيان ما يكمل الاجابة عن ذلك السؤال يقول أبو عامر: «لو كشف فيه» (يعني الجاحظ) عن وجه التعليم، وصور كيفية التدريج، لأرى كيف وضع الكلام، وتزيين البيان، وكيف التوصل إلى حسن الابتداء، وتوصيل الألفاظ بعد الانتهاء، وأبدى لهم عند تدبير المقاطع والمطالع، فإنها معادن الصنعة، ومواضع مفاتيح الطريقة، ولكنه استمسك بفائدته»[٣٥] والذي نخلص إليه هنا أن المعنى الشريف، واللفظ المناسب له، والمعبر عنه تماما، والبيان الواضح والنادرة السائرة، والحكمة، وحسن الابتداء، وترابط التراكيب، وإتقان المقاطع مع المطالع كل ذلك من أسباب البيان عند أبي عامر.

للبيان أوقات

نستنتج من الحوار الـذي دار بين ابن شهيد وتابعته الجنـي زهير بن نمير رأيه في هذه المسألـة. وقد أرهص أبو عامـر للانتقال من عالم الـواقع إلى عالم الجن في رسالة «التوابع والزوابع» بالحديث عن فقده لمحبوب، كان قد نسيه فترة، فجلس ابن شهيد وحيدا في قريحته في نظم الشعر وأغلقت عليه مسالكه، وأحس، وهو في غمـرة تأثـره، بجني ينـزل من السماء، ويقـول لـه: أعجزًا يـافتي الأنـس؟ فيجيب ابـن شهيد: لا وأبيك للكـلام أحيان»[٣٦]. وهذا يعنـي أن هناك أوقـاتا للإبداع بحسب طبيعة الإنسان ومـزاجه، ونفسيته، والظروف والأحوال المحيطة به، فعمليـة الإبداع ترتبط بـالتدفق العـاطفي والشعوري وهذا لا يكـون في كل وقـت وحين، بل في أوقـات معينة، حين تنضـج الأفكار في ذهـن المبدع، ثـم يتمثلها فؤاده، فتصبـح جزءا من روحه، وتـأتي بعد ذلك لحظة المخـاض حيث يولد الفن. وهي عملية لا ترتبط بزمان أو مكان محددين، وإنما هي بوح الخاطر، وصـدى الوجـدان. وينبوع في المبـدعين كما تقـول اليزابيـث درو: «يقع خـارج ملكاتهم الواعية، فهو طاقة لا يملكون التحكم فيها، وهي تذه وتجيء»[٣٧].

الأثر الخلقي في البيان

والأدب عند أبي عامـر «نتاج معقد: محتاج إلى أن يمتـزج فيه تكويـن جسم الأديب الخلقي مع تركيب ذهنه وعقله»[٣٨]. وهو بذلك لم يشأ ترك مسألة الطبع والملكة، كما أوردهـا النقاد السـابقون له وإنما أراد أن يكسـوها ثـوبا جـديدا بما فصل في أمـرها من العلاقـة بين النفس والجسم واستيلاء كـل منهما على الآخر. وهـذا يشير إلى إدراك أبي عـامر «أن هنـاك فـرقـا واضحـا بين صاحـب الطبـع وفاقده. فالأول يخرج الكلام في سهولة ويسر، وينساب منه انسياب الماء في مجراه

فيؤثر في النفوس ويسحرها . . أما الثاني ـ فاقد الطبع ـ فلا يستطيع التأثير بل ربما عجز عن الإفصاح لفقدانه الطبع والميل (٣٩). ويقول ابن شهيد مفصلا أمر العلاقة بين الجسم والنفس، وأثر ذلك كله في الطبع: «ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه، فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا، يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها، وأرق لبساتها، حسه، كان ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في الكمال والتمام»(٤٠). ومما لا شك فيه أن للجسم تأثيرا في النفس والعكس صحيح. فالعلاقة بين الجسم والنفس علاقة تفاعلية. ويعود ابن شهيد مرة أخرى للحديث عن دور التكوين الجسدي في العملية الإبداعية عند حديثه عن المعلمين، فيذكر لنا أن الأعضاء الجسدية هي آلات خادمة للفهم، فإذا كانت مشوهة مثل فرطحة الرأس وتسفيطه، ونتوء القمحدوة، والتواء الشدق، وانزواء أرنبة الأنف، كل ذلك يجعل من الآلة الخادمة للفهم فاسدة، وبالتالي فإن الفهم ذاته يفسد. وهل يصلح شيء من العقل أو الذوق بعد فساد الفهم؟

ولقد عد بعض الباحثين «ذكر أبي عامر لأمور ذات صلة بالعلم، والفلسفة، وربط وظائف الأعظاء والملكة الأدبية من جهة، وبين الصفات الظاهرة من جهة، وأثر ذلك في نفسية الإنسان، وتوجيه سلوكه، فتحا جديدا في دراسة النقد الأدبي» (٤١)

إن رأي ابن شهيد السابق على طرافته ـ يظل مشوبا بغير قليل من الغموض، فهل التشوه الخلقي كقاعدة عامة يقف حائلا دون الإبداع؟.

أظن أن ابن شهيد لا يقصد هذا، وإلا فكيف يعد الجاحظ مبدعا وهو جاحظ العينين؟ بل كيف يعد نفسه مبدعا وهو أصم؟. أنا أعتقد أن الدراسات الأدبية والنفسية يمكن أن تفسر لنا هذا مستقبلا.

إن البيـان عند أبي عـامر هـو خلاصـة العلاقـة بين الطبع والآلات الخادمـة للفهم، والطبـع عنده هو خلاصـة التفاعل بين روح الأديب وجسـده، والذي يقرأ آراء ابن قتيبـة والجرجاني والجاحظ وأبي هلال العسكـري في الطبع يجد بينها وبين آراء أبي عامر نسبا، غير أننا نقول: إن حـديث أولئك الأعلام عن الطبع، جاء في أكُثره، مجرد إشارات عابرة، لم تلمس جـوهر الموضوع، ولم يكن فيها من التفصيلات والتفريعات ما نجده عند أبي عامر.

تعلم البيان

لا ينفي ابن شهيد دور التعلم في صقل الموهبة، ولكنه يؤكد على عدم جدواه بـدونها، فعلى قدر حـظ الإنسـان من الموهبـة تكون فـرصتـه في إجادة البيـان، فالأديبـان يختلفان في حظهما مـن البيان لاختـلاف الموهبة عنـدهما، والرجـلان المتساويـان في الموهبة (فـرضا)، يختلفـان في حظهما من تعلـم البيان بـاختلاف درجة تعليمهما، وابن شهيد يرى أن تعليم البيان وإن كان ممكنا إلا أنه صعب. ويستشهد على هذا الرأي بقول الجاحظ: «إنا إذا اكترينا من يعلم صبياننا النحو والغريـب قنع منـا بعشرين درهما في رأس كـل شهر، ولـو اكترينا مـن يعلمهم البيان لما قنع منا بـألف درهم»[٤٢]. وأبو عـامر يوصي معلمي البيـان أن يختاروا تلاميذهم من النجباء الأذكياء لأنهم أقدر على تعلم البيان من غيرهم، يقول ابن شهيد: «وقد كنا طعمنا من هذا الطعام (يعني البيان) بعض التلاميذ فاستطابه وعلم مقداره، ولكن البطـالة على الفتيان غالبة والسآمة عليهـم مستولية، فمن بنى على تعليم هذا الشأن فلا يعلم إلا أهـل النجابة والمثابرة على التعليم» [٤٣]. وبذلك تكون شروط البيان عند أبي عامر ثلاثة هي: الموهبة أولا، والذكاء ثانيا، والمثابرة على التعليم ثالثا.

آثار البيان

يحدثنا ابن شهيد في مواضع متفرقة من كتاباته عن آثار البيان فالبيان أولا هو الذي يؤلف «صورا رائعة من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس» (٤٤). والبيان ثانيا سلاح تنتصر فيه على الخصوم وتقحمهم (٤٥) والبيان ثالثا وسيلة من وسائل التكسب والعيش، فهو يعمل على تحريك البخلاء إلى البذل لأنه كما يقول ابن شهيد: «لا يضعضعهم خبيث الكلام لقوة بنيانهم وثبات أركانهم» (٤٦). والبيان أخيرا عند أبي عامر نوع من السحر، يعمد إليه لإلانة النفوس، وشق القلوب واستمالتها وملء الأسماع والأبصار.

تغير الأساليب بتغير الأزمنة

يقول ابن شهيد «وكما أن لكل مقام مقالا فكذلك لكل عصر بيان، ولكل دهر كلام، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه. وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل وتغاير في العادة. ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان؟ ثم دار الزمان دورانا، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابني وهب وغيرهم. ثم دار الزمان.. فكانت احالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابها. وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان، وطلب كل ذي عصر ما يجوز فيه وتهش له قلوب الناس..» (٤٧) والحق أن ابن شهيد لم يبق شرحا لشارح ولا استيضاحا لمستوضح، ولا انتقادا يوجهه إلى نظريته منتقد، لما فيها من سهولة العرض ويسره وقوة الحجة وصدقها، وموافقتها للصواب.

ويذهب الأستاذ يعقوب زكي إلى أن «قضية الاختلاف بين العصور في نظرتها إلى الأدب . . . إنما ظهرت بوضوح أول مرة عند أبن شهيد»[٤٨]

وهذا صحيح إلى حد بعيد يدركه الدارس للحركة النقدية طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة، فقد نوقشت هذه القضية أكثر من مرة غير أنه كان يكتفى عند نقاشها بالإشارة الموجزة، وباللمحة العابرة دون تصريح وتوضيح وتفصيل.

أهل صناعة الكلام

أهل صناعة الكلام عند ابن شهيد أصناف ثلاثة، من كان واحدا منها فهو أديب، ومن لم يكن منها فلا حظ له من الأدب، **وهذه الأصناف هي** :

١ ـ من يخترع المعاني، ويختار الألفاظ الجيدة، ويجيد الوصف والاستنباط، ولكنه يعجز عن تأليف الكلام تأليفا جيدا.

٢ ـ من يمتاز بقدرة عجيبة على اجتلاء المعاني والغوص على اللطيف المبتكر وإذا ازدحمت عليه من الكلام المطالب، أعمل لمحة البارق وفكرة القادح، فجاء ببهاء الغرض في ثوب حسن الماء جميل الرداء.

٣ ـ ومنهم من لا يجود دائما وفي كل حال، ولكن إذا جوبه وحرك استطاع أن يعمل الحيلة ويشارك في الصنعة[٤٩].

المعلمون

هاجم ابن شهيد المعلمين في عصره في أكثر من موقف، وعلى رأسهم خصمه أبو القاسم الافليلي، وذكر جملة من صفاتهم السيئة والتي يمكن أن نعد اضدادها صفات حسنة ينبغي أن يتمتع بها المعلم الجيد. يقول ابن شهيد:

«وقوم مـن المعلمين بقرطبتنا ممن أتـى على أجزاء من النحو، وحفـظ كلمات من اللغة يحنـون على أكباد غليظـة، وقلوب كقلـوب البعران، ويـرجعون إلى فطـن حمئـة، وأذهـان صدئة، لا منفـذ لها في شعـاع الـرقة، ولا مـدب لها في أنـوار البيان»(٤٩) ويقول«ومـن تقصير عصابـة المعلمين أنهم لا يقدمـون أن يجعلوا مـا يحملون مـن المعرفـة تصنيفا ولا تغـزر مادتهم أن ينشئـوها تـأليفا». وهـم عنده يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة(٥٠).

ويذكرنا موقف ابن شهيد من المعلمين بموقف أبي العلاء المعري منهم «ونتاج ما تـوصل إليه الـرجلان عـدم جواز الإطمئنان لعمـل المعلمين في الأدب والنقد لافتقارهم لعنصر حيوي هام في هذا المجال هو الموهبة الفطرية التي قعدت بهم عن سلامة التذوق»(٥٢). ويتبين لنا الانحناء والظلم الشديـد الذي ألحقه ابـن شهيـد بالمعلمين الـذين عـايشهـم في عصره، ولا يتصور أن يكـونوا جميعـا ولا أكثرهم على الصفات التي ذكرها، وإنما يلاحظ أنه بدافع خصومته لهم يحاول أن يحط من قدرهم وينزلهم منزلة أدنى من التي يستحقون، فقد صورت المصادر أبا القـاسـم الافليلي خصمـه على أنـه «قـد بـذ أهـل زمـانـه بقـرطبـة، في علـم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة، في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية والمشاركة في بعض معانيها»(٥٣).

الأخذ والاقتباس [السرقات]

يضع ابن شهيد قاعدة للأخذ والاقتباس يضمنها قوله: «إذا اعتمدت معنى سبقك إليه غيرك فأحسن تراكيبه، وأرق حاشيته فأضرب عنه جملة، وإن لم يكن بد ففـي غير العروض التي تقدم إليهـا ذلك المحسن، لتنشط طبيعتـك وتقوى منتك»(٥٤). فابن شهيد يرى أن الشـاعر إذا سبقه غيره إلى معنى، وأراد أخذه،

فلا بأس بذلك ولكن بشرط وجوب الزيادة في المعنى عند الشاعر اللاحق، فمن الشعراء من يحسن الأخذ ولا يعاب بذلك. ومن ذلك المعنى الذي أخذه أبو نواس عن الأعشى معنى بيته المشهور:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

فقد زاد عن الأعشى في «أن اللوم اغراء» «ودواني» وفي جعل الداء عموما دواء. ومن الشعراء من يأخذ المعنى ويسيء مثل عمر بن أبي ربيعة الذي أخذ معنى بيته:

ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ حباب وركني جانب بالقوم أزور

عن امرىء القيس في قوله:

سموت إليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

يقول ابن شهيد معقبا على ذلك:

«ألا ترى عمر بن أبي ربيعة، وهو من أطبع الناس، حين رام الدنو منه والإلمام به، كيف افتضح... إنه أساء قسمة البيت، وأراد أن يلطف التوصل، فجاء مقبلا بركن كركنه أزور»(٥٥). **يقول الدكتور مصطفى السيوفي:**

«ولقد قدر لابن شهيد أن يكون أكثر توفيقا في قضية تجديد المعاني من أبي العلاء المعري، الذي لم يتعد أمرها عنده الإشارة العابرة، في حين تمثل موقف ابن شهيد في التجديد والتوضيح بالشاهد والمثل، وكأني به يؤطر لملامح التجديد الفني الذي ينبغي أن يشد نتاج أدباء القرن الخامس الهجري في الأندلس(٥٦) والذي ألحظه: أن ابن شهيد يميل في هذه القضية إلى التساهل إذا ما قيست شروطه في الأخذ بشروط النقاد السابقين عليه كالآمدي مثلا، ورأي ابن شهيد هو أكثر اقتناعا ذلك أن المعاني ليست حكرا

على قوم دون قـوم. وعلى زمان دون زمان فهي ليسـت ملكا للذي يسبـق إليها، إنما هي ملك عام لكل شاعر وأديب وكاتب: فإذا استعمل الشاعر معنى سبقه إليه غيره فزاد فيه جمالا على جماله السابق فتلـك مزية تسجل له، وإن استخدمه بالمستوى الذي استخدمه الشاعر السابـق له فلا بأس بذلك، وإن قصر فذلك عيب يلام عليه.

اللفظ والمعنى

يقول ابن شهيد موضحا موقفه مـن قضية اللفظ والمعنى: «ومن الواجب على الناقـد أن يبحث عن الكـلام، ويفتش عن شرف المعـاني وينظر موقـع البيان، ويحترس من حـلاوة اللفظ، ويدع تزويـق التركيب [٥٧] وهذا يعني أن أبـا عامر يوجب الاهتمام بالمعنـى واللفظ المناسب له، المؤدي إليه على أحسـن وجه، فلا اهتمام باللفظ وتزويق التركيب على حساب المعنى، ولا قيمة للمعنى إذا لم يقدم بألفاظ مختارة. فالبيان عنده هو صب المعنى الرفيع في قوالب لفظية مختارة يقول عن أحد **أصحابه في قرطبة**:

«ورآني أستعمـل وحشي الكـلام في مـواضعه، ولم يشعـر بحسـن الـوضـع، فاستعمل شيئا منه وعرضه علي، فقلت: استره»[٥٨].

وقد حـذر ابن شهيـد من التـزويق والبهـرجـة وخداع وقعـه. وقال في نقـده لأسلوب عبد الحميد الكاتب «أقعقعة طلبت أم بيانا»[٥٩] وأراني أخالف الدكتور حازم خضر فيما ذهب إليـه من أن اهتـمام ابن شهيـد بالتـزويق اللفـظي أكثر مـن اهتمامـه بالمعنى[٦٠]، بـل لا يتساوى اهتمامـه باللفظ باهتمامـه بالمعنى، ورأي ابن حيان في هـذا أدق وأقرب إلى الصواب، حيث يقول: «كان أبـو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام»[٦١].

● **ظاهرة السجع في نثر ابن شهيد وصلتها بقضيتي الطبع والصنعة :**

يجد الباحث في كتب النقد العربي القديم آراء عدة تدور حول البديع وحول السجع فيه كلون من ألوانه على وجه الخصوص ، والسجع ليس عيبا أو دلالة على النقص في حد ذاته ، إذ لو كان كذلك لما ورد في القرآن الكريم . والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة جدا . والسجع قسمان : سجع متكلف ممجوج ، وسجع يطلبه المعنى ويستدعيه ، فالأول مكروه رديء ، لا قيمة له ، بل إنه يقلل حقا من قيمة الكلام ، ويفضي به إلى النقص والثقل على الأذن والنفس ، والثاني مطلوب مرغوب لا يتم المعنى إلا به ، إذا نقص المعنى ، ولقد كان لنقادنا القدماء من قوة البصيرة ، ونفاذ الحكم ، ودقة النظر ، ما يجعلهم يميزون بين ذينك النوعين من السجع فالجرجاني ـ مثلا ـ في أسرار البلاغة يقول في مقدمة كتابه معلقا على بعض النصوص التي استخدم فيها السجع : «فأنت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع ، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه ، وأبر به وأهدى إلى مذهبه . . حتى لو رام المتكلم تركهما (يعني السجع والتجنيس) إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع ، لدخل من عقوق المعنى ، وإدخال الوحشة عليه ، في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر(٦٢).

فالسجع الحسن هو السجع الذي يستدعيه المعنى ويطلبه : أما السجع الذي يقصد به التزويق ، وابداء قدرة الكاتب اللغوية ، ومعرفته بالغريب ، ونحو ذلك ، فهو السجع الذي يثقل على النفس ، ويقصر فيه الكاتب عن تأدية المعنى المطلوب . وقد قلد الكتاب الأندلسيون المشارقة في إسجاعهم ، وجروا على سنتهم ثم جاوزوهم إلى المبالغة في ذلك ، حتى إننا لا نكاد نجد كاتبا أندلسيا في القرن الخامس الهجري إلا وهو يسجع ، سوى في القليل النادر. يقول

د. إحسان عباس« وجرت جميع تلك الأشكال النثرية في أكثر الأحوال على نظام السجع وعلى التفنن في ضروبه . . . وكان قيام النثر السلطاني على السجع شر ما ابتلي به النثر الديواني الأندلسي في تقليد المشارقة»(٦٣).

يلاحظ الدارس لكتابات ابن شهيد بروز خصيصة السجع في نثره، لكن أبا عامر استخدم السجع ـ كما سنرى ـ استخداما مختلفا عن معاصريه وكان السجع الذي ساد في عصره. . كما يقول سجعا ممجوجا يدل على غباوة أهل زمانه، وقلة شأو أقرانه في البيان. لذلك فهو يرفض ذلك اللون من ألوان السجع، ويعد كل من ابتلي به مصابا بآفة من آفات البيان في عصره. ويتضح ذلك من خلال الحوار بين تابعة ابن شهيد وتابعة تقليده في المماثلة والمقابلة والازدواج. وابن شهيد يعي فضل تلك الأساليب، لذلك يقول ردا على تابعة الجاحظ حين قال له: «إنك لخطيب، وحائك للكلام مجيد، ولولا أنك مغرى فكلامك نظم نثر. قلت (ابن شهيد) ليس هذا ـ أعزك الله ـ مني جهلا بأمر السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام ودهيت بغباوة أهل الزمان(٦٤).

أما عبد الحميد الكاتب فقد اتهم ابن شهيد بالتكلف في استخدامه المماثلة التي قلد فيها الجاحظ، ورد ابن شهيد على عبد الحميد متمثلا طريقته مصورا بداوته بقوله: إني لأرى من دم اليربوع بكفيك، وألمح من كشى الضب على ما صنعيك»(٦٥).

وإذا كان ابن شهيد يستطيع أن يكتب بأسلوب المماثلة والمقابلة والازدواج فلم يلجأ إلى السجع؟ يعتذر ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع عن إكثاره من السجع في كتاباته، ويزعم أن الذوق في عصره يميل إلى هذا الأسلوب في

الكتابـة، فقد دهـي بغباوة أهل الـزمان وفساد أذواقهـم. فكل كـلام لا يكون سجعا يرفضه أهـل عصره. وعندما سأله الجاحظ عن كـلام أهل الأندلس فيما بينهم، أجاب قائلا «ليس لسيبويه فيـه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنما هو لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط. ولذلك فإن الجاحـظ يدرك سر استخدام ابن شهيد للسجع ويـوافقه على ذلك قائلا: إنا لله، ذهبت العرب وكلامها. ارمهم يا هذا بسجع الكهان، فعسى أن ينفعك عندهـم[٦٦]. وليـس هذا السبـب وحده كـافيـا ومقنعا في تفسير شيـوع السجع في كتـابة ابن شهيـد خصوصا وقـد عرفنـا نفسية ابن شهيـد التي تحب التميـز في كـل شيء، ولا تنصـاع لأمـر لمجرد رغبـة الناس فيـه، وميلهم إليـه والحقيقة أن ابن شهيد يستخدم السجع استخداما خاصا متميزا، لا يقصد فيه إلى التزويـق اللفظي، وإنما هو سجع يستـدعيه المعنى قبـل كل شيء[٦٧] وهو سجع مطبوع. ولما كـان المعنى هو الذي يستـدعي الألفاظ في نثر ابـن شهيد، فإن ورود السجـع لن يكـون بحال مـن الأحوال تكلفـا ـ وتصنعـا وتزويقـا على حساب المعنى. وابن شهيد يدرك ذلك ويقرر على لسان صاحبي الجاحظ وعبد الحميد، فهما يقولان له بعد أن قرأ عليهما مـن رسالته في الحلواء: «إن لسجعك موضعـا من القلـب، ومكانـا من النفـس، وقد أعـرته مـن طبعك، وحـلاوة لفظك، وملاحة سوقك ما أزال أفنه، ورفع غينه». والذي يقوله ابن شهيد عن سجعه صحيح ودقيـق إلى حد بعيد، فسجعه قريـب إلى القلوب والنفوس، لا يغرب فيه ابن شهيـد ولا يطيل، وربما يتضح الأمر بمقارنة سجعـه مثلا بسجع بعـض معاصريـه، أو بسجـع كتـاب المقامـات عنـدئذ سـوف يتضح لنـا أي السجعين متكلـف، تبـدو فيـه الصنعـة واضحـة جليـة وأيهما يحوي الألفـاظ الوحشية الغـريبة. وابن شهيد يلجأ في سجعـه إلى استعمال الأحرف السهلة في

النطق، الخفيفة على السمع، مما يحسن الوقوف عنده. ومثال ذلك قوله: في رده على أبي القاسم الافليلي«وأنا لا أعرف على من قرأت. قال: ألمثلي يقال هذا؟ فقلت فكان ماذا؟ قال: فطارحني كتاب الخليل: قلت هو عندي في زنبيل قال: فناظرني على كتاب سيبويه، قلت: خريت الهرة عندي عليه وعلى شرح ابن درستويه»[٦٨]. وابن شهيد في سجعه يلجأ إلى التنويع فلا يسير على وتيرة واحدة، ولا يلتزم في جميع فواصله بحرف واحد، وإنما يعتمد على الموازنة بين الجمل، وفي المثال الذي سقته آنفا ما يدل على ذلك.

شاعرية ابن شهيد وأثرها في سجعه

لسنا نعني بالشاعرية هنا الاستمتاع بالصورة الشعرية الجميلة، والقدرة على تذوق مواطن الجمال فيها فحسب وإنما نعني، إضافة إلى ذلك القدرة على تكوين الصورة الشعرية ونظمها في وزن شعري ملائم لها. وابن شهيد يمتلك طبيعة شعرية خلاقة، عبقرية الصورة والظلال والإيحاءات، وقد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن وصفه للماء، ولا نستطيع أن نفصل، بحال من الأحوال بين شخصية ابن شهيد ناقدا وشاعرا وكاتبا فهذه القدرات المتنوعة تتفاعل في إطار شخصية واحدة، ولهذا فإننا نجزم بأن شاعرية ابن شهيد قد أثرت كثيرا في فنه. ولما كان ابن شهيد في كتابته يكتب نثرا لا شعرا، فإننا نراه يلجأ إلى توفير الإيقاع الموسيقي عن طريق استخدام السجع بوصفها أداة توفر إيقاعا شبيها بذلك الذي توفره الأوزان العروضية.

ويقول ابن شهيد: «ورفع له ثمر النشا غير مهضوم الحشا، فقال مهيم! من أين لكم جني نخلة مريم؟ ما أنتم إلا السحار، وما جزاؤكم إلا السيف والنار»[٦٩] وقد كان إحساس ابن شهيد بالتميز دافعا له في استخدام البديع

والصنعة ـ وخصوصا السجع ـ كلون من ألـوان البديع ـ في نثره معتبرا ذلك نوعا من الزينة المخصوصة لتحلية نثره ونظمه على السواء. وكان ابن شهيد يدرك أن الزينـة تقتضي «في الأدب وفن القـول ضربا مـن العلو والتجـاوز يتخذه الـوعي مؤسسا قيمة الزينة في شكل نسق من العلاقات المتبادلة بين الوعي الذي يضفي القيمة، والموضوع الذي يـزين على هذا النحو أو ذاك»[٧٠]. وفي تصورنا أن ابن شهيد لم يلجأ إلى استخـدام الزينة والبديع في نثـره ليستر عورات أو حسنات في أدبه، بـل نرى أن جمال الزينـة عنده «ينبثـق من إثارة الحواس، أو إثـارة الخيال بواسطة اللون، أو بالسرف والتنوع ورقة التفاصيل ونعومتها»[٧١]. ولقد حاول ابن شهيد من خـلال رفضه للأسلوب الذي كـانت تستخدم فيه الزينة ــ خصوصا السجـع ــ في عصره أن يكسر قاعدة التقليـد الآلي عن طريق إحـداث «انقطاع مباغت لسلسلة التقليد الآلي»[٧٢]. ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلـك خارج إطاره الذاتي. أعني في مجتمع عصره الذي كان غارقا في التقليد.

الأصوات وبناء الكلمات

لا يفرد ابن شهيد بابا خاصا يعـالج فيه الأصوات وبناء الكلمات والتراكيب، كما هو الحال عنـد بعض الدارسين القـدماء من أمثـال ابن جني، ولكننـا نجد إشارة ذكية من ابـن شهيد تدل على قدر من المعرفة بـالأصوات وتجانسها، يقول ابن شهيد: «إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو في الكلمات، فإذا جاور النسيب النسيب، ومازج القريب القريب طـابت الألفة وحسنت الصحبة، وإذا ركبت صور الكلام من تلك، حسنت المناظر، وطابت المخابر»[٧٣].

النقد التطبيقي عند ابن شهيد

ذكرنا فيما مضى من قول أن ابن شهيد تجاوز بـآرائه النقدية حدود النظرية إلى التطبيق، ونستطيـع القول إن النقد التطبيقي عنـد أبي عامر قد سـار في خطوط خمسة رئيسة، كنت قد ألممت ببعضها وهي:

١ ـ التقليد الواعي.

٢ ـ الاختيار والترتيب اللذان يصدر فيهما عن رأي نقدي.

٣ ـ المفاضلة والموازنة والمعارضة.

٤ ـ الأحكام العامة.

٥ ـ الأمثلة التطبيقية.

(١) التقليد الواعي:

أدرك ابن شهيد بحسبه النقدي الجيد الخصائص الفنية التي ميزت نثر الكتاب المشهورين، والخصائص الفنية التي امتـاز بها شعر المبدعين من الشعراء، وهو بمحاولة تقليدهم يفتح أعيننا على أمرين **هما**:

أ ـ قـدرته الأدبيـة والفنية التـي تمكنه مـن محاكاة كبـار كتاب النثـر والمبدعين وفحول الشعراء.

ب ـ أن تلك الخصائص والميزات لنثر وشعر أولئك كانت سببا في تميز أدبهم، وبالتالي إقبال الناس عليه، وذيوعه بينهم وهذا يمثل حكما نقديا غير مباشر على أدبهم وشعرهم، وقد أشرت في موضع سابق من هذا البحث إلى تقليد ابن شهيد للجاحظ وعبد الحميد فأغنى القول في ذلـك الموضع عن إعادته هنا. وقد لاحظ صاحـب عبد الحميد الكاتـب على ابن شهيد أنه يقلـد كل شاعر يلقـاه، وكل كاتب يجتمع إليه، ويتحدث إلى كل واحد منهم بلسانه.

(٢) الاختيار والترتيب:

يصدر ابن شهيد في اختياره للشعراء والكتاب الذين يلقاهم، وفي ترتيبهم عن رأي نقدي. فهو يدرك أن كثيرا من الكتاب والشعراء الذين لقيهم قد أدوا أدوارا تحويلية في الحركة الشعرية، والكتابة الأدبية النثرية، فمن الشعراء الذين لقيهم ابن شهيد، مثلا، وكانوا قد قاموا بمثل تلك الأدوار، امرؤ القيس، وأبو تمام، ومن الكتاب، الجاحظ وعبد الحميد. وبعض الكتاب والشعراء الذين كانوا قبلهم يمثلون مدارس واتجاهات أدبية كان لها دور فاعل في مسيرة الأدب. أو ليس تنسب مدرسة الطبع في الشعر إلى البحتري؟ أو ليس الهمذاني شيخا جليلا من شيوخ الصنعة؟ وأبو عامر في ترتيبه لهم من حيث التقديم والتأخير يصدر عن رأي نقدي أيضا، وإن كانت رسالة التوابع والزوابع لسوء الحظ ـ لم تصلنا كاملة لنتمكن من القطع في هذا الرأي. وابن شهيد يقدم امرأ القيس على شعراء العربية جميعا، ويقدم الجاهليين على الإسلاميين والمحدثين، وهو يقدم الجاحظ على كتاب العربية جميعا، ويجعل من عبد الحميد الرجل الثاني بعد الجاحظ.

(٣) المفاضلة والموازنة والمعارضة:

قال ابن شهيد: وحضرت أنا أيضا وزهير وجلسًا من مجالس الجن، فتذاكرنا ما تعاورته الشعراء من معانٍ، ومن زاد فأحسن الأخذ، ومن قصر، **فأنشد قول الأَفْوَه بعض من حضر:**

وترى الطير على آثارنا   رأي عين ثقة أن ستمار(٧٤)

ثم نراه ينشد أبياتا ثلاثة للنابغة، وبيتا لأبي نواس، وآخر لصريع الغواني، وآخر لأبي تمام، وكل تلك الأبيات في معنى بيت الأفوه ونرى ابن شهيد بعد ذلك يصدر حكمه النقدي على أيهم كان أجود في التعبير عن المعنى، وأدق من

الآخرين وكانت زيادته أحسن على لسان شمردل السحابي حيث يقول: «كلهم قصر عن النابغة لأنه زاد في المعنى ودل على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح». ثم نراه ينشد بيتا للمتنبي ويقدمه على أبيات النابغة، وينشد بعد ذلك أبياتا لفاتك بن الصقعب ويقدمها على أبيات الشعراء جميعا بمن فيهم المتنبي، ذلك لأن فاتك بن الصقعب زاد في المعنى «وأحسن التركيب ودل بلفظة واحدة على ما دل عليه شعر النابغة وبيت المتنبي[٧٥] وواضح مما سبق أن المفاضلة والموازنة التي أجراها أبو عامر بين الشعراء المذكورين مبررة ومعللة أي أنه يذكر سبب تفضيله لشعر شاعر دون غيره وابن شهيد في معارضاته الشعرية والنثرية يصدر عن رأي نقدي أيضا. فالقصائد التي يختارها لمعارضاته جيدة السبك، حسنة النظام، محكمة النسج، أجاد فيها أصحابها أيما إجادة، بلغوا بها الأغراض التي يريدون. والنص النثري الذي يعارضه ابن شهيد هو نص معروف مشهور فلولا أنها نصوص جيدة فنيا بمعياره، نثريها وشعريها، لما عنى نفسه بمعارضتها، والمعارضة عند ابن شهيد من معايير الابداع، لذلك استنكر تقديم العامريين عبادة في الزمام على أبي المطرف بن أبي الفهم، قال: «وكان من أشعر من أنبتته الأندلس، ووطيء ترابها بعد أبي المخشى أولا، وأحمد بن دراج آخراً، وكان من أبصر الناس بمحاسن الشعر، وأشدهم انتقادا له. فشعره بلطائف غرائبه وبدائع رقائقه يروق. وهو غزير المادة واسع الصدر، حتى لم يكد يبقى شعر جاهلي ولا إسلامي إلا عارضه وناقضه، وفي كل ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد لا يني ولا يقصر، وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام فأعجب»[٧٦] وكأن أبا عامر يحدثنا عن نفسه في حديثه عن كثرة معارضات هذا الشاعر.

(٤) الأحكام العامة :

لو كان كتاب أبي عامر «حانوت عطـار» بين أيدينا لتمكنا من معرفة آراء ابن شهيد في الكثير مـن الشعراء والأدباء المعـاصرين لـه ويبدو لنا أن هـذا الكتاب كان قبل ضياعه معروفا لدى الأدباء والنقاد، يدلنا على ذلك النقول التي تذكرها المصادر الأندلسية على لسـان أبي عامر في تراجم الرجـال، وقد أشرت قبل قليل إلى أحدها وفي تلك النقول أحكام نقدية تتعلق بشخص الشاعر وشعره. ويقول ابن شهيد عن شعر أبي المخشي «وأما أبـو المخشي فإنه قديم الحوك والصنعة.. وهو من فحول الشعراء المتقدمين»(٧٧)

(٥) الأمثلة التطبيقية :

يلاحظ أن ابـن شهيـد يذكـر كثيرا مـن الأمثلـة التطبيقية على آرائه النقـديـة النظرية، لأنه ــ كما قلنا ـ يتجاوز بتلك الآراء حدود النظـرية إلى التطبيق، فهو يذكـر لنا مثالا على الكـلام الذي يرعـى تلاع الفصـاحة ويستحم بماء العـذوبة والبراعة، الشديدة الأسر، الجيد النظم، بقول المتنبي:

نـزلنا على الأكـوار نخشـى كـرامة ... لمن بـان عنـه أو يلـم بـه ركبـا
نـذم السحـب المغـر في فعلهـا بـه ... ونعـرض عنهـا كلما طلعـت عتبـا (٨٧)

ويضرب لنا مثلا بقول امرىء القيس :

تنـورتها من أذرعـات وأهـلـهـا ... بيثـرب أدنى دارهـا نظـر عـَلِ

على تركب الحسن من غير حسن(٧٩)

والأمثلة التطبيقية عند ابن شهيد كثيرة كثرة يصعـب معها الإشارة إلى أكثرها، فضلا على الإحاطـة بها جميعا، وقد وردت نماذج لا بأس بها من نقـد ابن شهيد التطبيقي في ثنايا هذا البحث.

●●●

المراجع والمصادر

(١) ابن بسام الشنتريني، على (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٧ مجلدات، تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٧٩م.

(٢) ابن حزم، أبو محمد بن سعيد ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣م)، رسائل ابن حزم تحقيق د. احسان عباس، ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.

(٣) ابن شهيد، أحمد بن عبد الملك (ت٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م)، ديوان ابن شهيد، تحقيق يعقوب زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

(٤) ابن شهيد، أحمد بن عبد الملك، رسالة التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت ١٩٨٠م

(٥) ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ/ ١٩٣٩م)، العقد الفريد، ، مجلدات، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥م.

(٦) باشلار، جاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الجاحظ وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٠م.

(٧) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ)، اسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م.

(٨) الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت ٤٨٨هـ/)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م.

(٩) د. حضر، حازم، ابن شهيد الأندلسي ـ حياته وأدبه، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد ١٩٨٤م.

(١٠) د. الداية، محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م.

(١١) دور، اليزابيث، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة د. محمد ابراهيم الشوش، مكتبة منيمنة، بيروت ١٩٦٠م

(١٢) السيوفي، مصطفى محمد، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ط عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥م.

(١٣) د. عباس، احسان، تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة، ط٦، دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م.

(١٤) د. عباس، احسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر لاطوائف والمرابطين ط٢، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٨م.

(١٥) ويليك، رينيه، مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، المجلس الوطنيللثقافة والفنون، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٧م.

الهوامش

(١) د. محمد رضوان الداية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م، ص ٢٧٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: د. الداية، تاريخ النقد.

(٢) د. الداية، تاريخ النقد، ص ٢٣٣.

(٣) د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ط٦، دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م، ص١٤١. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: د. عباس، سيادة قرطبة.

(٤) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، العقد الفريد، ٧م، تحقيق أحمد أمين و أحمد الزين و إبراهيم الإبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥م، جـ ٥. ص ٣٩٠-٣٩٥.

(٥) الداية، تاريخ النقد، ص ٢٩٦.

وقد بذل ابن شهيد مجهودا كبيرا محاولا انتزاعه من تلك البيئات، وتوجيهه في طور جديد من التنظير والتطبيق.

(٦) د. عباس، سيادة قرطبة، ص ١٤١.

(٧) علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ - ١١٤٧م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٧م تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م ق ١ م١، ص ١٩٥، سيشار إلى هذا المصدر، عند وروده فيما بعد هكذا ابن بسام، الذخيرة.

(٨) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م١، ص ٢١٣.

(٩) رسالة «التوابع والزوابع» من أطرف ما وصلنا من آثار ابن شهيد يرحل فيها مع تابعه الجني «زهير ابن نمير» إلى عالم الجن فيلقى كبار شعراء العربية، يحاورهم ويأخذ إجازة من كل من يلقاه منهم، ثم ينتقل إلى عالم الخطباء، وينتقد طرائقهم في الكتابة ويحاكيهم، ويختم رسالته بفصل يلقى فيه حيوان الجن، يرمز من خلال ذلك لخصومه ساخرا منهم وعابثا بهم.

(١٠) د. عباس، سيادة قرطبة، ص ١٤٥

(١١) أحمد بن عبد الملك بن شهيد (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م)، ديوان ابن شهيد، تحقيق يعقوب زكي - دار الكتاب العربي، القاهرة، ب ت، ص ٦٧. سيشار لهذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: ابن شهيد، الديوان.

(١٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ص ٢٧٦.

(١٣) المصدر نفسه

(١٤) جاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الجاحظ وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص٥ ص ٣٤.

(١٥) أحمد بن عبد الملك بن شهيد، رسالة التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت ١٩٨٠م، ص ٦٢، سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن شهيد، التوابع.

(١٦) د. الداية، تاريخ النقد، ص ٢٩٦.

(١٧) د. حازم خضر. ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٤م، ص ٢٦٩، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: د. حازم خضر، ابن شهيد.

(١٨) د. حازم خضر، ابن شهيد، ص ٢٧٢.

(*) «أما مصطلحات البلاغة والنقد فهما - كما نلاحظ - مصطلحان متقاربان عند ابن شهيد لهما نفس المدلول، فهو لا يكاد يميز بينهما وهو لا يختلف في ذلك عن كثير من نقادنا القدماء في عدم الفصل بينهما، والبلاغة عنده تعني الوضوح والسهولة والإيجاز، وهذا غير المعنى الاصطلاحي الذي تحدث عنه البلاغيون والذي يضم جملة من علوم المعاني والبديع والبيان. أما مصطلح صناعة الكلام فكأنه يقصد به صناعة الأدب شعراً ونثراً، ومايلزم الصناعة من أدوات فطرية مكتسبة، وأما البيان الذي يرادف عنده الإفصاح والوضوح فسنفصل الحديث فيه في الفصل الذي نخصصه لهذا الموضوع».

(١٩) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م١ ص ٣١٠-٣١١.

(٢٠) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ص ٢٥٣.

(٢١) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢٢) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م ١ ص ٢٩٨ .

(٢٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م١ ص ٢٤٢ .

(٢٤) رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمةد. محمد عصفور ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٧م ، ص ٩٠٤، سيشار لهذا الكتاب عند وروده فيما بعد هكذا: رينيه ويليك، مفاهيم نقدية .

(٢٥) رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ص ٤١٠ .

(٢٦) رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ص ٤٢٥ .

(٢٧) يقول كولودج في حديثه عن نوعية الخيال الشعري: إن في كل جزء من عملية الخلق هذا الاتحاد والوفاق بين الأضداد في لقاء التشابه والتخالف، والعام والخاص، والفكرة والصورة، والفردي والجماعي «انظر: اليزابيث درو، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمةد. محمد إبراهيم الشوش، مكتبة منيمنة، بيروت ١٩٦٠م، ص ٢٠ . سيشار إلى هذا المصدر عند وروده هكذا: اليزابيث درو، الشعر كيف نفهمه .

(٢٨) أبو محمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)، رسائل ابن حزم تحقيق د. إحسان عباس، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨١م، جـ ٢، ص ٢٩٩ . سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، رسائله .

(٢٩) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ص ٢٧٤ .

(٣٠) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م١ ، ص ٢٤٦ .

(٣١) المصدر السابق .

(٣٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

(٣٣) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ، ص ٢٣١ .

(٣٤) ابن بسام ، الذخيرة، ق ١ م ١، ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

(٣٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١، ص ٢٣٣ .

(٣٦) ابن بسام ، الذخيرة، ق ١ م ١، ص ٢٤٧ .

(٣٧) اليزابيث درو، الشعر كيف نفهمه، ص ٢٢

(٣٨) د. مصطفى محمد السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ط عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥م، ص ٨٩ سيشار إلى هذا الكتاب حين وروده فيما بعد هكذا: السيوفي ملامح التجديد.

(٣٩) د. حازم خضر، ابن شهيد، ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ .

(٤٠) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١، ص ٢٣١ .

(٤١) د. حازم خضر ، ابن شهيد، ص ٢٧٤ .

(٤٢) ابن بسام، الذخيرة، ق١ م ١ ، ص ٢٣٣ .

(٤٣) المصدر السابق.

(٤٤) ابن بسام ، الذخيرة، ق ١ م ١ ، ص ٢٣٢ .

(٤٥) انظر على سبيل المثال محاورة ابن شهيد مع تابعه الإفليلي في مواضع عدة من رسالة التوابع والزوابع .

(٤٦) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤٧) ابن بسام ، الذخيرة، ق ١ م ١ ، ص ٢٣٧

(٤٨) ابن شهيد، الديوان، ص ٦٧ .

(٤٩) ابن بسام، الذخيرة ق ١ م١ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٥٠) المصدر السابق.

(٥١) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م ١ ، ص ٢٤٤ .

(٥٢) السيوفي، ملامح التجديد، ص ٦٤٣ .

(٥٣) ابن بسام، الذخيرة، ق١ م ١ ، ص ٢٨١ .

(٥٤) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ، ص ٢٨٧

(٥٥) ابن بسام، الذخيرة، ق ١ م ١ ، ص ٢٨٦ .

(٥٦) د. السيوفي، ملامح الجديد، ص ٦٤٤ .

(٥٧) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١، ص ٣١٠.

(٥٨) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١، ص ٢٣٥ .

(٥٩) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١، ص ٨ ٢٦٩ .

(٦٠) د. حازم خضر، ابن شهيد، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٦١) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١، ص ١٩٢ .

(٦٢) عبد القادر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١ هـ/) أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٨م، ص ١٠ .

(٦٣) د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين ط ٢ دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٢٨٠ .

(٦٤) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١، ص ٢٦٨ .

(٦٥) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١، ص ٢٦٩ .

(٦٦) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١، ص ٢٦٩ .

(٦٧) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٨ . .

(٦٨) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١ ، ص ٢٧٤ .

(٦٩) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١ ، ص ٢٧٠ .

(٧٠) عاطف جودة نصر، البديع في تراثنا الشعري ، دراسة تحليلية ، مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤م ص ٧٨ ، سيشار لهذا البحث عند وروده فيما بعد هكذا : عاطف جودة ، البديع .

(٧١) عاطف جودة ، البديع ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٧٢) عاطف جودة ، البديع ، ص ٧٩ .

(٧٣) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٧٤) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١ ، ص ٢٨٣ .

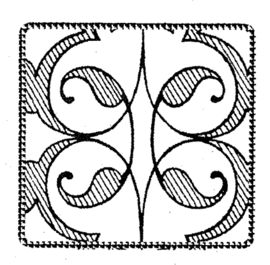
(٧٥) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١ ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٦ .

(٧٦) أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي (ت ٤٨٨هـ) ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م ، ص ٢٧٧ . سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الحميدي ، جذوة المقتبس .

(٧٧) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

(٧٨) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م ١ ص ٢٩٠ .

(٧٩) ابن بسام، الذخيرة ، ق ١ م١ ، ص ٢٣٢ .





المجاز بين اليمامة، والحجاز

تأليف: عبد الله بن محمد بن خميس.
الطبعة الرابعة: ١٤١٠هـ-٨٩/١٩٩٠م - [٤٤١ صفحة].

عرض: مصطفى أمين جاهين

هذا الكتاب الرائد القيم الذي نعرضه للقراء الأعزاء، عبارة عن دراسة جغرافية، وتاريخية بأسلوب علمي متأدب، يجمع بين الإقناع العقلي في جلاله، والإمتاع العاطفي في جماله، كما يجمع في طاقة رائعة بين الشعر العربي الفصيح، والأدب الشعبي المليح، وقد التزم فيه مؤلفه شرطه، الذي ألزم به نفسه قائلاً:

«شرطنا في كتابنا ألا نذكر إلاّ ما يمر به الطريق (طريق المجاز)، أو يراه

سالكه يميناً وشمالاً فقط إلا ما دعا الاستطراد الضروري إليه» .

وهو ينتظم مقدمة واثنين وعشرين فصلاً ؛ يضاف إلى ذلك ردٌّ من المؤلف على أكثر ما نشره الأستاذ «سعد الجنيدل» من مقالات بمجلة «العرب» في نقد هذا الكتاب، وقد استغرق هذا الردُّ على ذلك النقد أربعًا وثلاثين صفحة، ثم المصورات الجغرافية، والمواضع، والأعلام، والقبائل، وأخيرًا الكتب والصحف .

وقد كتب المؤلف تعليقًا على النقد **بقوله** :

«مرحبًا بالنقد يقوّم ما اعوج، ويذكر ما نسي، وينبّه على ما أغفل، ويتمم الفائدة للقراء، ويرفع مستوى الإنتاج، ويحمل المنتجين على الدقة والتثبت» .

وما أخلصه في قوله لناقده معتزاً بالكرامة العلمية للقارىء قبل سواه :

«**أريد** من أخي «سعد» أن يحترم القارىء، ويقدر شعوره، ودعك من احترام «المجاز، وصاحبه» .

وقوله في تقدير أخوي، وسخرية لطيفة : «وأخونا «سعد» ـ وهو طلاّع الثنايا ـ لم يذكر هذه الثنيّة (ثنية المتنة)، أو (ثنية عريض) . ويا لفوات الفرصة !! .

وقوله له، في غيرة على حرمة النقد الموضوعي المنصف :

«**ولو** أنصفت النقد يا أيها الناقد الفاضل، لانكمشت صفحاتك السبع عشرة في صفحتين، ولأرحت نفسك من عناء هذه السفرة المتعرِّجة النكدة، على أن العبرة بالكيف لا بالكمِّ، وبما ينفع الناس لا بالجفاء» .

وما أشبهك يا سعد في نقدك هذا بسميك القديم «سعد»

«**ذلك** الذي أورد إبله ـ وهو ملتفٌّ بشملته ـ والإبل يحتاج سقيها إلى مشمِّرٍ

عن ساعديـه، ذي مِرَّة ودربة وحصافة، ولكن «سعـدًا» لم يكن كذلك، فقيل له:

أوردها «سعد»، و «سعـد» مشتمل مـا هكـذا تورد يـاسعد الإبل

وليتك حينما فعلت يا سعد، لم تترك لقائل مقالاً من حيث الدقة والاستيعاب».

ثم دعونا الآن من نقد الأستاذ سعد بن عبد الله جنيدل، ورد الأستاذ صاحب «المجاز» عليه، وتعالـوا بنا إلى كتاب «المجاز» متسائلين في موضـوعية وهدوء عمّا له وما عليه، سائلين الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يوفقنا إلى إصابة الحقيقة أو مقاربتها:

إن الـذي جعـل الحقيقـة علقـمًا

لم يُخْلِ مـن أهـل الحقيقـة جيـلا

لا شكَّ في أن هذا الكتـاب، يغني في مـوضوعـه عن عشرات الكتـب، ولا تغني عشرات الكتب عنه، وبقي أن نذكر من الأمثلة والشواهد ما يرجّح صحة ما ذهبنا إليه، وبها يجلى عن أبرز معالم الشخصية لمؤلف هذا الكتاب:

١ ـ استقلال شخصيته ورأيه

ومن شواهد ذلك:

أ ـ قوله: والعجيب أن ابـن بليهد ذكـر «المروت» في أكثر من مـوضع بكتـابه «صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب مـن الآثار»، ورأى أنه بعد نفود السر لا قبله.. والنـاس الآن يكادون يجمعون على مخالفتـه في رأيه هذا، فما هـو يا ترى مصدر رأيه هذا؟.

ب ـ وموازنته بين رأي ابن بليهد ورأي حمد الجاسر معتمدًا في هـذه الموازنة على القراءة والتجربة والاستقراء التام .

ج ـ مناقشته الموضوعية الهادئة لابن بليهد «رحمه الله» في شرح البيت الآتي لامرئ القيس :

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا
بوادي الخُزَامَى أو عَلَى رأس أوعال

وكذلك البيت الآتي لعمرو بن الأهتم :

قفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ وأطلال
بذي الرّضم فالرمّانتين فأوعال

د ـ ترجيحه صحة الأدلة، التي ساقها بعض الباحثين المحققين، ذاهبين إلى أنَّ «مدينة الطائف التي وقع عليها حصار النبي «عليه الصلاة والسلام» والتي سوّرتها ثقيف، وذبوا عنها، ما هي بالمدينة القائمة الآن، وما هذا بمكانها، بل هي ما بين (المثناة) غربًا، و(السلامة) شمالاً، و(شهار) جنوبًا، و(حَوَايا) شرقًا. وفي التعقيب على ذلك التحديد الجديد، قال المحقق الفاضل : «ولهم على ذلك أدلة أرجِّح صحتها» .

٢ ـ دقته في بحثه وتحقيقه

ومن شواهدها :

أ ـ تفرقته بين «جبل كميت» ـ وهو علامة بلدة (مراة) مصداقاً للمثل الشعبي القائل :

«اِضْمَنْ لي كميتْ، أَضْمَنْ لكْ مَراةْ» ـ وبين «جبل كميت شقراء» أيّ هضبة الشقراء . .

وتفرقته كذلك بين «ماسل الهَضْبْ» ، و«ماسل الجمح» ، وتفرقته أيضًا بين «جُرَاد» (وهو جبل أحمر منفرد كأنه مخروط هرمي) ، و«جراد» الأخرى ، وهي رملة مما يلي «حَائِل والمَرّوتْ» ، ومغايرته بين «الحوأب» العراقي الذي ورد في الحديث النبوي في قصة السيدة عائشة أم المؤمنين ، وبين الحوأب الواقع في عالية نجد الجنوبية ، وذلك ما وهم فيه ابن بليهد «رحمه الله» كما حقق ذلك مؤلف «المجاز» .

ب ـ وترجيحه أن «وادي جهام» هو ما عرف قديمًا باسم «مهزول» ، وأن وادي مُحَسِّر لم يعرف بهذا الاسم ؛ لأن فِيْلَ أَبْرَهَـة الحبشي قد حَسَرَ به ـ كما زعموا ـ لأن فِيلَ أَبْرَهَـةَ لم يدخل الحرم مطلقًا ، ومعلوم أن هذا الوادي داخل في حدود الحرم الشريف .

ج ـ ورده على من قالوا : إن جبل «كبكب» هو الجبل المطل على «عرفات» من الناحية الشرقية ، بحيث يكون خلف مستقبل القبلة مباشرة . . . وهذا ليس بصحيح ؛ فالذي يلي عرفات من الجبال مباشرة هما جبلا (السعد) ، و(أبو خشبة) ، وإذا كنت في نَمِرَة ، رأيت شماريخ «كبكب» تُطلُّ عليك من خلف هذين الجبلين ، يخالف لونها وتكوينها .

د ـ وشدّة حرصه على تحديد الأماكن التي دارت فيها بعض المعارك الحربية الإسلامية في عهد الخليفتين الراشدين : أبي بكر الصِّديق ، وعمر بن الخطاب «رضي الله عنهما» .

هـ ـ وصله ما استطاع بين الاسم القديم، والاسم الحديث لبعض الأماكن، مع التعليل الذي يقره العقل السليم، كما صنع في حديثه عن «وادي الثعل» الذي كان من أشهر مناهل العرب، وأصبح يعرف اليوم باسم «شعيب النْسيّات» التي هي نوع من سيارات الحمل الكبيرة، التي سبق أن خربت في هذا الوادي سنة ١٣٤٨هـ، فعرف بها.

و ـ موافقة ابن بليهد في قوله: إن بئر «وعلة» التابعة لهضبة الأَطْولَةُ ليست بوشل» كما ذكر الهمداني في «صفة جزيرة العرب»، وإنما هي بئر رشاؤها عشرة أبواع تقريباً.

٣ ـ ومن شواهد إنصافه واعترافه بالفضل لصاحب الفضل:

أ ـ اعترافه لعلامة الجزيرة العربية الأستاذ حمد الجاسر بأسبقيته إلى تصحيح ما نقله ياقوت الحموي عن نصر، وأبي بكر محمد بن موسى، خاصاً بموضع «بُسْيَان»، وفي هذا التصحيح قال ابن خميس ما نصه:

«وهذا تحديد دقيق، وتصحيح لما وقع هنالك من تصحيف».

ب ـ واعترافه بفضل تمهيد الطريق، واختصاره بين مكة، والطائف في ٨٩ كيلومتراً للمغفور له السيد / محمد بن لادن، الذي ماذكر هذا العمل يوماً إلا ويذكر اسمه بجانبه، فلله ما أعطى من نفسه، وفكره، ووقته في سبيل إنجاز هذا العمل.

٤ ـ ومن شواهد رهافة إحساسه الشعريِّ والفنّيِّ والتاريخيِّ:

أ ـ تحريه المواطن الأصلية لأعلام تاريخنا العربي والإسلامي في أثناء مروره بالمجاز

بين اليمامة والحجاز:

فاليمامة مثلاً هي الموطن الأصلي للأعشى ، وجرير، والفرزدق قديمًا ، ثم لمحمد ابن عبد الوهاب حديثًا ، وبلدة «مراة» الأثرية هي الموطن الأول لامريء القيس التميمي ، والهدف الأول لما قاله ذو الرّمة الشاعر الأُموي في الهجاء ، والمحور لكثير من التراث والأدب الشعبي السعودي بشعره، وأمثاله وهجاته .

ب ـ تنديده بعنجهية قائد الحملة العثمانية / إبراهيم «باشا» بن محمد علي «باشا» ، وتمجيده لبطولة أهل نجد في دفاعهم عن بلدهم ، وهذا يذكرنا بما قاله الشهيد / **سيد قطب** «طيب الله ثراه» ، قبل ذلك بزمن طويل :

«إن تحطيم محمد علي باشا للحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، لم يكن عملاً عظيماً ، وإنما هو في حقيقته كان جناية تاريخية على النهضة الإسلامية التي كان يمكن أن تبكر مئة عام عن موعدها ، لو تركت هذه الحركة تمضي في طريقها ، وتبلغ أهدافها في ذلك الحين» .

ج ـ فيضان ذاكرته الحافظة ، وموهبته الأدبية ، بروائع الشعر والنثر والأدب الشعبي السعودي ، في كثير من الأماكن التي مر بها ، فأوحت إليه ما أوحت ، ولا سيما :

هضبة جبلة ، وجبل شِعْر ، وبلدة عفيف ، وجبلا الأخرجين ، وهضاب العسيبيات ، وجبال الستأر ، ووادي الشبرم ، والشُبْرُميَّةْ ، وهضبة أجَلَى بأعلى نجد ، ووادي الجريب ، أخصب أودية نجد ، حيث تقع في أعلاه هضبات الذنائب مثوى «عزيز العرب كليب وائل» ، ودار خرقاء التي عناها ذو الرُّمّة ببيته المشهور:

تمام الحج أن تقـــف المطـــايـــا

على خـــرقـــاء واضعـــة اللّثـــام

وجبال «**الأَطْوِلَة**» التي قـال شعراء العرب القدامـى فيها ما قـالوا، ولا سيما النابغـة والحطيئة، والشماخ، وجبل المردمة، والماء الـذي حوله، وكان مـن مياه ربيعة، وجبـال سَجَا» ومـا قيل فيها مـن أدب فصيح، وأدب شعبـي، ومنهلا «**سحْيْلَة**»، و «**الدُّعَيْكَة**».

٥ ـ ومن شواهد سلامة ذوقه الأدبي، وفقهه اللغوي:

أ ـ وصله الأدب بالبيئة والطبيعة، وصلاً يرتاح إليه الذوق الأدبي السليم.

ب ـ وصله الأسماء الحديثة بأصولها العريقة قائلاً مثلاً:

إن الجبل المعروف اليوم بـاسم «سناف»، عرف قديمًـا بـاسم «النّشّاش»، وكانت فيه مقتلـة بين بني عامر، وبين أهل اليمامة، مصداقـًا لقول الشاعر القديم **القُحَيْفُ العُقَيْلِي**:

تـــركنـا على النّشـّـاش بكــر بـــن وائل

وقـــد نهلـــت منـــه السيـــوف وعْلَّـــتِ

وقول الشاعر القديم الآخر:

وفي النشّـــاشِ مقتلـــةٌ ستبقـــى

على النشّـــاشِ مـــا بقـــي الليـــالي

والجبل المعروف اليـوم باسم «أبو جـَرَاد» عرف في الأدب العربي القديـم باسم «جراد»، والجبـل المعـروف اليوم بـاسـم «ذْهَلانِ» هـو مـا عرف قـديماً بـاسـم «ثهْلان»، وإليه ينسـب جبل الرَّيّان الذي تغنـى به جرير بـن عطية وغيره، وما

يعرف اليوم باسم «وادي جَهَام» عرفه القدامى باسم «مهزول». وما عرفوه قديماً باسم «العثاعث» يعرف اليوم باسم «الخُنْفُسيَّات»، كما رجح الأستاذ المؤلف الذي لم يفته أن يحدد الجبال والأماكن التي لها صلتها العريقة الوثقى بتراثنا العربي القديم، من طراز أسواق عكاظ، ومجنة وذي المجاز، وجبل شطب، وجبال رضوى...

ج ـ جمعه كثيرًا، أو غالبًا بين الشعر العربي الفصيح، وبين الأدب الشعبي السعودي في أثناء مروره ببعض أماكن «المجاز» من طراز جبل «ظلم» الذي ذكر لنا ما قاله فيه زهير بن أبي سلمى، والنابغة الجعدي قديمًا، ثم ذكر لنا ما قالته فيه الشاعرة الشعبية السعودية «مويضى بنت ابن زعيفر»، والشاعر الشعبي السعودي «محسن الهزاني».

د ـ حسن اختياره لروائع الشعر العربي التي أوحتها بعض الأماكن العربية، والإسلامية المشهودة، ولا سيما جبل كَبْكَب، وسوق ذي المجاز، ووادي نعمان، وجبل عرفات، وما يمت إليه في شريعة الإسلام، وفريضة الحج، بصلة قرابة أو نسب.

هـ ـ حرصه على التماس الأصل الأصيل، والتعليل الفقهي الجميل؛ لتسمية بعض الأعلام، أو الأشخاص، أو الأماكن، ومن ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما يأتي:

تعليل اسم «قصي بن كلاب» جدّ الرسول ﷺ، وتعليل اسم الآخر «مجمِّع» وتعليل اسم «حلف المطيّبين».

وتعليل اسم الأحلاف، ولعقة الدم، وتعليل اسم «مكة المكرمة، والحجاز».

وتعليل اسم «اليمامة».

وتعليل اسم «**المهلهل**» أخي كليب الذي كان يسمّى «**عديّ بن ربيعة**».

وتعليل اسم «**الطائف**» المعروف قديمًا باسم «**وجّ**». وتعليل اسم «**عرفات**».. واسم المزدلفة.. واسم منى.. وما إلى ذلك من تعليلات فقهية لغوية، لم يألها المؤلف الأديب الفقيه جهدًا، حريصًا دائما على أن يكون في تعليله علميًا، وموضوعيًا، ومن هنا سلمت تعليلاته غالبًا من شوائب تكلُّف المحصر، أو جُهْد المُقِلِّ، أو اعتصار الغصّان... ومما نحمده له هنا، أنه في أثناء حديثه عن «**نخب**» بالطائف قال ما نصه:

«**ويسمى وادي نخب «وادى النَّمل»، ويذهب بعض الباحثين إلى أنه وادى النَّمل، الذي ذكره الله في كتابه في قصة سليمان، وليس هنا من الأدلة ما يدعم هذا القول**».

وفي أثناء حديثه عن مكة المكرمة، قال أيضًا ما نصه:

«وفي تعليل تسميتها بمكة أقوال كثيرة، لم يرجح قول منها، ولا تخلو من تمحُّل وتكلُّف، وكذلك تسميتها ببكة، وما لم يكن نصٌّ يصار إليه، أو تعليل مقبول ظاهر، فأولى بنا التوقف، وإسناد الأمر إلى عالمه - وهو الله - هذا على أساس تعليل الأسماء وإرجاعها إلى مشتقاتها عند من يقول به، أما إذا كان الأمر خلاف ذلك فلا مشاحَّة.....»

٦ - ومن شواهد وطنيته وتحرره في سلفيته، *الحريصة على الاتباع، النافرة من الابتداع:*

أ - تشوقه إلى اليمامة موطنه الأول، بقصائد كثيرة، حسبنا منها قصيدته التي قالها حينما كان تلميذًا يواصل دراسته بالطائف، ومطلعها:

مــن لصــبٍّ ضــاعف النــأى هيــامــه

مــُدنــفٍ حـــنَّ إلى حِجْـــر اليمامـــة

وقصيدته الأخرى في مناجاة جبلها الأشم طويق ومطلعها :

يـــا جاثمًـــا بـــالكبريـــاء تسرْبـــلا

هـــلاّ ابتغيـــت مـــدى الـــزمـــان تحوُّلا؟

وقد هزت هذه القصيـدة شاعرية الشـاعر أحمد بن إبـراهيم الغـزاوي، فعارضها بقصيدة يكفينا منها قوله في هذا الجبل الأشم :

جبــل على فـــوديــة طـــاهنــت السّهـــى

مـــن جـــانبيهـــا فـــازدهـــى وتغـــزَّلا

ب ـ حـرصه على الإشـادة ببسالـة أبناء نجـد في مواجهـة الحملة العثمانيـة ضد الدعوة السلفية المشهورة.

ج ـ حـرصه على تحديـد كثير من الجبال، والأمـاكن التـي شهدت أيـام الفارس الأول للمملكة العربية السعودية، الإمام، السلطان، الملك عبـد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود «طيب الله ثراه»، ولا سيما جبل ابن دخن.

د ـ تشبعـه وتأثره بـالقرآن الكريم في غير مـوضع من كتـابه هذا، وبخـاصة في معرض الإشادة بجبال الجزيرة العربية.

هـ ـ انتهازه فرصة الحديث مثلاً عن «سوق عكاظ» للمطالبة بتجديد ما كان لها من مجد غابر، وتراث مجيد قائلاً ما نصه :

هذه السوق جـديرة بأن تحيا في مهد العرب، ومهـوى أفئدتهم، ومنطلق فخرهم ومجدهم، وركيـزة تاريخهم، جديرة أن نحييها على نحـو يتواءم وما نضطلع به من مسئولية، وما نحن سائرون فغيه من منطلق تجاه أمتنا ووطننا وتاريخنا».

و ـ حديثه عن الطائف، وآثاره وقوله:

«وهنالك مسجد عدّاس، وهناك مسجد الكوع الذي يقال: إنه ﷺ اتكأ هنالك بعد إعياء، فأثر في الحجر الذي اتكأ عليه، وهنالك مسجد المحجوب الذي يقال: إنه أدقُّ مسجدٍ قبلته على الكعبة، ويحاك حوله شيء من الأقوال... وكلُّ هذه الآثار لا يعتمد تحديدها على يقين لا مرية فيه، ولا تنهض الروايات والقصص التي قيلت عنها إلى مستوى التحقيق والدقة، وإنما هي أقوال يعتريها ما يعتري كثيرًا من الآثار الإسلامية من أحاديث الخرافة، ودجل المحترفين».

وفي معرض حديثه عن جبل الرحمة يقول:

«وعلى رأس جبل الرحمة مسجد ومنبر بناه الوزير الأصفهانيّ، وسهّل الطريق إليه ليصلي هنالك، ويخطب الخطيب من على قمّته، وما فعل ذلك رسول الله ولا خلفاؤه من بعده، ولذلك أبطلت عادة الخطابة من ذلك المكان، وترك ما لم يفعله المشرِّع، فما أحسن الاتباع، وترك الابتداع».

ز ـ توهجه الروحي الصوفي بما ذكره من روائع الشاعر الصوفي المشهور عمر بن الفارض، ولا سيما داليته وهمزيته المشهورتان، ثم بما ذكره من أشعار روحية فياضة في مكة والحجاز وغيرهما، وفي بعض المعالم الإسلامية الخالدة، ولا سيما جبل حراء، أو جبل النور.

٧ ـ ومن شواهد تفتحه العقلي، ووعيه الحضاري والثقافي

أ ـ ترحيبه الحار بالنهضة العمرانية الحديثة التي نعمت بها مكة، وما تزال تنعم بها في العهد السعودي المجيد، بعد أن كانت قديمًا، وفي عهدها الأول، الذي زارها فيه الخليل إبراهيم، والذبيح إسماعيل، لم تكن إلّا «وادياً من

سلم ليس بها عمران ولا سكن»، ثم اتسع عمرانها قليلاً، غير أن هذا العمران قبل النهضة السعودية الحضارية العمرانية بها، لم يكن «يتجاوز المعلاة إلاّ من بعض بساتين ومتنزهات في أعلى الوادي وعلى حفافيه، أما الآن فقد غمر العمران المحصّب، وامتد إلى قرابة منى، وقامت هنالك الدارات الجميلة، والقصور الفخمة، والشوارع المنسقة، فالحمد لله على ما أنعم وحقق من دعوة إبراهيم، وبركة محمد، ما نعلم وما لا نعلم، ونسأله المزيد والإعانة على الشكر».

ب ـ ضيقه الشديد بالجمود والخمول، بعد الحركة والنشاط في العمل والانتاج، ولنقرأ إليه مثلاً في معرض الحديث عن قرية «ظلم» وجبلها الذي عرف بهذا الاسم أيضًا، وكيف كانت هذه القرية عامرة «بمعدنها الذهبي الشهير الذي كان معطاءً، وكانت به حركة دائبة، وعمل وإنتاج، ولكنه شحَّ أخيراً، أو ضعفت همة الشركة العاملة، دون أن تبلغ به نهاية البحث والاستنتاج».

ج ـ موضوعيته في الحديث عن الطائف قائلاً:

«لا نزعم للطائف منافسته، أو مضاهاته لمصائف العالم من حيث الخضرة، والنضرة، وتوفر وسائل الراحة، ولا نرشحه للروّاد والقصّاد من خارج بلادنا قبل أن نهيئه لذلك، وقبل أن نأمن منافسة «غامد»، و «زهران»، و«عسير»، و«سراة قحطان»، ولكن الطائف يدل بأقدميته، ويمتاز بتوسطه، ويشتهر بآثاره».

والآن وقد انتهيت من العرض الموجز لهذا الكتاب، أود له في طبعته الخامسة ـ بإذن الله تعالى ـ ما يأتي:

أولاً : إعادة رسم خرائطه ومصوراته الجغرافية، بطريقة من الطرق العلمية

الحديثة التي أذكر منها :

أ ـ طريقة «ميكانور» ، وهذه طريقة سار عليها راسمو الخرائط الجغرافية منذ عام ١٥٦٩ حتى عام ١٧٧٢م .

ب ـ ثم طريقة «لامبرت» وهذه طريقة ساروا عليها منذ عام ١٧٧٢ حتى عام ١٨٩٢م

ج ـ ثم طريقة «هامر» وهذه طريقة ساروا عليها منذ عام ١٨٩٢ حتى عام ١٩١٠م .

د ـ وأخيرًا ساروا على طريقة «برمان» منذ عام ١٩١٠م ، حتى الآن . . .

وفي استطاعة القائمين على إعادة طبعه ، أن يستعينوا على رسم مصوراته الجغرافية بأيّ أستاذ متخصص في الخرائط الجغرافية في جامعة الملك سعود بالرياض ، أو جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، أو جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، أو المساحة العسكرية للقوات المسلحة السعودية مثلاً ، بهذه الطريقة العلمية الحديثة ، بدلاً من الطريقة السابقة التي رسمت ، ولن يشفع للأستاذ المؤلف قول راسم هذه الخرائط ما نصه :

«قمت بها أستطيع من رسم بعض المخططات الجغرافية ، ولهذا فأخي ابن خميس المؤلف بريء من عهدتة ما يقع فيها من أخطاء» .

ولماذا نعتذر عن الوقوع في الأخطاء ، مادمنا نستطيع تلافيها بالاستعانة بالمتخصصين ، وأهل الذكر ، تأدبًا بقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ،

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ، ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ ؟!!

ثانيًا : أود في الطبعة القادمة لهذا الكتاب ، أن يُصَفَّ من جديد بحروف

وأبناط مختلفة، مع المراعاة التامة الكاملة، لعلامات الترقيم، في كل صفحة من صفحاته، مع الاستقصاء التام لهذه العلامات، التي تقوم للمؤلف مقام الحركات اليدوية، أو النبرات الصوتية، أو قسمات الوجه للمتكلم، ولست أنكر أن بعض هذه العلامات قد رُوعيت في بعض الصفحات إلى حد ما، ولكني أريد الاستقراء التام لهذه العلامات.

ثالثًا : أود أيضًا مزيدًا من المراعاة التامة الكاملة لكافة القواعد اللغوية، والنحوية، والصرفية، متمنيًا أن تخلو الطبعة القادمة من جميع الأخطاء التي أضيف إليها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
ما كتب	ماكتب	٥, ٦	١٦، ١
رغم	برغم	٦، ٢١،	١, ٢٢،
		٢٢،	٣،
		٣٤٣, ٣٤٨	٢٣, ١٠،
		٣٦١	١٨.
ملاعب صبى	ملاعب صبا	١٢	
القبائل النابهة الذكر	القبائل نابهة الذكر	١٤	
ما بال بردك لم تمسس	ما بال بردك لم تمسس حواشيه؟	٥٣	٢٠
محمد بن اديس بن ابي حفصة	محمد بن إدريس بن أبي حفصة	٥٤	١٧
المدن الرئيسيَّة	المدنِ الرئيسة	٥٩	٢١
سدَّاه لغيرك قادره	أسداه لغيرك قادره	٦١	٢٠
سواء من أهل المنطقة	سواءٌ أكان من أهل المنطقة	٦٤	٤
ـ العمار والمربع ـ	«العمار»، و «المُربَّع»	٧٠	٢
بن	ابن	١١٤	٥

الروضة الكثيرة الماء	الروضة كثيرة الماء	١١٩	١٢
وامرأها	وأمرأها	١٣١	٤
ذا	إذا	١٤٤	٥
وكان يوم مشهود	وكان يومًا مشهودًا	٢٠٦	٩
اين هو الحد. . . . .؟	أين الحدّ. . . .؟	٢١٦	١
ما هي اقوال. . . .؟	ما أقوال . . . . . .؟	٢١٦	٢
ما هي الحدود. . . .؟	ما الحدود . . . .؟	٢١٦	٣, ٢
ما هي الاصطلاحات. . .؟	مالاصطلاحات. . . .؟	٢١٦	٣
كفف عبرات	أكفكف عبرات	٢٧١	٤
حينا حينما	حينما	٢٧٤	٢٤
واولى بابن حجّاج	وكان الأولى بابن حجّاج	٢٩٨	٢٥
المشرفان عليه	المشرفين عليه	٣٠٢	١٥
ان لايناكحوهم	ألا يناكحوهم	٣١٠	١١
شاؤوا	شاءوا	٣١٣	٢٠
فقاتلوا جرهما	فقاتلوا جرهم	٣١٦	٨
وحيث ان مكة	ومن حيث إنّ مكة	٣٢٧	١٧
وهي أن لا اتجاوز	وهي ألا أتجاوز	٣٣٤	١٧
ولو اعفى نقده	ولو أعفى نقده	٣٣٦	١٠
ما اوجزه	ما أوجزه	٣٣٦	١٢
فذلك اليه	فذلك إليه	٣٣٦	١٢
أما ان يقحمه	أما أن يقحمه	٣٣٦	١٢
ان لا يقع فيها	ألا يقع فيها	٣٣٨	١٦
يذمب	يذهب	٣٣٩	١٠
لم أقلـا	لم أقلها	٣٤٤	٩
وللاجابة على هذا	وللإجابة عن هذا	٣٤٤	١٤
لم يبعد النعجة	لم يُبعد النجعة	٣٥٠	٢٣
وقد نبه على ذلك اكثر من واحد،	وقد نبّه على ذلك غير واحد،	٣٥١	٦

يا أيها الناقد	يأيها الناقد	٣٥٥	٧
ليعذرني الاستاذ الجنيدل عن متابعة نقده،	ليعذرني الأستاذ الجنيدل عن عدم متابعة نقده،	٣٦٦	٧

وفي ختام العرض عن كتاب «المجاز بين نجد والحجاز» أذكّر المؤلف الجليل، بما يأتي:

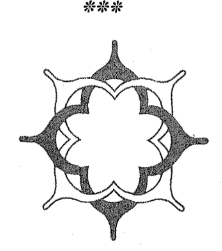
OO أهمية التعريف ببعض الأدباء المغمورين في الطبعة القادمة، ولا سيما: يحيى بن طالب، وزياد بن منقذ، والأعشى اليمامي، وسباق الباهلي، والحفصي، وموسى بن جابر، وامرؤ القيس التميمي، وعويف القوافي.

OO أن يؤلف لقرائه كتاب مستقلاً عن «وادي حنيفة».

وكما قال الشاعر الدكتور حسن جاد:

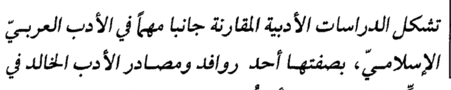
نجــــد ومــــا أدراك مــــا نجــــد
الشعــــر، والتــــاريــــخ، والمجــــد؟!!

***



المقامات وأثرها في الأدب الإسباني

للأستاذ عباس هاني الچراخ



تشكل الدراسات الأدبية المقارنة جانبا مهماً في الأدب العربـيّ الإسلامـيّ، بصفتهـا أحد روافد ومصـادر الأدب الخالد في تصدِّيها للكشـف عن أثر تُراثنـا الإسلامي في تـراث غيره من الأمم والبلدان الأخرى، سواء أكان التأثير مباشراً، أم غير مباشر.

ولقد أخذ كتاب «ألف ليلة وليلة» حصـة كبيرة ومكاناً لا يُستهان به في هذا الميدان الأدبي المهم، بسبب التأثير الواضـح الذي أحدثه هذا الكتاب في الأدب العالمي.

وهناك فنّ آخر من فنون الأدب العربي، كان له أثر في الآداب العالمية، كالإسبانيّة والفارسيّة والفرنسيّة والألمانية . . وهو فن «المقامات» .

ومن خلال تتبعنا لما كُتب عن المقامات وأثرها في الآداب العالمية، ألفينا أنّ أثره كان كبيراً في الأدب الإسبانيّ بصورة خاصة، وهذا ما حدا بنا إلى التركيز في بيان أثر المقامات في الأدب الإسباني . على أنّ نعود ـ في بحث آخر ـ إن شاء الله ـ لدراسة أثرها في الآداب الأخرى .

من العجيب أنّ المستشرقين هم أوّل من نبّه إلى التأثير الكبير الذي أحدثته المقامات في الأدب الإسباني، وبيّنوا أنّه لم يُبْحث بحثاً دقيقاً فيه، فهذا المستشرق الإسباني آنخل جنثالث بالنثيا Angel Gonzales Palencia يذكر صلة المقامات بالأدب الإسباني ثم يقول: «وهو موضوعٌ جديرٌ بالدراسة»[1] . أما المستشرق «جب Gibb» فيؤكد التأثير نفسه في الأدب الأوروبي، ويضيف : «إنّ الموضوع نفسه ما زال بالغ الطراوة، ولم يتَصَدَّ له أحدٌ للكشف عن معْمياته»[2] .

أما الباحثون العرب فمنهم من ينقل آراء المستشرقين دون دراسة أو تمحيص، ومنهم من يتردد في قبول أثر المقامات في الأدب الإسباني!، ومنهم من يرفض ذلك رفضاً قاطعاً! على ما سنبين ذلك في الصفحات القادمة من هذا البحث .

ولن نتطرق إلى المعنى اللّغوي للمقامة أو أصولها وقواعدها، فإنّ ذلك مما أُشبع بحثا ودراسة وتكراراً! .

معابر انتقال المقامات إلى إسبانيا :

من أجل أن تكون الصورة واضحة، وأكثر تفصيلاً، نذكر المعابر أو الوسائط التي أسهمت في نقل التُّراث العربيّ والإسلاميّ، ومنها المقامات، إلى إسبانيا، وهي :

أولاً: الأندلس:

فتح المسلمون الأندلس عام ٩٢هـ ـ ٧١١م، واستتبّ الحكم الإسلامي فيها، حتّى سقوط غرناطة Granada ـ آخر معاقل المسلمين عام ٨٩٨هـ ـ ١٤٩٢م[٣]. وخلال هذه القرون الثمانية، التي حكم فيها المسلمون الأندلس، كانت الثقافة الإسلامية قد بلغت ذروتها وإشعاعها في تلك الجزيرة، فقد كانت الآداب والفنون مزدهرة بشكل عظيم، وكانت جامعة قرطبة من أعظم جامعات العالم وقتذاك، والتي كانت تعجّ بالأدباء والعلماء والمفكرين من شتّى أصقاع العالم، في وقت كانت فيه أوروبا ترزح في الجهل والظلام والتخلّف!.

ثانيًا: مدرسة المترجمين في طليطلة:

احتل الفُونسو السادس–Alfonso VI طليطلة Teledo عام ٤٧٨هـ ـ ١٠٨٥م، فأصبحت تحت رحمة المحتلين الإسبان، وعلى الرغم من ذلك فقد أُنشئت فيها (مدرسة المترجين الطليطليين Esueia de Traductores de Toledo)[٤] بإشراف المطران «رايموندو Raimundo ـ (ت ١١٥٠م)، وقد أدّت دوراً عظيماً في ترجمة تراث الإسلام إلى اللّغات اللاّتينية، وكان الرحالة من «اكسفورد» و «باريس» و«سلامنكا» عندما يصلون إلى طُلَيْطلة، يحتاجون إلى معونة الباحثين المسلمين هناك، ليدلوهم على المخطوطات العربية في مختلف فروع العلوم والآداب والمعارف.

ثالثًا: الرحلات بين الأندلس والمشرق:

رحل بعض الأفراد، ومعظمهم من العلماء والمتنورين، إلى الأندلس، ممّن كانوا يتشوقون لمعرفة نهضة الأندلس وتقدّمها، فأخذت الأندلس تستقبل هؤلاء

الوافدين بما يحملـونه من ضروب العلم والحضارة والفن. ولعـل أهمّ من وفد إلى الأندلس هو الأديـب «أبا علي القالي» (ت ٣٥٦هـ)[٥]، الذي وصل إليها عام ٣٣٠هـ.

كذلك كـانت هنـالك رحـلات معاكسـة من الأنـدلس إلى المشرق، والتـي ساعدت في نقل تراث المشرق إلى الأندلس، وتراث الأندلس إلى المشرق العربي.

ولقد ساعدت هذه المعابر الثلاثة في نقل «المقامات» من المشرق الإسلامي إلى الأندلس، وقد احتذى أهل الأندلس حذو إخوانهم المشرقيين في إنشاء المقامات وتأليفها.

اهتمام الأندلسيين بالمقامات:

ما إن ظهرت مقامات بديع الـزمان الهمذانيّ (ت ٣٩٨هـ ـ ١٠٠٧م) [٦] ثم مقامات القـاسم بن علي بن عثمان الحريـريّ (ت ٥١٦هـ ـ ١١٣٢م) [٧] حتى أكبّ الأدبـاء في مختلف أنحـاء العالم الإسـلامي في تقليـدها والسير في ركـابها، فظهرت مقامـات في عدة أمصار عربيـة حتى وصلت المغرب، فقلّـدها كثيرون منهم ـ على سبيـل المثال لا الحصر ـ محمّد بـن شرف القيرواني (ت ٤٦٠ هـ)، ووصلتنا منه مقامتان.

ولما كان المغرب العربي قـريباً من الأندلس، فمن السهـل عبور المقامات إلى الجزيرة الأندلسية، ليتأثر أدباؤها ـ بدورهم ـ بها، وينهلوا منها. وهكذا ظهرت مقامات الأندلسيين القريبة الشبه بمقامات المشارقة. وكان ابن شهيد الأندلسي قد اشتهر بتأليفه لرسالة (التوابع والزوابع) [٨]، وهي متأثرة بالمقامة «الإبليسية» عند الهمـذاني، ورسالته في الحلواء، المتـأثرة ببعض مقـامات الهمذاني كالمقـامة (المضيرية) [٩] أو (البغدادية) [١٠].

وإذا كنا قد تطرّقنا إلى العلاقات الأندلسية ـ المشرقية، وكونها متينة وقوية ـ من الناحية الأدبية ! ـ فذلك يعني أن أهل الأندلس كانوا بحاجة إلى إخوانهم المشارقة، لينهلوا من علمهم الغزير، وليحسّوا بأنهم ليسوا غرباء عنهم في تلك الجزيرة النائية، وكانوا «يعدّون هؤلاء قدوة لهم وأسوة في هذا الميدان، حتى كان الراحل منهم إلى المشرق إذا التقى بعالم أو أكثر، وقرأ عليه شيئا، أو أخذ من علمه، أو نقل عنه بعض ما لدى المشرق من علمٍ ومعرفةٍ، عاد إلى وطنه وهو فخور بذلك»(١١).

وعلى هذا فقد وجد الأندلسيّون أمامهم ـ من جملة ما وجدوا ـ تلك المقامات المشرقية، والواضح أنهم عُنُوا بمقامات الحريري وفضّلوها على مقامات الهمذاني، وذلك في رأينا يعود إلى سببين: الأول: أنّ الحريري هو الذي طوّر المقامات نحو الأحسن والأجود، وبلغ بها درجة من القوّة، والمتانة والسّبك. والثاني: أنّ الحريري كان حيّاً وقت بدء الرحلات الأندلسية ـ المشرقية، فيروي ابن الأبار (ت ٦٥٨هـ) أنّ كثيرا من الأندلسيّين سمعوا من الحريري مقاماته الخمسين ببستانه في بغداد، ثم عادوا إلى بلادهم حيث حدّثوا بها، كالشيخ أبي الحجاج يوسف بن علي القضاعيّ الأنديّ، الذي قرأ عليه في شوّال عام ٥٠٤هـ، وحدّث بها في الأندلس، كذلك رواه عنه ابن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ) قراءة عليه بلفظه، بدكانه بحاضرة المريّة، في ذي الحجة سنة ٥٣٤هـ(١٢).

وللأهمية الكبيرة التي حظيت بها مقامات الحريري، فقد قلّدها عدد من الأدباء الأندلسيين منهم أبو طاهر محمّد بن يوسف السّرَقُسطي، المعروف بابن الإشتركونيّ (ت ٥٣٨هـ)، الذي ألّف خمسين مقامة في قرطبة(١٣)، وحذا فيها

حذو الحريري، من حيث الشكل والمضمون والعدد. وتتميّز بوجود شخصية ثالثة فيها، لها من الأهمية، أو الدور الرئيسي ما يتمتع به كلّ من الراوي والبطل، وهي بلا شك تطوير جديد لمقامات الحريري، وقد حدّث فيها (المنذر بن حمام) عن (السائب بن تمام)، ويلتقي فيها بالبطل السدوسيّ! وقد روى هذه المقامات عن المؤلف، الأديب ابن خير الإشبيلي (١٤).

وشرحها أبو بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدريّ (ت ٥٦٧هـ) (١٥)، وعلي بن أحمد ابن علي بن لبال الشريشيّ (ت ٥٨٣هـ) (١٦)، وأبو جعفر أحمد بن داود بن يوسف الجذاميّ (ت ٥٩٨هـ) (١٧)، وأبو طالب عقيل بن عطية القضاعي (ت٦٠٨هـ)(١٨)، ومحمّد بن أحمد الاستجيّ الحميري (ت٦٣٩هـ)(١٩).

ولعل أشهر شُرّاح مقامات الحريري في الأندلس، على الإطلاق، هو أحمد ابن عبد المؤمن بن موسى القيسيّ الشريشيّ (ت ٦١٨هـ)(٢٠)، وذكر «ابن الأبار» أنه لقي «الشريشي» في بلنسية Valencia، وقرأ عليه جزءاً من شرحه على المقامات، وأجاز له الشيريشي رواية بقيّتها، وقد وصف المستشرق (بالنثيا) الشريشي بأنّه « أكبر شُراح مقامات الحريري في العالم الإسلامي . . . ومما يدلّنا على أهمية شرح الشريشي أن الناشرين المحدثين يجعلونه على هوامش طبعاتهم، وقد ذكر «سلفستر دي ساسي» أنه استعمل في شرحه لمقامات الحريري كثيراً من الشعر الذي أورده الشريشي في شروحه» (٢١).

وهناك شروح أُخرى لمقامات الحريري، موجودة في القوائم التي وضعها أصحاب الفهارس والببليوغرافيا (٢٢)، وكلّها تؤكد اهتمام الأندلسيين بالمقامات وتأثرهم بها أيّما تأثر!

تقليد اليهود الإسبان للمقامات:

كان المستشرق ليفي بروفنسال Levi Provencal (ت ١٩٥٦م)، قد أكّد أنّ مقامات الحريري قد «نالت شهرة فائقة في إسبانيا»[٢٣]، وهذا يتأتى من تقليد المسلمين الأندلسيين لها ـ على ما أكدناه ـ إضافة إلى تقليد اليهود الإسبان لها، وأكد هذا القول المستشرق (جب) في قوله: «وُجد للمقامات مقلّدون من اليهود الإسبان»[٢٤].

ومن المعروف أنّ اليهود كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع المسلمين، وكثير منهم كانوا يجيدون اللغة العربية قراءة وكتابة، وهؤلاء اليهود ـ كانوا قد دُهِشوا وأُعجبوا بالمقامات العربية، وطريقة صياغتها الفنية العالية، لذلك فقد نسجوا على منوالها وقلّدوها. ولقد بحثنا في هؤلاء اليهود الإسبانيين المتأثرين بالمقامات، فكان أشهرهم وأوّل من قلّد المقامات العربية هو «سليمان بن زقبيل Slaman Ben Sacbel» القرطبيّ اليهوديّ، الذي ألف مقامة فكهة على طراز مقامات الحريري، وذلك في الثلث الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وسمّاها «تحكموني Tahkemouni»، وجعل بطلها شخصا اسمه «آسر»، وأسلوب المقامة يساير أُسلوب المقامات ويماثله تقريباً، من حيث اعتماده على السجع والاهتمام بالغريب والمزاوجة بين النّثر والمقطّعات الشعرية ذات الطابع الخُلقي الوعظي[٢٥].

وفي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي وأوائل القرن الثالث عشر الميلادي، ظهر أديب رباني يهوديّ هو «يهوذا بن شلومو الحريزي Yahuda Ben Shlomo Al-harizi» الذي كان قد بدأ ترجمته مقامات الحريري إلى العبرية، لكنه لم يلبث

أن انصرف عن هذا العمل قبل إتمامه، مؤثرا أن يـؤلف كتاباً أصيلاً في معارضة المقـامات، فَصَنـَعَ خمسين مقـامة ذات طـابع مسرحـي خـاص سمّاها «سفـر تحكموني»، أي كتاب الحكمة، أو الرجل الحكيـم، ونسج فيها على منوال ابن زقبيل، وأثنى فيها على نصوصٍ من التوراة(٢٦)، وهو في ذلك، قد استجاب لرغبات أصـدقائه في طليطلة، للإطلاع على هذا النمـط القصصي الطريف، وقد كان بطلا مقاماته من أسماء الرجال في الكتاب المقدّس(٢٧). فالبطل «آيبر» Heber أشبه بشخصية أبي زيد السروجي ـ بطل مقـامات الحريري ـ أمّا بطل مقامات ابن زقبيل، فهو محتال، تقع له أحداث وعجائب، ، ويتّخذ الحريريّ من تلـك الأحداث محاورات أدبيـة يضمّنها آراءه النقـدية حـول من سبقـه من شعراء اللّغة العبرية(٢٨)، وفيها كذلك موضوعات في الرحلات ووصف المدن والأمثال والألغاز والخرافات.

وجاء بعده «يوسف بن مائر بن سابرا» الذي ألّف ببرشلونة Barshaluna، قبل عام ٥٩١هـ ١١٩٤م كتـاب «التعاليم المفرحة»، وهو عبـارة عن مقامات تكشف عن مقدرة صاحبها، وقوة محصوله الأدبيّ والعلمي(٢٩).

ثم ظهر «إبـراهيم بن صمويـل حاليفي بـــن حـمـداي البرشلـــونـــي» ـ (ت ٦٣٨هـ)، وله مقامات مقسّمة إلى فصـول تتخلّلها أقاصيص، وقطع من الشعر الديني والـوعظي، وهذا المؤلف من أكثر كتّاب هـذه الطائفة جهوداً في ترجمة الفكر العربي إلى العبرية.

وهناك «يعقـوب بن العـازار الطليطلي، وله مجمـوعـة من المقـامات كتبهـا بالعبرية(٣٠).

والملاحظ أنّ هذا اللون من الأدب العبري المتأثر بالمقامات العربية، قد انتشر في إسبانيا، لا سيّما في مقاطعة «قطلونية Catalonia»، وقد أدّت محاربة المرابطين لليهود أن نزحت عوائل يهودية من الأندلس، واستقرّت في فرنسا، مثل عائلة (قمحي) و(تبون)، وقد ساعد هؤلاء في عملية نقل الثقافة العبرية إلى أوروبا(٣١)، وهي الثقافة المتأثرة قطعاً بالعربية!!.

قصص الشُطّار Picaresce :

في أواسط القرن السادس عشر الميلادي ظهر في إسبانيا نوع من الرواية، أُطلق عليه اسم «الرواية التشرديّة Schelmenromon» أو «رواية الشُطّار ـ الصعاليك ـ Picaresce»، بعد أن استفحلت التناقضات الاجتماعية بشكل خاص في المجتمع الإسباني، وهذه الروايات أو القصص كانت قد تأثّرت بالمقامات إلى حدٍّ بعيد.

ولتقريب الأمر، نذكر أنّ أول مرة استعملت فيها كلمة «بيكارو picaro»، كانت في نصّ كتاب عام ١٥٢٥م، وكانت تعني ـ آنذاك ـ «مساعد طباخ mormition»، ولكنها ظلت محتفظة بهذا المعنى حتى عام ١٥٤٥م، حين أصبح مفهومها يعني «الاستهتار»(٣٢)، ويرى بعض الباحثين العرب أنّ أصْل الكلمة جاء من الكلمة العربية (الفقير) التي تُقابل Picaro، و «فقيرٌ» ـ بالتنوين ـ التي تقابل picaroon.(٣٣)

وهذان الرأيان يتفقان مع المعنى المعجمي في المعاجم والقواميس، فهي فيها بمعنى «المحتال، المتشرد، الأفّاق».(٣٤)

والمعنى المتعارف عليه للكلمة لا يخرج عن معناها اللّغوي، وعلى هذا فقصص الشُطار: هي لون من ألوان الأدب الإسباني، تتناول مغامرات الصعاليك والشّطار وأحوالهم وسفرهم، وبطل هذه القصص «يكذب بلا تردّد، يسرق ويخدع، ويستغل غباء الناس بشكل حاذق، ويدبّر مقالب شرّيرة مختلفة للسادة من طبقة الأشراف ورجال الدين البخلاء، ويعرف من أين تؤكل الكتف»(٣٥). وهي في ذلك تصوير للأحوال الاجتماعية في البيئة الإسبانية آنذاك!

آراء الباحثين:

يؤكد الباحثون والدارسون الأجانب تأثر هذه القصص الإسبانية بالمقامات، فهذا «هاملتون جب» يتكلم عن التأثيرات الشرقية والإسلامية على الآداب الغربية الأوروبية. ويقول: إنه يعتقد أنّ رواية البيكارسك الإسبانية تُبْدي بعض التشابه مع المقامات العربية في صيغتها وسياقها، ويضيف: إنّ المقامات العربية ربما تكون قد تركت أثراً لها في القرون الوسطى.

وبحث في هذا الموضوع المستشرق الإسباني بسكوال دي جاينجوس Pascual de Gayangos (ت ١٨٩٧م) عند ترجمته للمقامات عام ١٨٩٦م.(٣٦)

ويقول الباحث الإسباني «بالنثيا»: «ما يزال علينا أن ندرس بشيء من التفصيل الأثر الذي ربما تكون قد تركته مقامات الحريري الشهيرة في رواية البيكارسك». وأكد «إنّه مما يستلفت النظر ويدعو إلى الدهشة ذلك الشبه العظيم بين هذا الأثر الأدبي ـ المقامات ـ وذلك الطراز المعروف في أدبنا الإسباني

باسم قَصَص الصعاليك[٣٧]»! ، وأضاف : إنّ هذا الشبه قد أصبح أكثر جلاء ووضوحاً في دراسة لبطل مقامات الحريري ، قام بها شابٌ جزائري ، لا تترك أثراً في ذهـن القـارىء غير أنّ «أبا زيـد السروجـيّ» هـو بطـل من أبطـال روايـات البيكارسك الإسبانية[٣٨].

وقد أشار شيخ المستشرقين الإسباني «مننذث بيلايو Menedez y penlay» إلى الشبه بين بطل المقامات ـ أو مـا يسميه بالحاذق «أبي زيد السروجيّ» وأبطال رواية البيكارسك ؛ فحياة السروجي كانت «سابقة طليعية لشخصية «كوثمار دي الفرجه Guz man de Al Farache» و«ايستيبـا نيلليو كـونثالـث Estiba Nellogonzonzalez » ، وهما بطـلان لقصتين مـن قصـص الصعـاليـك الإسبانية ، كُتبتا سنة ١٥٩٩م و ١٦٤٦م»[٣٩].

ويتّفق رأي الباحـث الإسباني « أمريكو كاسترو» مع رأي مـن سبقه في ذلك التأثير الجليّ للمقـامات ، ويـرى «أنّ القَصَص بمفهـومه الحديـث ، إنّها يُديـن بفضـل وجوده لــ «الحديث» العـربي ، الـذي كان يعنـي حكـاية كـل ما هـو طريف ، وقد كان الأوروبيون فيما بين القرن الثامن والثاني عشر يقبلون في تشوّق وشغف على تلك «الأحاديث» التي يقصّها العرب في مجالسهم وأسمارهـم»[٤٠]. ويقصد الباحث بـ «الحديث» : المقامة[٤١] ، فهو أحد معانيها اللّغوية .

ونرى الباحث «أودلفو بونيليا Adolfo Bonilla يعود بتعبير «بيكارسك» إلى أصل عربي[٤٢] . وهناك شهـادة الأستاذ «خـوان فرنـت» ـ البـاحث في جـامعة لشبونـة ـ في كتابه «الأدب العـربي» ـ الذي وصف أبـا زيد السروجي ، بأنـه من أبطال البيكارسك[٤٣].

وعند حديث المستشرق «أنـدريه ميكال Andre Miquel » عن المقـامات، قارن بين أبطالها وأبطال البيكارسك[٤٤]، وإن كان ذلك بعجالة ظاهرة. وهذا يؤكد أنّ قضية تأثر القصص الإسبانية بالمقامات أمر بيّن وطبيعيّ!

ونكتفي بقول المؤرخ «فيليب حتّي» في «أنّ المقامات قريبة جداً من الروايات القصصية الإسبانية، وبعض القصص في الأدب الإسباني»[٤٥].

وإذا إنتقلنا إلى الباحثين العـرب، نجد أنّ أشهر من أشـار إلى هذه القضيّة، هـو د. «محمد عنيمـي هـلال» في كتابـه (الأدب المقـارن)، فبعد أن نقـل رأي «بالنثيـا» نراه يقول: «أثّرت المقـامات العربية في الأدب الأوروبي تـأثيراً واسعاً، متنوّع الـدلالة، فقـد غذّت هـذه المقامـات قصص الشُطّـار picar الإسبانية بنواحيهـا الفنية، وعناصرهـا ذات الطابع الـواقعي، ثـم انتقل هذا التـأثير من الأدب الإسبـاني إلى سواه مـن الآداب الأوروبيـة، فسـاعد على مـوت قصـص الرعاة، وعلى تقـريب القصة من واقـع الحياة، ثم على ميلاد قصـص العادات والتقاليد في معناهـا الحديث، وهي التي تطورت فكانت هـي قصص القضايا الاجتماعية فيما بعد»[٤٦]. وبحث د. هلال في كتابه (النقد الأدبي الحديث)[٤٧] عن هذا الأمر أيضا!.

ولعـل أهـمّ مـن درس القضيـة دراســة استقصـاء وبحـث هـي د. سهير القلماويّ،[٤٨] ومن العجيب أنّ الباحثين لم يلتفتوا إلى بحثها هذا، على كثرة ما تتبعنا من كتب ومقالات!

وبحث في أثر المقامات عددٌ من البـاحثين بعجالةٍ واضحةٍ وبآراء عامةٍ دون دراسة شـاملة، منهم د. «شوقـي ضيف»[٤٩] و د. أحمد كـمــال زكي»[٥٠]،

ود. «خليل إبراهيم السامرائي»[٥١]، و «د. جميل سلطان»[٥٢]، و «د. حكمة علي الأوسي»[٥٣]، و«د. داود سلوم»[٥٤]، و«د. محمد أحمد العزب»[٥٥].
وكانت بحوث د. «غسان المالح»[٥٦]، والأستاذ «كاظم سعد الدين» ود. «محمود علي مكي»[٥٧]. جيدة وتردد، الدكتور «إحسان عباس»[٥٨] في القضية، أما د. «جرير أبو حيدر[٥٩]» فجعل التأثير ثانوياً، على الرغم من استشهاده بآراء المستشرقين الإسبان أنفسهم في الأمر!

وللدكتور محمود طرشونة كتاب بعنوان (الهامشيون في المقامات العربية وقصص الشُطّار الإسبانية)[٦١]، وهو غني بفكرة التأثر والتأثير، وإن كنا لم نطّلع عليه، للأسف الشديد.

وهناك رأي غريب للدكتور «يوسف نور عوض» [٦٢]يرفض فيه أيّ تأثير للمقامات في الأدب الإسباني. ونردّ على قول د. عوض بنقطتين:

الأولى: اعتراف المستشرقين الإسبان بتأثر أدبهم الإسباني بالمقامات. وهذا الاعتراف له قيمته الكبرى في بيان دور المقامات في بناء أسس الأدب الإسباني، وأنه جاء بعد دراسة وبحوث عديدة ومركّزة.

الثانية: شروح الحريري للمقامات، وتقليد الأندلسيين لها ما يعزز تواجدها في الأندلس، وتقليد اليهود الإسبان لها، ما يدعم أثرها الكبير في الأدب الإسباني، وبطبيعة الحال وتطور الزمن يحدث بعض التغيير في الأسلوب والصياغة حتى تكتمل ـ بصورة نهائية إلى الرواية الإسبانية. ـ ولأجل أن نكون أكثر إقناعاً سنقوم بجولة في طرح بعض مضامين روايات البيكارسك الإسبانية، وعنواناتها، كي نعقد ـ أخيراً ـ مقارنة ومقابلة لها مع المقامات العربية، ولنبيّن ـ بعد ـ أوجه التشابه والتأثير بينهما!

لا ساريللو دي تورمس:

إنّ أقدم وأشهر روايـةإسبانية تعنى بحياة الشُطّار والمتشرديـن، هي رواية لا ساريللودي تورمس وحظوظه ومحنه La vida de lazarillo de Tormes، وهي قصة مجهـولة المؤلـف، وهي تنبـع من واقـع الطبقات الـدنيا الفقيرة وحيـاتها، وتصفهـا كما يُمليهـا منطـق الغـرائز الصريـح، وتصـف واقعـاً غير مثـالي. وخلاصتها أنّ أحد الفقراء ـ وكان ابناً لطحان، وقد سجن لانتقاصه من دقيق عملائه، حتى مات في السجن ـ وكانت أمـه خليلة عربي إسباني يعمل سائساً عنـد أحد الأغنيـاء، وما لبـث أن اتّهمه سيّده بالسرقـة، فحوكـم بسببها هـو وخليلته. وهو بهذا كان رجلاً عديم الحياء، لأنه جوعان «ولا يمكن أن يكون الجوع والحياة صديقين أبدا»، وتستمر القصة في سرد حظ هذا التعيس، فنجده يضطر إلى كسـب قوتـه بنفسه، فكـان أولاً في صحبه شحـاذ أعمى، صحبـه بعض الوقت، ثم تركه تحت وابل من المطر، بعد أن جعله يصطدم بجدار، ثم صار يخدم قسّيسا فقيراً، ثم نبيلاً من صغار النبلاء. وكان يهجو طبقة كل من يخدمه، ويحبّ الصراحة والوضـوح، ويندّد بالرياء والأثرة فيمـن يعاشرهم.. وبعد عدة مخاطرات يُفضّل أن يستقلّ بحرفته، فيعمل سقّاءً، ثم دلالاً، وأخيراً يقرّر أنّ الـرجل والمرأة هما العملة المتـداولة بين النـاس، وإنّ الطريقة الـوحيدة للنجاح في الحيـاة، هي معاملة النـاس بهذه العملة السائدة والمتداولـة بينهم، وبدلاً من أن نراه يتـوب عند نهاية القصة، نراه ينغمس في الـدّجل، ويجد امرأةً لا يبـالي إذا ما كـانت خـالصة لـه: أم خليلـة قسيس، ويقســم على القُربـان المقدّس أنا سيدة جليلـة ومحترمة، وكل ذلك مقابل المنافع الماديـة التي يغدقها عليه رجل الديـن المذكور، لكي يضفي على علاقته المشبوهـة مع خليلته صبغة من الوقار الاجتماعي.

وأول طبعة معروفة لهذه الرواية تعود إلى عام ١٥٥٤م، ويتفق النقاد على أنها لم تكن الطبعة الأولى، إذ أنها أُلّفت بين عامي ١٥٢٤م ــ ١٥٥٣م، ومنذ ظهورها لقيت رواجاً كبيراً في بريطانيا وخارجها، واستدعى إعادة طبعها عدة مرّات، إلى أن أمرت محكمة التفتيش في "Valdes" بوضعها في الفهرس، أي بمنعها عام ١٥٥٩م. إلاّ أنّ هذا لم يحدّ من انتشارها، ولم يمنع ظهور طبعات مهذبة لها، أو ترجمتها إلى الفرنسية والهولندية والألمانية والإيطالية. . . وغيرها. وهذه الرواية ـ كما ذكرنا ــ في مجملها تصوير للواقع الاجتماعي الفاسد، ونقد لاذع لبعض أفراده وتصرفاتهم!.

كَوثمان دي الفرجه:

إنّ رواية «كَوثمان دي الفرجه Guzman de Al-farache » كان قد كتبها الكاتب الإسباني «ماتيو آلمان Mateo Alman »، المولود في إشبيلية عام ١٥٤٧م. وتتحدث عن شخص فقير مجتهد، وعارف للّغة اللاتينية، والبلاغة الإغريقية، وقد ترك والديه وانزلق في حياة فاسقة لاهية، ثم انتقل من النشل والاحتيال إلى ألعاب السرقة الكبرى، ثم إلى إيطاليا، ثم إلى مدريد، وبعد مغامرات خبيثة يرسل إلى السجن، ويتأمل مصيره فيقول: انظر يا كَوثمان قمة جبل البؤس الذي دفعتك إليها شهوانيتك الفاحشة، ها أنت في الأعلى لتقفز إلى أعماق جهنّم، أو لترفع ساعدك بسهولة، وتبلغ السماء»(٦٤).

والمؤلف في روايته هذه يطغى في نزاهة مسؤولي العدالة، وفساد بعض القضاة، وتعسّف بعضهم الآخر، ويشخّص عيوب المجتمع التي يعرفها في شخص بطل القصة.

ونشر آلمان الجزء الأول من هذه القصة عـام ١٥٩٦م، والثاني عام ١٦٠٢م.
ونالت أهمية كبيرة من حيث طبعاتها الكثيرة، أو تأثر الكتاب الإسبان بها.

قصص أُخرى

وهنـاك قَصَـص وروايـات عمادها التشرد والصعلكـة، منهـا كتـاب « الحب الطيب» لمؤلفه خوان رويث المعروف بـ «آرثيبر ستي دي هيتا Arscipe ste de Hita» التي ظهرت في القـرن الرابع عشر الميلادي، ومسرحيـة «القوادة» في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي(٦٥). وظهرت رواية «ابنة سلستينا La celestine» عام ١٦١٢م، وأُعيـد طبعها بعـد عامين، بعنـوان «هيلانـة الماكرة». ثـم رواية (النصاب) التي كتبها «فرنسيسكو دو كيفيدو» عام ١٦١٦م.

بعد ذلك ظهرت رواية «ضون كيخوطي Don Quixote»(٦٦) مؤلفه سرفانتس Cervantes، وأشار فيليـب حتي إلى تـأثرهـا بالمقـامات(٦٧). وهناك حكـاية (الجندي الأحمق)، التي أكد الباحث الإسباني فرناندو دي لاجرانجا Fernando de lajeranja » أنّ المصنفين جمعوها بأمر من «خوان دي أرجنيجو»، وهي من أيكة «سـانتا كـروث» وتبدو مرة أُخـرى في أيكة «فـرانسسكو أسنينـو» في القرن الثـامـن عشر الميـلادي، وهـي موجـودة لـدى الشريشي، في شرحـه لمقـامـات الحريـري، وبصورة مـوجزة لـدى أبي بكـر محمد بـن عـاصم الـوزير القـاضي الغـرنـاطي (ت٨٢٠هــ)، في كتـابـه (حـديقـة الأزاهر والأمثـال والحكـايـات والنوادر)(٦٨). وهـذا يعني أنّ «ابـن عاصـم» قد نقـل بعض قصـص المقامـات وأودعها كتـابه، فأسهم في نقـل هذه القصص إلى الأدب الإسباني، بعـد إطلاع الاسبان عليه!

أوجه الشبه بين المقامات والبيكارسك:

بعد ما قدمناه من احكام وما عرضناه من قضايا وآراء، يمكننا من عقد مقارنة ومقابلة في بيان أوجه التشابه والتقابل بين المقامات العربية وقصص البيكارسك الإسبانية، عبر هذه النقاط:

١ ـ تعتمد معظم المقامات على غرض الكدية، والتي يتّسم بها البطل، فكثيراً ما كانت ظاهرة التسوّل والتشرد هي السمة المميّزة له. وكل ذلك نتيجة للظروف الاجتماعية التي جابهت الأمة العربية الإسلامية في القرن الثالث وما بعدها، من كثرة الانقسامات والانفصالات عن كيانها، وظهور القرامطة والسلاجقة ثم الصليبيين على مسرح الأحداث، فأدى ذلك إلى ضعف السلطة المركزية وتفشّي الجهل والأميّة، وانعدام الأمن!، ولهذا نجد «أبا زيد السروجي» ـ بطل مقامات الحريري، و«أبا الفتح الإسكندري» بطل مقامات الهمذاني يجوبان الآفاق بحثاً عن لقمة يسدّان بها جوعهما، وجرعة ماء يرتويان بها.

إنّ تلوّن الأبطال عند مؤلفي المقامات في سلوكهم المتذبذب يعبّر عن الواقع الذي يعيشون فيه، فكان هؤلاء المؤلفون يعبرون عن سخطهم لما آل إليه الوضع على لسان أبطالهم في سلوكهم المنحرف ذاك ويعبّر ـ في الوقت نفسه عن رغبتهم «في إثارة مشاعر المقت عند الناس إزاء ذلك السلوك، وفي إثارة هممهم للترفّع عن الانزلاق في منحدره»(٦٩)!

والشيء نفسه بالنسبة لقصص البيكارسك، فقد صورت لنا هذه القصص البؤس والشقاء الذي حلّ بأوروبا، نتيجة للحرب الدينية في القرن السادس عشر الميلادي، وحروب «لويس الرابع عشر» في القرن التالي، والوضع المزري في إسبانيا بعد طرد المسلمين منها!

فالمضمون بالنسبة لهذين العملين الكبيرين واحد!

٢ ـ إنّ بطل المقامات لا يستقرّ بمكان حتى يغادره إلى آخر، طلباً للكسب والارتزاق والكدْية، وهذه فلسفة أبي الفتح الاسكندري عندما يقول(٧٠):

إسكندريّة داري لو قرّ بها قراري
لكن بالشام ليلي وبالعراق نهاري

أو يقول(٧١):

ويحك هذا الزّمانُ زُوْر فلا يغرنّك الغرور
لا تلْتزم حالةً ولكنْ دُرْ باللّيالي كما تَدُور

وعبّر عن ذلك «أبو زيد السروجي» في قوله(٧٢):

أنا ما بين جوب أرض فأرض وسرى في مفازة فمفازة
زادي الصّيد والمطية نعلي وجهازي الجراب والعكّازة
فإذا ما هبطت مصراً فبيتي غُرفة الخان والنديم جزازة

وأبطال البيكارسك على هذا النمط من التجوال والانتقال في ترحالهم من حانة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، كما وجدنا ذلك واضحاً عند «لاساريللو» في تنوّع أسفاره، والشيء نفسه ينطبق على «كَوثمان» و «ضون كيخوطي» . . وسواهم!

٣ ـ يعتمد أبطال المقامات على الخداع لتسويغ ما يريدونه من مال أو ثياب أو سواهما، فعن طريق الخداع، يأخذون ما يرغبون فيه من البسطاء والسُذّج.

والخداع في ذلك مشترك في قصص البيكـارسك الإسبانية، فـأبطالها يفعلون كما يفعل أبطال المقامات، على طريقة (الغاية تُسوِّغ الوسيلة)!

٤ ـ من المعـروف أنّ المقامـات تقوم على عنـاصر الراوي والبطـل والحدث. والراوي يقوم بتوجيه البطل إلى الخير والطريق الصحيح، وكبح جماح نزواته. إلاّ أنّنا في (المقامـة الحرامية) لا نجد للراوي أثـراً عند الحريري، بل يقـوم السروجي بوصف الأحداث بنفسه. وهذه المقامة، وبعض المقامات الأخرى التي لا نجد فيها أثـرا للراوي، يمكن عـدّها سيرة ذاتية للبطـل. وبهذا نرى أنّ هذه المقـامة قريبة جدا من قصص البيكارسك الإسبانية، ونرى أنّ المؤلفين الإسبان استغنوا عن الراوي واكتفوا بالبطل لعدم إثقال القصة على المستمع والقارىء الإسباني.

أما الحدث فهو موجود في كلا العملين الأدبيين، فإذا كانت البيكارسك هي قصة بالمعنى الفني الدقيق لهذا اللّون من الأدب، فـإننا نرى أنّ المقامة هي بداية طبيعية للقصة، وبذلك فنحن نختلف مع د. «سيد حامد النّساج» الذي رأى أنّ المقامة ليست قصة و«أنّ القصة القصيرة ليست امتداداً للمقامة لا في الشكل ولا في المضمون ولا في الهدف ولا في المغزى العام»[٧٣]!!!

نقـول: إن رأي د. النسـاج يتعـارض مـع الخصـائص الفنيـة للمقـامـة، ودعائمهـا الأساسية التي قـامت عليها، فالشروط الفنيـة للقصة موجودة ـ بلا شك ـ في المقامة، فكيف يتسنى له رفضها.

فالمقامـة هي بداية طبيعية بسيطـة لتكوّن القصة، وهي التـي أثّرت في القصة الإسبـانية، وطـورتها نحـو الأحسن، بحيـث جعلـت منها قصـة فنيـة حديثـة متعارفاً عليها اليوم.

٥ ـ إنّ طبيعـة العمل الأدبي مـن شكل ومضمـون، وسير الحوادث الطبيعية للمقامة، يكـاد يقترب كثيراً منها عند رواية «البيكـارسك»، ثم إنّ الجوّ النفسيّ التي يحيط بالبطل في تنقلاته وطبيعـة أسفاره من بلد إلى آخر، وشخصية المؤلف الذي تختفي تحت ستار تحركات البطل وأقوالـه وأفكاره، كل هذا نجده موجوداً في المقامات والبيكارسك.

الإشعاع:

كان للتأثير الـذي أحدثته المقامات في الأدب الإسبـاني أن انتشر ذلك اللّون الروائي من قصص البيكارسك إلى أوروبا وبلـدانها العديدة، فقد أوحت رواية (ديانا) للكاتب الفرنسي« مونتمايـر»، إلى الأديب الفرنسي «أونوريه دورفيهHono d' Ude'(ت٦، ١٦م)، بتأليـف رواية (استريـه Astree) عام ١٦١٠م، وتـرجمت إلى الإنجليزي فيها بعـد، وقـد ترجمت (لاسـاريللـو دي تورمـس) إلى الإنجليـزية عـام ١٥٨٦م، في الوقـت الـذي كان فيـه «جماعـة الجـــامعـــة اللاّمعين ـ The University Wits » الخمسة في أوج نشـاطهم الأدبي(٧٤)، كما ترجمت (ضون كيخوطي) لسرفانتس إلى إنجلترا عام ١٦١٢م، وتأثر بها عدد من الأدباء الأوروبيين. إنّ ترجمة الروايات الإسبانية إلى اللّغات الأوروبية ساعد على ظهور عدد من الروايات العالمية الصـادرة عن تلك البلدان، مما لا يتّسع المجال لذكره هنا.

وهكذا كـان للمقامـات دور في تطور ونماء الروايـة الإسبانيـة، ثم الـروايات العالمية المعتمدة عليهـا. كما إنّ المقامات قد ترجمت إلى اللغات العـالمية الأخرى وبُحث فيها، وظهـرت عنها دراسات بأقـلام أعلام الباحثين والمستشرقين . . . وسنبحث ذلك إن شاء الله في بحث قادم يتناول أثر المقامات في الآداب العالمية!

وبعد، . .

فلعلنا وفّقنا في بحث أثر المقامات في القصص الإسبانية «البيكارسك» ودورها في تكوين الإرهاصة الأولى لنشوء الرواية الإسبانية فيما بعد، ثم كانت الأساس لتطور ونموّ الرواية الأوروبية الحديثة، وإن كان الأثر غير مباشر في الروايات الأخيرة، لأنهاأخذت عن الروايات الإسبانية واقتبست منها .

وعلى هذا فإنّ الرواية الحديثة مدينة للحضارة العربية الإسلامية بهذا الفن العالمي، الذي ما كان لينمو ويظهر لولا أثر المقامات الواضح فيه!

هذا ما أردنا الخوض فيه، وننتظر آراء الباحثين والمؤرخين في الموضوع .

والله الموفق لما فيه الخير .

الحواشي

(١) تأريخ الفكر الأندلسي ١٨٠ .

(٢) تراث الإسلام ٢/ ٣٧٤ .

(٣) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ٢٠ ـ ٢٥ ، ملامح الشعر الأندلسي .

(٤) انظر عن مدرسة المترجمين الطُليطليين : تأريخ الفكر الأندلسي ٥٣٦ ـ ٥٤٠ ، دورالعرب في تكوين الفكر الأوروبي ٦ ـ ١٢ ، الاستشراق «ع٣» : ١٢٠ . علاقات المرابطين بالأندلس ٩٥ ـ ٩٩ .

(٥) انظر ترجمة أبي علي القالي في : بغية الوعاة ١/ ٤٥٣ ، تأريخ الأدب العربي ٢/ ٢٧٧ . ملامح الشعر الأندلسي ٢٨ ـ ٣٠ .

(٦) انظر ترجمة الهمذاني في : تأريخ الأدب العربي ٢/ ١١٢ ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٣٨ ، المقامة ١٣ ، فن المقامة ١٠٨ ـ ١١١ ، بديع الزمان الهمذاني ١٦ . فن المقامات بين المشرق والمغرب ٣٥ . دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (الهمذاني) . النثر الفني في القرن الرابع ٢/ ٣٥٢ .

(٧) انظر ترجمة الحريري في : دائرة المعارف الاسلامية؛ مادة (الحريري) ، مع الحريري في مقاماته ٥٢ ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٩٢ ، فن المقامات بين المشرق والمغرب ١٥٦ ، المقامة ٤٥ .

(٨) ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه ٢٢٩ ، وانظر : الأدب القصصي عند العرب ٢٤٤ .

(٩) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٣٢٢ .

(١٠) النثر الفني في القرن الرابع ٢/ ٣١٥ . وانظر : ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه ٢٠٢ ـ ٢٠٤ .

(١١) النثر الأندلسي ٣٢١ .

(١٢) فهرسة مارواه عن شيوخه ٣٨٧ ، ٤٥١ ، وانظر : ابن بسام وكتابه الذخيرة ٢١٤ .

(١٣) انظر عن مقامات السرَّقُسْطيّ : كشف الظنون ١٧٨٥ ، فن المقامات بين المشرق والمغرب ٢٨٨ .

(١٤) فهرسة ما رواه عن شيوخه ٣٨٧ ، ٤٥٠ .

(١٥) انظر ترجمة العبيدي في: بغية الوعاة ١/ ١٤٧ .

(١٦) انظر: الدراسات اللّغوية في الأندلس ١٩٨ .

(١٧) انظر ترجمة الجذاميّ في: بغية الوعاة ١/ ٣٠٦ .

(١٨) انظر: الدراسات اللّغوية في الأندلس ١٩٨ .

(١٩) انظر: م.ن ١٩٩ .

(٢٠) انظر عن الشريشي: تأريخ الفكر الأندلسي ١٨٢ ، الدراسات اللّغوية في الأندلس ١٨٩ ، بغية الوعاة ١/ ٣٣١ .

(٢١) تأريخ الفكر الأندلسي ١٨٢ .

(٢٢) انظر: كشف الظنون ١٧٨٧ ـ ١٧٩١ . تأريخ الأدب الأندلسي ٣٠٥ ـ ٣٠٨ ، فهرسة ما رواه عن شيوخه ٢٩٥ ، ٤٥٠ ، ٣٨٧ ، ٤٥١ . المقامة ٨٠ ــ ٨٣ ، بديعيات الزمان ١٢٩ ـ ١٣٧ . فن القصة والمقامة ١٨٠ ، ٢٣ ، ٨ . ابن بسّام وكتابه الذخيرة ٢١٤ . تطور الأساليب النثرية ٣٦٦ ـ ٣٦٧ . دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (مقامة)

(٢٣) حضارة العرب في الأندلس ٥٧ .

(٢٤) تراث الإسلام ٢/ ٣٧٤ .

(٢٥) انظر: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ٨٩ ــ ٩٠ ، تأريخ الفكر الأندلسي ٢/ ٣٧٤ .

(٢٦) فن القصة والمقامة ١٥٩ ، وانظر: تأريخ الفكر الأندلسي ٥٠١ ، الأدب المقارن ٢١٠ . النثر الفني في القرن الرابع ١/ ٢٤٨ . دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (مقامة) .

(٢٧) الأثر العربي في الفكر اليهودي ١٢٧ .

(٢٨) أثر العرب والإسلام في الفكر اليهودي ٩٠ .

(٢٩) علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس ٣٨٢ .
(٣٠) أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ٩١ .
(٣١) الأثر العربي في الفكر اليهودي ١٧ .
(٣٢) مجلة الطليعة الأدبية (ع ٩ـ ١٩٨٣م) : ٩٢ .
(٣٣) مجلة التراث الشعبي (ع٩ ـ ١٩٨٠م) : ٢٥ .
(٣٤) قاموس المورد ٦٨٥ .
(٣٥) مجلة الثقافة الأجنبية (ع١ ـ ١٩٨٨م) : ٦١ .
(٣٦) المستشرقون ٢/ ٥٨٥ .
(٣٧) تأريخ الفكر الأندلسي ١٨٠ ، وانظر ٥٩٢ .
(٣٨) مجلة آفاق عربية (ع٩ ـ ١٩٨٠م) : ٥٨ .
(٣٩) فصول في الأدب الأندلسي ١٩٦ . وانظر مجلة آفاق عربية (ع ٩ ـ ١٩٨٠م) ٥٨ .
(٤٠) مجلة عالم الفكر (ع٣ ـ ١٩٧٢م) : ٤٣ .
(٤١) انظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٤٧ . فن المقامة بين الأصالة العربية والتطور القصصي ٩ ، ١١ . النثر الفني في القرن الرابع ٢/ ٣٥٥ ، بديعيات الزمان ٤٣ ، رأي في المقامات ١٨ ـ ٢٠ ، دراسات في النقد الأدبي ١٤٧ .
(٤٢) مجلة العربي (ع ١١٩ ـ ١٣٨٨هـ) : ٧٥ .
(٤٣) مجلة آفاق عربية (ع ٩ ـ ١٩٨٠م) : ٥٨
(٤٤) الأدب العربي ٨٢ .
(٤٥) تأريخ العرب ٣/ ٨٧ .
(٤٦) الأدب المقارن ٢٢٢ .
(٤٧) النقد الأدبي الحديث ٥٠٧ .
(٤٨) في بحثها (الأدب) ضمن كتاب (أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية) .
(٤٩) المقامة ١١ . وأشار إليها باستعجال شديد .
(٥٠) دراسات في النقد الأدبي ٣٦ . وقد أشار إليها عَرَضًا !
(٥١) علاقات المرابطين بالأندلس ٣٨٢ . وأشار إليها بعجلة شديدة ، لأنه اهتم بالتأريخ لا الأدب!

(٥٢) فن القصة والمقامة ١٥٩ .

(٥٣) فصول في الأدب الأندلسي ١٩٦ .

(٥٤) الأدب العربي في تراث العالم. وقد أشار إليها مسرعاً ثم نقل نص د. محمد غنيمي هلال!

(٥٥) عن اللغة والأدب والنقد ١٧٩ . وقد نقل رأي د. محمد غنيمي هلال ولم يُشر إليه، كأنّه له!!

(٥٦) مجلة العربي (ع ١١٩ ـ ١٣٨٨هـ) : ٧٤ ـ ٧٥ .

(٥٧) مجلة التراث الشعبي (ع ٩ ـ ١٩٨٠م) : ٤٤ ـ ٤٥ .

(٥٨) مجلة عالم الفكر (ع ٣ ـ ١٩٧٢م) : ٤٣ .

(٥٩) تأريخ الأدب الأندلسي ٣٢٦ .

(٦٠) مجلة آفاق عربية (ع ٩ ـ ١٩٨٠م) ٥٨ ـ ٦٠ .

(٦١) كتاب د. طرشونة، هو أطروحة دكتوراه دولة، صدرت بالفرنسية عام ١٩٨٢م، عن الجامعة التونسية

(٦٢) فن المقامات بين المشرق والمغرب ٣٣٢، والكتاب من دون مقدمة !! .

(٦٣) انظر عن هذه الرواية : الأدب المقارن ١٠٩ ، النقد الأدبي الحديث ٥٠٧ ، فصول في الأدب الأندلسي ١٩٦ ، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ٩٤ ، مجلة آفاق عربية (ع ٩ ـ ١٩٨٠م) ٦٠ ، وقد نشرها «بالنثيا» في سرقسطة عام ١٩٦٥م، وقدّم لها بمقدمة مهمة، ونشرت في بغداد عام ١٩٨٧م مختصرة !! .

(٦٤) انظر عن رواية (كَوثمان) في: مجلة الطليعة الأدبية (ع ٩ ـ ١٩٨٣م) ٩٢، أثر العرب والإسلام ٩٥ .

(٦٥) انظر : فصول في الأدب الأندلسيّ ١٩٦ .

(٦٦) يرى الأستاذ محمد العربي الخطابي أنّ هذا هو الرسم الصحيح للقصة بدلاً من (دون كيشوت)، وذكر أنّ اسمها الكامل بالإسبانية هو : El Ingenios Hidalgo Don Quijote de la Mancha وترجمتها : « السري اللبيب ضون كيخوطي دي لا منشا». انظر : مجلة الفيصل (ع ٦٥ ـ ١٤٠٢هـ) : ٦٢ .

(٦٧) تأريخ العرب ٣/ ٨٧ .
(٦٨) انظر في ذلك : مجلة الثقافة الأجنبية (ع ٤ ـ ١٩٨٦ م) : ١٣٤ .
(٦٩) مع الحريري في مقاماته ٥٦ .
(٧٠) مقامات الهمذاني ٧٧ .
(٧١) م. ن ٩ .
(٧٢) شرح مقامات الحريري : (الوبرية) .
(٧٣) مجلة الفيصل (ع ٦٤ ـ ١٤٠٢هـ) : ٥٩ .
(٧٤) مجلة التراث الشعبي (ع٩ ـ ١٩٨٠م) ٤٧ .

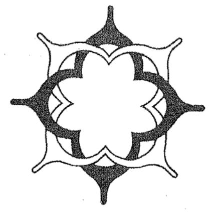
المصادر والمراجع

— ابن بسّام وكتابه الذخيرة : د. حسين يوسف حسين خريوش ، دار الفكر للنشر والتوزيع . عمّان ١٩٨٤م .
— ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه : د. حازم عبد الله خضر، دائرة الشئون الثقافية العامة ، مطبعة دار الحرية . بغداد ١٩٨٤م
— أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية . مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٠م .
— الأثر العربي في الفكر اليهودي : د. إبراهيم موسى هنداوي . القاهرة ١٩٦٣م .
— الأدب العربي : أندريه ميكال . تعريب : رفيق بن ناس ، صالح حيزم ، الطيب العشّاش . الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .
— الأدب العربي في تراث العالم : د. داود سلوم ، دار الشئون الثقافية العامة ، مطبعة دار الحرية . بغداد ١٩٨٧م .
— الأدب القصصي عند العرب : موسى سليمان ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ط ٣ . بيروت ١٩٦٠م .

— الأدب المقـارن: د. محمد غنيمـي هـلال، دار نهضة مصر للطبـاعـة والنشر. القاهـرة د. ت.
— الاستشراق: سلسلـة الثقـافـة النقـديـة المقارنـة. العـدد الثـالـث. بغـداد ١٩٨٩م - ١٤٠٩هـ.
— آفاق عربية (مجلة): العدد التاسع، السنة الخامسة، آيار، بغداد ١٩٨٠م.
— بديع الزمان الهمذاني: مارون عبور. دار المعـارف، سلسلة نوابغ الفكر العربي. القاهرة ١٩٥٤م.
— بديعيات الزمان: فكتور الكك، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
— بغية الوعاة: جلال الدين السيوطـي (ت ٩١١هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة: ١٩٦٤م.
— تـأريـخ الأدب الأنـدلسي ـ عصر الطـوائف والمرابطين: د. إحسـان عبـاس، دار الثقافة، مطبعة عيتاني الجديدة، ط١، بيروت ١٩٦٢م.
— تأريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦م). ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة: ١٩٧٤م.
— تـأريخ العـرب: فيليـب حتّـي. ترجمة محمـد مبروك نـافـع، مطبعة النجـاح. بغـداد ١٣٤٥هـ-١٩٤٦م.
— تأريخ الفكر الأندلسيّ: آنخل جنثالث بـالنثيا. نقله عن الإسبانية د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة، ط١. القاهرة ١٩٥٥م.
— تُراث الإسـلام: جمهرة مـن المستشرقين، تعريب وتعليـق جرجيـس فتح الله المحـامي. المطبعة العصرية، الموصل ١٩٥٤م.
— التّراث الشعبي (مجلـة)؛ العدد التـاسع، السنـة الحادية عشرة، دار الجاحـظ «الملغاة» بغداد ١٩٨٠م.
— الثقافة الأجنبية (مجلـة)؛ العدد الرابع، السنة السادسـة ١٩٨٦م. العدد الأول، السنة الثامنة، بغداد ١٩٨٨م.
— حضارة العـرب في الأندلس: ليفـي بروفنسال (ت ١٩٥٦م). تـرجمته ذوقان قـرقوط.

مكتبة الحياة، مطبعة النجوى. بيروت د. ت.
— دائرة المعارف الإسلامية.
— دراسات في الأدب العربي: د. أحمد كمال زكي. دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت ١٩٨٠م.
— الدراسات اللّغوية في الأندلس: رضا عبد الجليل الطيار، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠م.
— دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي: د. عبد الرحمن بدوي.
— رأي في المقامات: د. عبد الرحمن ياغي، المكتب التجاري، مطابع قدموس الجديدة، ط ٢، بيروت ١٩٦٩م.
— شرح مقامات الحريري: أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (ت ٦٢٠هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المدني. القاهرة ١٩٧٣م.
— الطّليعة الأدبية (مجلة): العدد التاسع، السنة التاسعة، أيلول ١٩٨٣م
— العربي (مجلة): الكويت، العدد ١١٩، رجب ١٣٨٨هـ ـ أكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٦٨م.
— عالم الفكر (مجلة): الكويت، العدد الثالث، المجلد الثالث ١٩٧٢م.
— علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية: د. خليل إبراهيم السامرائي. دار الشئون الثقافية العامة، مطبعة دار الحرية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.
— عن اللغة والأدب والنقد: د. محمد أحمد عزب، المركز العربي للثقافة والعلوم. بيروت د. ت.
— فصول في الأدب الأندلسي: د. حكمة علي الأوسي. مكتبة الخانجي، ط ٣. القاهرة ١٩٧٧م.
— فنّ القصة والمقامة: د. جميل سلطان. دار الأنوار، ط١. بيروت ١٩٦٧م.
— فنّ المقامات بين المشرق والمغرب: د. يوسف نور عوض. دار القلم، بيروت د. ت.
— فنّ المقامة بين الأصالة العربية والتطور القصصي: د. عباس مصطفى الصالحي، الموسوعة الصغيرة. بغداد ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

— الفنّ ومذاهبه في النثر العربي: د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٦. القاهرة ١٩٧١م.
— فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ). تحقيق فرنسشكة قدارة زيد بن، خليان رباوة طرغوه. ط ٢ بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
— الفيصل (مجلة): الرياض، العدد ٦٤، شوال ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م. العدد ٦٥، ذي القعدة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
— قاموس المورد: منير البعلبكي. دار العلم للملايين، ط ٢٠. بيروت ١٩٨٦م.
— كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ). استانبول ـ طهران ١٩٤١م.
— المستشرقون: نجيب العقيقي. ط ٣. بيروت ١٩٦٣م.
— مع الحريري في مقاماته: د. نوري جعفر، دار الشؤون الثقافية العامة، مطبعة دار الحرية. بغداد ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م
— مقامات الهمذاني: شرح الشيخ محمد عبده. بيروت ١٩٥٨م.
— النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: د. حازم عبد الله خضر، دار الجاحظ، مطبعة دار الحرية. بغداد ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م.
— النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، ط٢. القاهرة د. ت.
— النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال. دار الثقافة ـ دار العودة ـ بيروت ١٩٧٣م.



نظرة إلى المخطوطات

للأستاذ :عبد الله حمد الحقيل

تطالعنا بين لحظة وأخرى تساؤلات بالغة الأهمية عن مدى العناية بالمخطوطات وحمايتها والعناية بالتراث وصيانته من الاهمال والضياع والاندثار لما له من اسهام مباشر في إثراء ثقافتنا وتدعيم أسس ومد انطلاقتها والواقع أن هذا الموضوع يحتاج إلى وعي موضوعي عميق للمساهمة الفعالة ، وتضافر الجهود لتبادل المعلومات مع مراكز البحوث والمخطوطات للعمل على استرجاع تلك المخطوطات التي تحفل بها اليوم مكتبات في الشرق والغرب ، وذلك للاستفادة من هذه المخطوطات بروح ايجابية فعالة من شأنها أن تشجع الباحثين والدارسين وتدفعهم إلى استقطاب جهودهم في هذه المجالات الحيوية وبث روح النشاط للبحث المتواصل بكل ما يختص بالمخطوطات وحمايتها والعناية بها في أماكن تواجدها ومحاولة التعرف عليها وتجميعها والإستفادة منها بروح علمية جادة ودفع طلبة الدراسات العليا للبحث والتنقيب والتحقيق وإعداد الفهارس العلمية وشرائها وتصويرها من مختلف المتاحف والمكتبات في مختلف أرجاء العالم . .

إن تشجيع الباحثين والمحققين

للعناية والاهتمام بهذا التراث سيكون عاملاً حيوياً في الحفاظ عليه مع رصد الحوافز التشجيعية في هذا الخصوص والعمل على توفير المتطلبات التي يحتاجها هذا العمل العلمي الهام .

ولعل مما يبعث على الثقة والاطمئنان إن مراكز البحث والجامعات في بلادنا وفي أنحاء العالم العربي ماضية في اتخاذ الخطوات والرغبة الجادة في العمل العلمي وتذليل الصعاب في طريق إحياء التراث وجلب المخطوطات واجراء مسح شامل للمخطوطات في العالم ووضع الخطوط العريضة ورسم الأهداف الواضحة لذلك ، وإن الاهتمام بهذا الجانب رسالة علمية وثقافية فهو معلم من معالم الثقافة العربية الإسلامية ومقوماتها الحضارية والروافد الثقافية المضيئة ووصل الحاضر بالماضي نحو بناء مجد فكري وعلمي وثقافي .

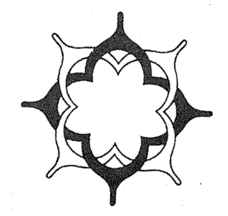
ولذا فإن المسئولية لا تحملها الجامعات ومراكز البحوث وحدها وإنما هي مسئولية تضطلع بها كافة المؤسسات العلمية والثقافية ودور النشر والأجهزة المعنية بالتراث وشئون المخطوطات في مختلف أرجاء العالم الإسلامي مع اتاحة كافة التسهيلات التي تمكنها من تأدية هذه الرسالة العلمية الهامة التي حملت إلى الإنسانية علما ومعرفة ومثالية وحضارة ويقيني أن معهد المخطوطات العربية وبما لديه من خبرة وتجارب لقادر على الإسهام الفعال والتقويم العلمي لاوضاع المخطوطات العربية وأماكن تواجدها بالتكاتف مع المؤسسات الثقافية المعنية للبحث عن تلك المخطوطات التي أخنى عليها الدهر وتعرضت للأرزاء والفناء . . وهي ثروة علمية نفسية .

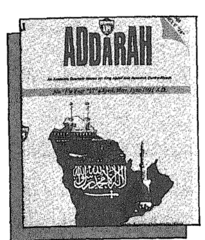
وبعد:

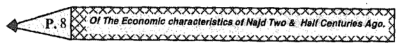
فإن الاهتمام بالتراث من أجلِّ

الأعمال ومن أولاها فالعودة إلى التراث رجوع إلى المثل الروحية والقيم الأخلاقية ولقد تميزت أمتنا الإسلامية بتراث مجيد اهتم به الغرب ووضع له فهارس تسهيلا لدراسته . . فعلى باحثينا أن يتجهوا إلى تراثهم وينفضوا عنه غبار السنين والانفتاح على ما يحفل به من آفاق واسعة في مجالات العلوم والآداب والفنون . . ولقد عكف المستشرقون عليه سنين طويلة مقتنعين بفائدته ومدركين أهميته وقد انحسر في السنوات الأخيرة الاستشراق والمستشرقون ولذا فعلى ابناء الأمة العربية الإسلامية العناية به والعمل على تحقيقه ودراسته بجد متواصل وعزم قوي حثيث وصبر طويل في جمعه وفهرسته وتحقيقه وطبعه لنستمد منه الفائدة والعون على ارساء قواعد نهضتنا العلمية الطموحة على أساس مكين من القيم الروحية والأخلاقية والإنسانية وابراز صفحة جديدة في المعرفة الإنسانية ومواصلة السير نحو التقدم العلمي متخذين من الماضي نبراساً نضيء به دروب المستقبل وحافزا لادراك الشأن واستعادة التاريخ المجيد . . والأمل كبير بإذن الله بتحقيق ذلك مرددًا قول **الشاعر العربي :**

وإذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام







The writers' views do not necessarily reflect Those of the magazine

Annual Subscriptions

- Saudi Arabia : 20 Riyals.

- Arab Countries : The equivalent of 4 issues prices : SR 20.

- Non-Arab Countries : US . 6$

- **Articles can not be returned to authors whether published or not.**
- **Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.**

• PRICE PER ISSUE •

- Saudi Arabia	: 3 Riyals	- Morocco	: 5 Dirhams
- U.A.E.	: 4 Dirhams	- Tunisia	: 400 Millimes
- Qatar	: 4 Riyals	- Non-Arab Countries	: 1 U.S.$
- Egypt	: 40 Piastres		

• Distributors •

Saudi Arabia : Saudi Distribution Co.
✉ 13195, Jeddah 21493
☎ 6694700
Abu-Dhabi : ✉ 3778, Abu Dhabi,
☎ : 323011
Dhubai : Dar-Al-Hikma Library.
✉ 2007, ☎ : 228552
Qatar : Dar-Al-Thakafa,
✉ 323, ☎ : 413180

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est.,
Manama, ✉ 224, ☎: 262026
Egypt: Al-Ahram Distributing Est.,
Al-Gala'a Street, Cairo, ☎ : 755500
Tunisia : The Tunisian Distributing Company
✉ 5, Nahg Kartaj.
Morocco : Al-Sharifia Distributing Company,
✉ 683, Casablanca, 05.

Articles

Articles should be directed to the Editor-in-chief

☎ : 4417020

Editorial Board

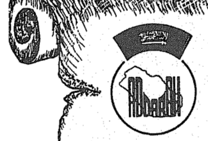
All Correspondence should be directed to:

☎ : 4412318 - 4413944

Fax 4412316

Subscriptions

Subscriptions should be directed to king Abdul Aziz research centre



IN THE NAME OF ALLAH
THE MERCIFUL. THE BENEFICENT



An Academic Quarterly Issued by:
King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

- Established by a Royal decree No. M/45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent jurisitic identity
- Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

objectives :

- To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.
- To issue a cultural magazine carrying its name.

ADDARAH.

- In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

No. " 1 " • Year << 17 >> • April, May, June, 1991 A.D.
P.O.Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia
Facsimile No : 00/966/1/4417020

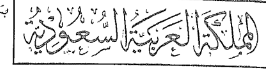
دارة الملك عبدالعزيز

ص ب ٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١ ☎ ٤٤١٢٣١٨ - ٤٤١٣٩٤٤

رقم الفاكسيملي : ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم





	ذوالحجة JUNE. JULY 92	ذوالقعدة MAY. JUNE.	شوال APR. MAY.	رمضان MAR. APR.	شعبان FEB. MAR.	رجب JAN. FEB.	جمادى الآخرة DEC. 91 JAN. 92	جمادى الأولى NOV. DEC.	ربيع الآخر OCT. NOV.	ربيع الأول SEP. OCT.	صفر AUG. SEP.	المحرم JULY 91 AUG.	
FRI.												12 ١	الجمعة
SAT.			4 ١				7 ١					13 ٢	السبت
SUN.		3 ١	5 ٢			5 ١	8 ٢				11 ١	14 ٣	الأحد
MON.		4 ٢	6 ٣			6 ٢	9 ٣			9 ١	12 ٢	15 ٤	الاثنين
TUES.	2 ١	5 ٣	7 ٤		4 ١	7 ٣	10 ٤		8 ١	10 ٢	13 ٣	16 ٥	الثلاثاء
WED.	3 ٢	6 ٤	8 ٥		5 ٢	8 ٤	11 ٥		9 ٢	11 ٣	14 ٤	17 ٦	الأربعاء
THUR.	4 ٣	7 ٥	9 ٦	5 ١	6 ٣	9 ٥	12 ٦	7 ١	10 ٣	12 ٤	15 ٥	18 ٧	الخميس
FRI.	5 ٤	8 ٦	10 ٧	6 ٢	7 ٤	10 ٦	13 ٧	8 ٢	11 ٤	13 ٥	16 ٦	19 ٨	الجمعة
SAT.	6 ٥	9 ٧	11 ٨	7 ٣	8 ٥	11 ٧	14 ٨	9 ٣	12 ٥	14 ٦	17 ٧	20 ٩	السبت
SUN.	7 ٦	10 ٨	12 ٩	8 ٤	9 ٦	12 ٨	15 ٩	10 ٤	13 ٦	15 ٧	18 ٨	21 ١٠	الأحد
MON.	8 ٧	11 ٩	13 ١٠	9 ٥	10 ٧	13 ٩	16 ١٠	11 ٥	14 ٧	16 ٨	19 ٩	22 ١١	الاثنين
TUES.	9 ٨	12 ١٠	14 ١١	10 ٦	11 ٨	14 ١٠	17 ١١	12 ٦	15 ٨	17 ٩	20 ١٠	23 ١٢	الثلاثاء
WED.	10 ٩	13 ١١	15 ١٢	11 ٧	12 ٩	15 ١١	18 ١٢	13 ٧	16 ٩	18 ١٠	21 ١١	24 ١٣	الأربعاء
THUR.	11 ١٠	14 ١٢	16 ١٣	12 ٨	13 ١٠	16 ١٢	19 ١٣	14 ٨	17 ١٠	19 ١١	22 ١٢	25 ١٤	الخميس
FRI.	12 ١١	15 ١٣	17 ١٤	13 ٩	14 ١١	17 ١٣	20 ١٤	15 ٩	18 ١١	20 ١٢	23 ١٣	26 ١٥	الجمعة
SAT.	13 ١٢	16 ١٤	18 ١٥	14 ١٠	15 ١٢	18 ١٤	21 ١٥	16 ١٠	19 ١٢	21 ١٣	24 ١٤	27 ١٦	السبت
SUN.	14 ١٣	17 ١٥	19 ١٦	15 ١١	16 ١٣	19 ١٥	22 ١٦	17 ١١	20 ١٣	22 ١٤	25 ١٥	28 ١٧	الأحد
MON.	15 ١٤	18 ١٦	20 ١٧	16 ١٢	17 ١٤	20 ١٦	23 ١٧	18 ١٢	21 ١٤	23 ١٥	26 ١٦	29 ١٨	الاثنين
TUES.	16 ١٥	19 ١٧	21 ١٨	17 ١٣	18 ١٥	21 ١٧	24 ١٨	19 ١٣	22 ١٥	24 ١٦	27 ١٧	30 ١٩	الثلاثاء
WED.	17 ١٦	20 ١٨	22 ١٩	18 ١٤	19 ١٦	22 ١٨	25 ١٩	20 ١٤	23 ١٦	25 ١٧	28 ١٨	31 ٢٠	الأربعاء
THUR.	18 ١٧	21 ١٩	23 ٢٠	19 ١٥	20 ١٧	23 ١٩	26 ٢٠	21 ١٥	24 ١٧	26 ١٨	29 ١٩	1 ٢١	الخميس
FRI.	19 ١٨	22 ٢٠	24 ٢١	20 ١٦	21 ١٨	24 ٢٠	27 ٢١	22 ١٦	25 ١٨	27 ١٩	30 ٢٠	2 ٢٢	الجمعة
SAT.	20 ١٩	23 ٢١	25 ٢٢	21 ١٧	22 ١٩	25 ٢١	28 ٢٢	23 ١٧	26 ١٩	28 ٢٠	31 ٢١	3 ٢٣	السبت
SUN.	21 ٢٠	24 ٢٢	26 ٢٣	22 ١٨	23 ٢٠	26 ٢٢	29 ٢٣	24 ١٨	27 ٢٠	29 ٢١	1 ٢٢	4 ٢٤	الأحد
MON.	22 ٢١	25 ٢٣	27 ٢٤	23 ١٩	24 ٢١	27 ٢٣	30 ٢٤	25 ١٩	28 ٢١	30 ٢٢	2 ٢٣	5 ٢٥	الاثنين
TUES.	23 ٢٢	26 ٢٤	28 ٢٥	24 ٢٠	25 ٢٢	28 ٢٤	31 ٢٥	26 ٢٠	29 ٢٢	1 ٢٣	3 ٢٤	6 ٢٦	الثلاثاء
WED.	24 ٢٣	27 ٢٥	29 ٢٦	25 ٢١	26 ٢٣	29 ٢٥	1 ٢٦	27 ٢١	30 ٢٣	2 ٢٤	4 ٢٥	7 ٢٧	الأربعاء
THUR.	25 ٢٤	28 ٢٦	30 ٢٧	26 ٢٢	27 ٢٤	30 ٢٦	2 ٢٧	28 ٢٢	31 ٢٤	3 ٢٥	5 ٢٦	8 ٢٨	الخميس
FRI.	26 ٢٥	29 ٢٧	1 ٢٨	27 ٢٣	28 ٢٥	31 ٢٧	3 ٢٨	29 ٢٣	1 ٢٥	4 ٢٦	6 ٢٧	9 ٢٩	الجمعة
SAT.	27 ٢٦	30 ٢٨	2 ٢٩	28 ٢٤	29 ٢٦	1 ٢٨	4 ٢٩	30 ٢٤	2 ٢٦	5 ٢٧	7 ٢٨	10 ٣٠	السبت
SUN.	28 ٢٧	31 ٢٩		29 ٢٥	1 ٢٧	2 ٢٩		1 ٢٥	3 ٢٧	6 ٢٨	8 ٢٩		الأحد
MON.	29 ٢٨	1 ٣٠		30 ٢٦	2 ٢٨	3 ٣٠		2 ٢٦	4 ٢٨	7 ٢٩			الاثنين
TUES.	30 ٢٩			31 ٢٧	3 ٢٩			3 ٢٧	5 ٢٩				الثلاثاء
WED.				1 ٢٨	4 ٣٠			4 ٢٨	6 ٣٠				الأربعاء
THUR.				2 ٢٩				5 ٢٩					الخميس
FRI.				3 ٣٠				6 ٣٠					الجمعة
	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	

● اليوم الوطني للمملكة.

● الإجازات الرسمية.

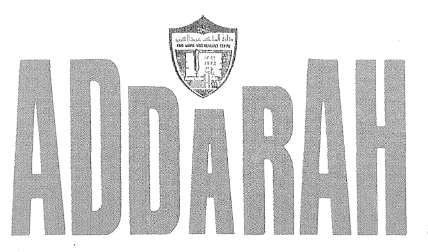
١٤١٢ هجرية

1412 A.H.



١٩٩٢/٩١ ميلادية

91/1992 A.D.





An Academic Quarterly Issued by: King Abdul Aziz Research Centre-Riyadh

No."1" • Year "17" • April, May, June 1991 A.D.

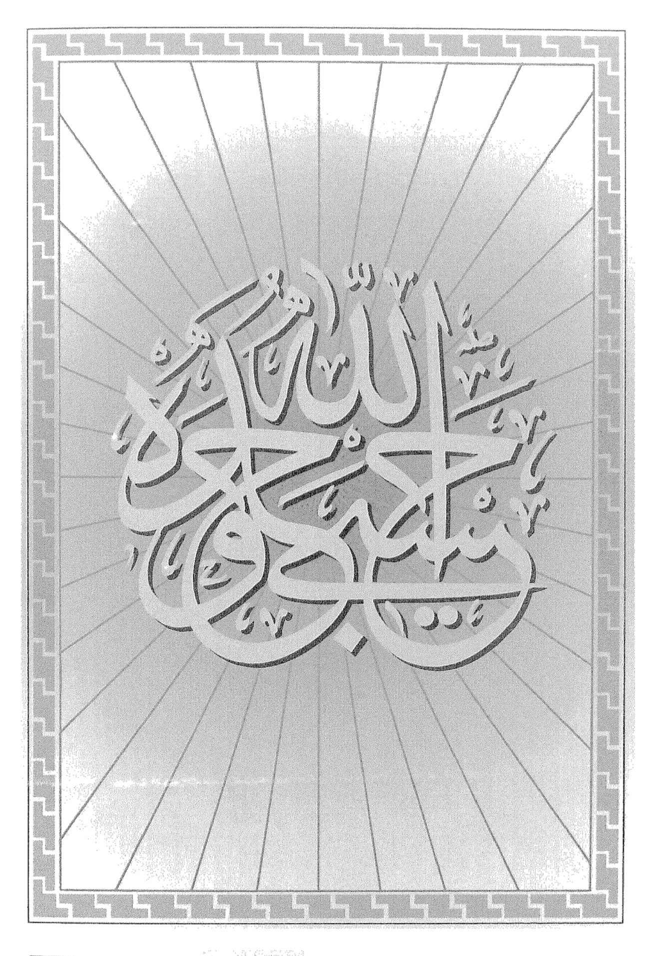
الدارة

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض

العدد الثاني • السنة السابعة عشرة • المحرم، صفر، ربيع الأول ١٤١٢ هـ



جائزة الملك فيصل العالمية ١٤١١ هـ



طبع بشركة العبيكان للطباعة والنشر ـــ الهاتف : ٤٩٨٣٣٩٢ ـــ الرياض



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



مجلة فصلية مُحكَمَة تصدر عن
دارة الملك عبد العزيز بالرياض

دارة الملك عبد العزيز بالرياض

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/ ٤٥، في ٥/ ٨/ ١٣٩٢هـ، كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية، يديرها مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها.

والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة وجغرافيتها، وآدابها، وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة وبلاد العرب والإسلام بعامة، وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها، وجلب الوثائق والمخطوطات وتحقيقها، وإصدار مجلة تحمل اسمها.

كما أنها «المركز الوطني للوثائق والمخطوطات»، بمقتضى الموافقة السامية رقم ٥/ ١٢٦٠٨ في ٢٠/ ٥/ ١٣٩٦هـ.

العدد الثاني ● السنة السابعة عشرة ● المحرم، صفر، ربيع الأول ١٤١٢هـ

ص.ب ٢٩٤٥ ـ الرياض ١١٤٦١ المملكة العربية السعودية
رقم الفاكسيميلي: ٠٠/ ٩٦٦/ ١/ ٤٤١٧٠٢٠



البحوث

ترسل البحوث باسم
رئيس التحرير

☎ : ٤٤١٧٠٢٠
وفاكس

الإدارة، والتحرير

☎
٤٤١٢٣١٨ـ٤٤١٣٩٤٤
الفاكس : ٤٤١٢٣١٦

الاشتراكات

ترسل الاشتراكات بشيك
مصدق باسم
دارة الملك عبد العزيز بالرياض

آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

- ترسل البحوث مطبوعة على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر على ألا تزيد عن ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وأن يكون اسم الباحث رباعيًا، وأن يذكر عنوانه مفصلاً.
- ترسل البحوث سريًا إلى محكمين، ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها لمنهج المجلة.
- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.
- لن ينظر في البحوث غير المستوفية لشروط المجلة.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

قيمة العدد

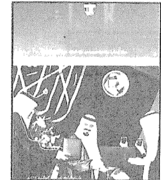
السعوددية : ثلاثة ريالات ـ الإمارات العربية : أربعة دراهم
قطر : أربعة ريالات ـ مصر : [illegible] ـ المغرب : خمسة دراهم ـ تونس : ٤٠٠ مليم
خارج البلاد العربية : دولار للعدد

الاشتراكات السنوية

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية.
- وفي البلاد العربية ما يعادلها.
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية.

الموزعون

- السعودية : الشركة السعودية للتوزيع
  ✉ ١٣١٩٥ جدة ٢١٤٩٣
  ☎ ٦٦٩٤٧٠٠ ☎ ٤٧٧٩٤٤٤ الرياض
- أبو ظبي : مكتبة المنهل
  ✉ ٣٧٧٨ أبو ظبي ـ ☎ : ٣٢٣٠١١
- دبي : مكتبة دار الحكمة
  ✉ ٢٠٠٧ ـ : ☎ ٢٢٨٥٥٢
- قطر : دار الثقافة
  ✉ ٣٢٣ ـ : ☎ ٤١٣١٨٠
- البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع
  ٢٢٤ المنامة ـ ☎ : ٢٦٢٠٢٦
- مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع
  شارع الجلاء ـ القاهرة ☎ : ٧٥٥٥٠٠
- تونس : الشركة التونسية للتوزيع
  ✉ 5 نهج قرطاج
- المغرب : الشركة الشريفية للتوزيع
  ✉ 683 الدار البيضاء 5



• الغـلاف •

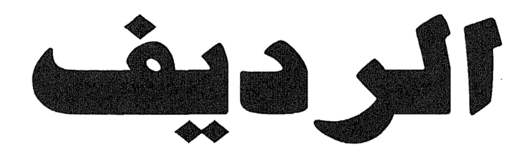


في هذا العدد

الافتتاحية



الرافد



● بقلم رئيس التحرير ●

وما من مدرسة، أو جامعة، أو مجمع، أو كل بيت علم إلا وهو الرافد لأمثاله، وهو في الوقت نفسه الرديف لها جميعًا والمسترفد منها جميعًا؛ فبيت المعرفة في حاجة إلى المزيد وهو في طاعة إلى التزود منه، وفي الساحة اليوم وفي بلدنا هذا الكريم الكيان الكبير جزيرة العرب أبوة الدين واللغة وأمومة المعرفة التي انتشر أثرها وتأثيرها في أرض العروبة، بل وفي أرض كل مسجد؛ لأن هذا البلد أشرق منه نور الإسلام، نور المعرفة والهداية؛ ففي الساحة سؤال لماذا لم يؤسس في بلدنا مجمع للغة والعلم، وقد توسعت المعرفة فكثرت الروافد من جامعات، ومدارس، ومثقفين من ذوي الاختصاص في فروع العلم، ومن حفظة اللغة. فالمجمع رافد يسترفد والجامعة هي كذلك؛

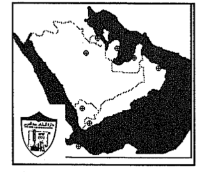
فادعـاء الكمال في المعرفـة انتقاص لها ، والرغبـة في المزيد مـن المعرفـة هو كمالها وتمامهـا . فلـدينـا العـدة والاستعـداد والمدد والامتـداد التـي لا يتعثـر بها المجمع ، فعندنا رجلان عـالمان عضوان في المجمع الكبير في القاهرة وهما : حمد الجاسر، وعبد الله بـن خميس سبق لهما ذلك يـوم كان العلماء فينا قلـة فكيف لا نكون الآن وقد أنعم الله علينا بهذه الكثرة الوافرة .

ومُلحة لا بد أن نحكيها لم يضربها مجمع اللغة بالقاهرة ، وإنما كانت ضرورة أشرفت بها معرفة ما كان يجهلها الأزهري والدرعمي ، وإنما كان التذكير بها علماً من العلم ومعرفـة للتعريف ؛ فحين تأسس مجمع القاهرة مـا اختاروا له إلا من علماء الأزهر الشريـف ودار العلوم فلـم ينضم إليـه علمٌ عـربي من غير مصر أو مصري غير درعمي أو أزهري ، ولكن انضم إليه ما يسمونهم المستشرقين ، ويحلو لي أن أسميه المستعرب ، من هؤلاء الأوروبيين ومنهم (الدكتور فيشر) الذي عشق اللغة العربيـة فعشقته حين أعطته الإحاطـة بها . جلس رجال المجمع مـن أهل اللغة العربية فـأخذوا يتلون جدول المراجع : القامـوس واللسان والمختار . . وما إليها فـإذا الدكتور فيشر ، وقـد انتهوا من القـراءة ، يقول : هذه كـل المراجع؟ لم تتركوا مرجعـًا فإذا هم يستغربون قـائلين ما تركنا ! فقال الـدكتور فيشر الجرماني المستعرب كلمته الصـادقة (وأين القرآن؟ !) فإذا هـم على حال لا يستغرب و إنما يعجب وكيف تذكر هو . حدثنا بذلك الدكتور محمد حسين هيكل .

● محمد حسين زيدان ●

تأملات فى قضايا ومشكلات تاريخ الجزيرة العربية فى عصور ماقبل الإسلام

د. سيد أحمد علي الناصري



من أكبر أخطاء وعيوب المستشرقين الذين كتبوا (بل واحتكروا لوقت طويل الكتابة) في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام أنهم متأثرون بشدة بحرفية نصوص التوراة، خاصة فيما يتصل بتاريخ العرب القدماء، وللحفاظ على هذه الحرفية يحولون أحيانًا مجرى الأحداث، ويلوون الحقائق الواضحة، لكي يتماشى ذلك التفسير مع ما ورد في نصوص التوراة، وهذا يذكرنا بالمرحلة التي

كان فيها المؤرخون أسرى لنصوص الإليـاذة. حيث فسروا المكتشفات الأثرية في ضوء أبياتها على نحو ما فعل شليمان.

وكذلك فإن هؤلاء المستشرقين قلما يرجعون إلى القرآن الكريم الذي هو أدق المصادر وأكثرهـا معرفة بأحوال العـرب في جاهليتهم الأولى والثانيـة، ناهيك عـن أنه مصـدر رباني لم يتعـرض لأقـلام البشر، وصدق الله العظيـم في قولـه تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. .»

وكذلك فإن هـؤلاء المستشرقين قلما يرجعـون إلى كتب التراث العـربي، أو إلى كنوز الشعـر الجاهلي، ليستخرجوا منهـا معلومـات تساعدهـم على استكشاف تـاريـخ العرب في الجاهليـة، ويفضلـون عليهـا نصـوص المصادر الإغـريقيـة والرومانية[1] والتـي رغم اعترافنـا بأهميتهـا، لكنهـا هي الأخـرى كما ثبت مـن الدراسات الحديثة لم تفهـم تراث الشرق الذي كان في نظرها غـريبًا وأسطوريًّا. وهذا مـا يتضح من كتـابات هيرودوت عن جـزيرة العرب؛ أو كتبـت لأهداف سياسيـة كما هو الحال في النصوص الرومـانية؛ كما أن عقدة الغرب وإحسـاسه بالاستعلاء والتعالي على شعوب الشرق، وجهله بها، جعلته يتحدث عن جزيرة العـرب مـن وجهة نظـره؛ ومـن ثـم يجب ألا نـأخـذها أخـذ الإيمان الكـامـل بصحتها؛ وبنـاء على ذلك لـو قدر لنـا أن نضع منهجًا عـربيًّا لـدراسة تـاريخ العرب قبل الإسلام لأعدنا ترتيب المصادر التي يجب أن يكون في مقدمتها القرآن الكريـم، والحديث الشريـف يليهما النقوش العربية القديمة و مكتشفات الآثار، ثـم يلي ذلك التـوراة الحاليـة ونصوص الكتـاب الإغريـق والـرومان. ولأثبـت للقارىء الكـريم قـولي هذا، فسـوف أوضح أمثلـة للتجاوزات والأخطـاء التي

وردت في كتاب مونتجمري Montgomery عن جزيرة العرب والتوراةArabia and the Bibleوالذي كان في الأصل عبارة عن مجموعة من المقالات التي ألقيت عام ١٩٣٠ ، ثم أصدرها في كتاب عام ١٩٣٣ ، ثم أعيد نشر الكتاب مرة أخرى عام ١٩٦٩ [٢] بعد أن كتب له الأستاذ جوس فان بيك Gus Van Beekمقدمة طويلة حاول فيها برفق تصحيح أخطائه وفض الاشتباك بين تاريخ العرب القديم ـ كما كتبه المستشرقون الأوربيون واليهود في ضوء التوراة ـ وبين الحقائق الجديدة ، التي كشفت عنها أعمال التنقيب والمسح الأثري التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية ، غير أن الأستاذ بيك نفسه لم يستطع فض هذا الاشتباك تمامًا للأسباب التي ذكرتها آنفا ، بالإضافة إلى نتائج المزيد من أعمال المسح والتنقيب التي تمت بعد عام ١٩٦٩ خاصة تلك التي تمت في المملكة العربية السعودية في الآونة الأخيرة ، وخاصة في موقع الفاو ، والتي ننتظر بفارغ الصبر نشر نتائجها نشرًا علميًّا يروى عطشنا ، وبعد نشر أعمال الندوة العالمية الثانية [٣] التي خصصت لمصادر تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، والتي شارك فيها عدد كبير من المتخصصين جاءوا من الشرق والغرب ليدلي كل بدلوه . وأخيرًا وليس آخرا نقول إن العقل العربي يجب أن يستيقظ من سباته ويقول كلمته ليحرر تاريخ أشرف بقعة في بلاده من احتكار مفسري التوراة ، ومن هيمنة العقل الأوربي الذي يجب ألا ننظر إليه بمثل هذه القداسة لأنه أيضا يخطئ ويسيء الفهم ، وعلى حد قول المثل العربي «أهل مكة أدرى بشعابها . . »

لقد مرَّ الآن ما يقرب من ستين عامًا منذ أن أصدر جيمس مونتجمري كتابه سالف الذكر ، والذي درس فيه الجزيرة العربية وعلاقتها ببني إسرائيل في فلسطين ، من الجوانب العرقية والثقافية والاقتصادية ؛ واعتمد في دراسته على

حقل واسع من المصادر، شملت النواحي الجغرافية واللغوية والأدبية والأثارية؛ وقارن بينها في تناسق دقيق، مستخدمًا كلاً منها في الوقت المناسب للوصول إلى الهدف المنشود، وكأنه قائد عام لجيوش يحرك فرقه المختلفة بمهارة في الوقت المناسب، وبالتنسيق المتكامل مع سائر الفرق الأخرى، لاقتحام موقع معين تنفيذًا لخطة معينة. ولقد كان مونتجمري فطنًا في التمييز بين المصادر الأساسية، وبين المصادر الهامة وبين العامة؛ وجاء حكمه على بعض القضايا إلى حد ما متزنًا. وهو لا يزال ـ رغم أخطائه ـ وتجاوزاته ـ من المؤلفات الجيدة التي غطت تاريخ الجزيرة العربية القديم، وعلاقاتها مع جيرانها في عصور ما قبل الإسلام.

غير أن ستين عامًا ليست بالعمر القصير في عالم يطلق أقصى طاقاته في مجال البحث والفكر، مستخدمًا الامكانات الهائلة التي يسرتها النهضة التكنولوجية وثورة المواصلات، فضلاً عن النهضة التي تشهدها الجزيرة العربية ودولها منذ نهاية الحرب العالمية، وحمل جامعاتها الفتية رسالة البحث عن تاريخها العريق، وإزاحة تلال الرمال عنه؛ وبالامكانات الاقتصادية الهائلة جذبت إليها سيلاً من العلماء من كافة أنحاء العالم، وقيامها لأول مرة بالتنقيب عن آثارها بسواعد أبنائها؛ كل هذا غير من ظروف الدراسة ومناخها، فقد كشفت أعمال التنقيب عن مصادر جديدة، وصححت مفاهيم تقليدية عتيقة، ووضعت ملامح جديدة لتاريخ الجزيرة العربية القديم؛ وحققت له استقلاله عن التبعية لتاريخ بني إسرائيل القديم، الذي كان الهدف الأول لكثير من المستشرقين. ومن ثم بدأت إعادة النظر في آراء جيمس مونتجمري.

وأول ما أخذ على جيمس مونتجمرى، أنه لم يضع قدمه قط على أرض الجزيرة[٤]، ولا شاهد آثارها، ولا عاش ظروف الحياة فيها، بل درس على الورق وعلى بعد آلاف الأميال، إنما اعتمد على ما كتبه الآخرون، أو نقل إليه سماعًا؛ وفي ضوء تفسير ما ورد في التوراة؛ فأخذ عليه ما سبق أن أخذناه على أول مؤرخ غربي كتب عن الجزيرة العربية دون أن يتجول فيها أو يشد الرحال إليها. ولعل أقدم من تحدث عن العرب من اليونان هو «إسكليوس» (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق. م) ثم جاء من بعده المؤرخ اليوناني المشهور أعني هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٣٠ ق. م)، فجاءت كتاباته مليئة بالمفاهيم الخاطئة، منها على سبيل المثال لا الحصر اعتباره الجزيرة العربية صحراء قاحلة؛ صحيح أن الصحراء تشغل مساحة كبيرة منها، لكن ليست الجزيرة العربية كلها صحراء. فاصطلاح الصحراء من الناحية الجغرافية والبيئية تعني الأرض القاحلة الجرداء الوعرة، التي تندر فيها النباتات والحيوانات ومصادر المياه، وتكاد تخلو من السكان إلا من بعض قبائل البدو الرحل التي تعيش في عالم منعزل؛ ومن ثم طورت ثقافتها وطريقة معيشتها، وطباعها وقوانينها الأخلاقية في ضوء ظروفها البيئية، بينما الواقع غير ذلك؛ فالجزيرة العربية وجود جغرافي، أو شبه قارة كبيرة، يفوق حجم شبه القارة الهندية بكثير، وذات مناطق تضاريسية وبيئية ومناخية متنوعة، ففيها الجبال الخضراء العالية، والوهاد المنبسطة الزراعية، وفيها مناطق ساحلية طويلة ذات موانئ تجارية هامة جذبت إليها التجار من جنسيات وقوميات مختلفة[٥]، وتلاقت فيها حضارات متنوعة، وكان لسكانها نشاطات عديدة. كما كان لوجود حضارات عريقة كبرى تحيط بها وتنفتح عليها، كحضارة بلاد الرافدين في الشمال الشرقي، وحضارات الآراميين والكنعانيين في الشمال، وحضارة المصريين على الجانب الآخر من البحر الأحمر، تأثير كبير عليها، بالإضافة إلى

ذلك فقد ثبت من الدراسات البيئية الحديثة أن الصحراء لم تكن أبدًا عازلاً بين الحضارات، بل كانت معبرًا لها(٦)، فوجـود الطرق والمدقـات سواء الرأسية أم الأفقية، ودخول الجمل، سفينة الصحراء، تلك الدابة الرائعة التي وهبها الله لسكان الصحارى لتنقل على ظهورها التجارة والحضارة، عبر مناطق نائية في صبر وأناة، وليربط بين أجزاء العالم المسكون، لكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن الصحراء قد لعبت دورها في تشكيل الثقافة والطباع العربية، أو ما يعرف بالأخلاق الصحراوية: Desert Ethos، ومن ثم فقد كان الرومان على حق عندما ميزوا بين مناطق الجزيرة المختلفة، فقسموها إلى ثلاث مناطق بيئية كبرى، هي: بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta، وبلاد العرب الصخريةArabia Petraea، وبلاد العرب السعيد Arabia Felix؛ بل كان الجغرافيون المسلمون أكثر دقة من الرومان؛ عندما قسموها إلى خمس مناطق بيئية وجغرافية كبرى هي: تهامة أو السهول الساحلية، والحجاز، ونجد، واليمن، واليمامة أو العروض (أي الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة). ومن ثم فإن الخلط بين الصحراء وشبه جزيرة العرب، واعتبار الاثنين مترادفين، هو ثمرة الدراسة النظرية البحتة؛ التي وقع فيها مونتجمرى وغيره من المستشرقين، الذين لم يزوروا الجزيرة، ولم يتجولوا بين ربوعها المختلفة.

لقد خلط المستشرقون بين سبأ اليمن في الجنوبSheeba ، وسبأ الحجاز في الشمال (معان مصران) من ناحية؛ وبين سبأ اليمن العربية؛ وسبأ إفريقيا المتزنجة من ناحية أخرى. وتفسير ذلك واضح وهو اعتمادهم في الرأي على ما جاء في التوراة (سفر التكوين ١٠ : ٦) من أن القبائل العربية انخرطت من نسل حام بن نوح، ومن ثم فإن شيبا Sheeba، وسيبا، وددان، وغيرهم من العرب هم أبناء كوش الأفريقي. ولقد ظل هذا الاعتقاد سائدا لوقت طويل، ولكي

يوفقـوا بين ما جاء في التـوراة، وبين الواقع التاريخي الـذي لا يؤيد ذلـك، زعم المستشرقـون أن العنصر الأفريقـي في عصور مـا قبل التـاريخ جـاء من جنـوب الجزيـرة العربيـة عبر القرن الأفـريقي؛ وصـدق ذلك علماء الأجنـاس، غير أن (والحق يقال). . . مـونتجمري كان أول من ضرب بمعـوله ليهدم ذلـك الرأي، مـوضحا أن تـوزيع الأجنـاس على الأرض أضيـف إلى التوراة لأسبـاب سياسيـة تاريخية. فبعد أن رجـع إلى نتائج أعمال التنقيب في كل من أفريقيـا وبلاد العرب خرج على التفسير التوراتي، موضحا أنه في عصور ما قبل التاريخ، لم يكن هناك مظاهـر اتصال سكـاني بين الجزيرة العـربية وأفـريقيا[٧]. وأن الاتصـــال بين الشعبين لم تتضح معالمه بشكل مـؤكد إلا في القرنين الثامن والسابـع قبل الميلاد، وربما بدأ بالتسلل العـربي عبر مضيق باب المندب إلى أفريقيا منـذ القرن العاشر ق. م أي في الوقـت الذي حكـم سليمان بـن داود عليه السلام؛ وبمعنـى آخر في الوقت الذي تم فيه الاتصـال بين ملكة سبأ وبين سليمان، وحدث التزاوج بينهما وإنجاب الملـك سليمان ولدًا هـو منليك، الـذي أصبح الجد الأول لـلأحباش، والذي أطلـق عليه ابـن الحكم، وبقـدوم القرن الثـامن ق. م كـانت الهجـرات العربية قد اكتملـت واستقرت في أفريقيا، وبذلك تكونت سبـأ الأفريقية (التي تكتب وتنطق سيبا Seeba وربما لذلك عـلاقة باللفظ صوبا)، ومـن ثم أصبح هناك شيبا العربية وسيبا الأفريقية.

وبالـرغم من أن مونتجمـرى نجح في فض الاشتباك العلمـي بين السبأتين: العربية الجنوبية، ونظيرتها الأفريقيـة على الجانب الآخر من البحر الأحمر، إلا أنه استمر يخلـط بين سبأ الجنـوب، وسبأ الشمال (في شمال غـرب الحجاز)، فلقـد اعتقد مـونتجمرى، كما اعتقد غيره مـن المستشرقين الذين حاولـوا كتابة تـاريخ الجزيـرة القديـم في ضوء التـوراة، أن السبئيين وجدوا أول مـا وجدوا في منطقـة

شمال غرب الحجاز القريبة من فلسطين، ثم هاجروا من هذه المنطقة جنوبًا إلى اليمن، ولعل مبعث هذا الاعتقاد الخاطئ تفسير ما ورد في حوليات سرجون الثاني (٧٢٠ ـ ٧٠٤ ق.م) وحوليات ابنه سنخريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق.م) حيث ورد في نقوشهما اسم ملكين سبئيين هما ايتيامارا Itiamara وكاريب ايلو (كرب ايل) أخضعهما هذان الملكان الأشوريان، وأجبراهما على دفع جزية سنوية. ولأن المسافة بين أشور وسبأ الجنوب بعيدة جدًّا؛ فقد فسر دارسو النقوش الأشورية أن ايتيامارا وكرب ايل، لابد وأن يكونا ملكين في شمال غرب الحجاز لقربهما من بلاد ما بين النهرين؛ واستخدموا هذا التفسير لدعم مقولة التوراة من أن مملكة سبأ وجدت بالقرب من فلسطين[٨].

وهكذا تكون الاعتقاد بأن الأصل في سبأ كان في الشمال؛ غير أن إعادة النظر في النقوش الأشورية، تبيّن أن سرجون الثاني وابنه سنخريب لم يقولا صراحة ونصًّا بأنهما قاما بغزو سبأ، وإنما جعلاها تذعن لهما، وتقبل دفع الجزية لهما، وهذا ممكن بدون قتال وله سوابق في التاريخ القديم، فقد خضع جنوب الجزيرة ذات مرة لهيمنة ملوك الحيرة بدون قتال أو حروب. ومن ناحية أخرى فإن هذا النقش وما ورد في التوراة يؤكدان أنه كان هناك سبئيتان، واحدة في الجنوب والأخرى في الشمال، وقد تكونت الأخيرة من مجموعة مستوطنات بعث بها الجنوب لحراسة طرق القوافل في الشمال؛ خاصة أن في مثل هذه المنطقة تتشعب طرق القوافل إلى بلاد الرافدين والشام وآسيا الصغرى وفلسطين ومصر.

وكلما ضعفت المملكة الأم في الجنوب، ازدادت مملكة الشمال قوة وازدهارًا، وبمرور الزمن بدأ فارق حضاري يفصل بين السبئيتين، فقد بدأت سبأ الشمال تتعرض لتيارات الحضارة الآرامية والكنعانية والمصرية والهللينستية (وبالذات مع بطالمة الإسكندرية)، ومن ثم حدث تباعد تدريجي بين المملكتين، لم يشمل

فقط الجوانب الحضارية، بل شمل الجوانب اللغوية أيضا، كما شمل هذا التباعد المصالح والعلاقات السياسية. فعندما اشتعل الشرق الأدنى في العصر الهللينستي في حرب ضروس بين السليوقيين في الشام، ومنافسيهم البطالمة في مصر نجد كل واحدة من السبئيتين تقف إلى جانب خصم؛ فبينما وقفت سبأ الشمال مع أصدقائها البطالمة، وقفت سبأ الجنوب مع السليوقيين وحلفائهم الأنباط؛ وربما أرادت سبأ الجنوبية أن تخضع المملكة الشمالية التي استقلت عنها، منتهزة فرصة اندلاع الحرب بين السليوقيين والبطالمة. ولقد كشف عن ذلك النقش الشهير رقم(R.3022; No. 46)[٩] وهو عبارة عن قربان وشكر واعتراف بالجميل بعد النجاة، قدمه كبير المستوطنة المعينية في دادان لآلهة معين وياثيل «لأنها قامت بإنقاذهما مرتين من الخطر، مرة عندما تسببت حرب اندلعت بين الميديين والمصريين في تعريض حياتهما وتجارتهما للخطر خلال إقامتهما في مصر للتجارة والسوريين والبابليين» (في الإسكندرية)[١٠] ومرة أخرى وهما في طريقهما عائدين قدما الشكر لهذه الآلهة «لأنها تولت تحصين قلاع مدينتهم ياثيل Yathil » التي لم تكن تبعد كثيرًا عن معين مصران عندما تعرضت لهجوم السبئيين «في حرب الجنوب والشمال»[١١] ويؤكد ورنر كاسكل Werner Caskel أن كل الشواهد، تؤكد أن هذه الحرب هي معركة رفح الشهيرة التي حدثت في شهر حزيران عام ٢١٧ ق.م، عندما قام أنطيوخوس الأكبر بمحاولة لغزو مصر ، لكنه رد على أعقابه خاسرًا على يد بطليموس الرابع فيلوباتور ووزيره الحصيف سوسيبيوس. وكما لاحظ تارن W.W Tarn[١٢] أن النقوش المصرية الهيروغليفية كانت تشير إلى السليوقيين باسم الفرس، وكذلك لاحظ التهايم شتيل Altheim Stiehl[١٣] في كتابه العرب في التاريخ القديم بأن النقوش العربية تشير إلى السليوقيين باسم الميديين الفرس، بل ذكر سترابون

الجغرافي[١٤] أن أنطيوخوس كان يلقب نفسه باسم ملك ميديا (وسوريا)، ومن ثم فلا جدال في أن السبئيين الجنوبيين كـانوا في هذه الحرب حلفاء للسليوقيين، وانتهزوا الفرصة لإخضاع الشمال و إعادته إلى حظيرة المملكة السبئية[١٥] الأم.

ولقد أمكـن تحديد اسـم أحد هـذين الكبيريـن من خـلال مقارنـة النقوش اللحيانية الأخرى إذ تبين أن «أبـي يدع يطح» حكم ثلاثين عامـًا ابتداءً من عام ٢٢٥ ق.م وحتى ١٩٥ ق.م. في أول الأمـر حكم بالاشتراك مـع آخريـن، ثم حكـم بمفرده وأخيرًا بـالاشتراك مع ولـده، وأنه بـالفعل عـاصر الحرب الكبرى وتحدثت نقـوشه الأخرى عـن علاقاتـه التجاريـة مع مصر والشام، وأنـه حفيد سلالة جاءت من الجنوب[١٦].

لقـد أصبح الآن ثـابتًا أن المملكـة السبئية قـامت أولاً في الجنـوب، وكانـت عـاصمتهـا مأرب. وقـد أجـريـت دراسـات على الفخـار الذي عثـر عليـه في خرائبهـا، ثبت منها أن مـوقع مكانها كان مـأهولاً بالسكـان منذ القرن التـاسع ق.م. وأن بداية استيطانها يرجع إلى القرن الحادي عشر ق.م[١٧]، كما كشف أعمال التنقيب أن حضـارة شمال الجزيرة تختلـف عن حضـارة جنوب الجزيـرة، رغم أن الأصـل واحد، فقد تلقحت حضـارة شمال الجزيرة مع عـدة حضارات منها حضارة بلاد الـرافدين وحضارة الشام القديم، وحضـارة مصر الفرعونية، ومصر الهللينستية، ومع تيـار الحضارة الإغريقية والرومانيـة. كما تعرض سكان الشمال للاختلاط العنصري مع عناصر سكانية مختلفة، فاكتسبوا البشرة البيضاء والقـامة الطـويلة نسبيـًا، والشعر الأسـود المسترسـل، ولذلـك عرفـوا بالعـرب المستعربـة أو بالعـدنانيين، بـل إن اللغة السـامية الشماليـة اختلفت عـن اللغة السامية الجنوبيـة رغم أن الاثنتين خرجتا من رحم واحد. أمـا الجنوب فقد بقي محافظًا ـ بقـدر الإمكان ـ على عنصره العرقي واللغوي ولم يتعـرض للاختلاط إلا

مع العنصر الأفريقي فاكتسب منه البشرة الداكنة والشعر الأجعد، وربما بعض الملامح المتزنجة، ورغم ذلك فقد كانوا يصفون أنفسهم بالعرب العاربة أو القحطانيين. وبمرور الزمن ازدادت الهوة بين الشمال والجنوب. ولعل في سيرة إسماعيل عليه السلام ـ جد العرب العدنانيين ـ ما يرمز إلى ذلك الاختلاط، فهو من أب آرامي وأم مصرية وتزوج من قحطانية. ولعل في قصة عمرو بن لحي ـ صاحب الأصنام ـ ما يرمز إلى الاختلاط الحضاري الذي تعرض له الشمال، عندما ذهب إلى عيون الحمة للاستشفاء وعاد ومعه تمثال هبل، الذي وصفه الرواة بأنه تمثال صغير، مصنوع من حجر العقيق، يمثل شابًّا واقفًا في استرخاء، ويكاد الباحثون يجمعون على أن هبل هو اسم محرّف للرب الأفريقي Ho Apollor[١٨]، فإذا حذفنا النهاية المتغيرة في الاسم أصبح «هوأبول» H o Apoll الذي تحول إلى هبل، وهناك أمثلة كثيرة على هذا الامتزاج الحضاري في الشمال نلحظه من خلال دراسة الأسماء العربية الشمالية. أما في الجنوب فقد تأثر بالثقافة الأفريقية عندما دخلت بعض آلهة شرق أفريقيا مثل مدر وبراص إلى مجمع آلهة العرب الجنوبية[١٩].

ولو كان ما يعتقده دارسو تاريخ الجزيرة العربية في ضوء تفسير التوراة صحيحاً من أن السبئيين أصلاً كانوا يستوطنون الشمال، ومنه هاجروا إلى الجنوب، لوجدنا آثارهم الحضارية واللغوية هناك على الأقل لفترة زمنية قبل أن تذوب في حضارة الجنوب، إلا أن الواقع غير ذلك، فالآثار التي عثر عليها في العلا (ديدان) والحجر وتيماء مختلفة تمامًا عن آثار الجنوب. وهنا يفرض سؤال نفسه إلى أي حد امتدت حضارة الجنوب شمالاً وإلى أي حد امتدت حضارة الشمال جنوبًا وعند أي نقطة أو منطقة التقيتا؟؛ وهو سؤال نتركه لعلماء الآثار للإجابة عنه، ومن ثم فإن الرأي العتيق بأن السبئيين جاءوا في الأصل من الشمال

إلى الجنوب دعوى لا يؤيدها في الحقيقة لا الواقع ولا الوثائق، فالهجرات السامية كانت دائمًا من الجنوب إلى الشمال تجاه مصادر المياه الدائمة مثل الأنهار؛ ومن أبسط الأدلة أن حدوث انفجار سد مأرب في القرن الخامس الميلادي الذي تسبب في سيل العرم، وهو الذي أدى إلى حركة هجرة على نطاق واسع من الجنوب إلى الشمال، نتج عنها انتشار قبائل الجنوب في الحجاز وفي وسط الجزيرة مثل الأزد، والأوس، والخزرج، والغساسنة وطئ ومذحج وهمدان، وكلها نسبت نفسها إلى جد واحد جنوبي هو كهلان؛ ومثل قضاعة وجهينة وكلب التي نسبت نفسها إلى جد واحد جنوبي هو حمير. فأغلب قبائل العرب في الشمال تفاخرت على طول التاريخ بأصلها العريق في الجنوب، وتعلن تفاخرها بشرف الانتساب إلى قبائلها، ولم يحدث أبدًا أن تفاخرت إحدى قبائل الجنوب بشرف الانتساب إلى جد شمالي.

والمنطقة الثالثة التي لها وجود تاريخي متميز هي منطقة الساحل الجنوبي الشرقي وسواحل الخليج العربي والساحل الشرقي للجزيرة، فقد كانت هذه المنطقة من أقدم المناطق التي استوطنها الإنسان في الجزيرة، إذ تمتد آثار الإنسان فيها إلى عصور ما قبل التاريخ(٢٠) ومنذ الألف الثالثة ق.م كانت امتدادًا لحضارات بلاد النهرين خاصة ما جان (التي يظن أنها عمان الحالية) وميلوخا (ربما سواحل الخليج)، وظلت تساهم في رخائها بفضل اتصالات هذه المنطقة بحضارات الهند القديمة(٢١)، وقد ثبت ذلك من العثور على أختام تشبه الأختام التي عثر عليها في الموهانجادارو وحرابا. وظلت هذه المنطقة تحت تأثير حضارات الرافدين حتى سقوط آشور، ثم تحولت للنفوذ الفارسي في مطلع القرن الخامس ق.م أثناء الصراع بين الإمبراطورية الفارسية ودويلات المدن الأفريقية

حيث فتحت امبراطورية الفرس حدودها للتجار خاصة للأيونيين الإغريق من ساحل الأناضول، الذين أصبحوا جزءا من الإمبراطورية الفارسية، بل فتحت أبوابها لجيوش المرتزقة من الإغريق، ومن ثم كانت منطقة الخليج معبرًا لهؤلاء التجار في طريقهم إلى بلاد الفرس أو عائدين منها، فقد شهدت فترة الصراع بين الفرس والإغريق مراحل مد وجزر تخللها تعاون وتحالف وحروب؛ ويدل على ذلك العثور على عدد من النقوش الإغريقية على سواحل الخليج بعضها بكل تأكيد يرجع إلى ما قبل مرحلة الفتح المقدوني.

ومن الجدير بالذكر أن أول من تحدث عن الجزيرة العربية وسكانها هو هيرودوت[٢٢] وذلك ضمن دراساته عن الولايات التابعة للإمبراطورية الفارسية. وبالطبع تدفقت الحضارة الإغريقية على هذه المنطقة بعد الفتح المقدوني، فقد مر الإسكندر بالخليج وهو في حملته على الفرس، كما كان يحلم بجعل الخليج شريانًا حيًا لاقتصاد إمبراطوريته المقدونية، والتي كان يخطط لجعل بابل، التي لا تبعد عن الخليج كثيراً، عاصمة لها؛ ولهذا فإن دراسة منطقة الخليج وساحل الجزيرة الجنوبي الشرقي والشرقي تشكل تخصصًا ووحدة دراسية مستقلة عن اليمن وعن الحجاز. صحيح قد يكون الأصل في حضارة الجنوب مهاجرون جاءوا من بلاد الرافدين بعد سقوط بابل، لكن حبل السرة بين هؤلاء المهاجرين وبلاد النهرين قد انقطع بعد ذلك، فشرعوا يطورون حضاراتهم المستقلة، غير أن «برايان دو» [٢٣] تعرف على بعض الجذور البابلية في فن جنوب الجزيرة العربية، كما أن الخبرة العريقة في بناء السدود وحفر قنوات لتوزيع الري هي ثمرة خبرات آلاف السنين، وقد جاء بها المهاجرون من بلاد الرافدين.

ومن أهم الموضوعات التي شغلت اهتمامات دارسي تاريخ الجزيرة القديم من

خلال نصوص التوراة، هو تجارة القوافل بين الجزيرة وفلسطين[٢٤] فقد اعتبرت التوراة جزيرة العرب مصدر المواد الكمالية الفاخرة التي يستخدمها المترفون وأولو النعمة، كالذهب والعطور والبخور والتوابل واللؤلؤ وخشب الصندل والحرير وريش النعام والخيول العربية الأصيلة، وهذا يبين أهمية الجزيرة العربية في اقتصاد بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة. فقد كان التجار العرب يحتكرون تسويق البخور واللبان بنوعيه اللادن والمر، وكان ذلك يجلب ثروة كبيرة لهم، ففي سفر الملوك الأول الإصحاح العاشر الذي يروي وقائع زيارة ملكة سبأ لسليمان في «أورشليم» حاملة معها أطيابًا وذهبًا كثيرًا جدًّا وحجارة كريمة «وأن كمية الذهب بلغت مئة وعشرين وزنة ذهب» وأن الطيب والحجارة الكريمة لم يكن لها مثيل من حيث النوع والكم[٢٥]، ويتكرر نفس الكلام في سفر أخبار الأيام الثاني الإصحاح التاسع[٢٦]، ولقد ذكرت التوراة أن سبب الزيارة هو طلب المشورة والحكمة التي اشتهر بها سليمان، كما أنها سمعت بثرائه وبذخه، فأرادت أن تثبت له أنها تفوقه ثراءً وبذخاً، ويرى قان بيك أن الملكة لم تقطع رحلة شاقة تزيد على ٢٤٠٠ كيلو متر عبر المرتفعات والبطاح، والجبال والوهاد، من أجل مناقشة أمور ثقافية وفكرية دفعت مقابلها ثمنًا باهظاً، إنما جاءت في مهمة سياسية واقتصادية[٢٧]، وهي تأمين طرق القوافل في الشمال التي تمر عبرها التجارة القادمة من بلادها في الجنوب، فقد كان طريق القوافل الرأسي الذي يبدأ من عدن في الجنوب، ويسير في حذاء جبال السراة حتى ديدان، والتي عندها يتفرع طريق يتجه إلى تيماء إلى موانىء الخليج وبلاد الرافدين، ويستمر هذا الطريق الذي عرف «بطريق الملك» شمالا حتى الشام، والأناضول، وكانت بعض أجزائه تمر بمدن فلسطين مثل أورشليم، وبيت لحم، والسامرة؛ وتعبر صحراء النقب ووادي عرابة حتى غزة ميناء تصدير

التوابل العربية إلى دول البحر المتوسط بحرًا وإلى مصر برًا. ويرى قان بيك أيضا أن داود ومن بعده ولده سليمان حرصا على السيطرة على جـزء من طريق القوافل الذي يمر بشرق الأردن وجنـوب فلسطين، لجباية الأتاوات والمكـوس، وبذلك تحكما في المنافـذ الرئيسية للتجـارة العربيـة. ولم تحدد التوراة اسم الملكـة السبئية بالاسـم وكذلك فعل القـرآن الكريم، غير أن التراث الشعبي الجنـوبي ذكر أنها كانت تدعى بلقيس، وذكرها التراث الأفريقـي باسم «الماقدة» التي تزوجت من حكيم (أي سليمان).

ولقد روى القـرآن الكريم في سـورة النمل أخبار هـذه الزيارة، ولم يـركز على الجانب المادي كما فعلـت التوراة، بل ركز على الجانـب الروحي ، بالإضـافة إلى قـدرة الله الذي وهـب سليمان حكما وعلما، وسخر لـه الجن وعلمه لغـة الطير، ويوضح القرآن الكريم أن سليمان هو الـذي سعى إلى ملكة سبأ، وليست ملكة سبأ هي التي سعت إلى سليمان، فكتب لها رسالة يدعوها إلى نبذ عبادة الشمس (اللات) وعبادة خالقها « ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ »، وأن تتنازل الملكة عـن كبريائها واستعـلائها « أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ »(٢٨) ، ولما استفتت ملكة سبأ قومها بعد إنذار سليمان، قبل السبئيون التحدي: « قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ »(٢٩)، فآثرت الملكة أن تتجنب سليمان وجيوشه، وشراء رضـاه بإرسال هدية فاخـرة، لم يذكر القرآن فحواها، « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ »(٣٠). وبينما نجد سليمان في التوراة يفـرح بهدية الملكة، نجـده في القرآن الكـريم يحتقرهـا قائلاً: « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ »(٣١) وتجبر الملكة على الذهاب إلى سليمان مسيرة بقوة سحره، وترى بعينها عظمته وتندهش

لقصره الفاره، وينتهي الأمر برضوخ الملكة لسليمان: «قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾»(٣٢).

إننا لا ننكر أهمية التجارة وطرق القوافل لسبأ، إذ لا تستطيع المملكة أن تقوم بدونها Sine qua non لأن اقتصادها يقوم على تجارة البخور والعطارة، وربما سعى داود وسليمان عليهما السلام للسيطرة على طرق القوافل كما حاول بطليموس الثاني (٣٣)أن يفعل فيما بعد، غير أن القرآن الكريم يضيف بعدًا جديدًا وهو الصراع الديني بين وثنية الجنوب ووحدانية الخالق في الشمال، وهو أمر قديم يرجع إلى حكم الفرعون أمنحتب الرابع الملقب بأخناتون (١٣٦٧ ـ ١٣٥٠ ق. م) ويدافع الأستاذ «بيك» عن رأيه في وجود ارتباط تجاري بين فلسطين القديمة وسبأ مشيرًا إلى عثور جيمس كيلسو James Kelso أثناء تنقيبه عن الآثار في بيت لحم عام ١٩٥٦م على أحد الأختام العربية الجنوبية، كما أشار إلى العثور من قبل على مبخرة عربية جنوبية في تل جمة بالضفة الغربية لنهر الأردن (والتي يسميها قصدًا أو عفوا بالسامرة)، ويحاول أن يتخذ من هذين الشيئين دليلاً على وجود ارتباط تجاري وثيق بين الجزيرة العربية والملكة العبرية(٣٤)، غير أن هذين الدليلين وحدهما لا يكفيان لكي نجزم بوجود خلط تجاري دائم، فالمباخر العربية عثر عليها في كل مكان، وهي حالة واحدة لم تتكرر حتى الآن، أما العثور على ختم عربي جنوبي واحد فلا يعني وجود تجارة دائمة، وعلى حد قول المثل الفرنسي: « ظهور عصفور واحد مبكرًا لا يعني أن الربيع قد جاء»، كما أنه لم يعثر حتى الآن (على حد علمي) على أي مواد عبرية خلال التنقيبات التي أجريت في جنوب الجزيرة، ويدرك الأستاذ بيك ذلك فيبرر عدم العثور على المزيد من الأدلة أن الآثار العربية لم تعرف إلا حديثًا (!!) وأنه يتوقع العثور على المزيد منها مستقبلاً (!)(٣٥) ليبرهن على رأيه بأن المملكة

العبرية سيطرت على منافذ التجارة العربية في الشمال ، وإنني لا أدري كيف نقبل تبريرًا كهذا رغم أن البعثات الأوربية جمعت آثار العرب الجنوبيين منذ أواخر القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر، بدءًا ببعثة كارستن نيبوهرر الدانمركي ، وتمكن علماء الساميات من فك رموز الخط المسند وحل نصوص النقوش العربية؟ ؛ ويقول إنه حتى تاريخ إلقاء محاضراته (١٩٣٠) لم يكتشف في جنوب الجزيرة سوى بناء معماري واحد هو معبد المقة الواقع إلى الشمال من صنعاء والذي أزاح الرمال عنه راتجنزRathjens وهرمان فون وايزمان Herman von Wissmannعام ١٩٢٨ [٣٦]، مستبعدًا المكتشفات الأخرى بأنها عديمة الفائدة العلمية ولا تساعد على الجزم برأي ثابت ، وهو يعني بالطبع آلاف النقوش العربية الجنوبية التي هي باعتراف الجميع مفتاح السر إلى قلب الحضارة ، متناسيًا أن حل رموز الكتابة الهيروغليفية كان بداية لعلم الدراسات المصرية .

والذي لا شك فيه أنه منذ الحرب العالمية الثانية أو قبلها بقليل حدثت ثورة في المعلومات فيما يختص بتاريخ وآثار الجزيرة العربية قبل الإسلام . فقد شهدت أقاليم الجزيرة نشاطا محموما ، قامت به بعثات أغلبها أوربية وقليل منها عربية وتركزت أعمال التنقيب في ثلاث مناطق من الجزيرة هي : اليمن بشطريه ، والحجاز، ومنطقة الخليج . ففي اليمن قام رتشارد ليبارون بوينRichard Le Baron Bowen بعمل مسح أثري لإقليم بيحان نشر نتائجه عام ١٩٥٨ [٣٧] وفي مطلع الخمسينيات من هذا القرن قام الأستاذ الدكتور أحمد فخري [٣٨] يساعده زميله عالم الساميات المصري الكبير يحيى خليل نامي بعمل مسح أثري شامل لآثار ونقوش اليمن ، ونشر الدكتور يحيى نامي نقوشه في حوليات كلية

الآداب جامعة القاهرة[٣٩]، كما قام كل من جوش ڤان بييك Gus Van Beek وج هـ. كول G.H. Cole وألبرت جام A.Jamme بعملية مسح أثـري شامل لمنطقة حضرمـوت في اليمن الجنـوبي نشر في عـام ١٩٦٣[٤٠] كما قـام ف. و. ألبرايت F.W. Albright بالتنقيب في قتبان نشر نتـائجها عام ١٩٥٠ [٤١]، ثم اشترك مع رتشارد ليبـارون بوين بالتنقيب في جنـوب الجزيرة ونشرا نتائج أعمالهما عام ١٩٥٨[٤٢]، كما قـامت عـالمة الآثـار الألمانية جـرترود كـاتـون طومسـون Gertrude Caton Thompson مـع فريـق من علماء الآثـار التابعين لمؤسسـة دراسة الإنسانFoundation for study of Man بالتنقيب في تمنع عاصمة قتبان القديمة بالقـرب من باب المندب (كحلان الحالية)، وكذلـك في حجر بن حميد في وادي بيحان، وفي معبـد المقة (رب القمر) في مـأرب عاصمة سبـأ (والمعروف باسـم محرم بلقيس)، وكـذلك في ظفـار، وقد نشرت المؤسسـة نتائج عمليـات التنقيب في الجريدة في مجلد فاخر ظهر عام ١٩٤٤، [٤٣]، ثم والت نشر أعمال التنقيب فلغ حتى الآن ستـة مجلدات كاملة[٤٤]، وفي عام ١٩٦٢ نشر «جـام» نقـوش معبـد محرم بلقيس السبئيـة[٤٥]. وفي عـــام ١٩٦٥ قـــام راي كليفلاند Clevland بالتنقيب في منطقتي ظفار وعمان وفي جنوب الجزيرة[٤٦]. وقام جون ڤان بييك بنشر نتائج حفـائره في حجر بن جميد عام ١٩٦٩ [٤٧] وقام ريكمانJ. Ryckmans بنشر القـوانين الملكية في معين وسبـأ عـام ١٩٥١[٤٨] وقام بيرتـا سيجال Berta Siégal عـام ١٩٥٨ بنشر نتـائج حفـائرهـا في تمنـع وجنوب الجزيرة[٤٩]. وقام م. أ. سـالمون M.E.Salmon بعمل مسـح شامـل للأدوات البرونـزية في حجـر بن حميـد عام ١٩٦٩[٥٠] كما نشر برايـان Brian Doweنتائج دراساته للجنوب اليمني، صدر عام ١٩٧٢. [٥١]

أما في الحجاز فقد حظيت منطقة حائل باهتمام خاص، فقد قام الأمريكيان وليام ريد William L.Reed وف . ف وينيت F.V. Winnettبمسح المنطقة الشمالية الغربية أثريًّا وطوبوغرافيًّا عام ١٩٦٢ (٥٢)، ثم نشرا نتائج مسحهما لمنطقة حائل عام ١٩٦٧ بالاشتراك مع بيتربار Peter Parr وجون دايتونJohn Dayton (٥٣) وقامت أناتى E.Anati (٥٤) بدراسة الصخور في الهضبة الوسطى نشرتها عام ١٩٦٨ وقام ج . ب . مانداقيل بدراسة عن شمال الجزيرة صدرت عام ١٩٦٣ (٥٥)، وفي وادى الدواسر وبالتحديد في قرية الفاو عند حدود الربع الخالي قام الدكتور عبد الرحمن الأنصاري بالتنقيب عدة سنوات . نشر نتائجها في مجلد صدر في الرياض عام ١٩٨٢ (٥٦) ونحن ننتظر بفارغ الصبر نتائج هذه الحفائر متمنين أن تنشر نشرًا علميًّا دقيقاً . كما قامت إدارة الآثار السعودية بإشراف الدكتور عبد الله حسن مصري بعمل مسح شامل للمناطق الأثرية في الحجاز شارك فيه كل من بيتربار P. Parr وآدامز R.A.Adams وزارينز J.Zarins، وآخرون وتوالى نشر نتائجها تباعًا في حوليتها الأطلال .

أما في منطقة الخليج العربي، فقد نشطت أعمال التنقيب مع تعاظم أهميتها البحرية والبترولية، ولقد لفتت جزيرة البحرين (دلمون القديمة) أنظار الأثريين كهمزة وصل بين حضارات الهند والصين من ناحية وحضارة الرافدين من ناحية أخرى؛ وذلك حتى قبل الحرب العالمية، فقد كانت حكومة الهند البريطانية تشرف وتشجع علماء الآثار على التنقيب في البحرين، نذكر منهم إرنست ماكاي Ernest Mackay، وهاردنج Harding، وفلنورز بترى عالم المصريات الشهير وذلك عام ١٩٢٩ (٥٧) ثم قام كورنول B.Cornwall بالتنقيب في البحرين ما بين ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ (٥٨) وفي عام ١٩٥٤ قام جلوب P.Globbبدراسة بداية

الاستيطان في الجزيرة والمدينة القديمة خاصة معبد بربر[٥٩]، كما قامت البعثة الدانماركية اشراف هـ. كابل H.Kapel بالتنقيب ما بين ١٩٥٣ حتى ١٩٦٠ في جزيرة فيلكا بالكويت خاصة موقعي تل سعد وسعيد[٦٠]، ثم انتقلت إلى البحرين حيث أجرت عددًا من التنقيبات في مواقع المستوطنات والمدافن، ثم انتقلت إلى قطر حيث أصدرت مسحًا أثريًّا شاملاً لدولة قطر صدر عام ١٩٦٧[٦١]. وفي عام ١٩٧٠ أعاد مورتنسن الدانمركي Mortensen دراسة معبد بربر في البحرين نشرها عام ١٩٧٠[٦٢] ومن الذين نقبوا حديثًا في البحرين ديورنج كاسبرز During Caspers[٦٣] وموجال M.R. Mugal[٦٤] ولقد طلبت حكومة البحرين من الهيئات الدولية والعربية التنقيب في منطقة سار الجسر التي كان يزمع إقامة جسر الملك فهد الذي يربط بين المملكة العربية السعودية والبحرين فتأسست بعثة مشتركة من مختصين يمثلون العراق وسوريا والأردن والكويت وقد مثل البحرين فيها معاوية إبراهيم الذي نشر نتائج هذه البعثة المشتركة[٦٥].

أما ساحل المملكة العربية السعودية الشرقي أو بمعنى آخر ساحل الجزيرة العربية الشرقي فهو أقدم المناطق الذي سكنت في الجزيرة، ولهذا فقد كان مجالاً خصبًا للمهتمين بعصور ما قبل التاريخ، وهو الموضوع الذي حظي باهتمام عبد الله حسن مصري سواء في شرق المملكة العربية أوفي المنطقة الشمالية الشرقية[٦٦] وهو نفس الاهتمام الذي شاركه فيه ماكلور[٦٧] وكابل الدانماركي الذي درس منطقة قطر في عصور ما قبل التاريخ[٦٧] والحقيقة أنه لا يمكن فصل هذه المنطقة عن سواحل الخليج سواء أثريًّا أم تاريخيًّا ولا حتى في مجال التنقيب على الآثار، ولا تزال منطقة سلطنة عمان في حاجة إلى المزيد من أعمال التنقيب

لتواكب حركة الاهتمام العام بتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام .

وبالرغم من هذا النشاط الأثري الهائل ، وما تلاه من حركة نشر لنتائج أعمال التنقيب ، فلا يزال تاريخ الجزيرة العربية أسيرًا للفكر التوراتي ، إذ نجد الحقائق تلوى لكي تتماشى مع ماورد في التوراة حول الجزيرة العربية ، بينما كان من المفروض أن يستفيد مفسرو التوراة من نتائج هذه المكتشفات الأثرية لتفسير التوراة وأسرارها . وأن يكون التفسير خاضعًا للمصادر الأثرية والتاريخية باعتبارها حقائق ثابتة ، بدلاً من لوي نتائجها لتخضع لنصوص التوراة حسب هوى مفسريها ، ناهيك عن إهمال الأوربيين لمصدر المصادر، وهو القرآن الكريم بآياته الواضحة الحاسمة ، ولا يوجد ولن يوجد مصدر يعرف عن تاريخ العرب القديم وأحوالهم يداني ما ورد في آيات القرآن الكريم عنهم ، كما يتجاهل الأوربيون المصادر العربية الإسلامية ، بل ويتعمدون التعتيم على نشاط العلماء العرب . وهذه إحدى القضايا المقلقة للمهتمين بدراسة تاريخ الجزيرة ؛ ومن ثم يتوجب علينا العمل بجد لتحرير تاريخ الجزيرة من التبعية لنصوص التوراة ، وحتى لا يصبح علمًا موقوفًا على الأوربيين وحدهم .

غير أنه من العدل أن نقول إن هذا النشاط المحموم ، تلته حركة اهتمام علمي بالجزيرة ، فقد أقامت جامعة الملك سعود ثلاث ندوات عن مصادر تاريخ الجزيرة خصصت الندوة الثانية التي عقدت في إبريل (نيسان) ١٩٧٩/ ١٣٩٩ هـ لتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وشارك فيها كبار الباحثين من الشرق والغرب ، ونشرت أبحاثها في مجلد أنيق صدر عام ١٩٨٤/ ١٤٠٤هـ ، كما توالى نشر العديد من النقوش والمخربشاتgraffiti التي وجدت خلال أعمال التنقيب السالفة الذكر، والتي شملت أسماء أعلامها ، ونقوشًا على المقابر، وتبين اسم المتوفى وعشيرته وقبيلته ، ونقوشًا خاصة بتقديم القرابين وإقامة المعابد والمرافق

العامة، والقليل منها كان نقوشًا تاريخية تختص بأبحاث سياسية ساعدت في إعادة بناء تصورنا عن ممالك الجزيرة في العصور القديمة، وحسمت مشاكل وقضايا كثيرة كانت تواجه الباحثين حول تحديد عصور الممالك العربية الجنوبية ومعرفة أسماء ملوكها، وسني جلوسهم على العرش. وبعض القوانين والشرائع الخاصة بالضرائب والعشور، ومعرفة المزيد من ديانات العرب قبل الإسلام، وتطور الكتابة العربية الجنوبية من خلال متابعة المحتوى والخطوط. كل هذا ساعد على وضع تخطيط جديد لتاريخ العرب القديم يختلف إلى حد ما مع ما كتب عنهم قبل الحرب العالمية الثانية(٦٩)، بل إن نشر المزيد من المصادر قد يجعلنا في المستقبل نعيد النظر مرات ومرات فيما كتب حتى تستقر خطوته، وتثبت معالمه. وليس هذا بغريب فلقد مر تاريخ الرافدين وتاريخ مصر بنفس المرحلة ونفس الظروف، ولا يزال عرضة للتغير، إذا ما ظهرت وثائق جديدة فالتاريخ لا يستقر على حال واحد، لأن علمه الحقيقي عند ربي.

ومن أهم نتائج هذا التقدم الكبير في البحث حسم الجدل الذي كان يدور حول تحديد بداية قيام أقدم الممالك العربية في الجنوب، فقد كان هناك رأي يؤكد أن دولة معين وقتبان تسبقان في قيامهما قيام دولة سبأ، ويحدد تاريخًا وتقديرًا لقيام الدولة المعينية والقتبانية وهو خلال الألف الثاني ق. م، أما أنصار التاريخ المتأخر فيؤكدون أن سبأ هي التي سبقت كلاً من معين وقتبان، ويحددون عصر المكارب في سبأ إلى مطلع القرن الثامن ق. م، بينما يحددون نهاية القرن الثامن ومطلع القرن السابع ق. م كتاريخ لقيام دولة معين وقتبان (٧٠) ولقد كان الرأي الأول هو السائد حتى وضح وينيت Winnettعام ١٩٣٩ دهشته من أن أغلب قوائم النقوش المتاحة والتي تشتمل على أسماء ملوك معين وسني حكمهم، تعود إلى الفترة ما بين ٤٠٠ ــ ١٠٠ ق. م، ثم رصد التأثير المعيني على النقوش

اللحيانية المتأخرة في شمال غرب الجزيرة، أو بمعنى آخر في منطقة الحجاز،(٧١)، و يقول قان بيك أن الضربة القاضية(٧٢) التي قوضت الرأي الأول جاءت على إثر نشر نتائج أعمال التنقيب التي قامت بها مؤسسة الإنسان الأمريكية في موقع «تمنع» عاصمة قتبان عام ١٩٥٠ ، حيث عثر على زوجين من التماثيل البرونزية تمثلان أسدين يمتطيهما طفلان، ويحملان ملامح الفن الهللينستي، الذي يرجع للقرن الأول ق . م ، وعلى قاعدتيهما نقش يسجل اسمين لاثنين من العمال من بين الذين اشتركوا في ترميم البناء الذي زين بالتماثيل المذكورة، كما وجدت نقوش أخرى على حائط البناء تحمل نفس الاسمين للعاملين المذكورين، ويذكران فيه أنهما قاما بهذا العمل في عصر حكم ملك قتبان الشهير «شهر يجول يهرجب»(٧٣) وبناء عليه فقد حدد تاريخ حكم هذا الملك القتباني بأنه في العصر الهللينستي، وليس في القرن الثامن ق . م كما كان يظن أنصار الرأي الأول؛ وتحديد عام ١٥٠ ق . م، يتطابق مع ما ورد في استكمال الدكتور فؤاد حسنين لكتاب التاريخ العربي القديم(٧٤)، ومهما يكن من أمر فقد كان ذلك دفعة قوية إلى الأمام لإزاحة الغموض حول عصور حضارات الجزيرة ويؤكد ازدهار الممالك العربية في العصر الهللينستي كثرة وجود التماثيل الهللينستية في جنوب الجزيرة بشكل ملحوظ، بل وفي نتائج كشوفات وتنقيبات الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري في موقع الفاو(٧٥).

ولقد كشفت أعمال التنقيب عن الحجم الهائل الذي شغلته شبه الجزيرة منذ القرن الثامن ق . م وحتى تهدم سد مأرب وحدوث سيل العرم، وبينت أن هناك أربع مناطق حضارية متميزة وواضحة قامت في ربوع الجزيرة، هي : جنوب الجزيرة أو بلاد العرب السعيدة، وشمال الجزيرة أو الحجاز، وسواحل الخليج العربي، والساحل الشرقي للجزيرة الذي يشمل مسقط وعمان، غير أن أكثرها

بريقًا وازدهـارًا هي بلاد العرب السعيدة، التـي كانت نواتها تلـك البقعة المثلثة الـواقعة على حـافة الصحـراء ويحفها جبـال تهامـة من الغـرب، وجبال اليمـن الجنوبي وهضبتها الصحراوية في الجنوب، ورمال الربع الخالي الذي يفصل بينها وبين هضبة نجد في الشمال. ولقـد كشفت نتائج التنقيب أن الحضـارة في هذه البقعة لم تكـن نتيجة عصـور طويلة مـن المعاناة والتطـور البطيء على نحـو ما كانت بلاد النهـرين أو مصر، بل انبثقت فجأة كما خرجـت «أثينا» ربة الحكمة كاملـة النمو مـن عقل أبيها زيـوس على نحو ما تـروي أساطير اليـونان، ولهذا يميـل المؤرخون إلى الاعتقـاد بـأن هذه الحضـارة ولـدت نتيجـة قدوم جماعـات مستوطنة ومهاجرة أغلب الظن أنها جاءت مـن بلاد الرافدين في شكل موجات متتاليـة منذ القـرن الخامس عشر قبـل الميلاد حتـى اكتمل استيطـانها في القرن الثـاني عشر ق.م [٧٦]، والذي يؤكد ذلك، القرابة مـع حضارة الرافدين ليس في مجال اللغة فحسب، بل في أصول العقيدة ورمـوزها، بالإضافة إلى أن الخبرة العربيـة في مجال بناء السدود وإقـامة شبكات الـري والتي لا تتأتـى إلا لسكان جنوب الرافدين، والتـي هي نتاج خبرات وتجارب آلاف السنين، ولا يمكـن أن تكون نتيجة عبقرية خارقة مفاجئة.

فمنذ قيامها تميزت الحضارة العربية الجنوبية بوجود نظام للري لا مثيل له وفي شبكة معقدة من القنوات الفـرعية توزع المياه بدقة متناهية على مسـاحة شاسعة من الأرض الـزراعية، وسدود مـن الأحجار لحجـز مياه السيول، أو في مصـايد المياه المثلة في الفجـوات العميقة التي نتجت عن الأخاديـد والزلازل وفي وجود الآبار المصدر البديـل لمياه الأمطار والسيول والمثل الكامـل لهذا النظام المعقد هو ما كشـف عنه في وادي بيحان بالقـرب من حجر بـن حميد[٧٧]، وهناك أيضًـا شبكة أخرى للري كشف عنها في وادي زنة بالقرب من مأرب في اليمن[٧٨].

ولقد تميزت هذه الحضارة بقيام القرى والمدن التي لا تختلف كثيرًا عن قرى ومدن الرافدين ، أو الهلال الخصيب ، أو وادي النيل ، وقد تراوحت أحجام هذه التجمعات السكانية من نجوع صغيرة لا تتعدى مساحتها الهكتار الواحد (حوالي اثني عشر فدانًا مصريًّا) إلى مدن عامرة تشغل مساحة تصل إلى ستين هكتارًا (حوالي ٤٥٠ فدانًا مصريًّا) ، كلها تحمل نفس التخطيط العمراني المنظم الذي يشبه مدن العراق والشام ، أو البناء العشوائي القروي الذي لا تخضع مبانيه لتخطيط ثابت . ولقد كانت المباني الخاصة والعامة تبنى من الآجر الطيني أو الحجر. وفيما بعد حقق فن البناء عندهم انجازات رائعة ، تعتبر علامات مميزة في تاريخ العمارة في الشرق الأدنى القديم ، خاصة تلك التجاويف التي عملت في الحوئط (أو ما يعرف بالدواليب الحائطية) التي تزينها النمنمات الزخرفية البارزة مثل «الدانتيل» وفتحات التهوية التي تشبه مصايد الهواء في بيوت قرى الفيوم القديمة ، والنوافذ ذات المشربيات والتي تقابلها في المباني الكبيرة مثل معبد المقه في مأرب والشهير بمحرم بلقيس[٧٩] ، كما نجد لها نماذج مصغرة في البيوت ، وكذا في أنواع المباخر المختلفة الأشكال . وكما لاحظ الأستاذ «براين دو»[٨٠] «فان بيك»[٨١] فإن نظام البناء يتخذ أسلوبين ، أسلوب البناء الطيني الذي ينفذ إلى حد ما طبقا لرسم معين والذي تزخرف سطحه عرائس أو فتحات منقورة وهو أسلوب عريق الجذر في المنطقة ، بل له بقايا في أسلوب البناء القومي في البيوت والقصور القديمة في مدن الجزيرة حتى الآن (قارن البيوت وقصور الرياض القديمة) والآخر البناء الحجري الذي يتكون من أحجار منحوتة ، تكسوها طبقة مسطحة أو محدبة . أما تخطيط البناء فيبدو كشبه المنحرف إذا ما نظرنا إليه من علو شاهق .

وفي ضوء آلاف النقوش التي عثر عليها يمكننا القول أن الكتابة والقراءة كانت شائعة بين السكان الذين كانوا يتحدثون لغة سامية عربية جنوبية، لها أبجدية جميلة الأشكال تستند حروفها بعضها إلى بعض ومن ثم عرفت بالخط المسند. وكانت تتكون من تسعة وعشرين حرفا صامتا. وكانت الموضوعات التي تغطيها النقوش متنوعة، وكانت تختلف في أطوالها حسب أهميتها. والنقوش الرسمية كانت تنقش بدقة وعناية على واجهات المباني العامة، وعلى الأحجار سواء من الصوان أم الحجر الجيري أم المرمر، وتنقش على صفائح النحاس أو تصب في قوالب من البرونز أو ترسم بخطوط غائرة على الأواني الفخارية أو عظام الحيوانات العريضة. كما أن العثور على أعداد كبيرة من المخربشات (graffiti) العفوية التي خطها عامة الناس سواء من رجال القوافل العابرة، أو من الرعاة أو غيرهم، يوضح أن التعليم كان منتشرا بين الناس، ولم تكن القراءة حكرا على طبقة الكهنة وحدهم دون غيرهم، كما هو الحال في العراق القديم.

أما في مجال العقيدة، فنجد ديانة وثنية ثابتة الأركان، متأثرة بعقائد بلاد النهرين، ويشهد على ذلك ظهور شجرة الحياة أو «سدرة المنتهى» في الرسومات الدينية؛ وبعكس العرب الشماليين فضل الجنوبيون عبادة الآلهة الفلكية، التي لا تصور ولا يصنع لها أصنام: مثل الشمس، والقمر، وكوكب الزهرة، وبعكس الآلهة الإغريقية والمصرية والعراقية القديمة نجدهم يحولون الشمس (اللات) إلى أنثى (بينما في ديانات الشعوب سابقة الذكر نجدها ذكرًا) بينما يحولون القمر إلى زوج ذكر لها (ود أو المقة)، على طريقة التثليث المصرية يجعلون لهذين الزوجين ولدًا هو عشتر (كوكب الزهرة). وربما لأن الشمس عند الشعوب الشمالية كانت ترتبط بذوبان الجليد، وامتلاء الأنهار، أما في مصر فإنها كانت

مبعث الضوء والحرارة اللازمين لنضوج النبات، بينما هي في جنوب الجزيرة محرقة وقاتلة، أما القمر فهو هادئ وجميل تسير القوافل ليلاً في ضوئه، ويحسب التقويم من خلاله ولهذا، جعلوه الرب الأكبر، أمّا كوكب الزهرة فهو الكوكب الذي يسبق ظهور الشمس ويتلو مغيب القمر وتستخدمه القوافل لتحديد اتجاهها، وصدق الله العظيم حين يقول«وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»(٨٢)، ولهذا فإن كافة حضارات جنوب الجزيرة أعطت القمر منزلة أعلى من الشمس، وإن اختلفت في تسميته، وبنيت له المعابد في كل مكان، في الدساكر، والقرى، والمدن. أما عن تخطيط المعبد العربي القديم فهو عادة ساحة أو حرمًا منفتحًا تحيط به صفوف الأعمدة (Peristyle) ويقوم المحراب عند أحد جوانبه. وفي كل معبد توجد بئر أو مصدر مائي بهدف الوضوء والتطهر، وفي داخل هذا الحرم عثر على النذور، والقرابين، سواء في شكل مصورات أم تماثيل لإدخال السرور والبهجة على الآلهة، أو في شكل لوحات من النحاس أو المرمر نقشت عليها عبارات الشكر والعرفان لنعمة حدثت، أو تجارة كسبت، أو نصر تحقق، أو من أجل رجاء طلب أو أمنية(٨٣).

ولقد حقق الفنان العربي قدرًا من المهارة لا يقل عن مثيله في العراق أو الشام أو مصر أو بلاد اليونان خاصة في فن النحت والتصوير، وصناعة الأثاث المنزلي. فقد استغل الفنان تنوع الصخور سواء من حجر الكلس أم المرمر أم الحجر الجيري أم الحجر الصابوني أم حجر الاردواز أو الشبه (البروسيت Brucite) لكي ينحت أشكالاً بمهارة تجمع بين الجمال والواقعية، وفي صناعة الصناديق والخزانات الحجرية، ذات الجوانب المزخرفة بالأفاريز المربعة الغائرة التي تشبه الأفاريز التي تزخرف المباني الكبرى، والتي سبق الإشارة إليها، والتي فاق فيها العربي القديم فناني ونحاتي الشعوب الأخرى، وحتى ذلك الفن

الروماني لم يصل إلى درجتها إلا بعد جهد جهيد، وفي مرحلة تالية. أما في مجال المعادن فقد حقق العربي الجنوبي قدرًا فائقا من الإبداع والتفوق، فاستخدم الحديد والنحاس والبرونز، والفضة والذهب في عمل مشغولات بديعة، وقد ورث الصائغ اليهودي حرفة الصياغة عن العربي بعد أن تدهورت حضارته، فقبيل الإسلام نقل اليهود المهاجرون هذا الفن معهم إلى مدن الحجاز، واحتكروه لأنفسهم وأنشأو أسواقًا للصاغة، كما هو معروف لنا من المصادر عن الحياة في يثرب وغيرها من المدن العربية قبل الإسلام. وكذلك يتضح من دراسة المسبوكات البرونزية المتعددة أن عرب الجنوب عرفوا أسلوب صب التماثيل المجوفة أو المفرغة وذلك باستخدام القالب والشمع المصهور، كما عرفوا طريقة تطعيم الأواني بالنحاس عن طريق ترصيعها بأسلاك رفيعة لعمل زخارف وأشكال. أما عن الفخار فبالرغم من كثرة وجوده إلا أن ما صنعوه منه لم يصل إلى الجودة والدرجة التي وصل إليها الإغريق والرومان والأنباط. وقد خبر هؤلاء الأخيرون صناعة الفخار رقيق الجدرانeggshell [٨٤] غير أن عرب الجنوب حاولوا تقليد هذا الفخار الجيد المستورد، وكثرة وجود هذه الأنواع من الفخار تؤكد وجود اتصال فني واسع مع شعوب الهلال الخصيب وشعوب البحر المتوسط سواء عن طريق التجارة أم هجرة الفنانين والحرفيين، ويؤكد وجود تقنيات وأنماط زخرفية واحدة انتشرت عبر منطقة شاسعة امتدت من وادي النيل غربًا إلى الفرات وبلاد الفرس شرقًا؛ ومن القوقاز شمالاً إلى اليمن جنوبًا[٨٥].

وعلى طريقة المدن الموكينية الإغريقية، كانت المدن في جنوب الجزيرة العربية تقام فوق التلال والجبال التي تشرف على الوديان الزراعية أو على طرق القوافل التجارية، وقلما وجدت المدن المحاطة بالأسوار الدفاعية[٨٦] اللهم إلا في المدن

التي قامت حول الآبار في السهول والواحات. ومن خلال دراسة نتائج التنقيبات في قرية الفاو(٨٧) نعرف أن المدينة العربية القديمة كانت تضم حيًّا للتجار ودارًا لاستقبال المسافرين منهم، واصطبلات لمبيت الجمال واستبدال تلك التي أصابها الإرهاق أو العجز عن السير، وتشمل المدينة أيضا سوقا تجارية تصطف على جانبيها الحوانيت والمخازن لخزن البضائع والمواد التي تجلبها القوافل العابرة. ولأن اهتمام السكان كان منصبًا في المقام الأول على التجارة، فلم تكن دويلات الجنوب دولاً عدوانية، بل كانت تحرص على السلام باستثناء الصراعات القبلية على الحكم، وقلما تورطت في الحروب التي كانت تجري على الساحة الدولية مثلما حدث في معركة رفح التي سبق الإشارة إليها، ومن ثم فإن النقوش التي كانت تتحدث عن الحروب والمعارك قليلة ومحدودة، لأنهم مثل أشقائهم الفينيقيين في الشمال وضعوا كل همهم وخبراتهم في مجال التجارة والمال، وقد وضح ذلك في مقاومتهم المحدودة لحملة ايليوس جاللوس على مأرب عام ٢٤ ق.م.

كانت الدعامة الأولى التي قام عليها اقتصاد دويلات الجنوب العربي هي إنتاج وتسويق وتوزيع اللبان والبخور والمر، فقد كان الطلب على هذه السلع شديدًا، فقد كانت المعابد الوثنية في مصر وبلاد الهلال الخصيب تستخدمه بكثرة في معابدها، بل ولا يزال البخور يلعب دورًا في معابد اليهود الشرقيين، وفي منازل الأفراد حتى يومنا هذا، كما أن النقوش المصرية مثلاً تحدثت عن بلاد البخور بأنها أرض مقدسة، فمنها يأتي غذاء الآلهة، بل إن المر استخدم في صناعة العقاقير وتحنيط الموتى، وترتبط الأخيرة بالدين المصري القديم. وبسبب شدة الطلب على البخور خلال الألف الأولى ق.م جنت الدويلات العربية الجنوبية ثروات هائلة من تجارتها، ووصلت قمة هذا الثراء في أواخر القرن الأول

ق . م ومنتصف القرن الأول بعد الميلاد أي قبيل وبعد قيام الإمبراطورية الرومانية . ولقد وصف بلينيوس الأكبر عرب الجنوب بقوله «أغنى عنصر بشري في الكون»(٨٨) ، ويتضح من قائمة السلع المصدرة إلى بلاد العرب أنهم كانوا مكتفين ذاتيًا ، ولم ينقصهم سوى بعض الكماليات الترفيهية التي لا يطلبها سوى الأثرياء(٨٩) . مثل التماثيل البرونزية وقطع التحف والأواني الفضية المشغولة والزجاج المصري ، والأواني النبطية والفارسية ، والفخار الأريتيني الإيطالي الفاخر ، والأواني المزججة من الأناضول وجنوب روسيا ، وبعض المشغولات من الهند . ولقد دهشنا من وجود هذه التماثيل السكندرية حتى وإن كانوا لا يعبدونها مثل ابروس الطفل الذي عثر عليه في حفائر جنوب الجزيرة وفي الفاو أيضًا . كما يشهد على ازدهار اقتصاد هذه الدويلات العربية أنها عرفت سك النقود منذ وقت مبكر مقلدة الدراخما الأثينية التي تحمل رسم طائر البومة رغم أنه رمز السوء في الشرق ، بينما هو رمز الحكمة والمعرفة في الغرب . وإن دراسة كميات النقود وأنواعها في جنوب الجزيرة تحتاج إلى دراسة خاصة ومقال مستقل(٩٠) .

وقبل أن نترك الحديث عن دويلات جنوب الجزيرة يطرح سؤال نفسه وهو: ما أسباب تدهور وسقوط دول الجنوب إذا كانت بهذا الثراء ، ولقد طرح على الساحة إجابتان . الإجابة الأولى ما ذكره مونتجمري ، وهو أن تدهور اقتصاد هذه الدويلات تبعه تدهور سياسي وقلاقل اجتماعية ، وإن السبب في تدهور اقتصادها دخول السفن البطلمية المصرية ، والسفن الرومانية كسفن منافسة للسفن العربية في نقل البضائع والسلع الشرقية مع الهند ، وتوقف طريق القوافل البري بعد أن حول الرومان التجارة الشرقية إلى الموانئ المصرية على البحر الأحمر ، غير أنه ثبت أن العرب استمروا في الثراء والازدهار حتى بعد سيطرة الرومان على

البحر الأحمر، لكنهم بالطبع فقدوا عامل الاحتكار وفشا سر الأسرار البحرية بعد اكتشاف البحارة السكندريين لموعد هبوب الرياح الموسمية وتوظيفها في الملاحة بين الشرق الأقصى والسواحل المصرية.

أما الرد الآخر فيعرضه جوس ڤان بيك، وفيه شيء من التحامل على المسيحية وهذا الرأي في الحقيقة متأثر بفكر المؤرخ الفرنسي جيبون، بل ويقلده في جعل انتصار المسيحية على الوثنية هي الشماعة التي تعلق عليها الفشل في الحفاظ على قوة الدفع الحضارية، في العالم القديم، إذ يرى ڤان بيك أن الطلب على البخور توقف بعد هجر المعابد الوثنية وتوقفها عن العمل، وتحريم الكنيسة لعادة حرق الموتى وسط أكوام البخور والطيب وخشب الصندل والمر، ويستشهد على ذلك بنص من بليني الأكبر ذكر فيه أنه عندما ماتت زوجة الإمبراطور نيرون وهي بوبايا سابينا Popaea Sabina أمر بحرقها وسط كومة من الطيب والبخور قدرت بإنتاج عام كامل للبخور والمر الذي تنتجه بلاد العرب[٩١]. غير أن هذا الرأي غير صحيح، لأن المعابد الوثنية لم تغلق أبوابها إلا في عصر ثيودوسيوس الكبير عام ٣٩٥م أي في أواخر القرن الرابع الميلادي، وبأمر رسمي، كما أن الكنائس استمرت وتستمر في استخدام البخور في الشعائر ومن ثم فكلا الرأيين لا يمثل كل الحقيقة.

إن تدهور وسقوط الدولة الحميرية آخر دويلات الجنوب العربي جاء نتيجة لمرحلة طويلة من الإرهاق الحضاري، والتدهور الاقتصادي، وفقدان روح التحدي والدفع الحضاري لدى شعوب الجنوب العربي، فتدهور الطلب على اللؤلؤ والبخور كان يمكن أن يعوض بتحويله إلى تجارة الذهب والمرمر وصادرات أفريقيا والرقيق التي كان الطلب يزداد عليها، إنما تدهور العناية بشبكة الري وإهمال ترميم سد مأرب العظيم، جعل الصحراء تزحف على

المنـاطق المزروعـة، وبدأت الميـاه تندر، فـأدى ذلـك إلى تزايـد الفقر، وهجـرة السكان إلى الشمال. ولعل من الأسباب التي أسقطت هذه الدويلات هو طمع سبأ الأفريقية في جنوب الجزيرة وهـو ما وضحته في بحث مستقل. كما أن علماء المناخ يذكرون أن تحولاً في المناخ قد حدث خلال القرون الأولى بعد الميلاد، أدى إلى قلة الرطوبة وازدياد الجفاف، فلم يعد جنوب الجزيرة ينتج البخور والمر حتى أن أشجار اللبان كـادت أن تصبح نادرة وتراثـًا أثريًا من الماضي، ومـن ثم أدى ذلك إلى الهجرة إلى الشمال حينًا وإلى أفـريقيا حينًا آخر(٩٢)، وكانت طاقة الرحمة Coup d'grace ، هو حـدوث سيل العـرم الذي أتـى على الأخضر واليابـس، ذلـك في القرن الخامـس الميـلادي، وكـان هذا نهايـة الجنـوب، وبـداية نهضـة الحجاز. كما يرى آخـرون أن الثقافة العربية الجنوبيـة تدهورت مع تدهـور ديانة الجنوب الوثنية، التي لم تصمد أمام الديـانات السماوية القادمة من الشمال مثل اليهودية والمسيحية اللتين دخلتا في صراع دموي على الأرض العربية فبددتا روح السلام التي كـانت سائدة في عصور الازدهار التجاري، وعـرف جنوب الجزيرة المحـارق والمذابح للمخـالفين في العقيدة كما ذكـرنـا في تحليل حـادثة الأخـدود الشهيرة(٩٣). ومن ثـم تدهـورت اللغة العـربية الجنـوبية لجمـودها وعـزلتها ولم تصمد في اللغة الفنية العربية الشمالية التي أوجدت لها أبجدية أيسر وأسهل منذ القرن الرابع الميلادي.

لقد كانت أسعد عصور الشمال هي العصور التي شهدت مغيب شمس القوة عن الجنوب، فقد ازدهرت مدن الحجاز بفضـل المهاجرين القادمين من الجنوب بكل تراث الماضي وخبراته، فتحولت مدنـه إلى مراكز للنشاط التجاري، ولم تعد القوافل تبدأ مـن الجنوب بل من مكة أو الطائف، وأقيمت الـوكالات التجارية العالمية فيها، ونشطت أسواقها الأدبيـة كسوق عكاظ وذي الرمة وغيرها، وازدهر

الشعـر الجاهلي، وعرف الشمال البـذخ الـذي يتمثل في إقـامـة الحانات ولعـب الميسر، وأماكن المتعـة التي اشتهرت بها الطائف قبل الإسلام، ومـن ثم فإن المائة والخمسين عامًا التـي سبقت البعثة المحمديـة هي بلا شك عصر نهضـة الحجاز بعـد أن اكتسحته ثقـافة الشمال العـربية الآراميـة، فبددت مـا تبقى مـن ثقافـة الجنوب، ولعـل النقش الجنوبي الذي أشرت إليـه في بحث سابق والـذي سجله وترجمه الهمداني بعد أن شـاهده مكتوبًا على أطلال ملوك حمير الغـابرين، ويعبر عـن حيرة وقنوط وحسرة مـن جنوبي مجهـول على ضياع حضـارة بلاده، ويقـول النقش: «لمن (اليوم) ملك ذمار؟ لحمير الأخيار؟ لمن (اليوم) ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار؟ لمن (اليوم) ملك ذمار؟ لفارس الأحرار؟ لمن (اليوم) ملك ذمار؟ لقريش النجار؟»(٩٤)

إن دراسة الحجـاز قبيل سقـوط الدولة الحميريـة وبعد سقـوطها وحتـى قيام الدعـوة الإسلامية هو مـوضوع يطول الحديـث فيه، ويستحق معالجتـه في مقال مستقل.



هوامش البحث

(١) انظر : لطفي عبد الوهاب يحيى : «المصادر الكلاسيكية لتاريخ الجزيرة العربية» [دراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الكتاب الأول ، الجزء الأول بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري] ، مطبعة جامعة الرياض ١٩٧٩ .

(2) James Montgomery (With Prolegomenon by Gus Van Beek), Arabia and the Bible, Ktav publishing House, Inc. 1969.

(٣) الجزيرة العربية قبل الإسلام (إشراف د . عبد الرحمن الأنصاري) ، مطبعة جامعة الملك سعود ١٤٠٤ هـ .

(4) J. Montgomery, op cit., px (by Van Beek).

(5) Ibid . pxi.

(6) Michael Grant: Ancient History, Home Study Books), Methuen & Co.Ltd London 1952, p 42.

(7) Montogmery, op cit p XIV

(8) Ibid. p. XV.

(9) Philologus, 86 (1931), p336. Werner Caskel, "Arabia", Chap. 48, part, 4 in ; Hellenism and the Rise of Rome (edited by Pierre Grimal), Weidenfeld and Nicolson, Universal History, London 1969, p 292 - 3 (note 124 = p 388).

(10) Ibid. p. 293 (note 125 = p 389):

عندما أنقذهما عطار . . . ود ومكره وبضائعهما بن وسط مصر» ، ويقترح كاسكل أن عبارة «بن وسط مصر» ذات مدلول ديني وليست ذات مدلول جغرافي ، ولم يوضح بينما يرى فرتز هومل أن إقليم وسط مصر» ، هو إقليم تجاري وهو الأرجح انظر : ديتلف ينلس ، فرتز هومل ، رودوكاناكيس : التاريخ العربي القديم ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٨ (ترجمه واستكمله الدكتور فؤاد حسنين علي ، وراجع الترجمة زكي محمد حسن» ص ٦٩ «هامش ١ ، وقارن

Werner Caskel , loc cit . p 389 (note 125)

(11) Ibid. p 293.

(12) W.W. Tarn: "Ptolemy II and Arabia", Journal of Egyptian Archaeology, vol. XV (1929)pp2-25, (especially pp 9-11)

(13) Altheim-Stiehl: Die Araber in der Alten Welt, I,Bertln 1963, pp 75 seq.

(14) S . trabo XI,IX, 2; XI, 2; XI, XIV, 15 (c5 15, 531).

(15) Caskell, loc cit, p 293.

وكان أول من لاحظ ذلك الأستاذة ج بيرين :

J.Pirenne: Palaeographie des Inscriptions Sud-Arabes... I, Vehr knkl. vlaamse Ac... Van Belgie, Kl. d. Letteren nr.26, Brussels (1956), pp 212 et seq (Caskel p 389 note 126).

(16) Caskel, loc cit p 293).

كذلك انظر ديتلف تلسن : المرجع السابق ص ٦٩٦٧ (أبي يدع يسطع)، مع ملاحظة أن المؤلفين يعتقدون أن سبب تقديم قربان الشكر ليس بسبب النجاة من الحرب التي وقعت بين البطالمة والسلوقيين» وإنما السبب النجاة من هجوم شنه بعض قبائل البدو من السبئيين والمخولائيين على الطريق التجاري .

(17) cf. Van Beek in his prolegomenon to Montgomery's Book p XXI

(١٨) حسن ظاظا : «المجتمع العربي القديم من خلال اللغة : (الجزيرة العربية قبل الإسلام) جامعة الملك سعود ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٧٨ .

(١٩) سيد أحمد الناصري : العرب وأفريقيا في عصور ما قبل الإسلام» طبعة جامعة القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٣٨ هامش ٩٨ .

(٢٠) عبد الله حسن مصري : «ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها» ، الجزيرة العربية قبل الإسلام ، جامعة الملك سعود ١٤٠٤/ ١٩٨٤ ، ص ١٧٨ .

Harold A. Mc Clure: The Arabian Peninsula and Pre-historic population, H.Field (editor), The Field Research Projects (Miami Coconut Grove, 1971; and in the same serie cf. Masry: A.H, "Pre-history in N orth-Eastern Arabia, 1974.

21. Mark Speece : "The Role of Eastern Arabia in the Gulf Trade of the third and Second Millennia," Pre-Islamic Arabia, King Saud University 1984, p 167-176. H. Kapel: "The Atlas of the Stone Age Cultures of Qatar (Denmark: Jutland Archaeological Society Publications, 1967.

(٢٢) ارجع إلى المحاضرة التي ألقيتها في الموسم الثقافي لكلية الشريعة والحضارة، جامعة الملك عبد العزيز بمكة (أم القرى حالياً) عام ١٣٩٨ م (١٩٧٧م) وعنوانها : هيرودوت وجزيرة العرب .

(23) Brian Dowe: Southern Arabia, Cambridge 1971. Pl no XI

(24) Montgomery : op cit. P.XII, XIII, XXX (by Gus Beek) , and also p 175 - 180.

(٢٥) « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب ، فأتت لتمتحنه بمسائل، فأتت إلى

أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أثياباً، وذهباً كثيراً جداً، وحجارة كريمة، وأتت سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها سفر الملوك ـ الإصحاح العاشر ١ ـ ٢ . وفي الفقرة العاشرة من نفس السفر و الإصحاح تقول التوراة «وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيرة جداً، وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان» . وفي الفقرة الرابعة عشر والخامسة عشر أيضا تقول التوراة: «وكان وزن الذهب الذي أتى به سليمان في سنة واحدة مئة وستا وستين وزنة ذهب (١٥) ماعدا الذي من عند التجار، وتجارة التجار، وجميع ملوك العرب وولاة الأرض»

(٢٦) الإصحاح التاسع فقرة (١): «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان، فأتت لتمتحن سليمان بمسائل إلى أورشليم بموكب عظيم جداً وجمال حاملة أطياباً وذهباً بكثرة، وحجارة كريمة» فأتت إلى سليمان وكلمته عن كل ما في قلبها (٢) فأخبرها سليمان بكل كلامها، ولم يخف سليمان أمراً إلا وأخبر ها به . وفي الفقرة التاسعة من الإصحاح نفسه تقول التوراة أيضا: «وأهدت الملكة مئة وعشر وزنة ذهب، وأطياباً كثيرة جداً، وحجارة كريمة، ولم يكن ذلك الطيب الذي أهدته ملكة سبأ . . (١٢) وأعطى الملك سليمان ملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت، فضلاً عما أتت به إلى الملك فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها» .

(27) Montgomery (Van Beek's prolegomenon) p. XVIII

(٢٨) النمل (آية ٣٠) .

(٢٩) النمل آية ٣٢ .

(٣٠) النمل آية ٣٤ .

(٣١) النمل ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣٢) النمل آية ٤٣ .

(33) Tarn loc cit , p 13

(34) Montgomery op cit. (Van Beek' prolegomenon) p XVIII(note no. 7) , pXXX.

(35) Ibid p XIX

(36) Ibid p XX.

(37) Richard le Baron Bowen Jr., "Archaeological Survey of Beihan,", Archaeological Discoveries in South Arabia (Baltimore 1958), pp 3-34.

(38) An ARCHAEOLOGICAL JOURNEY TO YEMEN, 3 vols (Publication du Service des Antiquites d'Egypte, Cairo 1951 - 1952.

(٣٩) يحيى خليل نامي (١) نقوش خربة معين (منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٢).

(٢) نقوش خربة براقش على ضوء مجموعة محمد توفيق، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة (المجلد السادس عشر، الجزء الثاني) ديسمبر ١٩٥٤ .

(٣) نقوش عربية جنوبية ـ المجموعة الثانية ـ مجلة كلية الأداب ـ المجلد السادس عشر الجزء الثاني (ديسمبر ١٩٥٤).

(٤) نقوش خربة براقش ـ المجموعة الثانية ـ مجلة كلية الأداب المجلد السابع عشر الجزء الأول مايو ١٩٥٥ .

(40) G.W, Van Beek, G,H. Cole, and A. Jamme, "An Archaeological Reconnaissance in Hadreamaut, South Arabia, -- A Preliminary Report" : Smithsonian Report for 1963 (Washington) pp 521 - 545.

(41) W.F. Albright, "The Chronology of Ancient South Arabia in the light of the first campaign of Excavation in Qataban", Bulletin of The American Schools of Oriental Research, 119 (1950), PP 5-15.

(42) r. Le Baron B oen Jr. & F.P. Albright, "Archaeological Discoveries in South Arabia, "(Baltimore 1958).

(43) G.Caton Thompson, "The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadramaut)," in Reports of the Research Committee of the Society of Antiquaries of London, XIII (Oxford, 1944).

(44) PUBLICATIONS OF THE AMERICAN FOUNDATIQN FOR THE STUDY OF MAN.

(45) Albert Jamme: Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore 1965.

(46) R.L. Cleveland , "The 1960 American Archaeological Expedition to Dhofar, ",Bulletin of The American Schools of Oriental Research, 159, (1960) pp 14 - 26; Preliminary Report on Archaeological Soundings at Sohar (Oman), "Ibid, 153 (1959) pp 11 - 18 ; Ancient South Arabian Necropolis (Baltimore 1965).

(47) G.W. Van Beek, " Hajar Bin Humeil (Baltimore 1969).

(48) J. Ryckmans, L'Institution monarchique en Arabie meridionale avant l'Islam (Ma' in et Sba), in Bibliotheque du Museon, 28 (Louvain 1951)

(49) Berta Segall, "The Lion Riders from Timna," The Archaeological Discoveries in South Arabia (1958).

(50) M.E. Salmon, "A Survey of the Composition and Fabrication of Bronze

Artifacts from Hajar Bin Humeid, " Hajar bin Humeid , pp 373 to p. 386.

(51) Brian Dowe, op cit (p 10).

(52) W.L. Reed and F.V. Winnett, "Report on the Arabian Expedition of 1962, " Bulletin of the American Schools of Oriental Research 168 (1962) pp9 - 10; "Report on the Archaeological Expedition to Hail in Northern Saudi Arabia (1967), "ibid, 188 (1967, pp 2-3 ; Ancient Records from North Arabia (Toronto).

(53) P.J. Parr, G.L Harding and J.E. Dayton, "Preliminary Survey in N.W Arabia , Bulletin of The Institute of Archaeology (London) No. 58 - 9 (1970), pp 219 - 241.

(54) E. Anati: "Rock Art in Central Arabia, IV Volumes, (Louvain, Bibliotheque du Museon 1968).

(55) J.P. Mandaville, "thaj: A. Pre-Islamic Site in North - eastern Arabia, "Ibid, 172 (1963), pp 9-20.

(٥٦) عبد الرحمن الطيب الأنصاري: قرية الفاو: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض ١٣٧٧ ـ ١٤٠٢ هـ.

(57) P.J. Parr, J. Zarins et al.,"Preliminary Survey Report : Northern Province , ATIAL, 2 (1978); also cf. P. Parr: The present state of Archaeological Research in the Arabian Peninsula: Achievements of the Past, and Problems for the Future: Studies in The History of Arabia, II, Pre-Islamic Arabiax, King Saud University Press, Riyadh 1984. pp 43 - 54.

(58) E. Markay, L.Harding and F.Petrie, "Bahrain and Hamamieh, British School of Archaeology in Egypt XLIII (1929).

(59) B. Cornwall . "Tumuli of Bahrain, Asia and the American, vol. XLIII, No.4 (Connecticut 1943) pp 230 - 234; P.V. Glob, "Temple Ved Barbar " , Kuml. (1954). " en Med de hundred Tusinde Gravhoje, op cit. 92 - 105;" Bahrain Oldtidshovestad" , op dcit p 164 - 169.

(٦٠) دكتور عبد الحميد زايد: الشرق الخالد: مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م، دار النهضة العربية بالقاهرة، ص ١٢٩ وما بعدها.

(61) H. Kapel: "The Atlas of the Stone Age; Cultures of Qatar (Denmark: Jutland Archaelolgical society Publications, 1967).

(62) p. Mortensen, "Om Barbartenplets Datiering, Kuml (1970), 385 - 398.

(63, E. C. During - Caspers: A Dilmunite Steal Cutters Misfortune", Antiquity LI, No. 201 (1977), 54 - 55.

(64) ***M.R. Mughal: The Dilmun Burial Complex at Sar, The 1980 - 1982 Excavations in Bahrain (Bahrain 1083).***

(65) ***Ibrahim, M.M: Excavations of Arab Expedition at Sar el Jisr Bahrain (1982).***

وكذلك انظر مقالة : أول بعثة عربية مشتركة في البحرين، دراسات تاريخ الجزيرة العربية المجلد الثاني: الجزيرة العربية قبل الإسلام: جامعة الملك سعود ـ الرياض ١٤٠٤ هـ ص ٢٥ ـ ٣٤ . (واللوحات من ص ٢٥ إلى ص ٧٠)

(٦٦) عبد الله حسن مصري: ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها، نفس المجلد. السابق ص ٧٦ ـ ٨٨، وكذلك انظر مقالة:

Pre-History in North Eastern Arabia. Field Research Projects (Miami Coconut Grove, 1974).

(67) ***Harold A. McClure , " The Arabian Peninsula and Pre-historic Populations". H. Field (Editor), Field Research Projects (Miami Coconut Grove, 1974).***

(67) ***Harold A. McClure , "The Arabian Peninsula and Pre-historic Populations", H. Field (Editor), Field Research Projects (Miami coconut Grove, 1071).***

(٦٨) انظرهامش ٦١ .

(69) ***Gus Van Beek , Ibid. p . XXI.***

(70) ***cf. W.F Al-bright, "The Chronology of Ancient South Arabia in the light of the first Campaign of Excavations in Qataban", Bulletin of the American Schools on Oriental Research, 119 (1950), pp 5 - 15; "The Chronology of Sabaean of Minaean Kings of Arabia, Ibid, 129 (1953) PP20-24; "A Note on Early" Sabaean Chronology , "Ibid 143 (1956), pp 9 ff. Albert Jamme: op cit (the Bibliography cited there; Ryckmans, op cit.***

J. Tkastsch, "Saba", Encyclopedia of Islam (London) 1934, pp 12-15

(71) ***F.V.Winnet , " The Place of the Mineans in the History of Pre-Islamic Arabia" , Bulletin of the American Schools of Oriental Research, &3 (1939), pp 3-9***

(72). ***Gus van Beek, loc cit pXXIF.***

(73). ***cf Berta Segall: loc cit (note no. 49).***

(٧٤) ديتلف نيلسون وآخرون : المرجع السابق : ص ٢٦٠ ـ ٢٧٣، خاصة ص ٢٧٣ (استكمال فؤاد حسنين علي) .

(٧٥) لم يظهر بعد المجلد الذي سوف يتضمن نشر باقي المكتشفات خاصة التماثيل ولكن حسب ما ورد في الجزء الأول الصادر عام ١٩٨٤، هناك نية على متابعة نشر هذه

المكتشفات، كما تعرفنا على بعضها من خلال بعض الصور، وأثناء المشاركة في أحد مواسم التنقيبات مع الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري.

(76) Gus Van Beek: loc cit . PXXII.

(77) R. Le Baron Bowen Jr.: "Irrigation in Ancient Qataban (Beihan), Archaeological Discoveries in South Arabia (1958), pp43 - 131

(78) Gus Van Beek; loc cit , pXXIII.

(79) F.P. Albright, "Excavations in Marib in Yemen" , Archaeological Discoveries in South Arabia, P223-5.

(80) Brian Dowe: op cit pp23f.

(81) Gus Van Beek loc cit p XXIII.

(٨٢) النحل آية ١٥ .

(81) Gus Van Beek, ibid. , p XXIV.

(84) K.H. Schmitt-Korte: Nabataean Pottery: A Typological and Chronological Framework, Pre-Islamic Arabia, King Saud University, 1984, pp &-40 (especially p 12).

(85) Van Beek ibid pxxV.

(86) ibid..

(٨٦) انظر عبد الرحمن الطيب الأنصاري. المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٨ .

In universum gentes ditissimae, ut apud quas maximae opes Romanorum Parthorumque subsidant, Vendentibus quae e mari aut silvis capiunt, nihil invicem redimentibus: Plinius maior, Historia Naturalis, book VI.XXXII, 162.

(89) H.W. Schoff (translator), The Periplus of the Erythraean Sea (London 1912). paragraphs 24 - 28. Lionel Casson: The Periplus Maris Erythaei, Text with introduction, Translation and Commentary, Princeton University Press, 1989, chapters 24-29= pp63-67.

كذلك انظر ترجمة هذه الفصول في سؤال الأستاذ نقولا زيادة: «دليل البحر الأثري وتجارة الجزيرة العربية، الجزيرة العربية» قبل الإسلام، ص ٢٥٩ ـ ٢٧٧ حيث ترجم وعلق على الفصل ١٩ ـ ٣٦ والذي يعنينا هو الفصل ٢٤ ـ ٢٩ . . also cf

(90) Brian Dowe, op cit (Coins). ديتلف نيلسون وآخرون، المرجع السابق، ص ٩٨

(91) Van Beek, Ibid, pXXVI - pXXXVI; Plinius maior : Historia Naturalis, XII, XLI, 83: Beatam illam fecit hominum etiam in morte luxuria quae dis intellexerant genita inurentium defunctis. periti rerum adservant non ferre tantum annuo fetu quantum Nero princeps novissimo Poppaeae suae die concremaverit.aestimentur postea toto orbe singulis annis tot funera, acervatimque congesta honori cadverum quae dis per singulas micas dantur!

«ومما جعلها ذات حظ سعيد (يقصد بلاد العرب السعيدة)، حب الناس للرفاهية

حتى عند الموت (وذلك) بحرق جثمان الميت مع مواد باهظة (الثمن) كانوا يدركون أن خلقت أصلًا من أجل الآلهة . . . وتقدر المصادر العليمة أن بلاد العرب لا تنتج في عام كامل ذلك الكم الهائل من البخور الذي أحرقه الإمبراطور نيرون في يوم واحد مع جثمان حبيبته بوبايا ، ثم يحسبون بعد ذلك أرقام الجنازات التي تقام في العالم كله كل عام وكميات هذه المواد التي تجمع وتكوم (لتحرق) مع الجثمان والتي كانت تقدم للآلهة في الأصل في شكل ذرة واحدة!

(٩٢) انظر سيد أحمد الناصري المرجع السابق، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٩٣) المرجع نفسه ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٩٤) نفس المرجع ص ٤٧ .



سبل لتوحيد المصطلحات الجغرافية العربية

د. محمد محمود محمدين

على الرغم من نشاط حركة الكتابة في مجال الجغرافيا في العقدين الأخيرين، والتي تقدر ببضع مئات من الكتب، إلا أن ذلك لا يحول دون الاعتراف والقول بأن أغلب هذه الكتب جاء تقليدًا لكتب أجنبية وترديدًا لمحتواها، بكل ما يتضمنه هذا المحتوى من أفكار وأساليب قد تتعارض وواقع ظروف بيئتنا، ويكون ذلك صريحًا في بعض الأحيان أو مدسوسًا في ثنايا السياق أحيانًا أخرى.

وقد ترتب على الاعتماد على الكتب الأجنبية ونقل محتواها، دخول

مصطلحات جغرافية جديدة تصف ظاهرات ليست مألوفة في الأقطار العربية، وأكثر ما يلفت النظر في الكتابات الجغرافية العربية المعاصرة، ظاهرة اختلاف المصطلحات الجغرافية التي تزداد شقة التباين فيها بين جغرافيي العالم العربي اتساعًا يومًا بعد يوم، مما يستوجب علينا أن نلتمس كل السبل ونستعين بكل الإمكانات لمواجهتها، حتى لا يظل الأمر في هذا المجال فوضى، لا ضوابط ولا حدود، الكل يكتب ويستعين بما يحلو له من مصطلحات قد تتسم بالرطانة أو العجمة، وكل بما لديهم فرحون!.

وليس من شك في أن النهضة العلمية لأية أمة من الأمم لا بد وأن تكون بلغتها. ولكي نلحق نحن العرب بركب الحضارة العلمية ونتبوأ ما يليق بإمكاناتنا من مكانة، فعلينا أن نستخدم لغة عربية علمية مشتركة ذات مصطلحات علمية موحدة حتى تكون مدلولاتها واحدة وواضحة في أذهان المتخصصين في كل أقطار العرب.

إن المصطلحات العلمية كما نعرف ركن هام لكل علم، ومعلم من أبرز معالم بحوثها، وعدم وجود مصطلحات موحدة ومتفق عليها في مجال الجغرافيا يعوق انتشار الفكر الجغرافي ويئد فكرة ظهور مدرسة جغرافية عربية متميزة، وأَوْلى بالذين يبحثون عن ذاتية الجغرافيا العربية أن يبدأوا بما يتيح تداول الفكر الجغرافي العربي وييسر التفاعل بين الاتجاهات الجغرافية العربية في الوطن العربي، وأقصد بذلك توحيد المصطلحات الجغرافية العربية، لأن اختلاف المصطلحات الموضوعية لظاهرة واحدة يحدث خلطاً وتشويشاً.

وإدراكًا لأهمية الموضوع فقد آثرت العكوف على دراسته حينًا بعد حين ومرة بعد أخرى حتى توصلت إلى ما يرضى قناعتي بأنه قد يسهم في وضع أسس لتوحيد تلك المصطلحات، وربما ينجح هذا البحث في حفز غيري من

الجغرافيين فيسهم بتصحيح أو يضيف جديداً في هذا المجال الحيوي .

مدلول المصطلح الجغرافي وأهميته :

يشيع بين الباحثين في العلوم المختلفة استخدامات لفظية مثل : اصطلاح علمي ، ومصطلح علمي . والاصطلاح في اللغة من التصالح ، والتصالح يكون بين أكثر من فرد ، فإذا قلنا تصالح القوم ، أردنا بذلك أن اتفاقاً تم بينهم ، والاصطلاح أيضًا هو العرف الخاص (الشهابي ، ٥) .

وما نخرج به من المعاجم اللغوية بصفة عامة أن الاصطلاح : «هو اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص» ، وعلى هذا يقال اصطلح العلماء على أمر ما ، أي اتفقوا عليه ، فهو إذن مصطلح عليه . ولتوضيح ذلك نقول لو أن هناك عدة تسميات لظاهرة جغرافية واحدة دار حولها نقاش ثم انتهى هذا النقاش باختيار إحدى هذه التسميات ولقي اختيارها قبولاً من الجماعات واصطلحوا عليها ، فإن هذه التسمية بقبول الجماعة لها قد أصبحت مصطلحاً لهذه الظاهرة .

وبناء على ما تقدم يمكن القول بأن المصطلح الجغرافي هو اللفظ أو العبارة التي اتفق الجغرافيون على استخدامها وتداولها وسيلة للتعبير عن ظاهرة جغرافية أو أي جانب من جوانب الفكر الجغرافي .

يبدو جليًّا أن من أهم شروط ظهور المصطلح الجغرافي هو أن يتفق الجغرافيون على قبوله ، وبقاء المصطلح الجغرافي رهن بتداوله ، وكم من مصطلحات جغرافية اندثرت بسبب الإحجام عن استخدامها .

وإن اتفاق الجغرافيين على اختيار لفظ معين للتعبير عن ظاهرة معينة شرط

أساسي ليصبح هذا اللفظ مصطلحًا جغـرافيًا لهذه الظاهرة، وإذا لم يتم الاتفاق فإن اللفظ المستخدم أو العبارة لا تكتسب صفة المصطلح.

وتمثل المصطلحات الجغرافيـة ركنًا أساسيًا من أركان الفكـر الجغرافي، وجزءاً مهمًّا من المنهــج الجغرافي العلمي، ولا يستقيـم منهج جغـرافي إلا إذا ارتكز على مصطلحات دقيقة تصـف الظاهرات الجغرافية والحقائق، ويشيـع استخدامها وبذلك تخدم البحـث العلمي خدمة صـادقة وتعين الباحثين في نقل أفكـارهم بصورة أكثر دقة وتحديداً.

مشكلة اختلاف المصطلحات الجغرافية:

إذا كانـت اللغة من أهم مقـومات وجود الأمـة ومحور تلاحم أبنائهـا، وكل خطر يهدد اللغة هو خطـر يتهدد شخصية الأمة واستمرار بقائهـا، فإن مشكلة اختلاف المصطلحات العلميـة كذلك تتهدد الذاتية العلميـة المتميزة لهذه الأمة وتحول دون الارتباط والتفاعل العلمي الإيجابي بين المتخصصين.

وكأي تخصص من التخصصـات العلمية، تعاني الجغرافيا العـربية المعاصرة معانـاة شديـدة من مشكلـة اختلاف المصطلحـات الجغرافيـة المتداولـة، تلك المشكلة التـي تعوق إلى حد مـا وجود فكر جغـرافي عربي متجانـس على مستوى الوطن العربي. وتتجسد هذه المشكلة في مظهرين أساسيين هما:

المظهر الأول: تعـدد التسميات للظـاهرة الجغـرافية الـواحدة، فعلى سبيـل المثال يطلق في مصر والسـودان والعراق مصطلح المروحة الغـرينية على Alluvial fan، وفي سـوريـا ولبنـان يستخـدم تعبير مخروط الانصبـاب، وسبـب هـذا الاختـلاف يعـود بالـدرجـة الأولى إلى الترجمة، فـالمصطلــح المتـداول في مصر

والسودان والعراق ترجم عن الإنجليزية، والمصطلح المتداول في سوريا ولبنان ترجم عن أصل فرنسي.

ومن الأمثلة الأخرى التي توضح تعدد المصطلحات المستخدمة للتعبير عن ظاهرة جغرافية واحدة، استخدام مصطلح «التحاريق» في مصر للدلالة على بقايا مياه نهر النيل في مجراه وقت الجفاف، بينما يستخدم مصطلح «الصيهود» في العراق، «وقناة الشح» في سوريا (حميده، ٤١) ويستخدم مصطلح الثنيات النهرية أو المنعطفات، ترجمة للفظ الأجنبي Meanders ، وذلك في مصر والسودان والعراق، بينما يستخدم بعض السوريين تعبير الأكواع النهرية أو المنادر (حميده، ٤٣)، وتستخدم مصطلحات عديدة للدلالة على ظاهرتي " Lacolith و Batholith"وذلك على النحو التالي: المتداخلات الأفقية والرأسية، الاندساس الأفقي والرأسي، جدة جاذعة وجدة قاطعة، الجرس البازلتي، الباثوليت والاكوليت.

هذه نماذج قليلة توضح مدى التباين والاختلاف وتعدد المصطلحات المستخدمة مما يحدث نوعًا من البلبلة والحيرة لدى دارسي الجغرافيا.

أما المظهر الثاني لمشكلة اختلاف المصطلحات الجغرافية، فيتمثل في استخدام بعض المترجمين لألفاظ غير مفهومة على أساس أنهم أمناء في ترجماتهم، فهم يترجمون ترجمة قاموسية دون النظر إلى المدلولات العربية التي تسفر عنها مثل هذه الترجمات، ومن أمثلة هذه الترجمات (مد ربيعي Spring tide) وهو في حقيقة الأمر مد مرتفع أو قفاز، (النباتات المتوحشة Wild plants) والمقصود هنا النباتات البرية.

ومن المصطلحات غير المألوفة التي نجمت عن ترجمة قاموسية «الكينونة

المدينية»، و«المنظومة المدينية» (الخش، ١٧١).

وفي محاولة قام بها الباحث للتعرف على أبعاد مشكلة عدم فهم بعض المصطلحات الجغرافية، اختار خمسة عشر مصطلحاً جغرافيًّا من كتاب واحد (حميدة، ٢٠ ــ ٦٠) وعرضها على عشرين عضوًا من أعضاء هيئة التدريس بقسم الجغرافيا جامعة الملك سعود وينتمون إلى خمسة أقطار عربية، وكانت نتيجة هذا الاستبيان أن ٨٠٪ من هذه المصطلحات (١٢ مصطلحًا) غير مفهوم.

وهناك مشكلة أخرى ترتبط إلى حد ما بالمصطلحات الجغرافية وإن كانت ترتبط بطريقة كتابة الأعلام الأجنبية الجغرافية، ولعل طريقة التعبير عن حرف «g» تمثل جانبًا كبيرًا من هذه المشكلة كما هي الحال في (لكسمبورج ولكسمبرغ، غرينيتش، جرينيتش، قرينيتش، كرينيتش). وهناك أمثلة عديدة أخرى لا تغيب عنا نحن الجغرافيين. وجدير بالذكر أن استخدام حرف «غ» ليمثل «g» في النطق لم ينجح لأن نطقه كما هو معروف به في العربية هو السائد كما هي الحال في نطقنا المتداول لاسمي غانا وغينيا.

بداية ظهور المصطلحات الجغرافية في العصور الوسطى:

جاءت بداية ظهور المصطلحات الجغرافية نتيجة الاتصال بالحضارات المجاورة للعرب ونتيجة دخول شعوب كثيرة ذات ثقافات مختلفة في رحاب الإسلام. لقد كان للعرب في جاهليتهم معارفهم الجغرافية الخاصة التي اكتسبوها نتيجة معايشة ظروف بيئتهم الجغرافية وقد عبروا عن الظاهرات الجغرافية بألفاظهم وفقًا لإدراكهم فأثروا العربية بمصطلحات في أسماء المطر والسحب والرياح ومظاهر السطح والكثبان الرملية وأسماء الأعشاب والأشجار وغيرها. وبسبب الفتوح الإسلامية دخلت مصطلحات جديدة لا سيما في القرن

الثاني الهجري، وقد استعين ببعض اليونانيين الذي يحسنون العربية، وكان بعضهم بمصر، وذلك في نقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربية وبذلك بدأ ظهور مصطلحات جديدة في اللغة العربية، ونقل العرب عن الفارسية والهندية ووالسريانية. ولقد زاد الاهتمام بالعلوم المختلفة ومنها الجغرافيا في العصر العباسي وزادت الترجمة ونشطت نشاطًا كبيرًا في عصري الرشيد والمأمون الذي كان يعطي المترجم زنة ما يترجمه من كتب ذهباً.

ويعتبر مصطلح «الإقليم» أحد المصطلحات الجغرافية التي ظهرت في هذه الفترة: وهو محرفة عن كلمة Klima اليونانية التي استخدمها هيبارخوس في القرن الثاني قبل الميلاد. وتعني هذه الكلمة الميل أي ميل أشعة الشمس. وقد استخدمها هيبارخوس للدلالة على خطوط عرضية تشير إلى طول النهار. وأشار بعض الباحثين إلى أن كلمة إقليم كلمة عربية مثل إخريط وجمعها أخاريط، وسمى الإقليم إقليماً لأنه مقلوم من الأرض التي تتاخمه، أي مقطوع، وسمي القلم قلماً، لأنه مقلوم أي مقطوع مرة بعد مرة (الحموي، جـ١ . ٢٥).

ومن المصطلحات الأخرى كلمة «جغرافيا» ذاتها التي استخدمت أحيانًا للدلالة على خريطة الدنيا عند إخوان الصفاء (رسائل إخوان الصفا، جـ١، ١٥٨) وعند ابن خلدون (مقدمة ابن خلدون، ٤٨). وجاء في دائرة المعارف الإسلامية، أن كلمة جغرافيا (وينطق بها أحيانًا بفتح الجيم) لم تستعمل للدلالة على علم الجغرافيا إلا متأخرا. واستعمل الجغرافيون المسلمون هذه التسمية علمًا على كتاب بطليموس المعروف في الجغرافيا، واستعملت لأول مرة بمعنى علم الجغرافيا في رسائل إخوان الصفا ولكنها فسرت أيضًا في هذا الموضوع بأنها «صورة الأرض» وظل هذا المعنى شائعاً في العصور الوسطى، ولم يصبح لهذه الكلمة المعنى الذي نعرفه اليوم من علم الجغرافيا إلا في أزمنة حديثة (دائرة

المعارف الإسلامية ـ مادة الجغرافيا).

ومن المصطلحات الأخرى التي لم تعد تستخدم الآن كثيراً كلمة «زيج» من لفظ «زيك» التي استخدمها الفرس للدلالة على خيوط السدى (خيوط النسيج الطويلة) وكانت تستخدم للدلالة على الجداول الفلكية. وكذلك كلمة «هيولي)» وتعني أصل الشيء، وهي كلمة يونانية بمعنى الأصل والمادة، وفي الإصطلاح جوهر في الجسم قابل لما يعرض له من التشكيل. وقد ظنها بعض المؤلفين العرب القدماء أنها من كلام العرب وأنها على وزن فعولي، وقيل مخفف هيئة أولى (الخفاجي المصري، ٢٦٨).

وهناك مصطلحات أخرى عديدة لكننا نكتفي بهذه الأمثلة التي تفي بالغرض[١].

لقد ظلت حركة الترجمة العلمية نشيطة حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ومع نشاط الترجمة ظهر كثير من المصطلحات الجغرافية، ثم بدأ عصر جديد، عصر النضوج العلمي حيث تم استيعاب ما ترجم وبدأ التأليف بالعربية بعد أن استفاد العرب مما ترجم، ولقد أثبتت العربية مقدرتها وصلاحيتها على أداء كل المعاني في علوم لم يكن للعرب بها سابق عهد، وفضل كثير من غير العرب الذين دخلوا في رحاب الإسلام واللغة العربية على لغات أوطانهم، فكتب بها العلماء المسلمون غير العرب، ومن أمثلة هؤلاء البيروني، وهو من أصل غير عربي، الذي قال بأن الهجو بالعربية أحب إليه من المدح بالفارسية (محمدين، ١٩٨٤، ١١٢).

●●●

المصطلحات الجغرافية في العصر الحديث:

شهدت النهضة العلمية في العالم العربي فترة ركود وتخلف في العصر المغولي والتركي، ثم تلا ذلك اتصال بالحضارة الأوربية فبدأت مشكلة المصطلحات الجغرافية العربية التي تحاول وصف ظاهرات لا تعرفها البيئة الجغرافية العربية من جهة، وتحاول نقل أفكار جديدة من جهة أخرى.

ويعد رفاعه الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣م) رائد المصطلحات الجغرافية الحديثة في رأي كاتب هذا البحث، إذ أنه حينما بدأت مصر في إرسال بعثات إلى فرنسا سنة ١٨٢٥م، ارتفعت أصوات التحذير من الحياة الفرنسية التي وصفت بأنها حياة لهو وخلاعة، فرئي أنه من الضروري الحفاظ على أعضاء البعثة المصرية إلى فرنسا وصيانة سلوك أفرادها، فرشح الطهطاوي ليكون واعظًا وإمامًا للبعثة في فرنسا، وأمضى الطهطاوي بفرنسا خمس سنوات (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م) قرأ أثناءها مؤلفات عديدة في الجغرافيا، وحينما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١م (١٢٤٦هـ) ترجم بعض الكتب الجغرافية، وكان الطهطاوي كثيرًا ما يمزج بين الترجمة والتأليف، فإذا ترجم كتابا ورآه غير وافٍ بقصده أضاف إليه من معارفه وما ترجم من كتب أخرى.

ومن الكتب التي ترجمها وكتبها الطهطاوي: التعريبات الشافية لمريد الجغرافية، وجغرافية صغيرة، وجغرافية عمومي في كيفية الأرض، والكنز المختار في كشف الأراضي والبحار، وتخليص الإبريز في تلخيص باريز (محمدين، ١٩٨٣، ٢٢٩ ـ ٢٣٩).

لقد واجه الطهطاوي مشكلة ترجمة المصطلحات الجغرافية لأول مرة، ذلك

لأن هذه المصطلحات لم يكن لها مقابل في العربية ، وقد وفق الطهطاوي في كثير من الأحوال في صياغة المصطلحات الجغرافية .

إن مشكلة ترجمة المصطلحات مشكلة لا يدرك أبعادها الحقيقية إلا من يتصدى لترجمة فكر جديد يريد أن ينقله إلى لغة غير التي صيغ بها لأول مرة .

ومن نماذج تعريبات الطهطاوي :

بلاد الموسقو (روسيا)، بلاد الفلمنك (هولندا)، البُلكان (بضم الباء الموحدة وسكون اللام) ويقال ولُكان بضم الواو، أما الاسم الحالي بركان فهو مصحف ومعرب عن لغة الأندلس .

واستخدم الطهطاوي تسميات لفروع الجغرافيا لا يزال بعضها متداولاً مثل : الجغرافيا السياسية ، والجغرافيا الطبيعية ، والجغرافيا الرياضية .

وأطلق الطهطاوي اسم الجغرافيا الأدبية على فرع الجغرافيا الذي يهتم بدراسة آداب وأخلاق وطباع وأحوال الأرض ، ويعرف هذا الفرع حاليًا باسم الجغرافيا الحضارية وإن كانت هذه التسمية ليست مقبولة تمامًا .

وجدير بالذكر أن مصطلح المناخ لم يكن متداولاً وقد أطلق عليه الطهطاوي «تعتبر المطر ومزاج الهواء» .

ومن الذين اهتموا بالمصطلحات ذات الصبغة الجغرافية محمود الفلكي (١٨١٥ ـ ١٨٨٥م) وكان قد انتخب وكيلاً للجمعية الجغرافية المصرية منذ إنشائها (١٨٧٥م) ثم رئيسًا لها في أواخر حياته .

ولم ينقطع الاهتمام بالمصطلحات الجغرافية بموت الفلكي بل تجدد على يدي أحمد زكي باشا (١٨٦٧ ـ ١٩٣٤م) الذي أصدر في بداية القرن العشرين (١٩٠١م) قاموس الجغرافيا القديمة . ويتناول هذا القاموس ضبط الأعلام الجغرافية التي لها ذكر في تواريخ الأقدمين وهي مرتبة ترتيبا أبجديًا ، ويقع في

ست وثمانين صفحة من القطع الصغير، وقد أشار أحمد زكي إلى تعدد الأسماء الدالة على الأعلام المختلفة وتنوعها بين اللغات وأصل اشتقاقها (أحمد زكي، ٣).

ولقد نشطت فكرة إنشاء مجامع أو جمعيات لوضع المصطلحات العربية في العلوم وذلك منذ أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن، ولقد أسس السيد محمد توفيق البكري سنة ١٨٩٢م مجمعًا في بيته (في حي الخرنفش وهو من أحياء القاهرة) وضم هذا المجمع نخبة من المفكرين، إلا أنهم لم يجتمعوا إلا سبع مرات، اتفقوا فيها على وضع سبع عشرة كلمة عربية بدلا من كلمات أعجمية. وفي سنة ١٩٠٧م حاول حشمت باشا إنشاء شبه مجمع في ديوان المعارف، إذ شكل لجنة سماها لجنة الاصطلاحات العلمية ضمت في رحابها ستة علماء اهتموا بضبط أسماء بعض البلدان لوضع مصورات جغرافية صحيحة الأسماء.

وتلا ذلك، سنة ١٩١٧م، إنشاء مجمع لغوي اختير له شيخ الأزهر رئيسًا، ولم يستمر هذا المجمع إلا أقل من ثلاث سنوات ثم انفض. وفي سنة ١٩٣٢م أصدر الملك فؤاد مرسومًا يقضي بإنشاء مجمع ملكي للغة العربية في القاهرة (الشهابي، ٦٠ ــ ٦١)، وقد نص في مرسوم إنشائه أن من أهم أغراضه: أن يحافظ على سلامة اللغة وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ٥).

وقد شكل مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٣٧م لجنة الأعلام الجغرافية لتصحيح الأعلام الجغرافية التي وردت في الأطاليس الجغرافية التي طبعتها مصلحة المساحة باللغة العربية ورسمها بالحروف العربية على حسب القواعد التي أقرها المجمع، ولم يعرض المجمع للمصطلحات الجغرافية إلا بعد قيام

الجمهورية العربية المتحدة . وفي سنة ١٩٦١م شكلت لجنة مستقلة للجغرافيا لأول مرة بعد أن كانت هناك لجنة مشتركة للمصطلحات التاريخية والجغرافية معاً ، ودعمت هذه اللجنة بعدد من علماء الجغرافيا البارزين ومنهم محمد عوض محمد ، ورأت اللجنة منذ البداية أن تركز على تعريب المصطلحات الجغرافية حتى يتاح للجغرافيين العرب لغة علمية موحدة ، ووضعت بعض قواعد لتحقيق ذلك على النحو التالي (الصياد ، ز، ح) :

١ **إحياء المصطلح العربي القديم إلا إذا ثبت قصوره عن تأدية المفهوم العلمي الحديث .**

٢ **إعادة اللفظ الأجنبي إلى أصله العربي إن كان مأخوذًا عنه ، فردت مثلا Alidade إلى الأصل العربي «عضادة» .**

٣ **تعريب المصطلحات الأجنبية التي لا نظير لها في العربية وتحويرها لتتفق مع اللسان العربي ، وأن تكتب بحسب ما أقره المجمع من قواعد لكتابة الألفاظ الأجنبية .**

٤ **اجتناب الألفاظ العامية إلا إذا كانت شائعة بنفس المعنى عند الجغرافيين العرب ، وتعذر الوقوف على مصطلح عربي فصيح يحل محلها .**

٥ **وضع تعريف موجز لكل مصطلح حتى يفهم وجهه الصحيح .**

وتمكنت هذه اللجنة خلال ثلاث دورات عقدت فيما بين سنة ١٩٦٣ م وسنة ١٩٦٥ من إعداد نحو ٧٠٠ مصطلح (المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ـ ٨) . وقد قوبلت هذه المصطلحات بارتياح كبير من الجغرافيين العرب بصفة عامة لما لأعضاء تلك اللجنة من مكانة علمية وخبرات طويلة في مجال تدريس الجغرافيا ، بالإضافة إلى أن كثيرًا من الجغرافيين تتلمذ على أعضاء هذه

اللجنة أو على تلاميذ أعضاء هذه اللجنة، ومعنى ذلك أن كثيراً من هذه المصطلحات مألوف إلى حد كبير. وقد تجسدت جهود لجنة المصطلحات فيما بعد في المعجم الجغرافي الذي أصدره مجمع اللغة العربية بإشراف محمد محمود الصياد سنة ١٩٧٤م، ويضم هذا المعجم ما يربو على ألف وخمسمائة مصطلح، وإن كان بعضها مصطلحات عامة.

ولم يكن مجمع اللغة العربية في القاهرة هو المجمع الوحيد بل أنشئت مجامع لغوية أخرى في البلاد العربية، وكان من أهداف هذه المجامع الاهتمام بالمصطلحات والتعريب.

وعلى سبيل المثال عقد في أبريل سنة ١٩٦١م مؤتمر رسمي للتعريب تولدت عنه فكرة المكتب الدائم للتعريب في الرباط، حيث يضم ممثلاً لجامعة الدول العربية، وبعد ذلك بثلاث سنوات عقد في فبراير سنة ١٩٦٤م بمدينة الجزائر مؤتمر أطلق عليه مؤتمر توحيد المصطلحات العلمية أشرفت عليه جامعة الدول العربية.

وجدير بالذكر أن المؤتمر الجغرافي العربي الأول في القاهرة الذي عقد سنة ١٩٦٢ قد اهتم بمشكلة المصطلحات الجغرافية، ويتضح ذلك من التوصية العامة الثانية من توصيات هذا المؤتمر التي نصت على ضرورة تنسيق التعاون بين الجغرافيين العرب من أجل الاتفاق على المصطلحات الجغرافية العربية وإيجاد صلة بين الجغرافيين وبين المتخصصين في العلوم المتصلة بالجغرافيا وبينهم وبين الهيئات المعنية بالتعريب في أنحاء الوطن العربي مثل: مجمع اللغة العربية، وهيئة التعريب (بالرباط) التابعة لجامعة الدول العربية (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ٥).

وقد أوضح محمد سيد نصر في بحث له عن «مشكلة المصطلحات الجغرافية» في نفس المؤتمر، أن المراقبة العامة للمواد الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم بمصر، حاولت توحيد المصطلحات الجغرافية في مصر، فاستعرضت أغلب المصطلحات المتداولة في كتب الجغرافية واختارت ١٤٣ مصطلحًا، فلم تجد بينها إلا ستة مصطلحات فقط متفق عليها، أما بقية المصطلحات (١٣٧ مصطلحًا) ففيها قولان أو أكثر (توني، ع).

وقد عقد المؤتمر لجنة خاصة لمناقشة المصطلحات الجغرافية انتهت بقبول قوائم المصطلحات (١٤ قائمة) أعدها ذوو الاختصاص من الجغرافيين المصريين، وأوصت تلك اللجنة المشكلة بنشر هذه القوائم الأربع عشرة التي غطت عشرة مجالات هي: الجغرافيا التاريخية والجيمورفولوجيا، والجغرافيا المناخية (قائمتان) والخرائط، والجغرافيا الاقتصادية (قائمتان) والجغرافيا السياسية، والسلالات البشرية (قائمتان). وجغرافية العمران، والأنثربولوجيا الاجتماعية، والأنثربولوجيا اللغوية (قائمتان). وإذا كانت هذه المحاولة خطوة مهمة وإيجابية وعلامة بارزة على درب توحيد المصطلحات الجغرافية، إلا أن هذه القوائم أهملت فروعًا أخرى هامة من الجغرافيا كالجغرافيا الحيوية على سبيل المثال (توني، ١)

ومن المحاولات الفردية الجديرة بالذكر، والتي تجسدت في معجم جغرافي جيد، تلك المحاولة التي قام بها يوسف توني واستمرت خمس سنوات (١٩٥٩ - ١٩٦٤م) حيث أصدر معجم المصطلحات الجغرافية وهو معجم سهل الأسلوب سهل الاستعمال استعان بكثير من الرسوم والأشكال البيانية، ويقع هذا المعجم في ٥٦٧ صفحة إلى جانب المقدمة بالإضافة إلى دليل للمصطلحات الجغرافية باللغة الإنجليزية ويقع في مائة صفحة، ويزيد ما في هذا المعجم على ثلاثة آلاف وخمسمائة مصطلح.

وقد تعرض يوسف توني لمشكلة اختلاف المصطلحات الجغرافية وأقر بأن هذه المشكلة أمر طبيعي ومتوقع وعزا سبب ذلك إلى أساليب عديدة نتخير منها ما يلي :

١ ـ اختلاف وجهات النظر عند النقل إلى العربية، فالبعض يستحسن النقل الصوتي (يقصد بذلك التعريب) والبعض الآخر يفضل ترجمة المعاني وصياغة ألفاظ عربية جديدة والبعض الثالث يرى أن يخلط هذا بذاك .

٣ ـ عدم تحري الدقة في نقل المعنى الاصطلاحي للفظ الأجنبي داخل المجال اللغوي الواحد، وعلى سبيل المثال داخل المجال اللغوي الإنجليزي نجد أن لفظWatershed يعني خط تقسيم المياه في بريطانيا، ويعني في الإنجليزية الأمريكية حوض النهر.

٣ ـ يقوم بالترجمة أحيانًا مترجمون غير جغرافيين قد لا يتبينون الفوارق الدقيقة في مختلف فروع الجغرافيا ولا يدققون في اختيار الألفاظ أو صياغتها (توني، ن، س) .

ما السبل التي يقترحها الباحث لتوحيد المصطلحات الجغرافية العربية؟ .

إن اختلاف المصطلحات الجغرافية المتداولة في العالم العربي جاء وليد الترجمة من لغات متنوعة أهمها الإنجليزية والفرنسية، وجاء كذلك نتيجة لاختلاف المستوى اللغوي للذين تصدوا للترجمة، إلى جانب أن كثيرًا من المصطلحات كانت تعبر عن جوانب لم تألفها بيئة العرب الجغرافية .

وجدير بالذكر أن عملية التعريب ليست أمرًا سهلاً ميسورًا بل تحتاج إلى عملية ترويض لغوية للمصطلحات والأسماء الأجنبية .

ويقترح الباحث اتباع الخطوات الآتية لتوحيد المصطلحات الجغرافية العربية :

أولاً ـ الاعتماد على الميراث اللغوي من المصطلحات الجغرافية :

استخدم العرب كثيرًا من المصطلحات الجغرافية التي وصفت جوانب بيئتهم الجغرافية وصفًا دقيقًا لا سيما فيما يتعلق بالجبال والهضاب والسهول وأشكال التكوينات الرملية وصلابة الرمال وليونتها ، كما تنوعت المصطلحات التي عبرت عن عناصر المناخ من حرارة وسحب ورياح ومطر، وقد ذكرت كتب فقه اللغة أن للحساب عند العرب مائة وخمسين اسمًا ، وللمطر أربعة وثمانين اسمًا وفقًا لموسمه وشدته واستمراره (محمدين ، ١٩٨٤ ، ٢٥٥).

وجدير بالذكر أن مصطلحات العرب في وصف التكوينات الرملية تعد مثالاً جيدًا لدقة وصفهم وسعة تمييزهم لخصائصها وأنماطها ، وعلى سبيل المثال نذكر بعض النماذج :

الحبل : ما استدق من الرمل .

الحقف : ما اعوج منه .

الدعص : ما استدار من الرمل .

العقد : ما تعقد منه .

العقنقل : ما تراكم ، تراكب منه .

السقط : ما جعل ينقطع ويتصل منه .

الشقيقة : ما انقطع وغلظ منه .

الكثيب والنقا : ما احدودب وانهال منه .

أما بالنسبة لصلابة الرمال وليونتها :

الأوعس : ما لان من الرمل .

الرَّغام : ما لان وليس بالذي يسيل من اليد .

الهيام : يسيل من اليد للينه .

الدَّكداك : ما التبد بالأرض من الرمل . (محمدين، ١٩٨٤، ٤٦٩ ـ ٤٧٠).

ولتوضيح دقة العرب في اختيار مصطلحاتهم، استخدامهم لمصطلح «الرَّيْد» للجانب المعرض للرياح من الجبل .

ويمكن لمصطلحات التراث أن تضع حدًّا لكثير من الخلافات بشأن تعدد المصطلحات المتداولة لظاهرة جغرافية محددة وعلى سبيل المثال : يستخدم مصطلح «المروحة الغرينية» في مصر و«مخروط الأنصباب» في سوريا، كما سبقت الإشارة من قبل، لكن تراثنا يعبر عن هذه الظاهرة بسعة لغوية أكثر تفصيلاً حيث يقسمها إلى «فيضه» و«خبرا» و«تنهية» أو «تنهاة» و«الروضة» فإذا سالت المياه من الروضة إلى روضة أخرى فيعرف هذا المسيل باسم «مذهب الروضة» .

وجدير بالذكر أن عبد الله يوسف الغنيم، قد قام بمحاولة طيبة حينما جمع أكثر من مائتي مصطلح من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض، وقد اعتمد في هذا العمل على عدد كبير من المصادر العربية القديمة والمراجع الحديثة وبعض الدراسات الميدانية (الغنيم، ٧)، وإن كان قد أغفل مصدرًا هامًا كان يمكن أن يثري عمله ألا وهو كتب فقه اللغة العربية التي أفاضت في وصف مظاهر سطح الأرض، وعلى سبيل المثال وليس الحصر، تعرض أبو منصور الثعالبي (ت ٤٣٠هـ) في كتابه فقه اللغة وسر العربية، في الباب السادس والعشرين لأشكال سطح الأرض فيما أطلق عليه «في الأرضين والرمال اوالجبال والأماكن وما يتصل بها وينضاف إليها» وفي هذا الباب يتحدث عن ترتيب ما ارتفع من الأرض وأبعاض الجبل مع تفصيلها وغير ذلك (الثعالبي، ٢٩٤ ـ ٣٠٥).

وقد أشار عبد الله يوسف الغنيم إلى أن «معجمه» يتضمن ثلاثة أنواع من مصطلحات التراث، أحد هذه الأنواع مصطلحات لم تستعمل إلا استعمالاً

محدودًا وليس لها مقابل في اللغات الأجنبية مثل «الأبرق» و«البشرة» و«الدارة»، ومصطلحات يمكن أن يستعان بها في الجغرافيا العربية المعاصرة مثل : السَّلْعْ ويقصد به خط تقسيم المياه، والسِّماط أي المقطع الطولي للوادي، و«التلعة» أي الوادي المعلق.

أما النوع الثالث فهو المصطلحات المحلية التي تشيع في بعض المناطق دون الأخرى، ويمكن كذلك أن يستعان بها في مجال التعريب والاعتماد عليها بدلاً من المصطلحات الأجنبية، مثل مصطلح «الجال» الذي يطلق على ما نعرفه باسم «كويستا» و«الجذيبة» للدلالة على القباب اللابية (الغنيم ١٠ ـ ١١).

ثانيًا ـ الاعتماد على الاشتقاق والنحت والمجاز في إيجاد مصطلحات جغرافية جديدة.

إن للغة العربية وسائل نمو متباينة مثل الاشتقاق والنحت، وهما سبيلان يمكن بهما أن نغني العربية إلى حد كبير ونصونها حتى لا نعتمد على لغات أخرى نأخذ منها لنفسد ألسنة أبنائنا ونعجم لغتنا.

إن الاشتقاق، وهو أن تصاغ صيغ مختلفة من الأصل الواحد، سماعي نقتصر فيه على ما ورد عن العرب أنفسهم، أي إن هذا المصدر قد أصيب بالعقم، لكننا نستطيع أن نحي يهذا المصدر من جديد إذا لم نجد إلا الاشتقاق وسيلة لإيجاد مصطلح جغرافي جديد، وذلك أفضل من أن نفتح باب العربية على مصراعيه أمام المصطلحات الأجنبية، ومن أمثلة الاشتقاق : الأينية من أين، والنمذجة من نموذج.

أما النحت فهو كذلك ضرب من الاشتقاق. وهو أن تصوغ كلمة من كلمتين، فهو بذلك ضرب من الاشتقاق المهجن، ويقسم بعض اللغويين

النحت إلى «نحت فعلي[٢]»، ومن أمثلته في الجغرافيا «يبختح» أي يتبخر وينتح في نفس الوقت، ونحت اسمي مثل «ضبخان» من : ضباب + دخان، وهي ترجمة نحتية للفظ Smog[٣] «وهي Sm/ok» وتحتربة من : تحت التربة و«بحر سطي» من : البحر المتوسط، كقولهم السلالة البحرسطية.

وهناك نحت نسبي مثل آفر وآسيوي وأمرندي أي أمريكي هندي. إن النحت باب رحب لإثراء العربية بمصطلحات جغرافية جديدة، والنحت يحتاج إلى حس لغوي وذوق عربي سليم حتى لا يكون ضربًا من العبث اللغوي، يلجأ إليه كل من هب ودب، فينحت كلما شاء وكيفما اتفق دون قيد أو شرط، فتكون النتيجة ظهور مصطلحات لا تنتسب إلى العربية إلا في رسم حروفها، ولا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى الأصل الأجنبي ليعيننا على فهم ما نحت من مصطلحات عربية. من أمثلة هذه المصطلحات المنحوتة الغامضة مصطلح «الحت الحوجمودي» (حميده، ٢٥٣) ومصطلح «البيد سهل» وهو مصطلح مهجن من كلمتين إحداهما فرنسية بيدمون والأخرى عربية وهي «سهل» (حميده، ٢٩٦)، وقد أفاد عشرون عضواً من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الملك سعود أن هذين المصطلحين غير مفهومين.

أما المجاز فهو أن ينقل المتكلم معنى اللفظ الأصلي إلى معنى آخر له علاقة بالمعنى الأصلي، وقد تكون هذه العلاقة المشابهة أو غيرها، مثل العلاقة السببية كأن نقول«رعت الماشية الغيث» والمقصود هنا النبات الذي يسببه الغيث. وقد اعتمد على المجاز في وضع طائفة كبيرة من مصطلحات العلوم في العصور المختلفة وقد عرف بعض القدماء ومنهن الجرجاني الاصلاح المجازي بأنه إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما»، أي أنه يريد أن يقول إن

المصطلح لفظ استعمل بطريق التجوز (عبد الباقي، ٥٢).

ثالثًا ـ التعريب والترجمة الواعية:

يقصد بالتعريب استعمال الألفاظ الأعجمية ودمجها في لسان العرب، والتفوه بها في إطار أحكام العربية، فهم يبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجًا، فيبدلون حرفًا بآخر ويغيرون حركته ويسكنونه ويحركونه وينتقصون ويزيدون (الخفاجي المصري، ٢٥). ولقد استخدم اللغويون مصطلح «الدخيل» دلالة على المفردات الأجنبية التي لم يغيروا فيها شيئًا وأبقوها على حالتها، أما الألفاظ الأعجمية التي أعاد العرب صياغتها وفق أبنيتهم فهي التي سميت بالمُعرَّب أو المُعْرب. والأعجمي الدخيل في لغتنا العربية أنواع: منها ما دخل قبل الإسلام مثل الدينار والدرهم، ومنها ما دخل في صدر الإسلام مثل ديوان، إقليم، ومنها ما أدخله المحدثون.

إن الدخيل بأنواعه الثلاثة لا يفسد مصطلحاتنا الجغرافية ولا يحط من قدرها إذا روعي فيه خلوصه من الغرابة وتنافر الحروف. وقد ذكر أحمد أمين (ضحى الإسلام، ٢٩٢) أن العرب لما تحضروا بعد البداوة وجدوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة ليس في ألفاظهم ما يدل عليها... فسلكوا خير طريق لذلك وهو أن يتوسعوا في مدلولات الكلمات العربية أحيانًا، ويأخذوا الكلمات الأجنبية كما هي أحيانًا ومصقولة بما يتفق ولسانهم أحيانًا أخرى.

وعمومًا فإن من المتفق عليه أن الكلمات الأعجمية التي وقعت للعرب عربوها بألسنتهم وحولوها من ألفاظ العجم إلى ألفاظهم وأجروا عليها من الأحكام ما يجرى على الكلمات العربية من تعريب وتأنيث وإفراد وجمع.

وأيًا كانت آراء الأقدمين والمعاصرين فإن التعريب أسهم في نمو العربية ومواكبتها لتطور الفكر الجغرافي، ومن أمثلة المصطلحات المعربة في الجغرافيا:

كلمة الجغرافيا في القرن الثاني الهجري ، وكلمة الإقليم ، والبروج ، والطقس ، وخريطة ، ودلتا ، وأرخبيل ، وبركان ، والترنادو ، اروتوازي ، وجيمورفورلوجي .

ولعل أهم الأسباب التي مهدت السبيل أمام تيار التعريب ودخول عديد من المعربات في العربية تتجسد في أن الذين ترجموا العلوم إلى العربية لأول مرة لم يكونوا عربًا باستثناء نفر قليل من أمثال عبد الله بن المقفع (عبد الباقي ، ٦٤) . كما أن المترجمين لم يكونوا ذوي اهتمامات محددة بل تصدوا للترجمة في كل فروع العلوم ، وكانوا ينجزون الترجمة بسرعة دون أن يتريثوا للبحث عن الألفاظ العربية والاعتماد عليها ، فكانوا ينقلون اللفظ الأعجمي بحروف عربية ويصوغونه في قالب عربي حتى يتخذ اللفظ ثوبًا عربيًّا وذلك عن طريق تغيير الحروف وإبدال الحركات ، وجعلوا أقصى عدد حروف الكلمة المعربة سبعة حروف . . . وجدير بالذكر أن الكلمات المعربة تجري عليها قواعد العربية المختلفة من اشتقاق وصرف ، فمن الديوان قالوا دون أي سجل .

وجدير بالذكر أن المترجمين غير المتخصصين في الفروع العلمية المختلفة والذين يستعان بهم في مجالات الإعلام المختلفة يسهمون في فوضى المصطلحات العلمية .

ومما يؤسف له ما شاع حديثًا من القول في إذاعاتنا :

«ضرب زلزال مدينة ما ، أو ضرب بركان منطقة ما» وهذه ترجمة حرفية تحمل بصمات من الوثنية التي كانت تسود أوربا التي شغفت بتعدد الآلهة للظاهرات الطبيعية المختلفة مثل : إله جوف الأرض «بلوتو» وإله النار والحدادة «فولكان» الذي اشتق منه اسم (البركان) .

ومعروف أن الكلمات التي تتخذ بوصفها مصطلحات إنما تحمل بصمات

خاصة ترتبط بالعصر والبيئة والظـروف والمعتقدات، وهذا ما لا يمكن أن يتوافر لها بالترجمة لأنها تنقل إلى بيئة وظروف لأصحابها عقائد تختلف وتتباين عن المهد الأول لهذا المصطلح أو ذاك، لذا ينبغـي أن تراعى مثل هـذه الأمور في الترجمة. ومن الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المجال استخدام المصطلح المترجم (العوامل الطبيعيـة والبشرية) هذا المصطلح يسـاوي بين الإنسان وبين الظروف الطبيعية من تضاريس ومناخ وتربة، وهذا لا يتفق والنظرة الإسلامية للإنسان، فالله سبحانه وتعالى كرم الإنسان، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الاسراء: ٧٠.

وبناء على ذلك ينبغـي لنا أن نقول: العوامل البشريـة، والظروف الطبيعية، لأن الإنسان هو العامل الذي يحيل هـذه الظروف إلى إنتاج أو لا يحيلها، فالبيئة بكل مـا فيها مـن عناصر طبيعية جيـدة أو سيئة تظـل مجرد ظروف وإمكـانات والإنسان هو العنصر العامل وعلى قدر جهده يكون استغلال ظروف البيئة.

ومن الأمثلة الأخـرى التي تستوجب منـا أن نعمل على تعديلها ذلـك المعيار الذي تعتمد عليه منظمة الأغذية والزراعةFAO في تقدير الثروة الحيـوانية، وهو الوحدة الحيوانيةA.U، وهـي رأس الغنـم أو الماعز، وتحسـب البقـرة أو الجمـل بخمس وحدات. واستنادًا إلى مـا شرعه الإسلام منذ أكثر من أربعـة عشر قرنًا بشأن الأُضحية، (بضم الهمـزة وكسرها)، وهي ما ينحر من الغنـم تقربا إلى الله في أيام النحر، وهي سنة مؤكدة، فإن الشاة تجزئ عن واحد والبدَنَة أو البقرة عن سبعة، لذا يجب على الأقطـار الإسلامية أن تتبنى هذا المعيار (معيـار الوحدات الحيوانيـة) فيما بينها وأن تعمل جـاهدة على تعديله في منظمـة الأغذية والـزراعة ليتفق وشرع الإسلام والذي اتبعه المسلمون منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا.

إن فكرنا الجغرافي ـ نحن المسلمين ـ يجب أن تتمثل فيه ذاتيتنا التي تستمد جذورها من القرآن الكريم والسنة، ومن هنا كان من الضروري مراعاة ذلك عند الترجمة وعند صوغ مصطلحات جغرافية جديدة.

كيف يشاع استخدام المصطلحات الجغرافية العربية: إذا كنا قد عرضنا بعض السبل التي يمكن أن نلجأ إليها في وضع المصطلحات الجغرافية العربية، فكيف السبيل إذن إلى إشاعتها؟ وقد بدا لنا واضحًا فيما تم عرضه من مصطلحات جغرافية أن هناك تعدادًا في المصطلحات للمدلول الواحد أو الظاهرة الواحدة، ويرجع ذلك إلى اجتهاد الباحثين، وتحيز كل باحث لما صاغه من مصطلحات أشاعها بين تلاميذه فتداولوها، وكثيرًا ما تزول بعض هذه المصطلحات نتيجة الاستقرار على تداول غيرها، وسيظل تعدد المصطلحات للظاهرة الواحدة لوقت يحدد طوله واستمراره مدى تعصب كل باحث لما صاغه وألفه من مصطلحات.

ومن المعروف أن المصطلح الجغرافي لا قيمة له إلا إذا طابت له نفوس الجغرافيين وأقروه حتى يصبح جزءًا من لغة الجغرافيا الشائعة.

لقد تعددت المؤتمرات والندوات لبحث سبل توحيد المصطلحات الجغرافية، لكن الحقيقة التي يجب ألا تغيب عنا أن توحيد المصطلحات الجغرافية العربية لا يتم بندوة أو مؤتمرات يلتقي فيها نفر من الجغرافيين بضع مرات ثم ينصرفون إلى بلادهم.

وجدير بالذكر أن المؤتمر الثاني للتعريب الذي عقد في الجزائر سنة ١٩٧٣م قد حدد الداء أكثر من المؤتمرات التي سبقته أو تلته حين قرر «أن قضية المصطلح العلمي لم تنل في التنفيذ قدر ما نالت من عناية في الإعداد والدراسة والإقرار، وإنه إذا كانت قضية المصطلح عملية مستمرة فإن ذلك يقتضي ألا يستمر الجدل

النظري حولها إلى ما لا نهاية له، وأنـه لا بد من أن يخرج هذا النقاش النظري إلى مرحلة التطبيق والتجربة العملية حتى يكون استخدام المصطلح هو الذي يحقق امتحانه والحكم عليه (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٤، ب).

ويرى كاتب هـذا البحث أن هناك سبلاً يمكن اللجوء إليهـا في مجال توحيد المصطلحات الجغرافية منها على سبيل المثال:

أولاً: الاعتماد على الاستبيانات في اختيار المصطلحات التي تنال موافقة أكبر نسبة من المتخصصين.

يمكن أن نلجـأ إلى إعداد قـوائم للمصطلحـات الجغـرافية بحيـث يكتـب المصطلح الأجنبي وأمامه ما اقترح من مصطلحات عربية، وتطبع هذه القوائم بحيث تكون هناك قوائم لكل فرع من فروع الجغرافيا، ثم ترسل هذه القوائم إلى أكبر عـدد من الجغـرافيين بحسب تخصصـاتهم في جميـع أقطار الـوطن العـربي لاختيار مـا يرون مـن مصطلحات مناسبـة في القائمـة، أو اقتراح مصطلحات أخرى، وفيما يلي نموذج لما يمكن أن تشتمل عليه القائمة.

استبيان حول مصطلحات الجغرافيا الطبيعية

المصطلح الأجنبي	المصطلحات العربية (١)	مصطلح مقترح (٢)
Horst	هورست ـ ضهر ـ هضبة اندفاعية	
Anticline	ثنية محدبة ـ تحدبية ـ طبة محدبة ـ انتكلين	
Alluvial fan	مروحة غرينية ـ مخروط الضباب	
Cone de dejection	(فيضة ـ تنهية ـ تنهاة) ث	
Meander	منادر ـ تعرج ـ ثنية ـ كوع (حنو ـ خوع) ث	
Subsoil	تربة سفلية ـ تحتربة (م)	
Lava	لافا ـ المهل ـ القطر (م)	

(١) أشر على المصطلح الذي توافق عليه بعلامة صح .

(٢) إذا كان لديك مصطلح مقترح فاكتبه .

(ث) مصطلحات وردت في التراث الجغرافي العربي .

(م) مصطلح أقره مجمع اللغة العربية بمصر .

وبعد أن تجمع هـذه القوائم وتفحـص وتدرس ، تعـد قوائم جـديدة بما نـال استحسـان أكثريـة الجغرافيين وقبـولهم في كـل تخصص ، وينبـه الجغرافيـون بما استقر عليه رأي غالبيتهم .

ثانيًا : تعمم هذه القوائم وترسل لجميـع الجهات التي تتداول المصطلحات

الجغـــرافيــة ، وتبلــغ بنتــائج الاستبيـــان ، ويــؤكـد على ضرورة الالتــزام بهذه المصطلحـات ويشــار إلى أهميــة استخـدامهـا لما يحققــه ذلـك مـن تــوحيـد للمصطلحـات الجغرافيـة ، وبـالتـالي نقضي على داء من أدواء الفكـر الجغـرافي العربي ، ألا وهو اختـلاف المصطلحات الجغرافية . ولا يغيـب عنا أن نشر هذه المصطلحات وتعاون الهيئات والاتحادات والمؤتمرات الجغرافية في ذلك يعد وسيلة مهمة وخطوة جادة في مجال توحيد المصطلحات الجغرافية العربية .

ثالثًا : يجب السعي بشتى الوسائل لدى وزارات التربية والتعليم والمعارف في الدول العربية كـي يعتمد مؤلفو كتب الجغرافيا على تلـك المصطلحات التي تم الاتفاق عليهـا ، إذ أن للنشر والتأليـف العلمي شـأوًا عظيمًـا في تعميـم تداول تلـك المصطلحات وإشـاعة استخـدامها . وبـدهي أن تـوحيد المصطلحـات الجغرافية العربيـة يحمل خيرا كبيراً للجغرافيا العربية ، إذ أنـه خطوة إيجابية نحو تكويـن مدرسة جغرافيـة عربية أصيلـة ، كما أن توحيد المصطلحات الجغـرافية العربية أحد السبـل الإيجابية في إشاعة الفكر الجغرافي العربي عـن طريق الكتب الجغرافية العربية التي يقف اختلاف المصطلحات فيها الآن عقبة لا يستهان بها في سبيل سعـة انتشارهـا ، كما أن الالتزام بمصطلحات جغـرافية مـوحدة ييسر عمليات تدريس الجغرافيا وإعارة المدرسين بين أقطار الدول العربية .

رابعاً : إن قضية المصطلحات الجغرافية قضيــة مستمرة طالما أن هناك اتصالاً بين أقطار العالم وسيلاً لا ينقطع من البحوث التي يمكن أن يستفاد منها ، ولهذا ينبغي أن تشكل لجنة شبه دائمة لقضية تـوحيد المصطلحات الجغرافية العربية ، تكون تابعة لمكتب التعريب العـربي ، أو اتحاد الجامعات العربية ، وتكون مهمة هـذه اللجنـة الاتصال بـالمختصين في فـروع الجغـرافيـا المختلفة وتتلقـى منهـم المقترحات ، وتعمم نشر ما يتم الاتفاق عليه من مصطلحات جديدة .

وفي ختام هذا البحث آمل أن أكون قد أسهمت بما يمكن الانتفاع به في مجال طالما تمناه الجغرافيون العرب ألا وهو توحيد مصطلحات الجغرافيا التي تمثل ركنًا هامًّا من مجال فكرهم وساحة تخصصهم، وما التوفيق إلا من عند الله.

● ● ●

المراجع

١ ـ ابن خلدون (دت) مقدمة ابن خلدون، مصر: المكتبة التجارية الكبرى.

٢ ـ إخوان الصفا (١٣٧٦ هـ) رسائل إخوان الصفا، بيروت: دار بيروت.

٣ ـ أمين، أحمد (١٣٥١ هـ) ضحى الإسلام، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٤ ـ الثعالبي، أبو منصور (١٩٣٨م) فقه اللغة وسر العربية، القاهرة، تحقيق مصطفى السقا وآخران.

٥ ـ الحموي، ياقوت (١٩٥٥م) معجم البلدان، بيروت: دار صادر.

٦ ـ الخش، علي (د.ت) المدى الجغرافي، مترجم، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

٧ ـ الخفاجي المصري، شهاب الدين أحمد (١٩٥٢م) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل: القاهرة.

٨ ـ الشنتناوي، أحمد وآخرون (١٩٣٠م) دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة، القاهرة.

٩ ـ الشهابي، الأمير مصطفى (١٣٨٤هـ) المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، دمشق: مطبوعات المجمع العلمي.

١٠ ـ الصياد، محمد محمود (١٩٧٤م) المعجم الجغرافي، القاهرة: مجمع اللغة العربية.

١١ ـ الغنيم، عبد الله يوسف (١٤٠٤هـ) منتخبات من المصطلحات العربية لأشكا ل سطح الأرض، الكويت.

١٢ ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، (١٩٦٥م) المصطلحات الجغرافية، القاهرة.

١٣ ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (١٣٩٨هـ) المعجم الموحد للمصطلحات العلمية في مراحل التعليم، ٤، القاهرة: المطبعة التعاونية.

١٤ـ توني، يوسف (١٩٦٤م) معجم المصطلحات الجغرافية، القاهرة.

١٥ ـ حميده، عبد الـرحمن (١٩٨٢م) مبادئ الجيومورفورلوجيـا، معرب، دمشق: دار الفكر.
١٦ ـ زكي، أحمد (١٨٩٦م) قاموس الجغرافيا القديمة بالعربي والفرنساوي، القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق.
١٧ ـ عبد الباقي، ضاحي (١٩٧٩م) المصطلحات الجغرافية، القاهرة.
١٨ ـ محمـدين، محمـد محمـود (١٩٨٤م) التراث الجغرافي الإسـلامـي، الريـاض: دار العلوم.
١٩ ـ محمديـن، محمد محمـود (١٩٨٣م) الجغرافيـا والجغرافيـون بين الزمـان والمكان، الرياض: دار العلوم.

الهوامش

(١) من المصطلحات الأخرى، الاصطرلاب، نمـوذج أو أنموذج، العروض، والأطوال، الطقس وغيرها.

(٢) مثل: بأبأ أي قال بأبي أنت وأمي.

(٣) نحتت كلمة Smog من Smoke + Fog.



الأستاذ رابح لطفي جمعة

تقديم :



لم يرد ذكر بعض الأمم البائدة والأحداث التاريخية القديمة في القرآن الكريم على سبيل الخبر التاريخي، وإنما للحض على السير في الأرض ومشاهدة ودراسة آثار الأولين للاعتبار بها والتنبيه على أخذ الموعظة منها والربط بين المعلومة الأثرية والعبرة المستفادة منها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١)﴾، وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٢).

ومعنى ذلك كما يقول المفسرون ألم يسر هؤلاء المشركون في أطراف الأرض ليعرفوا عاقبة المشركين وآثار الأمم السالفة التي كانت قبلهم ماذا حل بهم من العذاب والدمار بسبب كفرهم وتكذيبهم، فقد كانوا أكثر عددًا من أهل مكة وأشد منهم قوة ولا تزال آثارهم باقية من بعدهم شاهدة على قوتهم، فلم ينفعهم ما كانوا يكسبون من الأموال وما يشيدون من الأبنية والقصور شيئاً، ولم يدفع عنهم العذاب.

كذلك من مقاصد السير في الأرض والتعرف على ماضي الأقوام وموقفهم من الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ـ مواساة النبي ﷺ وتثبيته وتطمينه وتبشيره بأن النصر ـ بإذن الله ـ سوف يكون حليفه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾(٤).

وبالجملة فإن الآيات القرآنية سالفة الذكر وغيرها واضحة الدلالة في وجوب العبرة من أدلة الآثار المادية التي بقيت بعد الأمم السابقة(٥)، لأن القرآن الكريم أفضل المراجع التي لابد أن تأخذ مكانها عند دراسة تاريخ الأمم السابقة وآثارها لا سيما عندما تقترن بدليل مادي للتحقيق في أحوال هذه الأمم وعقائدها بهدف توحيد العبادة لله وحده(٦).

على أن هناك جانباً آخر لذكر القرآن الكريم تاريخَ بعضِ الأمم البائدة وما كان سائداً فيها من عقائدَ وأديانٍ ومعتقداتٍ وتقاليدَ وحضاراتٍ، ذَلِكَ أَنَّ هذه الحضاراتِ وتلك المعتقدات والتقاليدَ هي التي كونَتْ نفسية العربِ قَبْلَ أَنْ ينْتَشِرَ الإسلام بَيْنَهُمْ، وقد قِيلَ بِحَقٍّ إنَّ أيَّ مؤرِّخٍ مُنصِفٍ لن يستطيع أن يُوفي هذا الدين الإسلامي وهذا النبي العربيّ الكَريم وهذا الشعب العربي العظيمَ الذي كوّنَ إمبراطوريةً عظِيمة في زَمَنٍ قَصِيرٍ - لا يستطيع المؤرّخُ أن يُوفِي هذا كلّه حقَّه إذا لَمْ يُلم بما كَان في بلادِ العَرَبِ من شُعُوبٍ وديانَاتٍ وحضَاراتٍ وتَقاليدَ قبل ظهور الإسلام، ولهذا فإنَّ دراسَةَ تاريخ وآثارِ بلادِ العربِ قَبْلَ الإسلام لَيْسَتْ دِرَاسةً عادية لِبلدِ من البُلْدَانِ أو ترفاً فكْرِيًّا بل إنها دراسة على جانب كبير من الأهمية لا للعرب فقط بل لجميع المسلمين في أنحاء العالم(٧).

وفضلاً على ذلك فإن دراسة الآثار وما خلفه السابقون منها يزيد من معلوماتنا عن مواطن الحضارة التي كانت للعرب في شبه الجزيرة العربية، تلك المواطن التي مازلنا نجهل عنها الكثير، ويؤكد الأستاذ عبد الله حمد الحقيل أننا في حاجة إلى قراءة المزيد من الكتب والوثائق والمخطوطات والمصادر التاريخية التي تتصل بتاريخ بلادنا العربية(٨).

ليس هذا فحسب، بل إن من دَلاَئِلِ الإعجاز التّاريخي للقرآن الكريمِ أنَّهُ

يُشِيرُ ـ وَلَوْ بِعِبَارَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجُمَلٍ مُقْتَضَبَةٍ ـ إلى ما كانَتْ عليه بعض الأمم البائدة من حضارة وتقدم ورقي في فنون الزراعة والبناء مما كشفت عنه حديثاً أعمال البحث والتنقيب وأكدته الحفريات الأثرية في القرن العشرين، أي بعد مضي أكثر من أربعة عَشَرَ قرناً على نزول القرآن، وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من سورة أن النبي ﷺ لم يكن ليعلم شيئاً من حوادث وأنباء هذه الأمم الغابرة وتلك الأقوام البائدة قبل نزول الوحي عليه، وأنه لم يكن حاضراً أو شاهداً ما يسرده القرآن من هذه الأنباء وتلك الأحداث، يقول سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾(٩). ويذكر الدكتور عبد المنعم عبد الحليم أن علم دراسة النقوش والكتابات القديمة في الجزيرة العربية يقدم لنا مثالاً واضحاً للإعجاز في القرآن الكريم(١٠).

مملكة سبأ:

ومن الأقوام القديمة والممالك البائدة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم مملكة سبأ في اليمن، وقد جاء ذكر هذه المملكة في القرآن مرتين الأولى في سورة «النمل» والثانية في سورة «سبأ».

وفي هذه الصفحات نتحدث عن سبأ بين التاريخ والنص القرآني، فنبادر إلى القول بأن ما ورد في القرآن الكريم عن سبأ ـ وخاصة سدّ مأرب وَسيْل العرم ـ يكاد ينطبق تماماً على ما كشفت عنه أعمالُ البحث والتنقيب في المناطق الأثرية بمدينة صرواح ومأرب، وما سجله الرحالة الأجانب والعرب الذين ارتادوا هذه المناطق في كتاباتهم وبحوثهم وما نقلوه من نقوش.

فقد كانت قصة التوراة عن مملكة سبأ والنبي سليمان وما ورد فيها من أماكن متعددة في بلاد العرب وما حوته هذه المملكة من ذهب وكنوز وأحجار كريمة، وما كتبه المؤرخون اليونان والرومان من قصص أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة التاريخية، وما رواه بعض مؤرخي العرب كالحسن أحمد الهمداني في كتابه «الإكليل» عما كان في بلاد اليمن من قصور وحصون وهياكل ومعابد وسدود ومقابر بقيت قائمة من عهد الأقدمين، كل هذه الكتابات كانت سبباً في إثارة خيال كثير من الرَّحَّالةِ الإفرنج والعرب وحملهم على السفر إلى اليمن [١١].

وقد بدأت معلوماتنا عن «اليمن الخضراء» كما وصفها الهمداني في كتابه «صِفَة جزيرة العرب» أو «بلاد العرب السعيدة» "Arabia - Felix" كما سماها اليونان الأقدمون تتغير منذ بدأت النقوش اليمنية تصل إلى أيدي العلماء كما وصل إلى أيديهم عشرات الألوف من المخربشات القصيرة على واجهات الصخور بين ثمودية ولحيانية وسبئية وغيرها جعلتنا نعرف الشيء الكثير عن تاريخ اليمن القديم.

وقد ساعدتنا هذه النقوش في الحصول على صورة واضحة إلى حد ما عما كان جارياً في تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد سواء من الناحية السياسية أم الدينية أم الاقتصادية أم العمرانية، فقد كان هناك في تلك الحقبة عدة دويلات تعاصر بعضها بعضاً في جنوب الجزيرة العربية، وكان من أهمها «سبأ» و «معين» و«قتبان» و«حضرموت» و«أوسان»، وكان يحكم كلاً من هذه الدويلات أو الممالك رئيس أو حاكم اسمه مكرب [١٢] يجمع في يده بين السلطتين الدينية والزمنية، على أن مملكة «سبأ» كانت هي دولة اليمن الكبرى وأشهرها ذكراً في تاريخ اليمن القديم.

وقد بلغ العدد المعروف حتى الآن من هؤلاء المكربين من حكام سبأ اثني عشر مكرباً كان آخرهم يدعى «كريب إيل وتار» وكان معاصراً للملكين الآشوريين سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق . م) وسنحريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق . م)(١٣).

وقد اتسعت مملكة سبأ حتى شملت «أوسان» و«قتبان» و«حضرموت»، واستمرت خلال تاريخها تقوى حيناً وتضعف حيناً آخر، وتتسع تارة وتنكمش تارة أخرى حتى انتهى الأمر باحتلال مملكة أكسوم في الحبشة لليمن سنة ٥٢٥ ميلادية(١٤).

حضارة سبأ:

وقد نشأت حضارة عريقة في مملكة سبأ التي اتخذ حكامها مدينة «صرواح» عاصمة لهم ثم استولوا على مدينة «مأرب» واتخذوها عاصمة لملكهم، وقد عني كثير من المكربين من ملوك سبأ بتشييد المعابد للآلهة التي كانوا يعبدونها، ولعل أقدم هذه المعابد السبئية الكبيرة التي ظلت قائمة حتى اليوم هو ذلك المعبد الذي بناه[يدع إيل ذريح] بن (سمهو على) وهو ثاني مكرب معروف في مملكة سبأ وعاش في القرن الثامن قبل الميلاد(١٥).

وقد تميزت حضارة السبئيين القديمة على ما عداها من الحضارات بتوفير أسباب الرخاء والاستقرار ووسائل استثمار الأرض واستزراعها واستخراج خيراتها بإقامة السدود عند مآزم الأودية وملتقى السيول حيث تحتجز المياه وتخزن لوقت الحاجة لتضمن للحقول الواسعة رياً منتظماً على مدار السنة ولا سيما في السنين المجدبة.



تمثال من البرونز لحاكم سبأ «معدي كرب» ويعد واحداً من أهم التماثيل المجسدة للحضارة اليمنية القديمة

وقد تفوق السبئيون على البدو في الحضارة وازدهرت حياتهم وجمعوا في أيديهم كثيراً من أسباب القوة والنفوذ. ولعل قوله تعالى في سورة النمل على لسان الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾(١٦) وقوله تعالى على لسان الملأ من قوم مملكة سبأ: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ أن يكون إشارة إلى ما بلغته مملكة سبأ من ازدهار وقوة ونفوذ(١٧).

كذلك مارس السبئيون التجارة وأخذت قوافلهم تجوب الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال ووصلت بلاد الشام وكثرت الأموال وعم الرخاء وتقدم العمران وامتلأت خزائنُ الملوك بالأموال فَبَنَوا القُصورَ والمعابدَ والسُّدودَ التي لاتزال قائمةً حتى الآن شاهدةً على حضارة عريقة وتقدم في فنون الهندسة والعمارة، وكان من أهم الطرق الرئيسية لقوافل التجارة ذلك الطريق الذي كان يمر بصنعاء ومأرب ثم بمكة ويثرب ثم بمداين صالح حتى يصل إلى بصرى جنوب سوريا ومنها يأخذ سمته شمالاً حتى غزة. وقد أسس السبئيون مراكز تجارية مهمة على طريق القوافل سالف الذكر، فكانت قوافلهم تأمن مصاعب كثيرة أهمها نهب البدو لها، وإلى هذه القرى التي كانت تقع على طريق القوافل يشير سبحانه وتعالى فى سورة سبأ بقوله ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾(١٨)وجاء في تفسير هذه الآية أن الله تعالى يذكر السبئيين بما كانوا فيه من الغبطة والنعمة والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض بحيث إنَّ مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء بل حيث نزل يقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاج إليه في سيره، وقال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وغيرهم يعني قرى الشام، كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام

بقوافلهم التجارية في قرى ظاهرة متواصلة واضحة يعرفها المسافرون[١٩].

وبالجملة فقد ارتبط تاريخ سبأ في أيامها العظيمة بسيطرة ملوكها على الطريق التجاري الكبير إلى أن ظهرت مملكة «ظفار» جنوبي اليمن فغيرت من سير هذا الطريق التجاري وجعلته قريباً من البحر، وأخذت أهمية مأرب عاصمة المملكة السبئية تتضاءل بينما أخذ نجم ظفار ومدن أخرى يعلو في أرض اليمن.

تاريخ اعتلاء بلقيس عرش سبأ:

يحدد بعض المؤرخين المتخصصين في تاريخ اليمن القديم مملكة سبأ الحقيقية أو العصر السبئي من نحو سنة ٩٥٠ قبل الميلاد إلى سنة ١١٥ قبل الميلاد، وقد بلغت هذه المملكة ذروة مجدها حوالي القرن التاسع قبل الميلاد.

وفيما يلي نحاول أن نتعرف على التاريخ التقريبي الذي اعتلت فيه «بلقيس» عرش مملكة سبأ وعاصرت فيه النبي سليمان بن داود ملك بني إسرائيل. واعتمادنا في ذلك على تاريخ حكام مصر وفينيقيا في ذلك الوقت، حيث إنَّ تاريخ هؤلاء الحكام قد أمكن تحديده على وجه التقريب بالرجوع إلى قوائم الملوك والفراعنة التي سجلها المؤرخ المصري مانيتون وكذلك بالرجوع إلى سفر الملوك من التوراة.

فنقول إنه بعد وفاة النبي موسى عليه السلام خلفه في قيادة الشعب الإسرائيلي يوشع بن نون الذي تمكن بحروبه مع ملوك البلاد المجاورة وشعوبها من السيطرة على الأرض الداخلة في فلسطين وتقسيمها بين بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة مقاطعة بعدد الأسباط، وعيّن على كل مقاطعة منها شيخاً كاهناً يسمى

«القاضي» وبذلك عرف هذا العصر في تاريخ بني إسرائيل بعصر القضاة الذي تحدثت عنه التوراة في السفر المعروف بهذا الاسم، وقد بدأ عصر القضاة من وفاة يوشع بن نون حوالي سنة ١١٣٠ قبل الميلاد حتى سنة ١٠٣٠ ق. م[٢٠].

وفي أخريات هذا العصر فسدت ذمم القضاة ومالوا إلى أخذ الرشاوى فاختار صموئيل للشعب الإسرائيلي ملكاً لهم هو شاؤل (طالوت في القرآن الكريم) وهو أول ملوك بني إسرائيل، وقد تمكن شاؤل من قيادة الشعب وخوض الحروب ومنازلة جوليات (جالوت) قائد الفلسطينيين.

وفي هذه الفترة ظهر النبي داود بوصفه أحد جنود شاؤل الشجعان ونازل جوليات وتمكن من هزيمته وقتله وعلى إثر ذلك فرّ سكان فلسطين من بلادهم وأعجب شاؤل بداود وارتفعت مكانة الفتى بين قومه حتى خلف شاؤل في حكم البلاد [١٠١٢ ـ ٩٧٢ق. م]، وقد صاغ القرآن الكريم هذا الحادث من حوادث تاريخ بني إسرائيل فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[٢١].

كان الملك داود محاربًا شديد البأس، فأخذ يوسّع من رقعة مملكته حتى وصل بها إلى حدود عمون (عمان حاليا) ونهر الفرات، وتزوج من امرأة أوربا فأودلها ابنه سليمان الذي خلف أباه على بني إسرائيل[٢٢].

وفي سنة ٩٥٠ قبل الميلاد بقليل كان الحكم الفرعوني في مصر قد انتقل إلى يد أسرة من جنس أجنبي عرف حكامها بلقب رؤساء المشوش أو رؤساء الأجانب، وقد كون هؤلاء الحكام الأجانب الأسرة الثانية والعشرين التي دامت من سنة ٩٤٥ ق. م إلى سنة ٧٣٠ ق. م.، وقد استطاع علماء المصريات أن يحدّدوا

خمسة من هؤلاء الحكام يحملون اسم «شوشنق» .

على أنه يهمنا من هؤلاء الحكام الأجانب الملك شوشنق الأول مؤسس الأسرة، وهو الملك المصري الذي عاصر النبي سليمان ومن بعده ابنه رحبُعام .

وطبقاً لما أورده المؤرخ مانيتون في قوائم الملوك فإن شوشنق الأول حكم مصر ٢١ سنة من سنة ٩٤٥ ق . م إلى سنة ٩٢٤ ق . م[٢٣] .

وفي ذلك الوقت كانت العلاقات بين مصر والبيت المالك الإسرائيلي قد أصبحت أكثر تقرباً، يدلنا على ذلك النص التالي لصاحب الحوليات العبراني حيث يقول : «وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داوود»[٢٤]، كما يقول : «وصعد فرعون مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان»[٢٥] .

وواضح من ذلك أن صاحب الحوليات العبراني وإن لم يصرح باسم فرعون مصر الذي صاهر الملك سليمان، إلا أنه مما لا شك فيه أنه هو شوشنق الأول الذي تسميه التوراة «شيشق»، يدل على ذلك ما جاء في سفر الملوك «وفي السنة الخامسة للملك رحبُعام (ابن النبي سليمان) صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب (يعني الهيكل الذي بناه سليمان) وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء»[٢٦] . ويوافق هذا الغزو على الأرجح حوالي سنة ٩٣١ قبل الميلاد أي خلال حكم شوشنق الأول، وبعد وفاة النبي سليمان سنة ٩٣٦ ق . م بحوالي خمس سنوات كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين[٢٧] .

هذا بالنسبة إلى شوشنق الأول فرعون مصر الذي عاصر النبي سليمان .

أما بالنسبة إلى ملك الكنعانيين الذي عاصر سليمان، فقد كان الكنعانيون الذين سماهم اليونانيون بعد ذلك بالفينيقيين يسكنون في تلك الحقبة مدن

الشاطىء السوري على الساحل الشرقي للبحر الأبيض وخاصة مدينة صور ومدينة جبيل (بيبيلوس) وقد خلف الملك أحيرام أباه «أبي - بعل» على مملكة صور وحكم فترة طويلة بين سنتي ٩٨٠ إلى ٩٣٦ قبل الميلاد.

والملك أحيرام هذا كان معاصراً للملك سليمان بن داود ومن أهم ما يذكر به أنه اهتم بتجميل مدينة صور وتوسيع رقعتها فشيد فيها عدداً من القصور والمعابد الجديدة كما اهتم بترميم بعض المعابد القديمة وكان عهده في الجملة عهد نهضة كبيرة في شتى النواحي.

على أن من أشهر الأعمال التي اقترنت باسم هذا الملك هو صداقته المتينة للملك سليمان وقبوله بأن يمدّه بالمعماريين والعمال الفنيين المهرة ومواد البناء اللازمة لإقامة الهيكل في أورشليم وكذلك إقامة قصر له وقد استغرق بناء الهيكل والقصر عشرين عامًا.

وقد ظل أحيرام والملك سليمان صديقين حميمين وشريكين في التجارة، فساعد سليمان أيضًا على إنشاء أسطول تجاري كبير في البحر الأحمر وأمدّه ببحارة فينيقيين مهرة للعمل مع بحارته على السفن، واتسعت صلات أحيرام البحرية وازدادت في البحر الأبيض المتوسط وخاصة جزيرة قبرص[(٢٨)].

مما تقدم نستطيع أن نحدد الزمن الذي عاصرت فيه ملكة سبأ النبي سليمان بحوالي النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً أي حوالي سنة ٩٥٠ أو سنة ٩٥٤ قبل الميلاد، وهي الفترة التي يقول عنها المؤرخون إن مملكة سبأ بلغت فيها ذروة مجدها.

فحوالي هذه الفترة تقريباً عاشت بلقيس ملكة سبأ، وقد بلغت المملكة في عهدها درجة كبيرة من الرقي والازدهار والثروة والغنى وانتشار الزراعة وازدهار التجارة وتقدم فنون العمارة والأخذ بنظام الشورى في الحكم، يدل على ذلك ما

جاء في سورة النمل على لسان ملكة سبأ: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾[٢٩].

ومما لا شك فيه أن ازدهار مملكة سبأ في عهد الملكة بلقيس كان له أكبر الأثر في لفت نظر الملك سليمان إلى هذه المملكة القوية الغنية مما سيأتي بيانه فيما بعد.

ديانة السبئيين:

أما ديانة السبئيين في تلك الأزمنة السحيقة فقد كانت تقوم في أساسها على عبادة الأجرام السماوية، فكانت تقوم على أساس ثالوث مقدس من الكواكب، فكان الإله الأب هو «القمر» أو «الموقاه» وكانت الإلهة الأم هي «الشمس» أو (ذات حميم في الصيف وذات بعدان في الشتاء)، أما الابن فقد كان نجم الزهرة أو «عشتر».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أول من دان من العرب بعبادة الأجرام السماوية هم السبئيون، فلما تفرقوا في بلاد العرب بعد تهدم سد مأرب انتشرت عبادة الشمس والكواكب في القبائل التي نزلوا بها أو جاوروها ثم انتقلت إلى مجاوريهم من أهل الحبشة والشام[٣٠].

ولعل السبئيين أخذوا عبادة الشمس عن المصريين القدماء، فالمعروف أن المصريين القدماء عبدوا الشمس وأقاموا لها الهياكل والمعابد ونظموا لها الأناشيد الدينية كما في «أنشودة أخناتون» ومنظومة «مائة نشيد لآمون»[٣١].

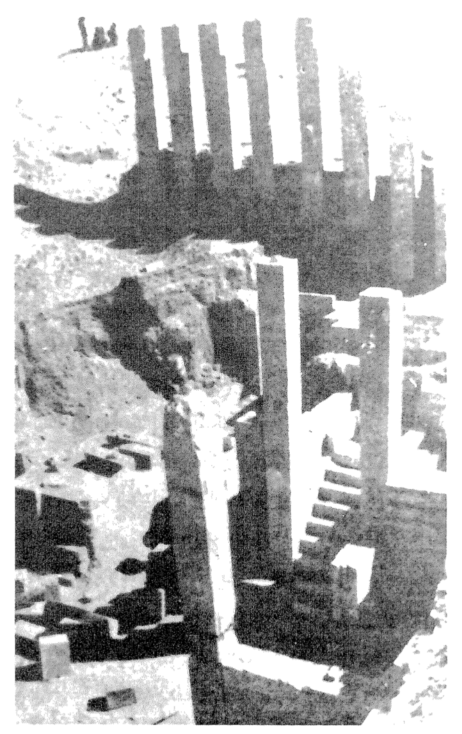
كانت معابد هذه الآلهة السبئية على درجة عظيمة من الفخامة وخاصة في مدينة صرواح ومأرب مما يدل على أنه كان يعيش في مملكة سبأ قوم ذوو حضارة راقية وثروات طائلة وتقدم في فنون العمارة والهندسة .

وقد أكدت أعمال التنقيب في اليمن ما جاء في القرآن الكريم عن عبادة السبئيين للشمس فقال سبحانه وتعالى في سورة النمل على لسان الهدهد : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٣٢] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن اليمنيين في الوقت الحاضر يطلقون اسم بلقيس على معبد يبعد عن خرائب مدينة مأرب بحوالي أربعة كيلومترات جنوب شرقي المدينة وهو المعبد المشهور باسم «محرم بلقيس» وقد زاره الرحالة الفرنسي جوزيف توما ارنو سنة ١٨٤٣م ، كما زاره الرحالة الألماني أدوارد جلاسر سنة ١٨٨٨م ، ونقلا ما على السطح الخارجي لسور هذا المعبد من كتابات ونقوش ، وقد ظل هذا المعبد يؤدي وظيفته في عبادة الشمس وإلاه القمر «الموقاه» بمدينة مأرب حقبة تقرب من ألف سنة[٣٣] .

بلقيس ملكة سبأ :

أما الملكة بلقيس فإنها تثير جدلاً كبيراً بين المؤرخين ، فليس هناك حتى الآن دليل تاريخي أو أثري على وجود تلك الملكة ، ومن هنا نسجت حول شخصيتها الأسطورية العديد من المرويات والأقاصيص اليهودية والمسيحية والإسلامية واليمنية والحبشية . وقد توصل الدارسون إلى أن القصص المكتملة عن زيارة



جزء من معبد فى مأرب يطلق عليه « محرم بلقيس»

الملكة لسليمان ظهـرت في الحبشة ووجدت صيغـة جميلة لها في الملحمة الـوطنية الحبشية المعروفة باسم «كبرا نجشت» أي «مجد الملوك».

أما مفسرو القرآن الكريم فقد نسجوا حول قصتها مع الملك سليمان كثيراً من الأقاصيص مستمدة من الإسرائيليات وخاصة حول الصرح الممرّد من القوارير وهو القصر المشيد المحكم البناء المرتفع في السماء الناعم الأملس، وكذلك حول هديتها للنبي سليمان من الغلمان والجواري وما حلوا به من الأساور من الذهب والفضة والياقوت والأحجار الكريمة وما حملوه من أنواع البخور والطيوب(٣٤).

فـابن خلـدون يقول في تـاريخه إن ملكـة سبأ التـي زارت النبي سليمان كـان اسمها «بلقمة» أو «بلقيـس» وأنها كانت قد حكمـت قومها سبع سنـوات قبل زيارتها سليمان وأربعة وعشرين سنـة بعد عودتها من تلك الزيـارة، وأنها كانت السادسة في ترتيب الملوك الذين حكموا مملكة سبأ.

أما الروايات الحبشية فإن لقصة الملكة بلقيس جانباً سياسيًّا يتمثل في اتخاذها أسـاساً لشرعيـة الأسرة المالكـة عند الأحبـاش، لأن هـذه الأسرة ـ كما يـروون ـ تنحدر من مملكة سبـأ وسليمان إذ إن أول ملـوك أثيـوبيا كـان ابـناً لبـلقـــيس أو «ماكدة» بطلة الشمس، أما سليمان الحكيم فكان بطل القمر.

ويذكر صاحب «الإكليل» أنه كان فـي مـأرب ثلاثة قصور هـي «سلحين» و «الهجر» و«القشيب»، وأهم هذه القصور وأشهرها كان قصر «سلحين» الذي تردد اسمـه كثيراً في كتب الأدب العربي على أنـه قصر الملكة بلقيـس، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدتـه القائمة وقالوا إنها هـي التي كانت تحمل العـرش الذي جاء وصفه في القرآن الكريـم على لسان الهدهد بأنه «عرش عظيـم». ولكن الدكتور أحمد فخري يقـول إنه من الصعـب تحديد مكـان قصر بلقيس اعتماداً على مجرد

أقوال الشعراء وما جاء في مبالغات كتاب العرب.

وفي سنة ١٩٨٨م، أصدرت دار نشر بلزر بمدينة شتوتجارت كتاباً عنوانه «ملكة سبأ الفن والأسطورة والآثار بين الشرق والغرب»، يتضمن أبحاثاً ودراسات قيمة عن هذه الملكة الأسطورية وآخر ما توصلت إليه الكشوف والبحوث في النقوش والآثار عن اليمن القديم وملكته والمرويات والأقاصيص المتعلقة بها[٣٥].

أما القرآن الكريم فلم يصرح باسم ملكة سبأ؛ لأن القرآن لا يعنى كثيراً بذكر الأسماء وإنما قال في الآية ٢٣ من سورة النمل على لسان الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾. كذلك لم تصرح التوراة باسم ملكة سبأ التي زارت النبي سليمان.

أما مفسرو القرآن الكريم فقد تكرر في تفاسيرهم اسم «بلقيس» على أنها ملكة سبأ بالرغم من أن هذا الاسم لم يرد على الإطلاق بين الأسماء السبئية المعروفة، ويذهب البعض إلى أن هناك احتمالاً بأن يكون الاسم منقولاً عن العبرية التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه «جارية» أو «أَمَة»[٣٦].

ومهما يكن من خلاف حول اسم ملكة سبأ التي زارت الملك سليمان، فإنه لم يكن غريباً في تلك الأزمنة البعيدة أن تحكم امرأة تلك المملكة، فلدينا من تاريخ الممالك والشعوب قديماً وحديثاً شواهد عديدة على أن بعض النساء حكمن شعوبهن، فقد حكمت الملكة نيتوكريس مصر وهي من ملوك الأسرة السادسة، كما حكمت الملكة «سبك نفرو» مصر وهي من الأسرة الثانية عشرة، أما الملكة حتشبسوت فقد حكمت مصر وهي من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، كما حكمت كلوبطره مصر في أواخر العهد البطلمي، وفي الجزيرة العربية نفسها

حكمت الزباء مملكة زنوبيا التي كانت عاصمتها تدمر أو بالميرا كما يسميها الرومان، بل أكثر من ذلك فهناك ملكتان من الأسرة الصليحية التي حكمت اليمن في القرنين الرابع والخامس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) إحداهما واسمها «أسماء» والثانية واسمها «أروى» وكان يقال لها «بلقيس الصغرى».

وقد اقترن اسم بلقيس بزيارتها للنبي سليمان في مملكته بأورشليم وإيمانها بعقيدته وإعجابها به حتى قيل إنها تزوجت منه وفي ذلك تقول التوراة «سمعت ملكة سبأ بخبر سليمان... فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جدًّا وحجارة كريمة وأتت سليمان بكل كلامها، فلما رأت كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب (الهيكل) لم يبق فيها روح وقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وحكمتك».

وقد ذكر القرآن الكريم قصة النبي سليمان مع ملكة سبأ في الآيات من ٢٠ إلى ٤٤ من سورة النمل، وقوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ قال المفسرون إن سليمان عليه السلام اتخذ لهذه الملكة قصراً عظيماً منيفاً ليريها عظمة سلطانه، فلما رأت ما آتاه الله تعالى، وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم وملك عظيم فأسلمت لله عز وجل وقالت رب إني ظلمت نفسي أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين أي تبعت دين سليمان في عبادته لله وحده(٣٧).

ولما تــوفي سليمان حــوالي سنــة ٩٣٥ ق. م قــام النــزاع بين ابنـه رحبُعــام Rehoboam مـن زوجتـه نعمـة العمـونية وبين أحـد عبيـد سليمان ويـدعـى «يربعام» وانقسمـت المملكة إلى قسمين شمالي ويحكمه يربعـام ويعرف بمملكة إسرائيـل وعاصمتهـا السامـرة وجنـوبي ويحكمه رحبعـام ويعرف بمملكـة يهوذا وعاصمتها أورشليـم، حتى إذا كانت سنة ٧٣٠ ق. م زالت مملكـة إسرائيل من الوجود زوالاً تامـًا، في حين ظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطهـا ملك بابل نبوخـذ نصر سنة ٥٨٦ ق. م وقتل آخـر ملوكهـا ونهب أورشليم ودمرهـا وسبى أهلها ونقلهـم إلى بابـل، وقد عرفت هذه الفترة في تاريخ بنـي إسرائيل «بالسبي البابلي» وفيها تحطم الهيكل وكل ما كان لبني إسرائيل.

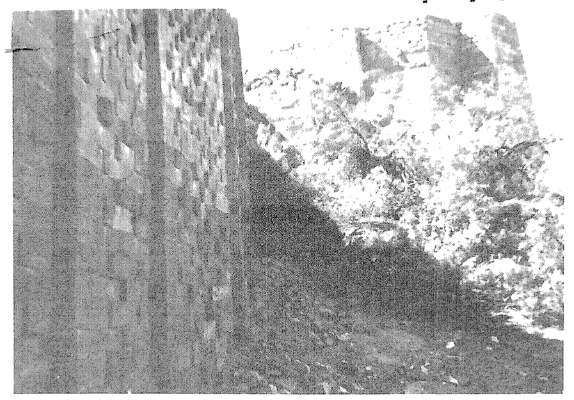
سد مأرب وسيل العرم:

قلنا إن «سبـأ» ذكرت في القرآن الكـريم مـرتين، وقد تحدثنا آنفـاً عن المرة الأولى بمناسبة قصة الملك سليمان مع بلقيس ملكة سبأ.

أما المرة الثانية التـي ذكرت فيها سبأ في القرآن الكريـم فهي في سورة «سبأ» حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾[٣٨].

وسبق أن ألمحنـا فيما تقدم إلى الحضارة السبئيـة القديمـة وتقدم السبئيين في الـزراعة وفنـون العمارة وحسن استخـدامهم ميـاه السيول في الـري، فكانـت

أرض سبأ مضرب الأمثال بين العرب في الخصوبة وكان أهلها ينعمون بخيرات واديهم الفسيح حيث كانت كميات كبيرة من الأمطار تسقط في مناطق كثيرة في شرقي اليمن وتتدفق سيولها في الوديان المختلفة حتى تصل إلى



● جزء من سد مأرب مازال يحتفظ بشكله ●

منطقة قريبة من مدينة مأرب فتدخل متدفقة في فجوة بين الجبال تعرف باسم جبل بلق، وتسمى الفتحة بين الجبلين باسم «الضيقة» ولكل من جهتيها اسم، فيقال بلق الأيمن وبلق الأيسر، كما يعرف الوادي الذي تسير فيه تلك السيول بوادي ذنة.

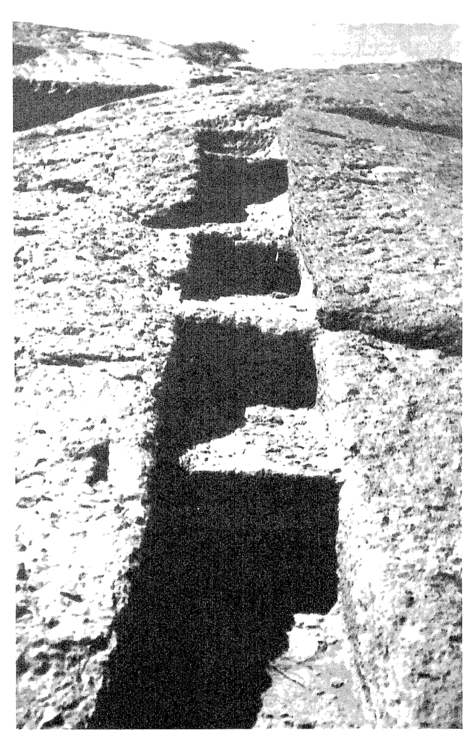
وقد اختار السبئيون القدماء هذا المكان لتشييد السد المعروف «بسد مأرب»، فبنوا جداراً قويًّا يعترض الوادي ويحجز مياه الأمطار المتدفقة وجعلوا في الناحيتين

فتحتين إحداهما إلى أقصى اليمين واستغلوا الجبل المرتفع فلم يبنوا إلا جداراً ضخماً ليكون صدفاً ثانياً للبوابة ، أما الفتحة أو البوابة الثانية التي في الناحية اليسرى فهي أكبر وأعظم وتنقسم إلى قسمين ينتهيان بحوض كبير مبني بالحجر، جعلوا فيه فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لتروي ناحية من نواحي الوادي الفسيح ، وأقاموا على هذه القنوات قناطر صغيرة عديدة للتنقل عبرها من مكان إلى آخر.

والجدير بالذكر هنا أن السدود كانت منتشرة في طول اليمن وعرضها حتى إن الحسن بن أحمد الهمداني يذكر في كتابه «الإكليل» أنها ثلاثون سدًّا وقيل إنها ثمانون سدًّا . على أن أشهر هذه السدود وأهمها كان سد مأرب الذي يأتي في مقدمة تلك السدود ضخامة و إتقاناً، فقد كان أعظمها شأناً وأكثرها نفعاً وأكبرها حجماً وأبعدها صيتاً وأخلدها ذكرًا(٣٩) .

وقد بدأ السبئيون في بناء هذا السد الذي يعد إحدى عجائب العالم القديم في الهندسة المعمارية في عهود الملوك الملقبين بمكرب ، ويذهب البعض إلى أنه بني في المائة الخامسة قبل الميلاد في عهد مكرب سبأ «سمهو على ينوف» ابن «ذمار على» وفي عهد ابنه «يثع بين بن سمهو على» ، في حين يذهب البعض الآخر إلى أنه بني في منتصف القرن السابع قبل الميلاد (حوالي سنة ٦٥٠ ق . م)(٤٠)، أما الدكتور حسن محمد الشماع فيذهب إلى أن السد قد بلغ تمامه وذروته في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد(٤١) .

وقد تحولت الأرض المنبسطة أمام السد من جهة الشرق إلى جنة فيحاء وارفة الظلال كثيرة الخيرات حتى سميت جنتين كما وصفها سبحانه وتعالى في سورة سبأ / آية ١٥ : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ وقد وصف المسعودي أرض سبأ



● إحدى قنوات سد مأرب ●

فقال إنها كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها وأكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مروجاً مع بنيان حسن وشجر مصفوف ومساكب للماء متكاثفة وأنهار متفرقة وكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه(٤٢).

وأول من شاهد أنقاض السد من المسلمين هو الهمداني المتوفى سنة ٩٤٥م، ووصفه وصفًا دقيقًا فقال: «الجنتان عن يمين السد ويساره وهما الآن غامرتان، وإنما عفتا لما اندحق السد فارتفعتا عن أيدي السيول... وأما مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس ورأيت بناء أحد الصدفين باقيًا وهو الذي يخرج منه الماء قائماً بحاله على أوثق ما كان، وقد بقي من العرم شيء مما يصالى الجنة اليسرى»(٤٣).

أما في العصر الحديث فقد زار الرحالة جوزيف توما ارنو (١٨٤٣م) مدينة مأرب في طريقه إلى خرائب مدينة صرواح وزار سد مأرب ونقل كثيرًا من النقوش السبئية التي رآها وأخذ مذكرات عما شاهده هناك وخاصة عن سد مأرب، كما قام الدكتور أحمد فخري أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بكلية الآداب بجامعة القاهرة بزيارة مأرب وما فيها من آثار سنة ١٩٤٨م، والتقط صوراً فوتوغرافية لهذه الآثار ومنها صور لسد مأرب كانت تعتبر أول صور وافية تنشر عن هذا السد(٤٤).

وتصف لنا الدكتورة كلود فايان في كتابها «كنت طبيبة في اليمن» سد مأرب فتقول «لا تزال كتل الأحجار المنحوتة ببراعة منطبقة بإحكام ولا يزال الملاط (الأسمنت) الذي يغطي منحنيات القنوات كما هو وكأنه لم تمر فترة طويلة عليه، ولا يسع المرء إلا أن يعجب بدون تحفظ إزاء اكتمال هذا العمل الجدير بنسبته إلى مهندس معاصر»(٤٥).

كما يصف ويندل فيليبس في كتاب «كنوز مدينة بلقيس» طريقة بناء السد فيقول «أكثر ما أدهشنا بالفعل كانت الطريقة التي وضعت بها تلك الحجارة الهائلة بعضها فوق بعض بترتيب دقيق بحيث كان الحجر يناسب الآخر وكأنها قطع الفسيفساء وقد رأينا قسماً من جدار السد يرتفع خمسين قدماً ما زال شامخاً كما كان عندما أنشأه فنانو سبأ قبل ٢٧٠٠ عام»(٤٦).

تهدم السد :

تهدم سد مأرب مرات عديدة خلال الفترة الطويلة بين تشييده في منتصف القرن السابع قبل الميلاد (حوالي سنة ٦٥٠ ق . م) وبين آخر مرة أصلح فيها سنة ٥٤٢ للميلاد في عهد أبرهة ملك الحبشة . ففي حوالي سنة ١٤٥ قبل الميلاد ظهرت أولى بوادر الانهيار على السد ولكن سرعان ما تضافرت الجهود على ترميمه وظل قائماً حتى سنة ١١٥ قبل الميلاد فداهمته السيول وأصابه الدمار وحلّت بالبلاد كارثة عظمى وتفرق سكان اليمن في الأرض بعد انهيار السد، ويذهب البعض بحق إلى أن ذلك كان هو سيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم .

ولكن البعض الآخر يذهب إلى أن الهمدانيين من ملوك حمير أعادوا بناء السد وأدخلوا عليه بعض التحسينات مما جعله قائماً لمدة خمسة قرون أخرى . وفي منتصف القرن السادس الميلادي سنة ٥٤٢م أصلح السد للمرة الأخيرة في عهد أبرهة الحبشي كما قدمنا وبعد ذلك بسنوات قليلة تصدع السد وركبته السيول فأغرق الأراضي المحيطة به وتفرق الناس عنه ولم تقم للسد بعد ذلك قائمة وكان

بحق نكبة على المنطقة كلها لم تفق منها مأرب أو تتغلب عليها حتى اليوم ويعتقد البعض أن هذا هو التهدم الذي ورد ذكره في القرآن(٤٧).

وبدأت بعد هذه الكارثة أولى الهجرات الكبرى لليمنيين، فهاجر الأوس والخزرج إلى يثرب وسكنت غسان أرض الشام حيث أسست مملكة الغساسنة في حين هاجر قوم إلى العراق وسكنوا الحيرة وأسسوا مملكة الحيرة أو المناذرة ولحق الأزد بعمان وفر خذاعة إلى تهامة، وعن النبي ﷺ أنه قال عن سبأ «إنه كان رجلاً من العرب وله عشرة أولاد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار وحمير، وأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان». وهكذا انفرط عقد السبئيين وقيل فيهم المثل المشهور «تفرقوا أيدي سبأ «أو أيادي سبأ».

وقد نسج المؤرخون وبعض مفسري القرآن الكريم قصصاً خيالية حول سبب تهدم السد وانهياره (٤٨).

وقد سجل القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي المهم وساقه لكفار قريش مساق العبرة والموعظة فقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٤٩).

أما لفظ العرم المذكور في الآية الكريمة فقد قال قتادة إن معناه السد وقال السهيلي هو اسم الوادي وقيل إنه اسم الفأر الذي خرق السد وقيل هو السيل الذي لا يطاق(٥٠).

وإلى سيل العرم وتهدم سد مأرب يشير الأعشى بقوله:

ففي ذاك للمؤتسي أسوة	ومأرب عفّا عليها العرم
رخام بناه له حمير	إذا جاء موّاره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها	على سعة ماؤهم إذ قسم
فعاشوا بذلك في غبطة	فجارفهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها	بيهْماء فيها سراب يطم
فصاروا أيادي ما يقدرو	ن منه على شرب طفل فطم

●●●

الهوامش:

(١) سورة الروم، آية ٩.

(٢) سورة غافر، آية ٨٢.

(٣) سورة هود، آية ١٢٠.

(٤) سورة يوسف، آية ١١١.

(٥) وردت كلمة «أثر» في القرآن الكريم مرتين وكلمة «آثار» إحدى عشرة مرة وكلمة «أثارة» مرة واحدة، والمادة تدور في هذه الاستعمالات حول معاني بقايا الشيء التي تدل عليه أو ما خلف السابقون من مظاهر عمرانية أصابها البلى، كما تعني أيضا الدلائل والآيات والتواريخ والأخبار.

(٦) عبد الرحمن محمد بلح الغامدي، مقال إمكانية الآثار في التعرف على عقائد الأمم السابقة للعبرة وترسيخ عقيدة المسلم، مجلة الفيصل، العدد ١٥٦، السنة

١٣ ، جمادى الآخرة سنة ١٤١٠هـ ـ يناير سنة ١٩٩٠ ، ص ٦٧ ـ ٧٠ .

(٧) دكتور أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٠ ، ص ١٣٠ . وانظر أيضًا كتاب محمد لطفي جمعه في تاريخ النبي ﷺ والمعنون «ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله» ، الفصل المعقود في وصف الجزيرة العربية وخاصة اليمن وما ازدهر فيه من مدنية وحضارة ، طبع مكتبة دار النهضة المصرية ، سنة ١٩٥٨ ، ص ١١٤ .

(٨) الأستاذ عبد الله حمد الحقيل ، مقال «الحلقة المفقودة من تاريخ بلادنا» ، مجلة المنهل ، عدد ٤٤١ ، السنة ٥٢ ، مجلد ٤٧ ، ربيع الأول والثاني سنة ١٤٠٦ هـ ـ نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٩٨٦ ، ص ٣٦٠ .

(٩) سورة هود ، آية ٤٩ .

(١٠) دكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد ، كتاب دراسات في علم الآثار ، ص ٨٧ .

(١١) أمثال موزيل وكارستن نيبور وجوزيف توماس أرنولد وجوزيف هاليفى وادوارد جلازر ويندل فيلبس من الإفرنج ونزيه مؤيد العظم ومحمد توفيق والدكتور أحمد فخري والدكتور حسن محمد الشماع والقاضي اليمني إسماعيل بن علي الأكوع وغيرهم من العلماء والرحالة العرب .

(١٢) يذهب البعض إلى أن مكرب معناه مقرّب أي مقرب من الآلهة فكان هو الوسيط بينها وبين الناس (جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٢ ، ص ٢٦٨)

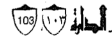
(١٣) ، (١٤)

دكتور أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، مصر والعراق ، سوريا ، اليمن ، إيران ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ص ١٢٦ وما بعدها .

(١٥) د . أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص ١٦٢ ، عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحي ، اليمن ، الإنسان والحضارة ، مجلة الفيصل ، العدد ١٩ ، ديسمبر سنة ١٩٧٨ .

(١٦) ، (١٧)

سورة النمل ، آية ٢٣ ، ٣٣ .



(١٨) سورة سبأ، آية ١٨ .

(١٩) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، عـدد ٤٢، المجلد ٦، طبع دار الشعب، ص ٤٩٦ .

(٢٠) محمد عزة دروزة، تاريـخ بني إسرائيل من أسفارهم، ص ١٧٥، ونـوفل أفندي نوفل، سـوسنة سليمان في أصول العقائد والأديـان، بيروت، سنة ١٨٧٦، ص ١٢٣ ـ ١٢٨ .

(٢١) سورة البقرة، آية ٢٥١ .

(٢٢) سفر صموئيل الثاني، إصحاح ١١ .

(٢٣) كتاب مصر الفراعنة، تأليف السير ألن جاردنـر، ترجمة الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٧، ص ٣٦٠ .

(٢٤) التوراة، سفر الملوك الأول، ٣ : ١ .

(٢٥) سفر الملوك الأول، ٩ : ١٦ .

(٢٦) سفر الملوك الأول، ١٤ : ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢٧) مصر الفراعنة، المرجع السابق، ص ٣٦١ .

(٢٨) دكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢٩) سورة النمل، آية ٣٢، ٣٣ .

(٣٠) نعمان الجارم، أديـان العرب في الجاهليـة، ط١، مطبعـة السعادة بمصر، سنـة ١٣٤١ هـ/ ١٩٢٣م . ص ١٨٦ ـ ١٩٠ .

(٣١) للوقـوف على مزيد مـن المعلومات عن عبـادة المصريين القدماء للشمـس راجع كتاب «آلهة مصر» لفـرانسوا دومـاس ترجمة زكـي سوس، الهيئـة المصرية العـامة للكتاب من مجموعة الألف كتاب الثانية رقم ١٠، سنة ١٩٨٦ .

(٣٢) سورة النمل، آية ٢٤ .

(٣٣) دكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٧٤ .

(٣٤) انظـر في ذلك كتـاب «الإسرائيليـات والموضوعـات في كتـب التفسير» للدكتـور الشيخ محمد بن محمـد أبو شهبة، من سلسلة البحوث الإسلاميـة، القاهرة سنة ١٤٠٤هـ ـ سنة ١٩٨٤م، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٣ وكذلك تفسير ابن كثير والبغوي،

ج٦، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠.

(٣٥) دكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٦٨، ومجلة فكر وفن باب قراءات، العددان ٤٨, ٤٩، السنة ٢٦، سنة ١٩٨٩، ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٣٦) انظر تعليق أمين فارس بكتاب الإكليل للهمداني، طبع برستون سنة ١٩٤٠، صفحة ٢٤ هامش ١٢.

(٣٧) تفسير ابن كثير، المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٣٨) سورة سبأ، الآيات ١٥ ـ ١٧.

(٣٩) القاضي اليمني إسماعيل بن علي الأكوع، مقال «سدود اليمن»، مجلة المنهل، عدد خاص عن الأثر والآثار، رقم ٤٥٤، السنة ٥٣، مجلة ٤٨، ص ١٩٧.

(٤٠) دكتور أحمد فخري، المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٤١) دكتور حسن محمد الشماع، مقال سد مأرب من عجائب العالم القديم، مجلة الفيصل، العدد ٣٧، السنة ٤، رجب سنة ١٤٠٠هـ ـ يونيو سنة ١٩٨٠م، ص ٩١.

(٤٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٨٠ ـ ١٨١، ط٣، القاهرة.

(٤٣) الهمداني، الإكليل، طبع برنستون سنة ١٩٤٠، ج ٨، ص ٤٣.

(٤٤) دكتور أحمد فخري، بين آثار العالم العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٥٨، ص ٢٢ له أيضا دراسات في تاريخ الشرق القديم، المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٤٥)،(٤٦)

دكتور حسن محمد الشماع، سد مأرب من عجائب العالم القديم، المرجع السابق، ص ٩٥، ٩٦.

(٤٧) دكتور الشماع، المرجع السابق، ص ٩٦. وقد حدد المسعودي تاريخ سيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في عهد الملك عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف (مروج الذهب، ج ٢، ص ١٨٠) في حين أن أحمد حسين شرف الدين في كتابه «اليمن عبر التاريخ» يذهب إلى أن سيل العرم كان في عام ١١٥ قبل الميلاد (ط٢، سنة ١٩٦٤، ص ١٢٧).

(٤٨) انظر في ذلك قصة الخلد أو الفأرة ذات الأنياب والمخالب الحديدية التي أوردها

الدميري في كتابه «حياة الحيوان الكبرى»، طبع القاهرة، ج ١، ص ٤٤٥.

(٤٩) سورة سبأ، الآيات ١٥ ـ ١٩.

(٥٠) لسان العرب لابن منظور، ج ١٢، ص ٣١٩.

المراجع:

* القرآن الكريم.
* ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، طبع دار الشعب، القاهرة.
* التوراة (العهد القديم).
* الأستاذ عبد الله حمد الحقيل، مقال الحلقة المفقودة من تاريخ بلادنا، مجلة المنهل، عدد ٤٤١، السنة ٥٢، مجلد ٤٧، ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ ـ ديسمبر سنة ١٩٨٦م.
* دكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد، دراسات في علم الآثار.
* دكتور أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢.
* دكتور أحمد فخري، بين آثار العالم العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٥٨.
* محمد لطفي جمعه، ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٥٨.
* دكتور عماد عبد الحميد النجار، التطور التاريخي لبني إسرائيل، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ط١، سنة ١٩٧٢.
* محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم.
* الحسن أحمد الهمداني، الإكليل في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات، طبع برنستون سنة ١٩٤٠.
* أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ط٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة سنة ١٩٦٤.

* الحسن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة ١٩٧٤ .
* الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط١، ج ٢، مكتبة النهضة، بغداد، سنة ١٩٦٩ .
* المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ٣، القاهرة، سنة ١٩٥٨ .
* القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، مقال «سدود اليمن»، مجلة المنهل، عدد خاص عن الأثر والآثار، العدد ٤٥٤، السنة ٥٣، المجلد ٤٨، رمضان ـ شوال سنة ١٤٠٧هـ ـ مايو ـ يونيه سنة ١٩٨٧م .
* مصر الفراعنة، تأليف سير ألن جاردنر، ترجمة دكتور نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٧م .
* آلهة مصر، تأليف فرانسوا دوماس، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب، عدد ١٠، سنة ١٩٨٦م .
* نوفل أفندي نوفل، سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان، بيروت، سنة ١٩٧٦م .
* دكتور محمد بن محمد أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، القاهرة، سنة ١٩٨٤م .
* دكتور أحمد سوسة، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، وزارة الثقافة والإعلام، طبع دار الحرية، بغداد، سنة ١٩٧٩م .
* منصور إبراهيم الحازمي، مقال رحلات العرب في جزيرة العرب، البلاد السعودية، سنة ١٩٠١ ـ سنة ١٩٧٢، مجلة الدارة، ع ٣، س ٥، ربيع الآخر سنة ١٤٠٠ هـ ـ مارس سنة ١٩٨٠م .
* دكتور حسن محمد الشماع، مقال سد مأرب من عجائب العالم القديم، مجلة الفيصل، عدد ٣٧، السنة ٤، رجب سنة ١٤٠٠هـ ـ يونيو سنة ١٩٨٠م .

تحقيق مسألتين من مسائل الاسم الموصول

د. صالح بن سليمان الوهيبي

١ ـ الموصولات والصِّلات :

يقسم النحاة الموصولات قسمين: موصولات حرفية (وهي : أَن وكَيْ وأنَّ، وما ، ولَوْ) (١) وموصولات اسمية وهي الأسماء الموصولة التي سيرد الحديث عنها فيها بعد. وما من شَبَه بين القسمين إلا أنهما يصلان بين الجمل ويفتقران إلى ما بعدهما . ويفترقان بعدُ من وجوه كثيرة ولذا نجد أن بعض النحاة لم يورد ذكراً للموصولات الحرفية في باب «الموصول» كابن مالك في أَلْفيَّته .

وسيقتصر الحديث في هذا البحث على الموصولات الاسمية التي تسمى «الأسماء الموصولة» .

تنقسم الموصولات الاسمية طائفتين : (٢)

(١) الأسماء الموصولة الخاصّة ، وهي التي تلتزم بالجنس (المذكر والمؤنث) والعدد (المفرد والمثنى و الجمع) وهي بإيجاز ما يلي :

أ- الذي : للمفرد المذكر.

ب- التي : للمفرد المؤنث .

جـ- اللذان : للمثنى المذكر.

د- اللتان : للمثنى المؤنث .

هـ- الذين : للجمع المذكر العاقل .

و- اللاتي : للجمع المؤنث العاقل .

ويتفرع عن كل واحد من هذه الأسماء أسماء أخرى أقل شهرة وأقل تردُّداً ، وسوف نضرب عن ذكرها صفحًا .

(٢) الأسماء الموصولة المشتركة : وهي الموصولات التي لا تتغير صيغتها بتغير الجنس والعدد ، فهي تصلح للمفرد والمثنى والجمع المذكر منه أو المؤنث .

كما أنها ليست موصولة دائما ، بل تجيء لأغراض أخرى . وهذه الأسماء الموصولة هي : مَنْ (للعاقل) ، مَا (لغير العاقل) ، ذَا ، ذُو (الطائية) ، أيّ ، الْ .

ومن الأنسب حذف «ال» من الموصولات ، لأن فيها شذوذاً من عدة وجوه منها : أنها لا تدخل على الجُمَل (ما لم تكن اختصاراً من «الذي» وأشباهه) ، وليست معدودة في الأسماء ، فحرفيتها هي الأحرى والأرجح(٣) .

ويجمع بين هذه الموصولات حاجتها إلى صلة ، وهي التي تُسَمَّى بصلة الموصول ، وقد سماها سيبويه «حَشْواً» . ويشترط في هذه الصلة ما يأتي : (٤)

أولاً : أن تكون صلة الموصول جملةً ، فلا تصلح الكلمة المفردة صلة لموصول (إلا لـــ «ال» الـذي لم يُتَّفقْ على كـونـه مـوصـولا ورجّحنـا إخراجـه مـن دائرة الموصولات) .

ثانيًا: أن تكون الجملة خبرية ، فلا تصلح الجمل الإنشائية أو الطلبية صلات ، على خلاف بين النحاة معروف تزخر به كتبهم .

ثـالثـًا : أن تشتمـل الجملة على ضمير ملفـوظ أو مقـدّر يعـود على الموصـول . ويسمى «العائد» .

ومن الأمثلة التي تتحقق فيها الشروط المذكورة سابقـًا قوله تعالى : « ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ » (فُصِّلت : ٣٤) وقوله تعالى أيضًا :« تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ » (الملك : ١)، وقوله تعالى أيضـًا : «إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ» (المطففين : ٢٩) . والشواهد القرآنية وغير القرآنية كثيرة لا يحصرها عدٌّ .

ولا شك أن الشروط السالفة الذكر محل خـلاف بين النحاة في تفاصيلها ، وما يعنيني في خلافهـم في هذا البحث قليل ، لا لقلة جدواه لكننـي أحب أن أوجه النظر إلى مسألتين متعلقتين بالصلة وأنـاقشهما محاولاً أن أصل في ذلك إلى نتائج آمل أن تكون ذات جدوى .

أما القضية الأولى فهـي مسألة طـول الصلة التـي ترد في الحديث عـن حذف بعض صلة الموصول ، والقضيـة الثانية هي أحوال «أيّ» الموصولـة وعَمل النحاة في قياس بعض أحوالها غير المسموعة عن العرب .

٢ ـ طُول الصِّلة :

إذا جاءت جملـة الموصول اسمية جـاز حذف المبتـدأ (وهو ما يسمـى بصدْر الصِّلة) بشروط منها : [٥].

أ ـ أن لا يكون خبره جملـة فعلية ؛ لأنه إن حُذف المبتـدأ تغيّر التركيب وصلح

الباقي لأن يكون صلـة، مثال ذلك قوله تعالى: «ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ» (الماعون: ٦) فلو حُذفت «هُم» صارت جملة الصلة فعلية.

ويدخل معظم النحاة في هـذا ما كان فيه صلـة الموصول شبه جملة نحـو قوله تعـالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ » (الأعـراف: ٢٠٦) وقوله: « يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » (الجمعة: ١)، لأن الظرف والجار والمجـرور عندهـم إذا جَاءَا صلـة وجـب أن يتعلقا بفعـل يُقَدَّر حسـب السياق بنحو «استقرَّ، ثَبَتَ... إلخ»(٦).

وسوف نزيد هذه النقطة بحثًا فيها بعد بحول الله.

ب ـ أن تطـول جملة الصلة: فاشترط البصريـون طول الصلة لتسويـغ حذف المبتدأ ولم يشترطه الكوفيون. ولم أجدهم حدَّدوا المقصود بطول الصلة ولذا رأيت أن أتتبع تطور هذه المسألة بدءًا بها عند سيبويه، وأن أجمع الشواهد التي يستدل بها القائلون بجـواز الحذف مع عدم طول الصلة. ثـم ننظر في الصلة كما وردت في القرآن الكريم وفي إحدى المجموعات الشعرية.

فأقدم نص يتحـدث عن طـول الصلة هـو ما ورد عنـد سيبويـه الذي يقـول «واعلـمْ أنه يَقْبُحُ أَن تقـولَ: «هـذا مَـنْ مُنْطَلِقٌ» إذا جعلـتَ المُنْطَلِقَ حَشْواً أو وَصْفـاً. فإن أطلـت الكـلام فقلتَ: «مَـن خيرٌ منـك» حَسُـنَ في الوصـف والحشو. زعم الخليلُ ـ رحمه الله ـ أنه سمع من العرب رجلاً يقول: «ما أنا بالذي قائلٌ لَكَ سُوءاً» و«ما أنا بالذي قائلٌ لَكَ قَبِيحًا»(٧).

وأعاد قولاً شبيهـاً بهذا في موطن آخـر فقال: «وزعـم الخليلُ ـ رحمه الله ــ أنه سمع عَرَبِيًّا يقول: «ما أنا بالـذي قائلٌ لك شيئًا»... قلتُ: أفيُقـال: ما أنا بالذي مُنطَلِقٌ؟ فقـال: لا. فقلتُ: فما بَال المسألة الأولى؟ فقال: لأنه إذا طالَ الكلام فهـو أمثل قليـلا، وكأنَّ طـوله عوضٌ مـن ترك «هُـوَ». وقلَّ مـن يتكلم بذلك»(٨).

ومن هنا نبعت مسألة اشتراط طول الصلـة التي تمسَّك بها البصريون وشذّذوا ما ورد مخالفًا لذلك مـع أن عبـارة سيبويه تفيد أنه «قلَّ مـَنْ يتكلّمُ بذلك». ولا أحسبها تقتضي المنعَ التام.

وعبّر ابن مالك في ألفيّته عن هذا الشرط فقال:

وبَعْضُهـُمْ أعــــرَبَ مُطْلَقـًا، وَفِي ذَا الحــــذف أيـًّا غيرُ أيٍّ يَقْتَفِـي

إنْ يُسْتَطَلْ وَصْلٌ، وإنْ لَمْ يُسْتَطَلْ فـالحَذْفُ نَزْرٌ، وأَبَـوْا أن يُـخْـتَـزَلْ

إن صَلَـح البـــاقي لِـوصلٍ مُكْمِـلِ . . . .

فحذف المبتدأ مـن صلة الأسماء الموصولـة ـ سـوى أيّ ـ «نزرٌ» أي قليـل ما لم تطل الصلـة. فإن طالت الصلـة جاز الحذف وهو ما يعنيـه ابن مالك في قـوله «وَفي ذَا الحذْفِ أيًّا غَيْرُ أيٍّ يقْتَفِي إن يُسْتَطَلْ وَصْلٌ».

وقد سَلَّمَ النحاةُ البصريون ومن سـار على نهجهم بهذا الشرط فاشترطوا طول الصلـة لجواز حـذف المبتـدأ. لكنهم لم يحدّدوا المقصـود بـالطـول. فلننظـُر في الشواهد التي يستدلّ بها الكوفيون ومن سَايَرَهُمْ:

أولاً: الشواهد القرآنية: وردت الصلة في آيتين في قراءات معينة مقتصرةٍ على خبر مفرد فقط، والقراءتان هما:

١) قراءة الضَّحَّاك و إبراهيم بن عَبْلَة ورُؤْبـَة بن العجّاج وقُطْرُب للآية (٢٦) من سورة البقرة: « **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا** » (برفع: بعوضة). ومـن الوجوه التي تحتملها الآية أن «مَا» اسـم مـوصـول، و «بعوضة» خبر لمبتـدأ محذوف تقديره «هو» وتقـدير الكلام: «. . . أن يضرب الذي هو بعوضةٌ مثلا»(٩).

٢) قراءة يحيى بن يَعْمر وابن أبي إسحاق وغيرهما للآية (١٥٤) من الأنعام:

«ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» (برفع «أحسن» على أنه اسم تفضيل) وتقدير الكلام «. . الذي هو أَحْسَنُ» فحذف المبتدأ وبقي الخبر وحده[10].

ثانيًا: الشواهد الشعرية: هذه هي الشواهد الشعرية التي تتداولها كتب النحو:

١) فمنها قول الأنصاري، إما كعب بن مالك أو حسَّان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة: [11].

فكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرُنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

فمحل الاستشهاد «مَنْ غَيْرُنَا» (برفع غير). وقد أورده سيبويه مجروراً في روايةٍ للخليل، لكن سيبويه عدَّ الرفع أجود على رغم ضعفه كما يقول.

٢) وقول الشاعر: [12].

لاَتَنْوِ إلاّ الذي خَيْرٌ، فَمَا شَقِيَتْ إلا نُفُوسُ الأُلَى للشَّرِّ نَاوُونَا

٣) وقول الآخر: [13].

مَنْ يُعْنَ بِالحمْدِ لَمْ يَنْطِقْ بِمَا سَفَهٌ وَلاَ يَحِدْ عَنْ سَبِيلِ المَجْدِ والكَرَمِ

ثالثًا: الشواهد النثرية: من ذلك:

١) أشرنا إلى أن سيبويه ذكر أنه قل من يتكلم بكلام فيه موصول ذو صلة قصيرة. ولكنه في موضع آخر يرضى ذلك، فيقول: «وإن أردت الحَشْوَ قلت: مررتُ بمَنْ صَالِحٌ. فيصير «صَالِحٌ» خبَرًا لشيء مضمر، كأنك قلت: مررتُ بمَنْ هُوَ صَالِحٌ. والحشْوُ لا يكون أبدًا لـ «مَنْ» و «مَا» إلا وهما معرفةٌ. وذلك من قبيلِ أنَّ الحشو إذا صار فيهما أشبهتا «الذي»[14].

٢) ومثل ما سبق قول أبي على الفارسي (ت ٣٧٧): «وأما قولهم: كُن كَمَا

أنتَ» فيحتمـلُ عندي أن تكون «مـا» كافة، كأنـّه قال: كُن كـأنتَ، ويجوز أن تكون بمعنى «الذي» كأنه: «كُنْ كَالذي هُو أَنْتَ». (١٥)

هذا ما تيسر لي جمعه من الشواهد والأمثلة. ولو دقَّقْنا النظر في كل واحد منها لما سَلِم لنا منها إلا النزر اليسير. فآية البقرة فيها توجيهات أخرى أرجح مما ذُكِر؛ وكون «مـا» موصولا ضعيف لأنـه مسبوق بنكرة. أما الآيـة الثانية فهي أسلـم ما رُوي في هذا الباب. والبيت الأول المنسوب «للأنصاري» عند سيبويه وردت فيه الـرواية بـالجر على أن «غيرنـا» فيه مجرورة وهـي صفـة «لمن»؛ ولهذا استشهد بـه الخليل. والبيتان الثاني والثالـث مجهولا القائل ولا نعلم لأي عصر ينتميان. كما أن «ما» في البيت الثاني في قوله«لم ينطـق بما سفه» يجوز أن تكون زائدة كما في قوله تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ» (آل عمران: ١٥٩).

أما كلام سيبويه وأبي علي الفارسي وغيرهما من النحـاة فإنما أوردناه للاستئناس به، لا للاستشهاد.

وقد تتبعـت الأسماء الموصـولـة في القـرآن الكريـم ثـم تتبعتهـا بعـد ذلـك في المفضليات(١٦) لمعـرفـة صـورة صلـة الموصـول في أقصر أحـوالها في ذينـك المصدرين.

أما في القرآن الكريـم فإن معظم الأسماء الموصولـة متبوعة بجملة فعليـة. أما التي ترد جملة الصلة فيها اسمية فلها الوجوه الآتية: (١٧)

أ ـ تجيء الجملة مكـونة من مبتدأ وخبر ملفـوظين كقوله تعالى: «أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ» (البقرة: ٦١)، وقوله: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (الأنعام: ١٥٢)، وقوله تعالى: «إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» (الإسراء: ٩). وهناك أمثلة كثيرة على ذلك في القرآن الكريم.

وقد يكون الخبر جملة فعلية كما في قوله تعالى: « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ » (الشعراء: ٧٩)، وقوله: «وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» (الأعراف: ١٥٦).

ب ـ وتجيء الجملة الاسمية مكونة من مبتدأ معه شبه جملة متعلق بخبر محذوف كقوله تعالى: «وليُمْلِلِ الَّذي عَلَيْهِ الحقُّ» (البقرة ٢٨٢)، وقوله: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ» (الأنفال: ٤٩) وقوله: « قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ » (النمل: ٤٠).

جـ ـ كما تجيء جملة الصلة شبه جملة فقط. والنحاة ـ كما ذكرنا ـ يوجبون تقدير المحذوف فعلاً لا اسماً. ونحن نخالفهم في ذلك طَرْدًا للقاعدة فنجيز تقديره اسماً أو فعلاً. فمن أمثلة الجار والمجرور قوله تعالى: « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا » (آل عمران: ٩٦)، وقوله: « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ» (البقرة: ٢٢٨) وقوله تعالى عن موسى: « فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ » (القصص: ١٥). ومن أمثلة الظرف قوله تعالى: «وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » (الأنعام: ٩٢) وقوله: فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا» (الأعراف: ٧٢).

فالواضح من هذه الأمثلة أن صلة الموصول لا تقِلُّ في طولها عن كلمتين كالمبتدأ والخبر: «الذي هو أدنى» و «الذي هو خير» و«التي هي أحسن»، أو شبه الجملة: «للذي ببكة» و «الذين معه». ومن أمثلة الجملة الفعلية: «يا أيها الذين آمنوا» و«يا أيها الذين هادوا» و«والذين كفروا».

أما في المفضليات فقد وصلتُ في دراستي لصلة الموصولات الاسمية فيها إلى **النتائج الآتية:**

أولاً: أن نسبة الأسماء الموصولة في هذه المجموعة الشعرية ليست كبيرة، فعدد الأبيات يبلغ ٢٧٢٧ بيتاً، ولا يتعدى عدد الأمثلة التي فيها أسماء

موصولة٤٦ مثالاً. فنسبة الأمثلة إلى عدد الأبيات هي أقل من ٢٪.

ثانيًا: أن معظم جمل الصلة فعلية فثلاثة أرباع الأمثلة فيها الصلات جمل فعلية، أي ٧٥٪ من مجموع الأمثلة.

ثالثًا: أن نسبة الجمل الاسمية الواقعة صلة للموصول تصل إلى ٧٪ من مجموع الأمثلة. ومن أمثلة ذلك قول سلاَمَةَ بن جندل: (١٨)

أَوْدَى الشَّبابُ الَّـــذي مَجْدٌ عَـوَاقِبُهُ   فِــيــهِ نَلَذُّ، وَلاَ لَـــذَّاتِ للشِّيـــبِ

وقول شبيبِ بنِ البَرْصَاءِ: (١٩)

لَعَمْرُ ابنـةِ المُرِّيِّ مَا أَنَـــا بالَّــذِي   لَــهُ - أنْ تَنُــوبَ النَّائِبَـاتُ - ضَجِيجُ

فجملة الصلة في البيت الثاني هي «لَهُ ضَجِيجُ».

٤) أما الظرف والجار والمجرور فتصل نسبة أمثلته إلى ١٨٪، ومنه الأمثلة الآتية:

قول الشَّنفَرى الأزْديّ: (٢٠)

خرجنا منَ الوادي الَّذِي بَيْنَ مِشْعَلٍ   وَبَــيْنَ الجَبَا، هَيْهَاتَ أَنْشَأْتُ سُرْبَتِي

وقولُ المخبَّلِ السَّعْدِي: (٢١)

وتَقُولُ عَاذِلَتِـــي، ولَيْــسَ لَهَـــا   بِغَــدٍ وَ لاَ مَـــا بَعْـــدَهُ عِـــلْـــمُ

وقول سُوَيْدِ بنِ أَبِي كَاهلٍ اليشكُرِيِّ: (٢٢)

قَدْ كفَانـــي الله مَـــا فِــي نَفْسِــهِ   وَمَتَــى مَــا يَكْــفِ شَيْـئاً لاَ يُضَعْ

وقول مُتَمِّمِ بنِ نُوَيْرَةَ: (٢٣)

بَـــذُولٌ لِـمَا فِي رَحْـلِهِ، غَـيْرُ زُمَّحٍ   إِذَا أَبْـــرَزَ الحُـــورَ الرَّوَائِـــعَ جُوعُ

٥) ولم يأتِ في المفضليات مثال على الصلة على غرار « تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ»، أي الصلة التي هي خبر مفرد.

فهذه الشواهد القرآنية والشعرية تؤيد ما ذهب إليه الخليل بن أحمد وسيبويه مما ذكرناه قَبْلاً. وها هو سيبويه يقول: «واعْلم أنه يقبُحُ أن تقول: هَذَا مَنْ مُنْطَلِقٌ، إذا جعلت المُنْطَلِقَ حَشْوًا أو وصفاً. فإن أطلتَ الكلام فقلت: مَنْ خيرٌ مِنْكَ، حَسُنَ في الوصفِ والحشوِ»(٢٤)

ويقول في موطن ثانٍ: «لا يكاد عربيٌّ يقول: الذي أَفْضَلُ فاضْرِبْ، واضْرِبْ مَنْ أَفْضَلُ، حتى يُدْخِلَ «هُوَ». ولا يقول: هاتَ ما أَحْسَنُ، حتى يقول: ما هو أَحسَنُ». (٢٥)

فأقل طولٍ للصلة مقبولٍ هو كلمتان ملفوظتان:

١ ـ إما أن تكونا فعلاً وفاعلاً نحو: «الذين آمنوا» و «الذي يحيي» و«التي تبغي» من القرآن الكريم.

٢ ـ أو تكونا مبتدأً وخبراً نحو: «التي هي أحسنُ» و «والتي هي أَقْوَمُ» و«الذي هو أدنى» في القرآن الكريم. أما في الشعر فمنه « الذي مَجْدٌ عَوَاقِبُهُ».

٣ ـ أن تكونا شبه جملة: ظرفًا مضافًا ومضافاً إليه نحو: «والذي معه»، و«الذي بين مشعل» و«ما بعده»، أو جارًّا ومجرورًا نحو: «الذي ببكة» و«الذين عليهن».

ويدخل في هذا النطاق ـ نطاق الكلمتين الملفوظتين ـ ما نحن بصدده من شرط طول الصلة لحذف صدر الصلة المرفوع (المبتدأ). فأقل ما ينبغي أن يبقى صلة ـ بعد حذف المبتدأ ـ هو الخبر ومتعلّقه. ويندر مجيء الخبر وحده.

فشرطُ البصريين طول الصلة ـ إذا قُيّدَ بما هو مذكور أعلاه ـ صحيحٌ وله ما يؤيده من القرآن الكريم. ولا شك أن معظم شواهد العربية تشهد له. أمّا إطلاق الكوفيين لجواز حذف صدر الصلة (المبتدأ) دون اشتراط طول الصلة فليس له ما يسنده في العربية وشواهده نادرة. والأولى جعله «نَزْرًا» كما عبّر عن

ذلك ابن مالك.

فإذا قيّدنا طول الصلة بأن أقلّه كلمتان كما استقرينا لم يبق مكان لقول النحاة بوجوب تقدير فعل إن كانت صلةُ الموصول شبهَ جملة كما في قوله تعالى «لَلَّذي بِبَكَّةَ» و«الَّذِينَ مَعَهُ»، لأن الطول متحقّق بهذه الكلمات بغضّ النظر عن متعلّقها: أفعلاً كان أم اسماً. كما أن الخليل وسيبويه أجازا نحو: «هذا فَعَلَهُ مَنْ خَيْرٌ منكَ» وهو مثل تقديرنا «للذي مستقر (أو موجود) ببكة»، و «خير» و«مستقر» في المكانين خبران لمبتدأ محذوف. وقد يُعْتَرَضُ على هذا القول بأنه يؤدي إلى تقدير محذوفين هما المبتدأ والخبر، لأن تمام تقديرنا للآية الكريمة هو «.. لَلَّذي هو مستقر ببكة». والجواب عن هذا أن الفعل أيضا مقدر مع فاعله. فالمقدر في كل حال جملة: اسمية في إحداهما وفعلية في الأخرى. إذ إن تقديرنا للآية بـ «الذي استقر ببكة» يقتضي وجود فعل هو«استقر»؛ وفاعل مستتر يعود على الموصول.

٣ ـ أيٌّ الموصولة وأحوالها :

إن مما لفت أنظارَ النحاة إلى «أيٍّ» الموصولة ـ فيما أحسبُ ـ الخلافُ في توجيه قراءة الآية (٦٩) في سورة مريم، وهي قوله تعالى: « ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا». حيث إن القراءة المشهورة بضم الياء المشددة في «أيّهم» عَلَى الرغم من أن هذا الموصول مفعول للفعل «نَنْزِعُ»[٢٦]. والرأي الذي شاع بين النحاة هو رأي سيبويه الذي يقول إن «أيّهم» مَبْنِيَّة على الضم في محل نصب هاهنا. ولم يكتب لآراء أخرى القبول؛ فالخليل يرى أنها معربة ويشاركه في ذلك ابن السراج (ت ٣١٦هـ) والكوفيون. فهم يذهبون إلى أن «أيًّا» الموصولة مُعْرَبة في جميع أحوالها كالشرطية والاستفهامية. ولهم في توجيه هذه الآية وأشباهها من الأمثلة أقوال عدة[٢٧].

وقد فَرَّعَ النحاةُ على هـذه الآية، فذكروا أن لأيٍّ أربعةَ أوجه أو أحـوال بالنظر إلى «إِضَافتِهـا» و «صَدْرِ صِلَتِهَا». وإذا قُلِّبَ هـذان العاملان (الإضافـة وصدر الصلة) نَتَجَ أَرْبعةُ أوجه لدينا ليس غيرُ. وهاهي:

الوجه الأول: أن تكونَ مضـافة ويُذْكرَ صدر الصلة كقـولنا: «لَنُكَافِئَنَّ أَيَّهُمْ هُوَ أَكْثَرُ اجتهاداً».

الوجه الثاني: ألا تضـاف، ولكن يُذكر صدر الصلة، نحـو: «لَنُكَافِئَنَّ أَيًّا هُوَ أكثرُ اجتهاداً»

الوجه الثالث: ألا تضافَ ولا يُذْكَرَ صـدر الصلة، نحو: «لَنُكَافِئَنَّ أَيًّا أكثرُ اجتهادا».

الوجه الرابع: أن تضاف ويحذف صدر الصلة، ومثاله الآية القرآنية السابقة. ومثلها قول الشاعر(٢٨):

إذا مَـا لَقِيـتَ بَنِـي مَالِـكٍ فَسَلِّـمْ عَلَـى أَيُّـهُـمْ أَفْضَلُ

والقائلون ببناء «أيهم» في الوجـه الرابع يرون أنها معربـة في الأوجه الأخرى. والذي أراه أن النحاة هم الذين ولَّدُوا الوجوه الثلاثة الأولى إذ قاسوها على الوجه الرابع قياسًا أدى إليه تناوب الإضافة وصدر الصلة (المبتدأ). فالوجه الأول جاء مضافًا والجملة الاسمية معه تامة، وقـد أشار ابن السراج إلى أن «أيا» قد توصل بالمبتدأ والخبر، وقـد يحذف المبتدأ ويكتفى بالخبر. وقد سـوَّغَ الحذفَ عنده كثرةُ الاستعمال.

أما الوجهان الثاني والثالث ففيهما «أي» غير مضافة. وقد ذكر سيبويه الوجه الثالث دون الثاني. وفي اعتقادي أنهما من نتائج قياس النحاة.

ونستدل على هذا القول بوجوه:

أولاً: أن سيبويه نفسـه قال: «ومن قولهما [أي: الخليل بن أحمد ويـونس بن

حبيب]: اضْرِبْ أيٌّ أفضَلُ. أما غيرهما فيقـول: اضرب أيًّا أفضلُ. ويَقِيسُ ذَا على «الَّذي» ومـا أشبهـهُ مـن كلام العـرب، ويُسَلِّم في ذلـك المضاف إلى قـول العرب ذلـك، يعني «أيّهم». وأجـروا «أيًّا» على القياس. ولـو قالـتِ العربُ: اضـرب أيٌّ أَفْضَـلُ لَقُلْتَهُ، ولم يكـن بُدٌّ مـن متـابعتهم، ولا ينبغـي لك أن تقيس على الشـاذ المُنْكَرِ في القيـاس... ولو جعلـوا «أيًّا» في الانفـراد بمنزلتـه مضافا لكانوا خُلَقَاءَ إن كـان بمـنزلة «الذي» معرفةً ألا يُنَوَّن؛ لأن كـل اسـم ليـس يتمكّن لا يدخله التنوين في المعرفة، ويدخله في النكرة(٢٩).

فالذي يُستفاد مـن كلام سيبويـه أن ما ذكـره من خلاف إنما مـرَدُّه إلى قياس النحاة الـذين قاسوا «أيـًّا» غير المضافة على «أيهم» التي ورد السماع بـأمثلة لها. ومن عـادة سيبويه في مـواطن الاختلاف الإتيـان بأمثلـة من لغة العـرب لبيان صحة المقول أو خطئه. أما هاهنا فالخلاف غيرُ مؤيَّد بأدلة كما نرى.

ثانيًا: أن النحاة أكثروا من القياس في باب الموصـولات فولّدوا جُملاً وتراكيب لم تُسْمَعْ عن العرب. فـالمبرِّد (ت ٢٨٥هـ) عَقَدَ فصلا عنوانه: «هـذا بابٌ مِنَ «الذي» و «التي» أَلَّفَهُ النحـويون فأدخلوا «الذي» في صلة «التـي» وأكثروا من ذلك»(٣٠). وفعل ذلك أيضًـا ابن السّراج(٣١). وأورد كـلٌّ واحد منهما أمثلـةً مصنوعة هدفها تدريب المتعلم.

ثالثًا: أن ابـن هشـام ذكر الأوجـه الخمسـة لأي وهـي أن تجيء: للشرط، والاستفهام واسما مـوصولاً، وصفة للنكـرة دالة على معنـى الكمال، ووُصْلَةً إلى نداء. ثم قال: «ولا تكون «أي» غير مذكور معها مضاف إليه ألبتة إلا في النداء والحكـاية. يقـال: جـاءني رجل، فتقـول: أيٌّ يـا هـذا؟، وجاءني رجـلان. فتقول: أيَّانِ؟، وجاءني رجال. فتقول: أيُّونَ؟»(٣٢).

فإن صحّ كـلام ابن هشـام هذا فـإن الوجهين: الثـاني والثالـث من الـوجوه

الأربعة التي ذكرناها لأيٍّ يسقطان، حيث إن «أيًّا» فيهما غيرُ مضافة.

رابعًا: أن كون «أيٍّ» موصولاً محلُّ نظر. فهذا أحمد بن يحيى الملقّب بثعلَبٍ (ت ٢٩١هـ) ينكر أن يجيء «أي» موصولاً مستدلاً على ذلك بأنه لا يجوز الابتداء بها، فلا يقال: «أيُّهم هو فاضلٌ جاءني»، كما يقال: «الذي هو فاضل جاءني»(٣٣).

وما قاله ثعلب جدير بالنظر، فـ«أي» تختلف عن الأسماء الموصولة من وجوه عديدة سوى ما ذكره ثعلب، منها:

١) أنها لم تجيء إلا مضافة كما في الآية وبيت الشعر، والأسماء الموصولة كلها لا تضاف.

٢) أنها وردت مبنية ومعربة كما هو واضح من الشاهدين والأمثلة الواردة ولم يُعرَف عن الموصولات إلا أنها ملازمة للبناء.

٣) أن «أيا» من الناحية الدلالية أقرب إلى ألفاظ العموم نحو «كل» للكلية، و«بعض» للجزئية. وتدل «أي» على الاختيار من الكل. فإذا قيل: «اقرأ أي كتاب يعجبك» دلت الجملة على مطلق الاختيار. ولذا نلاحظ أن قولنا: «خُذْ أَيَّها أَحبُّ إليك» تختلف في دلالتها عن قولنا: «خُذْ مَا هو أَحَبُّ إليكَ» أو «خُذْ الذي هو أحبُّ إليكَ». ففي الجملة الأولى مجال للخيار لا توحي به الجملتان الأخيرتان.

وعلى الرغم من كل هذه الوجوه، فإنّ قول ثعلب المذكور سلفا لم يرُقْ للنحاة. كما لم يقبلوا تفسير الخليل «لأي» في قولنا «اضرِبْ أيُّهُمْ أَفْضَلُ» وهو يَخْرُجُ بها من الموصولات. إذ يرى أن المراد هو «اضرِبِ الّذي يُقَالُ له: أَيُّهم أَفْضَلُ» على الحكاية، وهو ما ارتضاه ابن السراج وأَكّدهُ(٣٤).

وقد قُدِّر لتفسير سيبويه لـ«أي» على أنها موصولة أن يَجِدَ قَبُولاً لم يَحْظَ به

قــول الخليـل أو ثعلب. وأعتقـد أنه مـن الأولى الأخذ بـرأي الخليل وثعلـب وإخراج «أي» من الموصولات.

إن الدلائل والقرائن السابقة تـؤيد ما نذهب إليه من أنه لم يـرد عن العرب لـ «أي» الموصولة (عند من عدها موصولاً) إلا وجه واحد، وهو الذي يُسْتَدَلُّ عليه بالآيـة القرآنية. وهـذا الوجه أيضًـا يقبل تـوجيهات أخرى. فليسـت فيه «أي» موصولة على وجه مطلـق. أما الوجوه المذكورة لأي ـ خاصة الثـاني والثالث فقد أدت إليها أقيسة النحاة ورغبتهم في التفريع. والله أعلم بالصواب.

كما أن الآيـة المذكورة لا تـؤيـد قول النحـاة في استثنـاء «أيّ» من شرط طـول الصلة إذا عُدَّتْ «أيٌّ» مـوصولاً. فالصلة في الآية هي «أشـدُّ عَلَى الرّحمن عِتِيًّا». وهي شبيهة ـ في طـولها ـ بما سمعه الخليل عن العرب: «ما أنا بـالّذي قائلٌ لَكَ سُوءاً»، أو مـا قالـه سيبويه مـن جواز «مَـنْ خَيْرٌ مِنْكَ» على اعتبـار «مَنْ» اسماً موصولاً، لأن طول الصلة يعوّض عن المحذوف.

وقد يَعْتَرَضُ على هذا بيتُ الشعر المشارُ إليه الذي فيه: «فسلّمْ على أيهُّم أفضَلُ». والجواب على هذا أن طول الصلة شرط في الصلات مع الموصولات كلها، وأنّ قصرها نـزر ونادر مع أي وغيرهـا. وقد وردت أمثلة عَلى الموصولات: مَا، والَّذي، ومَنْ، قَصرُت فيهـا الصلة. وهـذا مثـال على «أي» لا ينقـض مـــا قرَّرناه. ولا ريب أن الآية القـرآنية أولى بالتقديم على بيت شعري مجهول القائل، وأولى بـالقبول من أمثلة النحاة المصنوعة للشرح والتعليم.

والله أعلم بـالصواب، وصلى الله على محمـد وعلى آله

وصحبه وسلم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

●●●

الإحالات والشروح

* تفضل بقراءة هذا البحث الزميل د. إبراهيم الشمسان وأبدى ملاحظات قيمة أخذت بمعظمها. فجزاه الله خيرًا، وله مني جزيل الشكر.
وأسأل الله له التوفيق.

(١) يَعُدُّ البعض «الذي» في قوله تعالى: «وخُضْتُمْ كَالذي خَاضُوا» وقوله: «ذلك الَّذي يُبَشِّر اللهُ عِبادَهُ» موصولاً حرفيًّا. انظر: أبو حيان الأندلسي ـ البحر المحيط (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، وصورته في بيروت: دار الفكر: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ٥/ ٦٩، ٧/ ٥١٥ـ ٥١٦.

(٢) ابن عقيل ـ شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة، ط ١٤، ١٣٨٤/ ١٩٦٤، وقد صورته في بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) ١: ١٤١ـ ١٥٢؛ ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي. تحقيق صالح أبو جناح (بغداد: منشورات وزارة الأوقاف والشئون الدينية، ١٩٨٠) ١: ١٦٨ ـ ١٧٩؛ عباس حسن، النحو الوافي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٥) ١: ٤٣٢ ـ ٣٦٤.

(٣) ابن عصفور ـ شرح جمل الزجاجي، ١: ١٧٨.

(٤) شرح جمل الزجاجي، ١: ١٧٩ـ ١٨٢؛ جلال الدين السيوطي، همع الهوامع، تحقيق عبد العال سالم مكرم (الكويت: دار البحوث العلمية، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٥م) ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٧؛ شرح ابن عقيل، ١: ١٥٣ ـ ١٥٥.

(٥) السيوطي، همع الهوامع، ١: ٣١١ـ ٣١٢؛ شرح ابن عقيل، ١: ١٦٥.

(٦) همع الهوامع، ١: ٣١١؛ عباس حسن، النحو الوافي، ١: ٣٨٤ـ ٣٨٦.

(٧) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٢هـ) ٢: ١٠٨.

(٨) سيبويه، الكتاب، ٢: ٤٠٤.

(٩) أبو حيان الأندلسي ـ تفسير البحر المحيط ١: ١٢٣؛ أبو جعفر النحاس، إعراب

القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد (بيروت: عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ١: ٢٠٣ ـ ٢٠٤؛ أبو زكريا الفراء، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي (القاهرة: دار الكتب المصرية، وصورته في بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ١: ٢١ ـ ٢٢؛ ابن جني ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق على النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبي (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٦هـ) ١: ٦٤: أبو البقاء العكبري ـ التبيان في إعراب القرآن، تحقيق محمد على البجاوي (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٩٨٦م) ١: ٤٣.

(١٠) أبو حيان ـ تفسير البحر المحيط ٤: ٢٥٥؛ العكبري ـ التبيان في إعراب القرآن، ١: ٥٥٠.

(١١) الكتاب ٢: ١٠٥؛ عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ٦: ١٢٠.

(١٢) شرح ابن عقيل، ١: ١٦٦، أبو الحسن الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٧٠م) ١: ٢٢٤.

(١٣) الأشموني ـ شرح الأشموني؛ ١: ٢٢٤، خالد بن عبد الله الأزهري ـ شرح التصريح على التوضيح (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، د. ت) ١: ١٤٤.

(١٤) الكتاب ٢: ١٠٧.

(١٥) أبو علي الفارسي. المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات، تحقيق صلاح الدين عبد الله السنكاوي (بغداد: وزارة الأوقاف والشئون الدينية، ١٩٨٣م) ص ٢٩١.

(١٦) المفضل الضبي ـ المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ط ٤، د. ت).

(١٧) اعتمدت في ذلك على: إسماعيل أحمد عمايرة وعبد الحميد مصطفى السيد ـ معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م) ٤٧٠ ـ ٥٠١.

(١٨) المفضليات، ص ١٢٠ (بيت ٣).

(١٩) نفسه ١٧١ (بيت ١٦).

(٢٠) ص ١١٠ (بيت ١٦).
(٢١) ص ١١٨ (بيت ٣٥).
(٢٢) ص ١٩٨ (بيت ٧٠).
(٢٣) ص ٢٧٢ (بيت ١٥).
(٢٤) الكتاب ٢ : ١٠٨.
(٢٥) نفسه ٢ : ٤٠٠.
(٢٦) عن هذه القراءة انظر : تفسير البحر المحيط ٦ : ٢٠٨ـ٢٠٩.
(٢٧) الكتاب ٢ : ٣٩٩؛ النحاس، إعراب القرآن، ٣ : ٢٤ ــ ٢٥؛ أبو بكر بن السراج، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي (بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ٢ : ٣٢٤؛ أبو البركات الأنباري ــ الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة : د.ت، وصورته في بيروت : دار الفكر، د.ت) ٢ : ٧٠٩ـ٧١٦؛ ابن هشام الأنصاري ــ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة : مطبعة المدني، د.ت، وصورته في بيروت : دار الكتاب العربي، د.ت) ١ : ٧٧ـ٧٨؛ أبو القاسم الزجاجي ـ مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام محمد هارون (الكويت : وزارة الإعلام ـ سلسلة التراث العربي ـ رقم (٩)، ط٢، ١٩٨٤م) ٣٠١ـ٣٠٢.
(٢٨) خزانة الأدب ٦ : ٦١. والبيت لا يعرف قائله، لكن رواه أبو عمرو الشَّيْبَاني كما في الخزانة.
(٢٩) الكتاب ٢ : ٤٠١ـ٤٠٢.
(٣٠) محمد بن يزيد المبرد ـ المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة (القاهرة : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٥ ـ ١٣٨٨هـ) ٣ : ١٣٠ ـ ١٣٢. وانظر أيضا ١ : ٢٢ من الكتاب نفسه.
(٣١) الأصول في النحو ٢ : ٣١٨ـ٣٢٢.
(٣٢) مغني اللبيب ١ : ٧٩.
(٣٣) نفسه ١ : ٧٨.
(٣٤) الكتاب ٢ : ٣٩٩؛ الأصول في النحو ٢ : ٣٢٤.

من التراث العربي

الأساليب اللغوية فى إثبات الشخصية قبل الصور الضوئية

مصطفى أميـن جاهين

كان لاختراع التصوير الضوئي «الفوتوغرافي» فضل كبير في تيسير التحقق من هوية الأفراد بواسطة الصور التي تُثَبَّت فيما يعرف «بحفيظة النفوس» في المملكة العربية السعودية وما يوازيها ببطاقات الهوية في بعض الدول العربية، وبطاقات الشخصية في دول أخرى، أو بواسطة بعض الوثائق الرسمية المماثلة كجوازات السفر، والرخص الخاصة بقيادة السيارات، وبطاقات العضوية في النوادي أو النقابات إذ يمكن

بمقارنة ملامح شخص ما بملامح الصورة المثبتة بالبطاقة التي يحملها التأكد من أنه صاحبها فعلاً، وأن البيانات المدونة بها تخصه فعلاً.

وقبل ذلك، كان التحقق من هوية الأشخاص يتم بشهادة الشهود الذين يتعين التحقق من شخصياتهم، هم أيضا كشرط للنظر في قبول شهاداتهم.

غير أن التراث الإداري العربي، ترك لنا العديد من أساليب التحقق من هويات الأفراد الذين يتعاملون مع مؤسسات الدولة وغيرها، حتى ينال كل صاحب حق حقه، ولكي يحال دون نجاح الأدعياء في تقمّص شخصيات غيرهم والحصول على ما ليس من حقهم.

وتلك الأساليب يتلخص في تسجيل أوصاف مفصلة للأشخاص الذين يتعاملون مع إحدى المؤسسات في سجل خاص، حتى يمكن مقارنة أوصاف من يدعي أنه شخص معين بالأوصاف المدونة في سجل المؤسسة لاختبار صحة ادعائه، فإذا تطابقت الأوصاف المسجلة مع أوصاف المدعي ثبتت صحة ادعائه.

وقد شجع على اتباع ذلك الأسلوب ونجاحه، ثراء اللغة العربية بالألفاظ التي تعبر عن أدق الأوصاف والمعاني، حتى أن المرء لا يكاد يطالع ما سجل بالألفاظ عن أوصاف أحد الأشخاص، حتى تنطبع على الفور الصورة الحقيقية لذلك الشخص في ذهنه.

وقد أوضح أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب، ذلك الأسلوب في كتابه «البرهان في وجوه البيان»، عندما تعرض لوظيفة كاتب الجيش، فذكر أنه (يحتاج - مع العلم بالحساب وضبطه - إلى أن يعرف الأطماع «وهي رواتب الجند»، والحلي(★)وأحكامها).

ويقصد بـالحلى أو التحليـة، بيـان الأوصاف المفصلـة لكـل مستحـق لهذه الرواتب في السجل الخاص بـذلك، حتى يمكن مطابقتها على أوصـاف مدعي الاستحقاق قبل تسليمه راتبه.

فكان يُذْكـر في يمين الورقـة المخصصة لكـل شخص اسمـه وبلده وولاؤه، فيقال «**فلان الرومي**» وما أشبه ذلـك، كما يذكر الراتـب المستحق له، ثم يـذكر قدّه، فإن كـان قصيرًا كتب «**ربعة إلى القصر**»، وإن كان ربعـة كتب «**مربوع**» وإن كان طويـلاً كتب «**ربعة إلى الطول**» (وإنما لم يقـل «**طويل أو قصير**» على الإطلاق؛ لأن الطـول والقصر من بـاب المضاف، والطويـل إنما يكون طـويلاً بالإضافـة إلى من هو أقصر منه، وكـل طويل فهو قصير إذا أضيـف إلى من هو أطول منه، وكان قولهم ربعة إلى الطول أو القصر أحوط إلى تصحيح المعنى.

ثم يذكر لونه فيقال «أسود»، أو «آدم»، أو «أحمر تعلوه حمرة» إذا كان أشقر، أو أبيض «ولا يقولون أبيض».

ثم تـذكر الجبهة بـأوصافها : مـن ضيق أو رحـب، وإن كان اجلح وهـو ما انحسر شعره عن جانبي رأسه أو أصلع، أو ذا فروة، أو أغم «وهو ما سال شعره على جبهته وقفاه» ذكر ذلك ، وإن كان في جبهته غضون ذكرت.

ثم يُذكـر الحاجبان بما فيهما من قرن «وهـو اتصال الحاجبين»، أو بلج «وهو تباعد ما بين الحاجبين».

ثم تذكر العينان، بما فيهما من كحل أو زرقة أو شهل «**وهو أن يشوب حدقة العين زرقة، وأقل من الـزرقة في الحدقة**». وقيل: أن تشوب حـدقة العين حمرة، وليست خطوطـًا، ولكنها قلة في سواد الحدقـة، جعلتها تضرب إلى الحمرة)، أو حوص (**وهو ضيـق في مؤخـر العين**)، أو حـور (**وهو صفـة العين التي اشتـد**

بياضها وسوادها ، واستدارت حدقتها ، ورقت جفونها ، وابيض ما حواليها) ، أو جحوظ ، أو غور (وهو دخول العينين في الرأس وهو عكس الجحوظ) ، أو حول (وهو اختلاف محوري العينين) أو بياض .

ثم تذكر صفات الأنف ، بما فيها من قنى (وهو ارتفاع وسط قصبته ، مع ضيق منخريه) ، أو فطس (وهو انخفاض قصبة الأنف) ، أو ورود أرنبة (أي طول أرنبة الأنف وهي طرفه) ، أو انتشار متأخر (يقصد انبساطها ، والمنخر ثقب الأنف) .

ثم تذكر أوصاف الأسنان ، بما فيها من درد (وهو سقوط الأسنان كلها ، فيوصف الرجل بأنه أدرد ، والأنثى درداء) ، أو شفا (وهو اختلاف الأسنان في الطول والقصر ، والدخول والخروج) ، أ وفلج (وهو تباعد الأسنان) ، أو قلح (وهو تغير الأسنان بصفرة أو خضرة تعلوها) ، أو انقلاع بعضها أو سواد بعضها .

فإذا ذكر الشامات (جمع شامة ، وهي علامة تخالف البدن الذي هي فيه ، أو بثرة في الجسم لونها أسود) ، والخيلان (جمع خال وهو حبة سوداء بارزة ينبت فيها الشعر غالبا ، وبروزه ووجود الشعر فيه ، هو الذي يفرق بينه وبين الشامة) ، وآثار الحديد والقروح ، وغير ذلك مما في البدن واليدين وغيرهما ، فلا بأس .

ثم أضاف : «والأعمدة من هذه الحلي ، مالا يتغير مثل الفطس والزرقة ، والطول والقصر ، وأشباه ذلك . . . فإن اقتصر مقتصر عليها أجزأت وأغنت إن شاء الله» .

وكانت تلك التحلية ، تقتصر على غير المعروفين من الرجال إذ يقول :

«وإن كان الرجل المذكور قائدًا ، أو أميرًا لم تذكر حليته ، واقتصر على اسمه ، وذكر جاريه (أي راتبه) ؛ لأنه ربما يحلي من لا يعرف ومن يخشى أن تقع حلية في اسمه ، أو يدخل دخيل مكانه . . . فأما من عرف باسمه وعينه ونسبه ، فلا

حاجة بالكاتب إلى تحليته»[1].

والحلية ـ لغة ـ صفة الرجل وخلقته، وصورته، وجمعها حلي، وقد أورد شمس الدين المنهاجي الاسيوطي في كتابه (**جواهر العقود**) تفصيلات أوفى عما كان يسجل من الحلي في سجلات القضاء، ووصفها بأنها: (**الباب الموصل إلى يقين الشهادة**)، وأن (**علينا تبنى أحكام المعرفة**).

وذكر أن أول ما يُذكر في الإنسان سِنُّه، ثم قَدُّه، ثم لونه، ثم جَبْهَتُه، ثم حاجِباه، ثم عيناه، ثم خَدَّاه، ثم شَفَتاه (وجميع ما في وجهه من حسنة، أو شامة، أو جرح أو ثؤلول، وهو خراج صغير صلب مستدير)، وإن كانت الآثار في عضو من أعضائه بحيث تكون الرؤية ممكنة بحيث لا يحصل بذلك مشقة، مع موافقة الشرع الشريف، فلا مانع بالاطلاع عليها وذكرها، والمراد من الحلية، أن يذكر أشهر ما في الإنسان، مما لا يزول بطول الزمان، في الغالب.

وبدأ بذكر المعالم الأساسية في جسم الإنسان فقال: ويذكر في الأقطع فيقول: **مقطوع اليد الفلانية، أو الرجل الفلانية**.

وذكر ما يكتب لبيان السن، فيقال للمولود: «**رضيع**» سواء أكان ذكرًا، أم أنثى، فإذا فطم يقال: «**فطيم**»، فإذا تعدى ذلك، قيل للذكر: «**طفل**»، وللأنثى «**طفلة**»، فإذا زاد على ذلك، قيل للذكر: «**غلام**»، وللأنثى «**صغيرة**»، فإذا قارب البلوغ، قيل للذكر: «**مراهق**» فإذا بلغ يقال: «**بالغ**»، فإذا ظهر شاربه، قيل: «**قد طر شاربه وسال عارضاه**» فإذا استدار شعر وجهه خفيفًا قيل: «**قد بقل وجهه**»، فإذا اتصل الشعر بوجهه وذقنه، ولم يطل قيل: «**مجتمع شعر الوجه**» فإذا طال شعر عارضيه، ولم يتصل الشعر بذقنه قيل: «**منقطع شعر اللحية والعارضين**»، فإذا استدارت لحيته ولم يظهر فيها شيب، قيل: «**شاب**

مستدير **اللحية**»، فإذا بدا بها شيب خفيف، قيل: «**فيه نبذة يسيرة من الشيب**»، فإذا تزايد الشيب، قيل: «**قد خطه الشيب**»، فإذا غلب الشيب قيل: «**كهل**»، فإن زاد الشيب إلى أن يستوي البياض والسواد قيل: «**أشمط**» فإن نقا ـ أي خلص ـ شعر لحيته بالبياض قيل: «**شيخ**».

والأنثى إذا قاربت البلوغ، قيل: «**معصر**»، فإذا نفر صدرها، قيل: «**كاعب**» فإذا ظهر ثديها وهو قائم، قيل: «**ناهد**»، وقيل «**بالغ**»، فإذا ظهر برأسها شيب، وقد بلغت سن الكهل، قيل: «**كهلاء**»، فإذا زاد بها الشيب، قيل: «**شمطاء**»، وقيل «**عانس**»، فإن نقا شعرها (أي خلص بالبياض)، قيل: «**عجوز**».

ثم أضاف إلى ذلك قوله:

(**وللأنثى** أوصاف لا يستغنى من استعمالها، مع ما ذكرناه، وهي إما أن تكون شابة بالغًا، وهي بكر، فيقول: «**البكر البالغ**»، أو امرأة وسطًا في سن الكهولة، فيقول: «**المرأة الكامل**»، أو امرأة في سن العانس، أو متقدمة في السن، فيقول: «المرأة العاقل»).

وفيما يختص بالألوان

إذا كان الرجل شديد السواد، قيل: «**حالك**»، فإن خالط سواده حمرة قيل: «دغمان»، فإن صفا لونه، قيل: «**أسحم**» فإن خالط السواد صفرة، قيل: «**أصحم**» فإن كدر لونه، قيل: «أربد» فإن صفا عن ذلك، قيل: «**أبيض**»، فإن رقت الصفرة، ومال إلى السواد، قيل: «**أدمى اللون**»، فإن كان دون الأربد، وفوق الأدمة، قيل: «**شديد الأدمة**»، فإن رق من الأدمة، قيل: «**شديد**

السمرة»، فإن صفا عن ذلك، قيل: «**أسمر اللون**»، فإن صفا عن ذلك، قيل: «**رقيق السمرة**»، فإن صفا عن ذلك ومال إلى البياض والحمرة، قيل: «**صافي السمرة، تعلوه حمرة**» ويقال: «**رقيق السمرة بحمرة**»، فإن صفا لونه جداً، قيل: «**صافي السمرة**» فإن خلص بياضه، قيل: «**أنصح**»، وإن كان في بياضه شقرة، قيل: «**أشقر**»، فإن زاد على ذلك، قيل: «**أشكل**»، فإن كان مع الحمرة الزائدة نمش، قيل: «**أنمش**»، فإن صفا لونه، ومال إلى الصفرة من غير علة، قيل: «**أسحب اللون**».

وفيما يختص بالقدود

إذا كان الرجل طويلاً، إلى حد لا يزيد عليه طول قيل: «**عميق القامة**»، فإن كان دون ذلك، قيل: «**عبطبط**»، فإن كان دون ذلك يسيرا، قيل: «**شاط القامة**» فإن نقص عن ذلك يسيرا، قيل معتدل القامة إلى التمام «فإن نقص عن ذلك، قيل «معتدل القامة» فإن نقص عن ذلك، قيل «دون الاعتدال» فإن نقص عن ذلك، قيل: «قصير القامة»، فإن نقص عن ذلك قيل « ربع القامة»، فإن تفاحش قصره، قيل: «حسر القامة»، فإن تزايد قصره إلى أن يكون كقد الصبي، قيل: « دحداح»، ويقال في الشيخ إذا انحنى «اسقف القامة».

ثم ذكر وسيلة أخرى، أكثر دقة في وصف القدود، فقال:

(ومن الحذاق من اعتبر القدود بذراع القماش، واستأنس بتفصيل الرجل ملبوسه، وجعل لغاية الطول على العرف المألوف في زماننا هذا ثلاثة أذرع ونصف، وقسط أقسام القدود على هذا الذرع ــ أي القياس بالذراع ـ فمهما

نقص انزله على المراتب إلى نهاية القصر، والاعتماد على ذرع التفصيل، مبني على سؤال الرجل، وربما عرف ذلك من رؤيته تقديرا).

وفيما يختص بالجباه

إذا عرضت الجبهة وتربعت، قيل «رحب الجبهة»، وإن اعتدل عظمها واتسع جداً، قيل «أغر، وامرأة غراء» فإن فتأ عظمها وظهر قيل «أفرق»، فإن استوى عظمها، وسلمت من الانكماش، قيل، «واضح الجبهة»، فإن كان بها انكماش، قيل «وبها أسارير»، فإن صغرت الجبهة وضاقت، قيل «ضيق الجبهة»، وإن لم يكن لها أسارير قيل «صلب الجبهة»، وإن نزل شعر الرأس من وسط الجبهة، وخلا من الجانبين، مما يلي الصدغين، قيل «انزع»، فإن كان شعرها عليها من جميع جوانبها، وضاقت الجبهة قيل «أغمم الجبهة».

وفيما يختص بالحواجب

إذا اتصل مقدم الحاجب بمقدم الآخر، قيل: «**مقرون الحاجبين**»، فإن اتصلا اتصالاً من غير فصل مخطوط، قيل «**أبلج**» فإن طال شعر الحاجبين ودقا قيل: «**ازج**»، والمرأة «**زجاء**»، فإن زاد طولها، قيل: «**مهلل شعر الحاجبين**»، فإن غزر شعرها، قيل: «**أوطف شعر الحاجبين**» والمرأة «**وطفاء**»، فإن خف شعرهما، قيل: «**أمعط**»، والمرأة «**معطاء**» فإن سقط شعر الحاجبين، قيل: «**أمرط**»، والمرأة «**مرطاء**»، ويقال: «**أزعر الحاجبين**»، والمرأة «**زعراء**»، فإن غزر شعر الحاجبين، وطال، قيل: «**أزب الحاجبين**»، والمرأة «**زباء**».

وفيما يتصل بالعيون:

إذا اتسعت العين، قيل «**رجل أعين**»، وامرأة «**عيناء**»، وإذا انتفخ جفن العين الأعلى، قيل للرجل: «**ألخص**»، والمرأة «**لخصاء**»، وإذا قل لحم الجفون، وغارت الحدقتان، قيل: «**غائر الجفون**»، وإذا برزت الحدقتان، قيل: «**جاحظ العينين، وامرأة جاحظة**» فإن كان في العين رطوبة، قيل: «**ضعيف النظر برطوبة**»، فإذا اشتد سواد العين، قيل: «**أدعج**»، والمرأة «**دعجاء**»، فإذا اسودت أطراف الجفون، قيل: «**أكحل**»، والمرأة «**كحلاء**»، فإذا استوى السواد، وصفا البياض، واتسع ما بين الأجفان، قيل: «**أحور**» والمرأة «**حوراء**»، فإن خالط السواد خضرة يسيرة، قيل: «**أشهل**» والمرأة «**شهلاء**»، فإن خالط البياض حمرة، قيل: «**أسحر العينين**»، والمرأة «**سحراء**»، فإن خلصت الخضرة إلى الزرقة، قيل: «**أزرق العينين**» فإن اشتدت الزرقة، قيل: «**أشقر**» فإن زادت حتى يغلب البياض عليها، قيل: «**أفلج**» فإن كانت احدى العينين زرقاء، والأخرى سوداء، قيل: «**أحيف العين اليمنى أو اليسرى**»، وامرأة «**حيفاء**» فإذا كان النظر معتدلاً إلى الأنف، وكل واحدة من العينين تنظر إلى الأخرى، فهو «**أقبل**»، وإذا ارتفع النظر إلى أعلى العينين، ولا يمكنه النظر بهما إلى ما دونه، فهو: «**أدوش**»، والمرأة «**دوشاء**»، فإذا مالت العين إلى مؤخرها، أو إلى مقدمها دون الأخرى، قيل: «**أحول اليمنى أو اليسرى**»، فإذا انكمش قيل: «**أخفش**»، فإذا لم يكن يرى من قرب، فهو: «**أكمس**»، فإن لم يستطع رؤية النور فهو: «**أجهر**»، فإذا انقلب جفن العين فانشق، قيل: «**أشتر**» فإن طال شعر الأجفان، قيل: «**أوطف**»، فإن تساقط شعر الأجفان، قيل: «**أعمش**» فإن ذهبت إحدى العينين، قيل: «**ممتنع**» وقيل: «**أعور العين الفلانية**»، فإن كانت عيناه مفتوحتين ولا ينظر بهما شيئا، قيل: «**قائم العينين**».

وأما ما يتصل بالأنوف فمنه قولهم في صفتها وأحوالها

إذا ارتفعت قصبة الأنف، ودقت الأرنبة، واحدودب وسطها قيل: «**أقنى الأنف**»، وإن كان دون ذلك، قيل: «**أدقق الأنف**»، وإذا ارتفعت الأرنبة، ودقت القصبة، وتطابقت يسيراً، قيل: «**أشم الأنف**»، والمرأة «**شماء**»، وإذا قصرت القصبة وصغرت الأرنبة، وارتفعت عن الشفة، قيل: «**أخنس**»، والمرأة «**خنساء**»، فإن عرضت الأرنبة، واطمأنت القصبة، وانكسر المنخران، وانفطس رأس الأنف، قيل: «**أفطس**»، فإن اطمأن وسطه، وارتفعت الأرنبة، قيل: «**أقنى الأنف**»، فإن قصر ارتفاعه وغلظ، قيل: «**أقشم**»، فإن اعتدلت القصبة، قيل: «**أفغاى**، والمرأة «**فغوي**»، فإن غلظت الأرنبة، قيل: «**غليظ الأرنبة**» وإذا اتسع المنخران اتساعًا فاحشًا، قيل: «**واسع المنخرين**»، وإن ضاقا، قيل: «**ضيق المنخرين**».

وفيما يختص بالوجنات والخدود

الخد: هو مجرى الدمع، والوجنة: هي العظم الناتىء تحت العينين، فإذا ظهر لحم الوجنتين، قيل: «**موجن**»، والمرأة «**موجنة**»، وإن استوى عظم الوجنتين، واعتدل لحم الخدين، قيل: «**سهل الخدين**»، فإن ضاق الوجه، وصغر جدًّا، قيل: «**ضيق الوجه**»، فإن طال الوجه، قيل: «**مستطيل الوجه**»، وإن كان في الخدين غضون، قيل: «**وبخديه غضون**»، وإذا انضم الخدان وانحصرا، قيل: «**مضموم الخدين**».

وفيما يختص باللحى

فإذا دار شعر اللحيـة، قيل: «**مستدير اللحية**»، فإذا طال مقـدمها، قيل: «**طويل المقدم**»، ويقال: «**مسبل شعرها**»، فإذا غـزر شعرهـا، قيل: «**أكثّ**»، ويقال: «**كثيف شعر اللحية**»، فإن خف شعرها، قيل: «**خفيف شعرها**»، فإن كان بذقنـه شعر كثير، وبعارضيه شعـر يسير، قيل: «**سناط**»، وإن لم يكـن في عـارضيه شيء مـن الشعـر، وكان بـذقنـه خـاصة، قيـل: «**كوسج**» ويقال: «**كوسا**»، وإن كان كبير السـن، ولم يكن بـوجهه شعـر كالأمـرد، قيل: «**أثط**» و«**أفط**»، وإن لم يكن في عنفقتـه شعر ــ وهي النقـرة التي تحت الشفـة السفلى ـ قيل: «**أكشف العنفقة**»، فإن تـوفر شعـرها، قيـل: وفر العنفقـة وإن كانـت العنفقة وما حولها ملأى بالشعر قيل: «**أسد العنفقة**»، وإن كان في شعر اللحية شقرة ظاهـرة، قيل: «**أشقر شعـر اللحية**» فإن كـانت الشقـرة خفيفة، قيـل: «**أصهب شعر اللحية**»، ويقال: «**بها صهوية يسيرة**»، فإن شابت اللحية، وهو يخضبها، قيل: «**مستور شعر اللحية بالخضاب**»، وإن كانت مستورة بالحناء، قيل: «**بالحناء**».

وفيما يختص بالشفاة:

إذا رقتا ودقتا، قيـل: «**رقيق الشفتين**»، فإن تقلصتـا وغلظتا، ولم يستطـع طبقهما على اسنانه، قيل: «**أفوه**» والمرأة «**فوهاء**»، فإن غلظـت الشفتان يسيرًا، قيل: «**غليظ الشفتين**»، فإن كان أكثـر من اليسير قيل: «**أثلم**» والمرأة «**ثلماء**»،

فإن انقلبت الشفة العليا، واسترخت كشفة البعير، قيل: «**أهدل**»، والمرأة «**هدلاء**»، فإن اسود ما ظهر من لحم الشفتين، قيل: «**ألعس**»، والمرأة «**لعساء**»، فإن انشقت الشفة العليا، كشفة البعير، قيل: «**أعلم**»، وإن انشقت السفلى، قيل: «**أفلج**»، فإن كانتا مشقوقتين، قيل: «**أشرم**»، والمرأة، «**شرماء**». و«**اللطع**» بياض في باطن الشفة وهو يميل إلى السواد.

وفيما يختص بالأفمام «جمع فم»

إذا كان الفم متسعا جدًّا، قيل: «**أهرت**»، والمرأة، «**هرتة**» فإن كان صغيرًا، قيل: «**صغير الفم**»، فإن كان يتلفظ بالفاء، قيل: «**فأفاء**» والمرأة كذلك، وإن تردد في كلامه، قيل: «**تمتام**»، فإن غلظ كلامه، وثقل لسانه، قيل: «**ألغظ**»، وإن كان يتردد في الكلام إلى حد الخيشوم قيل: «**أخن**»، فإن أحال لسانه في فمه، في حالة الكلام، قيل: «**لجلاج**»، فإن كان إذا تكلم يبدل الحروف بغيرها قيل: «**أرث**»، ويقال: «**ألثغ**»: فإن لم يتكلم قيل: «**أبكم**»، وقيل: «**أخرس**»، والمرأة «**خرساء**».

وفيما يختص بالأسنان:

إذا اتسع ما بين الثنايا العليا، يقال: «**مفلج ما بين الثنايا العليا أو السفلى**»، وإن كان فلجًا واضحًا، قيل: «**فلج بَيِّن أو يسيرًا**»، قيل: «**يسير**»، وقيل: يجوز أن يقال: «**خفيفا**»، وإن انفرج ما بين الأسنان، قيل: «**أفرج ما بين الثنايا العليا، وكذلك السفلى**»، وفي جميع الأسنان، إذا كانت على هذا الحكم، وإن التصقت الأسنان، وانتظمت يقال: «**مصمت الأسنان**» فإن تفلجت جميع

الأسنان، يقال: «مفلج جميع الأسنان العليا والسفلى» فإن كان بعضها مفلجًا أو مفرجًا، ذكره، وإن كان بالأسنان سواد أو صفرة أو خضرة، أو محتوتة، أو بعضها، ذكر كل ذلك بحسبه، وإن تغيرت، يقال: «**متغير لون السنة الفلانية**» و إن انثلم طرف الأسنان، أو بعضها ــ أي انشق ــ قيل: «**منثلم طرف السن الفلاني**»، وإن انقصمت أي انكسرت من نصفها، قيل: «**مقصوم السن الفلاني**»، ولا فرق بين أن يكون ذلك في السفلى، أو العليا، ويقال في السن الأعلى أو السفلى: «**مقلوع السن الفلانية**»، وإن كانت الأسنان بارزة، قيل: «**بادي الأسنان**»، فإن تراكبت، قيل: «**متراكب الأسنان**»، فإن زاد ما بين الأسنان، قيل: «**وبين أسنانه سن زائدة، أو شاعبة**».

وفيما يختص بالأعناق:

* **السالفان: هما ما بين مكان القرط، ونقرة القفا.**
* **والاخدعان: هما مكان المجمتين في صفحتي العنق.**
* **والنغناغ: هو ما تحت اللحيتين.**
* **واللحيان: مثنى لحي، وهو منبت اللحية، وللرجل لحيان.**

وإذا طال العنق واعتدل، قيل: «**أجيد**»، والمرأة «**جيداء**»، فإن طال في رقة، قيل: «**أعنق**»، والمرأة «**عنقاء**»، وإن مال العنق إلى ناحية، قيل: «**أميل العنق إلى الناحية الفلانية**»، وإن امتدت العنق فأقبلت على مقدمها، قيل: «**أقود**»، فإن قصرت حتى تكاد الرأس تلتصق برأس العنق، قيل: «**أوقص**»، والمرأة «**وقصاء**» فإن لامت العنق واعتدلت قيل «**أغيد**» والمرأة «**غيداء**».

وفيما يختص بنوادر الخلقة :

إذا انحسر الشعر من جانبي الجبهة، وزاد على ذلك، فهو: «**أجلح**» فإن زاد على ذلك، قيل : «**أجلى**»، فإن زاد على ذلك حتى بلغ الشعر اليافوخ، فهو: «**أصلع**»، فإذا اجتمع الشعر في وسط الرأس، وخلا كل من جانبي الرأس، من الشعر، قيل «**أقرع**»، فإن كان الشعر مفلفلاً ــ أي شديد الجعودة ـ قيل : «**مفلفل الشعر**»، وإذا سال على القفا، قيل : «**أغم القفا**»، كما يقال : «**أَغَمُّ الوجه**».

وإذا انشق حجاب الأنف، قيل «**أخزم**»، وإذا انقطع الأنف، قيل : «**أجدع**»، والمرأة «**جدعاء**»، وإن كان بوجهه جدري مندرس أو ظاهر كتب ذلك .

* ***والكوع : في طرفي الزندين، مما يلي الإبهام إلى السبابة .***
* ***والكرسوع : طرف الزند مما يلي الخنصر .***

وإذا كان الرجل مقعدًا، يقال له : «**مفلوج الرجلين**»، والمرأة كذلك، و«**الخوص**» صغر العينين، وهو ضيق مؤخرها، و «**الفقم**» : هو أن تقدم الثنايا السفلى، إذا ضم الرجل فاه، ولا تقع عليها الثنايا العليا، والفلج في اليدين هو اعوجاج فيهما، و«**القعس**» : هو دخول الظهر، وخروج الصدر، و«**الاصطكاك**» : هو أن تصطك كل ركبة بالأخرى، و«**الأكف**» : هو قصر الأنف، وصغر الأرنبة .

وإذا كان الرجل مقطوع الأذنين، قيل : «أصلم»، أو مقطوع إحداهما قيل : «**أصلم الأذن الفلانية**»، و «**الصمغ**» : صغر الأذنين .

وإن كان شيء من الأظفار متغيرا، قيل: «**متغير الأظفار**»، ويقال: «**فاسد الأظفار**» أو «**فاسد الظفر الفلاني**».

وإن كان يعمل باليد اليسرى، كما يعمل باليمنى، ولا مزية لإحداهما على الأخرى، قيل: «**أضبط**»، وإن عمل باليسرى دون اليمنى، قيل: «**أشول**»[٢].

وتضم بعض المصادر اللغوية الأصلية، مثل: (**فقه اللغة**) للثعالبي، والسفرين الأول والثاني من (**المخصص**) لابن سيده، والسفر الثاني من (**نهاية الأرب**) للنويري، وغيرها من المصنفات التراثية كثيرًا من الألفاظ الأخرى التي تعبر عن الصفات المختلفة لأعضاء جسم الإنسان وملامحه، وهي تغطي هذه الصفات جميعًا مع دقة الفوارق بينها، وتعددها.

والواقع أن الاعتماد على الصور في إثبات الشخصية، لم يغن تمامًا عن التوصيف اللفظي للأشخاص في بعض المجالات، مثل التحقيق الجنائي، حيث يحرص المحققون على جمع شتات ما انطبع في أذهان المجني عليهم والشهود من صفات الجناة المجهولين، ثم يعمدون إلى تنسيق هذه المعلومات ليستخلصوا منها صورة متكاملة وإن كانت تقريبية للجناة، حتى يمكن على هديها تضييق نطاق البحث عنهم، توفيرًا لما يبذلون من جهد ووقت في هذا السبيل.

وتتطلب الاستعانة بالتوصيف اللفظي في هذا المجال. إلمام المحققين بعدد وافٍ من هذه الألفاظ، التي تعبر عن مختلف الصفات، وإن تضاءلت بينها الفوارق.

واعتقد أن هذه الألفاظ يمكن أن تبعث فيها الحياة، باستخدامها الفعلي في هذا المجال وخاصة عندما توضع موضع التنفيذ، تلك التوصية التي أصدرها مؤتمر قادة الشرطة من ممثلي جميع **الدول العربية** الذي عقد في مدينة «**عمان**»

عـاصمـة المملكـة الأردنيـة الهاشميـة ، منذ سنـوات قليلـة ، في شـأن تـوحيـد مصطلحات الشرطة في هذه الدول .

فلا شك أن هذه التـوصية تستهدف تعريـب الألفاظ الدخيلة ، وتصـويب الأخطاء اللغوية الشائعة ، وإعداد معجم مـوحد شامل للألفاظ التي يتفق على استخدامهـا في مجالات عمل الشرطة ، أسـوة بالمعجـم الذي توصـل إلى إعداده مندوبـو الجيوش العـربية ، في سعيهـم لتوحيـد المصطلحات العسكـرية التـي تستخدمها هذه الجيوش .

وحسـب هذا التـوحيد الـذي تسعـى إلى تحقيقه أجهـزة الشرطة في الـدول العربيـة ، أن ييسر وسائل التعـاون في الأنشطة التـي تتطلب جهـودًا مشتركة ، وفيما يتطلبه النهـوض برسـالة الشرطة في هـذه الدول مـن تبادل المعلـومات ، والخبرات وترجمة الكثير من المؤلفات الأجنبية مما له علاقة بأعمال الشرطة .

●●●

الهوامش

(★) الحلي : جمع حلية وهي صفة الرجل وخلقته وصورته ، والمراد بالحلية أن يذكر أشهر ما في الإنسان مما لا يزول بطول الزمان .

(١) أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب :
(البرهان في وجوه البيان) تقديم وتحقيق د . حفنى محمد شرف مكتبة الشباب ـ القاهرة ١٩٦٩م ـ ص ٢٩٨ .

(٢) شمس الدين محمد بن أحمد المنهاجي الأسيوطي :
(جواهر العقود ، ومعين القضـاة والموقعين والشهـود) ـ طبـع على نفقـة محمـد سرور الصبان ـ مطبعة السنة المحمديـة ـ القاهـرة ١٣٧٤ هـ ـ ص ٥٧٢ وما بعدها . . .

نظرات في معاجم البلدان

(إجلاء الخنافس عن وضح الحمى)

عرض الأستاذ / عبد الله محمد الشائع

بعد الحمد والثناء عليه «والصلاة والسلام على نبيه الهادي محمد ﷺ، أقول : هناك مثل يقول : (إن البغاث بأرضنا يستنسر.) فمتى تصبح ضعاف الطير نسورًا؟ إذا اختلت المعايير، وفسدت الأمزجة، عندئذ يصبح القوي ضعيفًا، والضعيف نسرًا كاسرًا.

ويبدو لي أنه في زمن مضى بعد ضعف اللغة العربية الفصحى، والاستعاضة عنها عند التخاطب باللهجات العامية، فسدت الأمزجة بحيث أصبح لا يفرق بين طير القطا وحشرة الخنفس.

وهذا ما حدث بالفعل لقطّيات امرئ القيس التي ذكرها عند تحديده لغيث نازل حيث قال :

أصاب قُطَيَّات فسال اللوى له　　　فوارى البرى فانتحى للأريض

والعرب القدامى هم الذين حددوا أسماء أعلام الجزيرة العربية ، من جبال وغيرها وأعطوا كل علم ما يليق به حسنًا أم قبحًا ، ودونوا لنا تلك المسميات بأشعارها ومن ضمن تلك المسميات هضبات «**قُطَيَّات**» إنه اسم لطيف يدلك على جمال المسمى قبل أن تراه . فأين تقع قطيات هذه؟

لنلق نظرة على المعاجم الجغرافية الحديثة التي تكلمت عن عالية نجد ، وبالذات عن حمى ضرية ، نقل الهجرى (أن أوَّل من أحمى الحمى بضرية عمر ابن الخطاب «رحمه الله» ، أحماه لإبل الصدقة ، وظهْر الغزاة)[1] واتسع في عهد عثمان رضي الله عنه . فماذا قالت تلك المعاجم :

قطيات : في كتاب (صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار) تأليف الشيخ محمد بن بلهيد «رحمه الله» .

يقول : (قُطَيَّاتُ : هي هضاب حمر معروفة بهذا الاسم إلى يومنا هذا ، وهذا اسمها في الجاهلية إلا أنه تغير قليلاً بإبدال بعض الحروف ، وفي جنوبي حمى ضرية هضبات حمر، يقال لها اليوم «مغطيات» زادوا على قطيات ميمًا ، وأبدلوا القاف غينًا ، وهي واقعة شرقي جبل شعر المشهور بعالية نجد، تبعد عنه مسافة نصف يوم .)[2] انتهى . يقصد نصف يوم للإبل المحملة .

قطيات : في معجم «عالية نجد» تأليف الأستاذ سعد بن عبد الله بن جنيدل . يقول : قطيات : (أم المشاعيب : هضاب حمر بعضها قريب إلى بعض تقع في عثث من الأرض يحف من حولها صيهد أبيض تقع شمالاً غربيًا من

الكودة، وغربًا من العرائس، يراها السائر مع طريق السيارات المُسَفلت شمالاً منه وهو بحذاء جبل النير. . . وأم المشاعيب داخلة في نطاق حمى ضرية قديماً، واقعة في أعلى الوضح في بلاد بني كعب بن كلاب، وقد ذكرها الأصفهاني، وحددها تحديدًا واضحًا باسم «**قطيات**» ووصفها وصفًا جغرافيًّا قال الأصفهاني: وقال العامري في **قول العطاف**:

تـَرَبَّعَت في النير من أوطانها بين قطيات إلى دغنانها

ومن الملاحظ أنه لا يوجد في بلاد الوضح هضبات تغير اسمها الحالي عن اسمها القديم إلا هذه الهضبات ـ أم المشاعيب ـ في أعلى الوضح، وهضبة «**شرثة**» في وسط الوضح مما يلي أسفله.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أبا علي الهجري ذكر بلاد الوضح، وحددها تحديداً واضحًا، ووصف أعلامها، وجغرافيتها، وذكر قطيات باسم القطبيات، وتبعه في ذلك أبو عبيد البكري فيما نقله عنه، وهذا خطأ من الهجري رحمه الله، أو أنه وقع تصحيفًا من النساخ. . .

ويبدو لي ـ الكلام لمؤلف عالية نجد ـ: أن اسم قطيات أدخل عليه شيء من التحريف وانتقل إلى موضع آخر غير بعيد منها «فهناك حشة سوراء تقع في جمش جهام تسمى« أم قطا» وهي واقعة في بلاد الضباب قديماً، وداخلة في حمى ضرية إلا أنها خارجة من بلاد الوضح، فأم المشاعيب تقع غرب كبشات في برث الوضح، وأم قطا فتقع شرق كبشات في جمش جهام. أما ما ذكره محمد بليهد تعليقًا على شعر امرئ القيس فإنه قد أبعد النجعة في تحديده فقال: (قطيات: هضاب جنوب ضرية يقال لها في هذا العهد «مغطيات» الخ) ـ واستطرد مؤلف العالية قائلاً ـ: والواقع أنني زرت هذه البلاد ولم أعرف فيها هضاب تدعى

«مغطيات» وهـذا التحديـد الذي ذكـره يتعارض مـع ما ذكـره الهجري وغيره في تحديدها، وما ذكروه واضح لا لبس عليه . . . !!.

ومما يؤيد القـول : إن هضب أم المشاعيب هو هضـب قطيات : أن العطاف العقيلي في بيته الآنف الذكر حدد النير وقال إنه من قطيات إلى دغانين!!)[٣]. . ـ انتهى كلام مؤلف معجم عالية نجد مع الاختصار ـ ويحسن أن يرجع القارىء إلى ما أورده المؤلـف من النصوص ــ. أقول وبالله التـوفيق : قبل أن نلقـي نظرة فاحصة في بطـون المراجع القديمة لنرى مـاذا قالته عن قطيـات . علينا أن نلقي أولاً نظرة على الـرأيين المتقدمين حـول تحديد مـوقع قطيـات فالأستـاذ سعد بـن جنيدل يقول : إن محمد بن بليهد أبعد النجعـة في تحديده، وهو حددها بهضب «أم المشاعيب».

وقد أسمح لنفسي أن أقول إن يكن محمد بـن بليهد «رحمه الله» أبعد النجعة، فقد أبعدها سعد أكثر!!.

والحق يقال وهـذا بالنسبة لانطباعـي الشخصي فإن تحديد مؤلـف «صحيح الأخبار» لبعـض المواضع المجهـولة في وقتنا الحاضر يتسـم بالـواقعية، والحدس الذي يصيب الموضـع الصحيح في الغالـب أو قـريبًا منه، وفي نظري فـإنه «رحمه الله» قرب كثيرًا إلى قطيـات سواء من حيـث المسمى أو المكان، وسيتضـح ذلك فيما سيأتي :

هل أم المشاعيب هي «قطيات» ؟.

أظن أن أستاذنـا سعد بن جنيدل أبعـد النجعة ـ أيضًا، مـع أن وضح الحمى ليس فيه نجعة لأن جميع أعلامه يشاهد بعضها بعضًا. وفيما يلي تحليل لما أورده :

أولاً : ـ يقول : (إن أم المشـاعيب هضاب حمر بعضها قـريب إلى بعض. . . ،

وقد ذكرها الأصفهاني، وحددها تحديدًا واضحًا باسم «قطيات» ووصفها وصفًا جغرافيًّا ينطبق على أم المشاعيب، وكذلك ما ذكره ياقوت في وصفها وتحديدها.

وقال ياقوت قطيات جمع تصغير قطاة... وقال الأصمعي: قال العامري: وقطيات هضبات لنا، وهن هضاب حمر ملس. متجاورات ينظر بعضهن إلى بعض، وهن قلات مياه كعب بن كلاب).

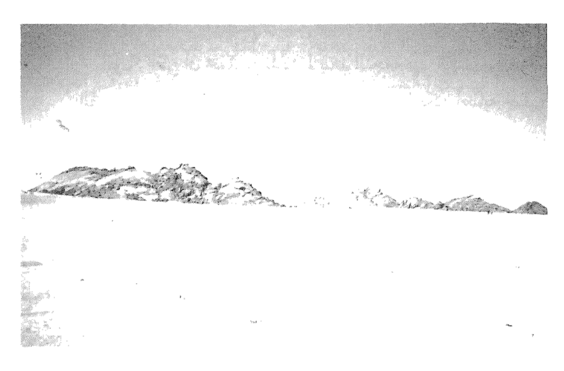
أقول: من وصف المؤلف لأم المشاعيب بأنها هضاب حمر بعضها قريب من بعض، قد يتبادر إلى ذهن القارىء أنها عبارة عن عدد من الهضاب مستقل بعضها عن بعض، ومتباعدة، والواقع أن «أم المشاعيب» عبارة عن هضب مقسوم إلى قسمين شمالي، وجنوبي يفصل بينهما مسيل ليس بالواسع فيه بعض الأشجار الكبيرة. الشمالي عبارة عن هضبة مستطيلة من الشرق إلى الغرب لها عدة رؤوس. والجنوبية قريبة منها، وفي الغرب والشمال هضيبات تحيط بها الرمال.

وبمشاهدتي لهذا الهضب أرى أن الأوصاف التي وردت في المعاجم القديمة لا تنطبق عليه، فلا ينطبق على أم المشاعيب هذه، ما ذكره الأصفهاني، ولا ما ذكره ياقوت. فياقوت قال: قطيّات جمع تصغير قطاة يعني أن قطيات هضيبات تشبه الواحدة منهن القطاة، وأم المشاعيب لا تسعفنا بأن ينطبق عليها هذا الوصف الظريف. كما أن العامري في هذا النص وصف لنا قطيات وهي على كل قطياته، وهو أعرف الناس بها وبوصفها حيث قال: إنها هضاب حمر ملس. وأم المشاعيب ليست كذلك فهي ليست ملساء، وإنما هي عبارة عن حجارة متراكمة كأي جبل آخر.

وبسبب تقارب هضاب أم المشاعيب بعضها من بعض فإنه لا يصدق عليها جملة :

● ● ينظر بعضهن إلى بعض ـ فهذا الوصف يوحي أنها هضاب متباعدة ولكن بالقدر الذي يرى بعضهن بعضًا .

وذكر العامري : أن بها «قلاتًا» فهل يوجد في أم المشاعيب قلات مياه؟ لا أظن ذلك فانظر إلى صورة أم المشاعيب أو زرها واحكم عليها .



● منظر هضب أم المشاعيب من جهة الشرق ●

ثانيًا : أما قول المؤلف (ومن الملاحظ أنه لا يوجد في بلاد الوضح هضبات تغير اسمها القديم إلا هذه الهضبات ــ أم المشاعيب ـ في أعلى الوضح، وهضبة «شرثة» في وسطه مما يلي أسفله .)

أقول : إن عددًا من الهضاب الموجودة في الوضح تسمى الآن بغير أسمائها القديمة فالهضاب كثيرة هناك، وأسماؤها متغيرة، وهل أطار قطياتنا مدار البحث إلا تغير الأسماء، وسيتضح هذا فيما بعد.

ثالثًا : أما قوله : (أما ما ذكره محمد بن بليهد تعليقًا على شعر امرئ القيس فإنه قد أبعد النجعة في تحديده . . . قطيات بما يسمى «مغطيات» . . . والواقع أنني زرت هذه البلاد ولم أعرف فيها هضبات تدعى مغطيات، وهذا التحديد الذي ذكره يتعارض مع ما ذكره الهجري وغيره في تحديدها، وما ذكروه واضح لا لبس عليه!!!).

أقول : أظن أن محمد بن بليهد لم يبعد النجعة فهو قريب من الموقع الصحيح لقطيات الذي ذكره الهجري وغيره، إن لم يكن أصابه حسبما فهمه من النصوص.

أما عما يسمى «بمغطيات» فلو وقف مؤلف معجم العالية في الجهة الغربية من أم المشاعيب، ونظر جهة الشمال الغربي لرأى «مغطيات» أو «مغطية» - كما يسميها البعض - ليست بعيدة منه، إذ هي أقرب الهضاب الحمر الواقعة بين أم المشاعيب وجبل «شعر» ولعل هضبة مغطية إحدى القطيات.

ولذلك كله فإني أميل إلى القول بأن أم المشاعيب ليست «قطيات» فعلينا إذًا أن نتصيّد قَطَيّاتنا بواسطة النصوص القديمة الواردة بشأنها، وكذا الزيارة الميدانية للمنطقة.

وحتى لا يكون في الفلاة التي سنتصيّد فيها تلك القطيات صياد آخر يذيرها علينا أو نذيرها عليه فلم يبق فيها أعلم ممن رغبوا في اصطيادها سوى أستاذنا عبد الله بن خميس حيث صوب على

«قطيَّات» بسهم ، وذلك عندما جاز الطريق من اليمامة إلى الحجاز حيث أورد في كتابه (المجاز بين اليمامة والحجاز) ما نصه : (ـ مهزول ـ العثاعث : لا يوجد الآن علمان بهذا الاسم ـ مهزول والعثاعث ـ ويبدو لي من تحديد المراجع التي بين يدي أن (مهزولاً) هو ما يسمى الآن (وادي جهام)، وأن (العثاعث) هي ما يسمى الآن (الخنفسيات) والله أعلم[٤]) .

أقول : كما بدا للأستاذ عبد الله بن خميس أن «العثاعث» هي ما يسمى الآن «الخنفسيات»، فإنه لكل ما تقدم يبدو لي أن العثاعث ليست الخنفسيات، وبالتالي ليست «قطيات»، فموقع العثاعث وصفاتها لا تتفق مع تحديد موقع وصفات قطيات .

فلو رجعنا لتحديد الهجري لموقع «العثاعث» لوجدناه يقول : (ثم عن يسار العرائس جبال صغار علاهن الرمل سود مشرفات على مهزول [وهن يُسَمّين العثاعث] . ومهزول واد مستقبل العثاعث .[٥]) .

وقد علق الأستاذ حمد الجاسر على كلام الهجري هذا بقوله : (عن يسار العرائس بالوضح بينهن أرتاق، صغار سود، علاهن الرمل مشرفات على مهزول، وهو واد في إقبال النير، وهن يُسَمَّيْن العثاعث، وفي الأصل : ذوعثث والصواب : بالغين المعجمة ويسمى الآن : غثاه .) .

(قطيَّات لا زالت في أفحوصاتها)

عندما يهم باحث بتحقيق موضع من المواضع في الجزيرة العربية، سواء كان

هـذا الموضـع جبـلاً، أم واديـًا، أم مورد مـاء، أو غير ذلـك، فـإن أول خطـوة يتخذها هـي البحث في المعاجم القديمـة، وكتب التاريخ، فـإذا عثر على اسم هذا العلم وطابقت تسميته القديمة لتسميته الحالية فليس هناك إشكال؛ أما إذا كانـت التسمية مختلفـة ـ فـإن الأمر يحتـاج إلى التحري والـدقة بعـد الرجـوع إلى النصوص الـواردة بشأنـه، إذ على ضوء ما يستنبـط من النصـوص يتحدد مسماه وموقعه، وكلما دقق البـاحث النظر، وقابل النصوص مع بعضهـا فإنه سيهتدي إلى بغيته، أمـا إذا أخذ جانباً مـن النصوص الواردة، وأهمل الجانب الآخـر فهنا يحدث الخلط بين المواضع، ومن هنا قد يتحـول الطائر الجميل كالقطاة مثلاً إلى حشرة منتنة الرائحـة كالخنفساء، وحتى لا نقع في هـذا الخلط يجب علينا حصر النصوص القديمة الواردة حول قطيات امرئ القيس قدر الإمكان.

النصوص في المراجع القديمة :

النص الأول : لعل أهم نـص حفظ لنا اسم قطيات هو شعـر امرئ القيس فقد ذكر الهمداني في (صفة جزيرة العرب) بيتي امرئ القيس كما يلي :

قعـدت لـه وصحبتـي بين ضـارج   وبـيـن تـلاع يثلـث فـالعُـرَيِّـض

أصـاب قطيـات فسـال اللـوى لـه   فـوادي البـدي فـانتهـى لبريـض(٦)

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي قال :

قطاتان: تثنية القطاة : موضع في شعر امرئ القيس حيث قال :

قعدت لـه وصحبتـي بين ضـارج   وبـيـن تـلاع يثلـث فـالعُرَيِّضِ

أصـاب قطـاتين فسـال لـواهما   فـوادي البـدي فـانتحـى لـلأُرَيِّضِ(٧)

وفي مكان آخر أوردها بصيغة الجمع فقال :

قطيـات : جمع تصغير قطـاة، وهو مـن القَطـْوِ مِشْيـَةٌ أو حكايـة صـوت :

هضاب لبني جعفر بن كلاب بالحمى حمى ضرية قال مطير بن أشيم الأسدي - ضمن أربعة أبيات له -:

ينتاب ماءَ قطيات فأخلفه   وكان منهلهُ ماءً بحوران

وقال الأصمعي: قال العامري: وقطيات هضبات لنا وهن هضاب حمر ملس بالوضح وضح الحمى متجاورات ينظر بعضهن إلى بعض، وهي قلات مياه كعب بن كلاب ومياه بني أبي بكر بن كلاب (٨).

النص الثاني: ما أورده أبو علي الهجري حيث ساقه لنا مؤلف «عالية نجد»، ولكن أحب أن أورد كامل النص هنا لأهميته في بحثنا هذا، ولوجود فقرات منه لم يسبق أن ذكرناها، وهي على جانب من الأهمية.

قال الهجري «رحمه الله»: (ثم جزعت الجبال الطريق، وصار ما بقي من جبال الحمى عن يسار المصعد. فأول جبل عن يسار المصعد جبل يدعى «الأقعس» وهو محدد طويل في بلاد بني كعب بن كلاب، وهو في ناحية الوضح، والوضح بلد سهل كريم ينبت الطّريفة بين أعلاه وأسفله ليلتان، أسفله في ناحية دار غنيّ، وأعلاه عند الأقعس. ثم الجبال الحمر التي تدعى قطبيات في ناحية دار بني أبي بكر بن كلاب.

ولهم هناك ماءان: الشطون، وحفيرة خالد، بين الأقعس والقطبيات، والشطون في ناحية شعر، وقد أكثر الشعراء في شعر، وهو جبل عظيم في ناحية الوضح قال حكم الخضري يذكره:

سقى الله الشطون شطون شعر   وما بين الكواكب والغدير

ثم الجبال التي تلي قطبيات عن يسار المصعد، وهي هضاب حمر يقال لها العرائس وهي في الوضح في بلد كريم(٩)) إلى آخر النص.

ونلاحظ هنا كما سبق أن لاحظه أستاذنا سعد بن جنيدل : بأن لفظ «قطيات» جاء في النص بزيادة حرف الباء أي «قطبيات» وليس لذلك تعليل إلا كما علله الأستاذ سعد ، فالقطبيات مكانها في غير وضح الحمى . وقد أتكلم عنها في مكان آخر.

النص الثالث :

ما أورده الحسن بن عبد الله الأصفهاني في كتابه «بلاد العرب» حيث قال : (قال العامري : وقطيات هضاب لنا ، وهن هضاب حمر ملس ، بالوضح وضح الحمى متجاورات ينظر بعضها إلى بعض ، وهي في فلاة مياه كعب بن كلاب ، ومياه بني أبي بكر بن كلاب .

هي في مياه السنائن ، وهي ماءة لبني وقاص ، من كعب بن أبي بكر، وأيمنها من مهب الجنوب ، وأيسرها من مهب الصَّبا ، وكل هذا متقارب ينظر بعضه إلى بعض .

وهؤلاء الهضبات يناوحهن هضب بالوضح يسمى العرائس . وعمود من الهضب يقال له الأقعس . إلى جنب أجبل سود عظام للضباب ، يقال لهن كبشات . وهذا كله بالوضح وضح الحمى . وبين هؤلاء الأجبل الذي ذكرت يأخذ طريق اليمامة من ضرية حتى يرد الأحسن . . .

وقال العامري في قول القطّاف : ـ البيت المتقدم ـ

أما قطيّات فلبطن من كعب بن كلاب يقال لهم بنو برقان ، وهي في وسط وضح الحمى والوضح أرض بيضاء سِهْلَة أُنُفٌ .)(١٠)

إن تلك النصوص التي أوردها الأصفهاني كبقية النصوص الأخرى واضحة لا غموض فيها غير أنه ورد ضمنها وصف لم يتضح لي منه هل القصد اتجاه

هضاب قطيات أم اتجاه موارد المياه؟ وهذا الوصف هو:

(وأيمنها من مهب الجنوب، وأيسرها من مهب الصَّبا، وكل هذا متقارب ينظر بعضه إلى بعض).

ومع هذا فالذي أرجحه: أن المقصود هو اتجاه الهضاب، وذلك إذا أغفلنا قاعدة - عودة الضمير لأقرب مذكور - مع أن النصوص متضافرة جميعها على وصف قطيات حتى مع غياب هذا النص الذي يحدد باتجاه الرياح.

فإذا كان مدلول هذا النص حسبما فهمته فهو يعضد النصوص الأخرى وسأبين ذلك بعد مسح المنطقة على الطبيعة، وما علينا الآن إلا القيام بزيارة ميدانية لوضح الحمى.

(الزيارة الميدانية للأقعس وما جاوره)

ما دمنا حصرنا النصوص الواردة حول «قطيات» قدر الاستطاعة، تلك النصوص التي تصفها وتصف موقعها وصفًا واضحًا فما علينا الآن إلا القيام بالعنصر المهم وهو الزيارة الميدانية للمكان، وتطبيق النصوص على المواضع سواء كانت تلك النصوص شعرًا، أم نثرًا، ولا شك عندي بأن هذه هي الطريقة المثلى لتحديد المواضع المختلف عليها؛ ولذلك فقد سبق أن قمت بزيارتين لمنطقة الوضح.

ولكي يتصور القارئ المنطقة التي نتكلم عنها الآن، فما عليه إلا أن يقرأ ما مر بنا من كلام للهجري حدد به (الوضح).

وسأضع خارطة تقريبية توضح تلك المنطقة والمعالم التي نتحدث عنها، لعلمي أن البحث في جغرافية البلدان مادة صامتة قد لا يخرج منها القارئ في

بعض الأحيان إلا بـألم يحسه في رأسه نظرًا للتداخلات التـي تحصل، إلا إذا كان القارىء ملمًا بالمنطقة التي يقرأ عنها عارفـًا لمسالكها فقد يخرج بنتيجة. وما أشبه علم جغـرافية البلـدان بعلم الفلك فمثـلاً عندمـا تقرأ لتعـرف حقيقة البروج، والنجوم، وأين تواجـدها في السماء، ومتى تراها، وما هي أشكـالها؛ فإنك تقرأ كثيرًا ولا تخرج في الغالـب بنتيجة واضحـة، وأعزو ذلك إلى طـريقة مـن ألفوا في هذا المجال.

ونحن الآن نريد أن نعرف جبالاً راسية في الأرض لا نجومًا سابحة في السماء، مع أن كلاً منها خلقها الله لحكمة بالغة (وعلامات وبالنجم هم يهتدون).

وقبل أن آخذ القـارىء معي للقيام بـزيارة ثالثـة، فلعله من المفيـد أن أذكر خلاصة مـوجزة عن صفات القطيات التـي نحن ذاهبون لاصطيادهـا من واقع النصوص التي مرت بنا:

١ ـ روايـة شعر امرئ القيس جـاءت مرة جمع تصغير بلفظ «قُطَيّـات» وجاءت مرة أخرى بلفظ «قطاتين» بالتثنية.

٢ ـ قطياتنـا التي نبحث عنها هضاب حمر، ملس، متجـاورات، ينظر بعضهن إلى بعض.

٣ ـ تلك الهضاب الحمر الملس يوجد بها قلات مياه.

٤ ـ قطيـاتنا توجد في أعلى الـوضح حدد بها الهجـري الموضح من جهته الغـربية حيث قـال (أعلاه عنـد الأقعس. ثـم الجبال الحمـر التي تـدعى قطبيـات) «قطيّات».

٥ ـ أنها محاذية لغرب النير، ودغانين.

٦ ـ أيمنها من مهب الجنوب، وأيسرها من مهب الصَّبا، كما قال العامري.

٧ ـ يناوح قطيـاتنا هضب العرائس، وعمـود من الهضب يقال لـه الأقعس، إلى جنـب أجبل سـود عظـام يقال لهن كبشـات، وكـل تلـك الأعلام في وضـح الحمى.

٨ ـ يـوجد بقرب قطيـات ماءان لبنـي أبي بكر بن كـلاب هما الشطون، وحفيرة خالـد يقعان بين الأقعس، وقطيات، وأحـد هذين الماءين وهـو الشطون في ناحية جبل شعر.

الزيارة الميدانية:

أحب أن اصطحب القارىء معـي في تلك الزيارة لأنها الزيـارة التي سنحدد على ضوء نتائجها موضع قطيات الصحيح إذا حالفنا الحظ:

اليوم الجمعة ٦/ ٥/ ١٤١١ نحن سائرون على طريـق الرياض الطائف مرورًا بالدوادمي وعفيف، بعد مرورنا ببلدة البجادية ونحن متجهون غربًا يكون أمامنا عن يسار الطريـق جبل النضادية «نضاد» عندما نتجـاوزه نرى على يميننا بلدة القاعية إذًا نحـن الآن داخل وضح الحمى «حمى ضرية» بعدهـا بقليل نرى على اليمين «العرائس» ثـم نصل إلى محطة وقود قـرية «المعلّق» نترك الطريـق العام، ونتجه شمالاً باتجاه هضب «أم المشاعيب» اتجاهنا الآن على الدرجة ٣٣٠° شمالاً، وعن يميننا هضبة الكودا «عمود الكور» وعن يسارنا هضبة «المعلّق».

مسافة الطريق بين محطة المعلق وأم المشاعيب أحد عشر كيلو مترًا.

لن نتوقف في أم المشاعيب لمعرفتنا بها من الـوصف السابق لها، ولكن نتوقف في جهتها الغربية، هذه الـوقفة عبارة عن تأمل لما حبا الله هذه المنطقـة من تربة نقية عذبة ومناظر خلابة، ولا ننسى ما وصفها به الهجري رحمه الله حيث قال:

(الوضح بلد سهل كريم ينبت الطريفة، بين أعلاه وأسفله ليلتان، أسفله في ناحية دار غنيّ وأعلاه عند الأقعس. ثم الجبال الحمر التي تدعى قطبيّات) «قطيّات»

لعل بعض الرفقة يسأل ما هي «الطريفة»؟ فأقول له هذا ما سألت عنه كثيرًا سكان تلك الناحية وغيرهم فلم يفدني أحد ماذا تعني تلك الكلمة. فأي نوع من النبات تلك الطريفة؟ بالرجوع لمعاجم اللغة اتضح أن الطريفة هي: نبات النصي في مرحلته الثانية فهذا النبات ما دام رطبًا أخضر فهو النصي، فإذا ابيض فهو الطَّريفة.

باتجاه الغرب وعلى الدرجة (٢٧٠°) نرى هضب الأقعس، وهو ما يسمى في وقتنا الحاضر «الخنفسية» أو الخنفسيات، وإذا التفتنا يمينًا لجهة الشمال الغربي لدرجة (٣٢٠°) نرى قرية «النِّيصيّة» على بعد أربعة أكيال ومن خلفها نرى إحدى الهضاب الحمر، كما نشاهد بين تلك الهضبة وبين الأقعس عددًا من الهضاب الحمر الملس، ومن وراء الجميع جبلٌ «شعر» وهو أسود اللون ممتد من الشمال إلى الجنوب.

منظر خلاب ولا شك عدد من الهضاب الصغيرة الحمر الملس في حضن جبل أسود. ولكيلا يأخذنا الوقت هل نذهب باتجاه صاحبنا الأقعس المتخنفس، أم للهضبة القريبة منا على اليمين؟ نفضل الذهاب مع الطريق الأيمن مروراً بالنيصية.

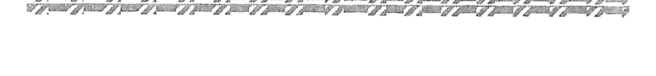
عند الوصول إلى تلك الهضبة والتي تبعد عن أم المشاعيب سبعة كيلومترات وجدنا في شرقيها قريبًا منها بئر ماء بني حولها بعض المساكن، رأينا رجلاً كبير السن، ومن عادتي العمل بالمثل القائل «البدوي ينشد» أي يسأل فسلمت عليه وسألته عن اسم تلك المنازل فقال هذا «المغطى» وسألته عن الهضبة التي هم

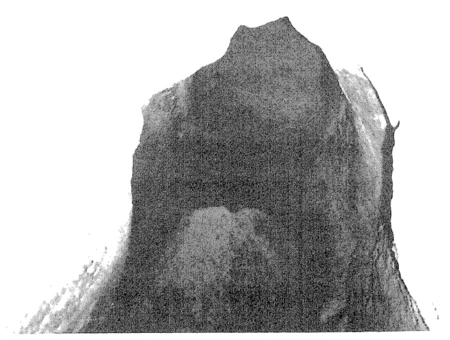
بجوارها فقال تسمى «مغطّية» فقلت له : هذه هضبة واحدة وقد سمعت أن في هذا المكـان هضابًا تسمـى «مغطيَّات» فقال : لا يوجـد في تلك الناحيـة غيرها ولكن بعض الناس يلحقون بها بعض الهضاب المجاورة لها ويقولون «مغطيّات» وسـألتـه عن سبـب التسميـة فقـال : لا أعـرف : كما أفادني عـن بعـض أسماء الهضاب القريبة وإن كنت عرفت أسماء البعض منها في الزيارة السابقة .

تجولنا حول الهضبة وبحثنا عن رس ماء، أو قلتـه من قلات «العامري» وبعد البحث الـدقيق وجـدنا في عـرض الهضبة «قلتـة» مغطاة بصخـور كبيرة لا يعثر عليها إلا من له سابق معرفة بها . انظر صورة هضبة «مغطية» رقم (٣) وصورتي القلته أو الرس رقم (٤) ورقم (٥) .



● منظر : هضبة مغطية من جهة الشرق ●





● منظر لمدخل الرس الموجود في هضبة مغطية ●



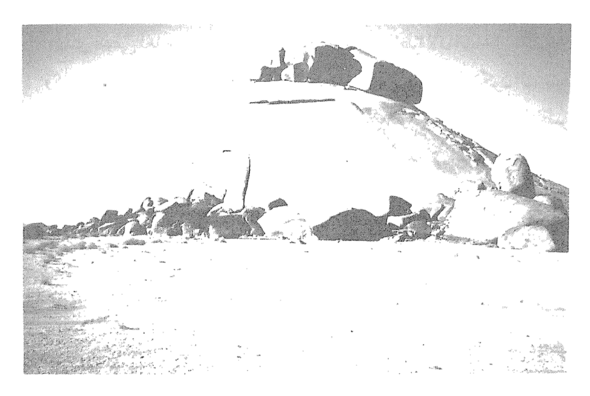
● منظر آخر للرس الموجود في هضبة مغطية ●

وأبدي أسفي لعدم وضوح مقر الماء في داخل الرس نظرًا لأن الداخل معتم .

وكاستنتاج شخصي عن سبب تسمية هذه الهضبة بمغطية فقد تكون التسمية أصلاً لقلتة الماء لأنها مغطاة بالصخور فأطلق الاسم على الهضبة ، والناظر للهضبة من ناحية الشمال تبدو له برأسين كما هو واضح في الصورة وهذا قد يكون سببًا في تسميتها «مغطيات» . وقد يكون غير ذلك .

بعد ذلك اتجهنا إلى هضبة حمراء ملساء يغطي رأسها بعض الصخور الكبيرة ، ويسميها سكان المنطقة «أم قبعة» تبعد عن مغطية أربعة أكيال ، ومع أن هناك بعض الهضبات المتطامنة أقرب إلى مغطية ولكن شكل هذه الهضبة ، وجمالها جعلنا نزورها **أولاً** ، ويوجد قريبًا منها من ناحية الشمال قرية صغيرة اسمها «فيضة الأشعرية» وبتجوالنا حول تلك الهضبة وجدنا في جهتها الشرقية غارًا أرضيًا واسعًا يتسع لأناس كثير مع سيارتهم . ولكي نطلق على هذه الهضبة مسمى «قطاة» لأنها حمراء ملساء فقط لا بد ـ وليس هذا شرطًا ـ أن يكون فيها مجمع ماء حتى يكتمل الوصف .

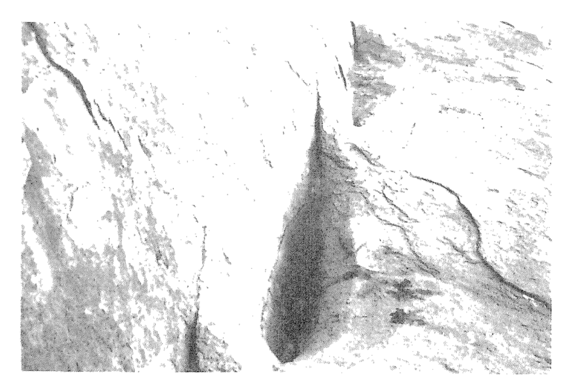
وبالتجوال حولها لم نجد ما يمكن أن يسمى رس ، أو قلتة بالمعنى الصحيح إلا أننا شاهدنا في جهتها الشمالية الملساء منخفضًا في عرضها فصعدنا فوجدنا ردهة واسعة يمكن الجلوس فيها ، وبها «جـبء» كبير عميق وآخر بجانبه ولكنه مدفون بالأتربة . انظر إلى صورتي أم قبعة رقم (٦) ورقم (٧) وصورتي الجبء الموجود في عرضها رقم (٨) ورقم (٩) .



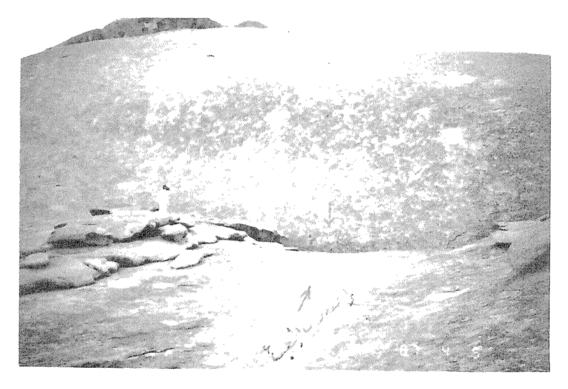
منظر هضبة «أم قبعة» من جهة الجنوب الشرقي



منظر : هضبة أم قبعة من جهة الغرب .



منظر «الجبء» الموجود في عرض هضبة أم قبعة، ويرى آخر عن يمينه، ولكنه مدفون.



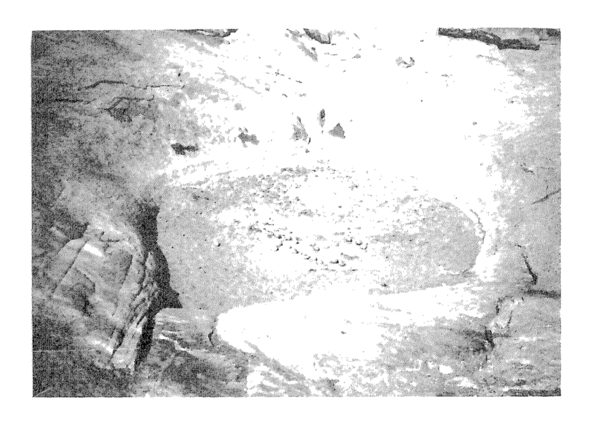
منظر لشمالي هضبة أم قبعة ويرى اتجاه الصعود إلى الجبء

وفي ميل إلى الغرب على بعد ثـلاثة أكيال من هضبة أم قبعة يـوجد هضبتان متجاورتـان ملساوان لم نتعـرف على إسميهما، انظر الصـورة رقم (١٠) ويبـدو جـانب مـن إحدى تلـك الهضبتين، وانظر إلى الحجـر الذي يشبـه الشمبانـزى الرابض في جنوبي تلك الهضبة.



منظر جانب من إحدى الهضاب ومنظر الحجر الرابض أمامها

و على بعد كيلومترين يوجد هضبة ملسـاء اسمها «أم ردهة» يوجد في جهتها الشرقية «قلتـة ماء» كبيرة بالقـرب من أسفلهـا مدورة الشكل كـأنها صحن كبير عميق إلا أن أسفلها مطمـور بالطين، والرمل، وقـد نبت فيها شجيرات شري، وحفر فيها بعض الحيوانات حفرة عميقة مما يدل على كثر الدفان الموجود، انظر إلى صورة هذه القلتة رقم (١١) كأنك ترى صحناً من شوربة العدس، ، وهضبة أم ردهة تقع في وسط الهضاب مما يلي الشرق.



منظر قلتة الماء الكبيرة الموجودة في شرقي هضبة «أم ردهة»

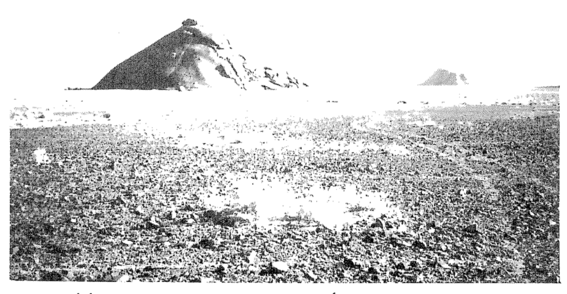
ويقع جنوبًا عن الهضاب المتقاربة هضبتان ملساوان انفردتا مما يلي فريدة شعر الجنوبية يفصل بينهما وبينها واد كبير إحداهما تسمى «أم أصابع» نظرًا لأن فوق قمتها حجارة مرتكزة، والأخرى تسمى «هضبة صنيتان» حيث أفادنا أحد سكان «المغطى» بأن سبب تسميتها أن رجلاً من جماعتهم اسمه صنيتان توفي ودفن عندها فسميت باسمه.

انظر كيف تتغير أسماء الأعلام فكل جيل يسميها باسم خاص به.

وهاتان الهضبتان الملساوان هما آخر الهضاب من ناحية الجنوب ولم يبق جنوبًا من الهضاب الحمر سوى صاحبنا الأقعس، وهو أشهرها، والمسافة بينهما وبينه أربعة أكيال، انظر إلى صورتي هاتين الهضبتين رقم (١٢) ورقم(١٣)



منظر الهضبتين المنفردتين «أم أصابع» اليمنى و «هضبة صنيتان» اليسرى، المنظر مأخوذ من جهة الشرق، وترى فريدة شعر خلفهما.



منظر الهضبتين المنفردتين المنظر مأخوذ من الشمال مما يلي جبل شعر، واليسرى هي أم أصابع.

تجولنا حول الهضبتين المنفردتين لعلنا نجد فيهما مياهًا كبقية الهضاب ولم نجد شيئًا يذكر سوى مجمع ماء في شمال هضبة «أم أصابع» فلكونها ملساء فإن المطر النازل عليها يصب مع منحدر يرى على شكل زاوية يتجمع الماء النازل في السفح، ولكن مقر الماء مدفون والسبب عدم حاجة الناس إلى الماء في وقتنا الحاضر لتوافر وسائل جلبه من الآبار البعيدة والقريبة، انظر الصورة رقم (١٤) علمًا بأنه يوجد شبيه به في نفس الهضبة يسارًا منه، وانظر صورة أم أصابع من بعد رقم (١٥) والصخرات فوقها.



منظر رس ماء في شمالي هضبة «أم أصابع»



منظر هضبة «أم أصابع» وترى الصخرات في قمتها، وهي سبب التسمية

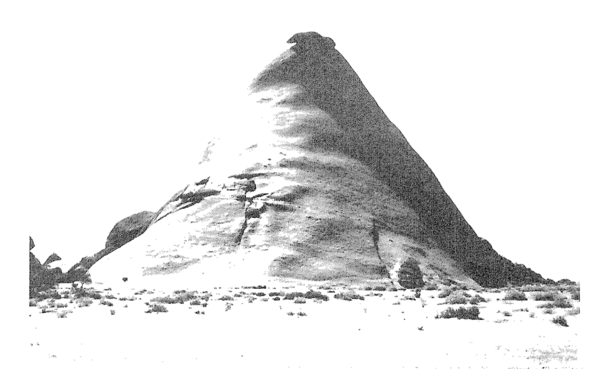
كيف تحولت القطيات إلى خنافس:

لمعرفة هذا التحول العجيب علينا زيارة هذا الأقعس المتخنفس فهو غير بعيد منا الآن . عندما وقفنا عليه تبين أنه عمود من هضب ، وهذا الهضب مكون من ثلاث هضبات صاحبنا أطولها وتلك الهضاب شبه متلاصقة بنظر العين إلا أنه بالإمكان المرور بين عمود الأقعس وهضبتيه الجنوبيتين ، انظر إلى الصورة رقم(١٦) .



●منظر هضبة الأقعس «الخنفسية» ●

ويهمنا كثيرًا معرفة السبب الذي سمي بالخنفسية بدلاً من اسمه القديم الأقعس . أحد الرفقة قال إذا نظرت إليه من جهة الشرق فإنه يشبه الخنفساء ولذلك سمي بهذا الاسم ، ونظرًا إلى أن جميع من سألناهم لا يعرفون سبب التسمية . والذي أميل إليه وقد يكون فيه شيء من الصواب أن سبب التسمية وجود حجر كبير بارز في جهته الغربية قريبًا من القمة يشبه شكل حيوان أو حشرة وأقرب الحشرات المشابهة لهذا الحجر هي «الخنفساء» ولهذا سمي بالخنفسية ومرة يطلق عليه الخنفسيات مع الهضاب التي حوله ، انظر إلى الصورتين رقم (١٧) ورقم (١٨)



●منظر الأقعس من جهة الشرق «الخنفسية» ●



●منظر الأقعس من الغرب وترى الخنفساء قرب القمة ●



●منظر الأقعس من الشمال وترى الخنفساء شبه منعزلة ●

وعلى كل فسبب التسمية الحقيقية ذهب مع من أطلق عليه هذا الاسم الذي لا يتناسب مع جمال منظره، ومنذ أطلق عليه ذلك الاسم الذي يشم منه الرائحة الكريهة كما مر بنا، عندما عرف العرب الخنفساء وهو يسمى الخنفسية.

وأظن أن تلك الرائحة أَجْلَتْ قطياتنا عن أفحوصاتها فأصبحت تلك الهضاب الحمر الملس بدون مسمى فتخنفست أيضًا رغمًا عنها فأطلق على جميع الهضاب الواقعة شمالاً منه «الخنفسيات»، واستمرت تلك التسمية إلى يومنا هذا.

وحتى مؤرخونا المحدثون عندما أرادوا تحديد أسماء ومواقع هضاب تلك المنطقة كان لهذه التسمية أثر مباشر في إبعادهم عن اسمها الحقيقي. ما عدا صاحب الاسمين (الأقعس ـ والخنفسية)، ولعلنا نتساءل كيف لم يهتد كل من

محمد بن بليهد رحمه الله، وسعد بن جنيدل إلى قطيات بدقة فاختار الأول «مغطيات»: واختار الثاني «أم المشاعيب»؟ هذا ما سأتحدث عنه فيما يأتي:

تشابهت الخنافس علينا:

عندما حدد لنا مؤلف (صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار) الخنفسيات قال:

(هي هضاب معروفة لا تبعد عن العرائس، وشعر، وقال الشاعر:

وقالوا: ما تريد؟ فقلت: أرمي جموعاً بالخنافس ذي أثول

وقال آخر:

صبحنا بالخنافس جمع بكر وحيًّا من قضاعة غير ميل)[11]

فهل ما أورده رحمه الله من نصوص شعرية تنطبق على خنافس وضح الحمى؟

قبل أن أجيب على هذا التساؤل لا بد لنا أن نطلع على ما قاله بالنسبة لقطيات، وقد مرَّ بنا ما قاله، ولكن من المفيد هنا إيراد نبذة مما قاله حتى نستطيع الإجابة قال:

(أما قطيات: فهي هضبات حمر معروفة بهذا الاسم إلى يومنا هذا، وهذا اسمها في الجاهلية إلا أنه تغير قليلاً... يقال لها اليوم «مغطيات»... وهناك هضبات بها ماء وقلات بالقرب من ضرية في جهتها الجنوبية يقال لها «مطوي ضرية»، وهناك هضبات حمر في طرف شُعَبى... يقال لها «المطيويات»... والأول أقرب لقطيات.) أقول: إنه رحمه الله قرب كثيرًا من قطيات، وأصاب في نظري إحداهن بسهم، ولكنه غير متأكد حيث صوب على أكثر من قطاة، وعلى كل فهو ولا شك حصارد نصيبه منهن، ووصف قطيات واضح لا لبس فيه،

ولكن نظراً لاختلاط القطا مع الخنافس في المكان نفسه غلبت الخنافس على القطا فطاش السهم إلى حدود العراق .

قد يقول قائل : كيف حصل هذا؟ فأقول :

عندما عرف رحمه الله الخنفسيات أورد البيتين المتقدمين ، ولا أدري كيف استشهد بهما مع أنهما لا يتعلقان بتلك الخنافس ، وإنما يعنيان خنافس أخرى على حدود العراق .

فقد أورد الحموي في معجم البلدان ما يلي :

(الخنافس : أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار من ناحية البَرَدَان ، تقام فيه سوق للعرب ، أوقع عندها بالمسلمين في أيام أبي بكر رضي الله عنه ، وأميرهم من قبل خالد بن الوليد رضي الله عنه ، أبو ليلى بن فدكى فقال :

وقالوا: ما تريد؟ فقلت: أرمي ... جموعًا بالخنافس بالخيول

فدونكم الخيول، فألجموها ... إلى قوم بأسفل ذي أُثول

فلما أن أحسوا ما تولوا ... ولم يغررهُم ضَبحُ الفيُول

وفينا بالخنافس باقياتٌ ... لمهبوذان في جِنح الأصيل

ثم كانت بها وقعة أخرى في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وإمارة المثنى ابن حارثة كبسهم يوم سوقهم وقتلهم وأخذ أموالهم ، فقال المثنى في ذلك :

صبحنا بالخنافس جمع بكر ... وحيًّا من قضاعة غير مِيلِ

بفتيان الوغى من كل حيّ ... تُباري، في الحوادث كل جيل

نسفنا سوقهم، والخيل رُودٌ ... من التطواف والشرب البخيل (١٢))

هـذا النص واضـح في أن البيتين الـذين أوردهما مـؤلـف «صحيح الأخبـار» خاصان بأرض العرب التي بأطراف العراق، مع أنه رحمه الله عندما صحح عجز البيت في الجزء الرابع ذكر أن تلك الخنافس بأطراف العراق(١٣).

وزيادة مني بالتـوثيق فقد رجعت إلى كتب التاريخ، وإليـك هذا النص من كتاب (الكامل) في التاريخ، لابن الأثير قال:

(ذكر خبر الخنافس، وسوق بغداد): (وجاء إلى المثنى رجلان أحدهما أنباري فدله على سوق الخنافس، والثـاني حيري، دله على بغداد فقال المثنى: أيهما قبل صاحبتها؟ فقـالا: بينهما مسيرة أيام. قال: أيهما أعجل؟ قالا: سـوق الخنافس يجتمع بها تجار مـدائن كسرى، والسواد، وربيعـة، وقضاعـة يخفرونهم، فـركب المثنى وأغار على الخنـافس يوم سوقهـا، وبها خيلان من ربيعة وقضـاعة، وعلى قضاعة رومانـس بن وبرة، وعلى ربيعة السليل بن قيس وهـم الخفراء، فانتهب السوق وما فيها، وسلب الخفراء(١٤) الخ).

وقد أورد شارح الكتاب الأبيات المتقدمة للمثنى «رحمه الله».

ومن ذلـك يتضح أن الشواهـد التاريخية والنصوص الشعـرية القديمـة كلها تتعلق بالخنافـس التي بأطراف العراق، أما خنافس حمى ضريـة والرابضة شرقي جبل شعر فتسميتها محدثة ولم أجد بشأنها نصوصًا نثرية أو شعرية.

(مدى انطباق ما جاء بالنصوص القديمة على قطيات بعد عودتها)

إذا ألقيت نظـرة على الخارطة السـابقة الموضـح عليها تلـك الأعلام التـي مر ذكرها وطبقت عليها جميع النصوص القديمة فلن يكون هناك ـ في نظري ـ أدنى شـك فيها تـوصلـت إليـه غير أنني أحـب أن أستظهـر مـا ورد في بعـض تلـك النصـوص لأوفـق بين واقـع الأمـر وتلك النصـوص، وهـذا ولا شـك اجتهـاد شخصي قد أخطـئ فيه أو أصيـب، وأرجو أن أوفق للصـواب، أما إذا جـانبني

الصواب فقد يُخالـف من يحاول فيها بعد أن يستظهر تلك النصـوص حتى نكون على حقيقة من الأمر واضحة :

النص الأول :

رُوي بيت أمريءُ القيس مرة بصيغـة الجمع (أصاب قطيات فسـال اللوى له . . .) ومـرة روي بالتثنيـة : (أصاب قطيـات فسال لـواهما . .)، وروى ثالثـة بالتثنية أيضًا (أصاب قطاتين فسال لواهما . . .).

فهل هـي قطاتـان أم قَطَيَات؟ أقـول : أرجح أنهما مجمـوعة قَطَيَـات ، ولكن تنوعت الروايات . فكثيرًا ما تروى النصوص الشعرية بصيغ مختلفة مع الاحتفاظ بالمعنى ، ولا أجد مخرجًـا في الحالة التي أمامنا إلا أن من رواه بـالتثنية قصد اثنين من قطيـّات ، وهما الهضبتان الجنوبيتان المواليتـان للأقعس لانفرادهما عـن بقية أخواتها ، إضافة إلى قربهما من منعطف الوادي الفاصل بين قطيات وجبل شعر، ويسمى في الوقت الحاضر «وادي الخنقة» ولا أستبعـد أن اسمه القديم (اللوى) وإن كنت أعـرف أن المقصود باللوى طـرف الرمل وهـو طرف (عريق الـدسم) ولكن استنتـاجًا من قـول امرئ القيس أسال قطيـات فسال لواهما) هـذا القول يوحي بـأن العبلة التي تقع فيها قطيـات لما نزل عليها المطر سـال منها الوادي ، ومن جبل شعر الـواقع عنها غربًا أيضًا وهذا الوادي هـو وادي اللوى الواقع بين قطيات وشعر، كما جرى من هذا المطـر النازل وادي البديّ فكلا الواديين سالا ، أما أن يسيل نفـود الرمل بمعنى يجري معـه الماء فهذا أمر مستبعد خصـوصًا إذا عرفنا أن اللوى وهـو الرمل بعيد عن قطيات ويفصل بينهما جبـل شعر الطويل العريـض ، مع أن خيال الشـاعر لا يعترف بالمسافـات ، مع أنني لـو أعثر على الاسم القديم لوادي الخنقة هذا في المعاجم القديمة ، والحديثة إلا إذا كان يحمل اسمًا غير هـذا . وهذا الـوادي ينعرج أمـام تلـك القطاتين فهـو ملتو أو منعـرج

الوادي، وعلى كل فرواية الجمع أعم سواء ما ورد من النصوص شعرًا أم نثرًا.

النص الثاني والثالث : مما تقدم اتضح أن قطيات هضاب حمر ملس متجاورات ينظر بعضهن إلى بعض، ويوجد بها مجمعات مياه على شكل رسوس، أو قلات كما هو واضح من الصور الفوتوغرافية، وقد يتبين لمن يتقصى، مجمعات مياه أكثر مما ذكرت.

النص الرابع : كما ذكر الهجري رحمه الله : فإنها مع الأقعس في أعلى الوضح تحده من الغرب، وهذا فعلاً واقع الأمر.

النص الخامس : أنها محاذية لغرب النير، ودغانين، وهكذا بالفعل الأقعس وقطياته.

النص السادس : أيمنها من مهب الجنوب، وأيسرها من مهب الصَّبَا، وكل هذا متقارب ينظر بعضه إلى بعض.

أقول إن من يصفها هذا الوصف قد يكون وصفها وهو مقيم في العراق : فإذا كان الأمر كذلك فإن قطيات بدايتها من الجنوب، ثم تتجه شمالاً، ثم تأخذ باتجاه مطلع الشمس : وهو مهب الصَّبا ويتضح ذلك من زيارتها أو إلقاء نظرة على الخارطة.

النص السابع : أنها تناوح هضب العرائس، وعمود من الهضب يقال له الأقعس، إلى جنب أجبل سود عظام يقال لهن كبشات، وكل تلك الأعلام في وضح الحمى.

وهذا واضح لا غبار عليه.

النص الثامن : وجود ماءين لبني أبي بكر بن كلاب هما : الشطون، وحفيرة خالد يقعان بين الأقعس، وقطيات، وأحد هذين الماءين وهو الشطون في ناحية شعر.

وهذا الوصف دقيق يدلنا على قطيات حيث إن ماء الشطون هو ما يسمى اليوم بالأشعرية وقد أثبت هذا أستاذنا سعد بن جنيدل، ويقع فعلاً بين الأقعس، وقطيات إلا أنه داخل قليلاً في واد داخل جبل شعر.

أما حفيرة خالد فلا أعرف أين تقع، وقد تكون إحدى المياه المجاورة، أو أنها الآن سدوم فلا تعرف في وقتنا الحاضر، وهذا دليل واضح على أن هضب أم المشاعيب ليس بهضاب قطيات إذ كيف يقع ماء الشطون «الأشعرية» بين الأقعس وبين أم المشاعيب وهو في جوف جبل شعر؟!! فألق نظرة على موقع الأقعس، وأم المشاعيب والأشعرية، هل يمكن هذا؟!!.

«كلمة أخيرة موجهة إلى الجمعية الجغرافية بجامعة الملك سعود بالرياض»

لا أعرف عن نشاط تلك الجمعية شيئًا وهذا بلا شك قصور مني، وكل ما أعرفه عن هذه الجمعية ما سبق أن قرأته لرائد من رواد هذا المجال، وفارس من فرسانه هو الأستاذ عبد الله بن محمد بن خميس في كتابه «محاضرات وبحوث» تحت عنوان ـ جغرافية بلادنا لا تزال مجهولة ـ.

حيث قال معلقًا آمالاً كبيرة على هذه الجمعية:

(لقد استقبلنا هذه الأيام مولد الجمعية الجغرافية في جامعة الرياض، واستمعنا في ندوة مولدها الشيقة من أفواه أسرتها دكاترة، وأساتذة، وطلابًا ما هو خليق بمثلها . . . وجغرافية بلادنا رغم الأشواط التي قطعناها في التعليم، ورغم الكشوف المتتالية، وأماكن الزراعة والمياه . . . رغم ذلك لا تزال جغرافيتها متأبدة، وكثير من جوانبها مغلقة . . . ولا يزال العالم ـ بله المتعلم ـ أمام مجاهلها، ومعاقلها خالي الذهن متبلد المعرفة . . . ولا تزال أمية الأعرابي المتمكنة، هي ذات الاختصاص في معرفة طرقها، ومعالمها، وأعلامها،

ونباتاتها، وحيواناتها، ومناهلها، ومجاهلها . . .

واستطرد أستاذنا عبـد الله قائلاً: ولدينا رصيد جم من المؤلفـات عن جغرافية بلادنـا منذ بدء عصر التدويـن إلى هذا العهد لـرجال بروا، وأبروا، وأعطـوا من أنفسهم ما تقتضيـه الوطنية، ويقضي به حـق العلم. فوضعوا المعـاجم، ودونوا الرحلات، ووصفوا الديار، وتحدثوا عن السير والأخبار.

فكانت مؤلفاتهم مزيجًا من الاجتماع، والأدب، واللغة، والتاريخ، والجغرافيا . . . فأحرى بنا أن نبدأ من حيث انتهـى سلفنا، وأن نجعل مؤلفاتهم أساسًا لما سوف نبني، ومنطلقًا لما سوف ندون.

فعلى جمعيتنا الجغرافية النـاشئة عبء ثقيل وأمامها طريق طـويل ولها رسالة شاقة متعبة . . . ولكن نفوسها كبيرة، وعزائمها المستحصدة ونفاسة ما تطلب سوف تكون عونًا على تذليل الصعـاب، وترويض النافر، وكسب الانتصار) انتهى

وأملي أن يكون تحقق لهذا الرائد المتكلم بعض ما أمله في هذه الجمعية، وأنها سائرة على الخط الذي رسمته لنفسها.

فحري بعـزيمة الشبـاب أن تحقق ما أملـه الآباء في أبنائهـم، فالشبـاب هم القـادرون بحول الله وقـوته بـإكمال ما بـدأه هؤلاء الآبـاء في شتى المجـالات، خاصة وأن هؤلاء الآبـاء أجهدوا أنفسهم بإخراج ما انطمر مـن وسائل المعرفة في مجالنا الـذي نتحدث عنـه إلى حيز الوجـود فأصبـح في متناول البـاحثين من الناشئة.

خاصة وأن الوسائل متوافرة، والطرق معبدة فالحجة قائمة.

ولعلها فرصة أمـام الجمعية الجغرافية أن تدرس مثل هـذه الأمور وتقرر ما تراه الأصوب خصوصًا وأنه بين ظهرانينا رواد خدموا هذا الجانب من العلوم،

وألفوا فيه المعاجم المطولة، والبحوث المستفيضة، ولهم حاسة قوية لا تتوافر لغيرهم مثلي، فحري بنا أن نستفيد من هذه الخبرات التي أعطت الكثير ولا زالت تعطي.

● ● ●

الهوامش

(١) أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع ص ٢٤٧.
(٢) صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ص ٢ ص ٨١/ ١.
(٣) المعجم الجغرافي / عالية نجد ص ١٦٤ ـ ١٦٩/ ١.
(٤) كتاب المجاز بين اليمامة والحجاز ص (١٣٠).
(٥) أبو علي الهجري وأبحاثه ص ٢٦٦.
(٦) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٣٩٥.
(٧) معجم البلدان / للحموي ص ٣٧٠/ ٤.
(٨) معجم البلدان / للحموي ص ٣٧٦/ ٤.
(٩) أبو علي الهجري وأبحاثه ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.
(١٠) بلاد العرب / للأصفهاني ص ١٥٧ ـ ١٦١.
(١١) صحيح الأخبار ص ١٦٢/ ٢.
(١٢) معجم البلدان، للحموي ص ٣٩١/ ٢.
(١٣) صحيح الأخبار ط ٢ ص ٤٤/ ٤.
(١٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ص ٣١٦/ ٢.

الشعر النبطي تسميته وبناؤه

د. محمد الباتل

يحاول هذا البحث تسليط الضوء على سبب تسمية (الشعر النبطي) بهذا الاسم، ومتى بدأت بذور هذه التسمية، وتلمس تأثر هذا الشعر بالشعر (الفصيح) في البداية والخاتمة ، وبعض جوانب لزوم ما لا يلزم .

١ ـ من هم النبط؟ :

من معاني (نبَطَ) في اللغـة : نبع الماء ، والحيوان الأنبط : مختلـط الألوان من بياض وسواد [١] وهذا يعني أن النبـط من الناس سمّوا بـذلك باسم صنـاعتهم بالزراعة والمياه[٢] وقيل نسبـة إلى أبيهم نابـط (نابت) بـن إسماعيل [٣]، أو إلى نبيط بن باسور بـن سام بن نوح[٤] وقيل : «هم أهـل بابل من العـراق في الزمن القـديم . . . قـال ابن الكلبـي : من بنـي نبيـط بن مـاس بن إرم بـن سام بـن نوح ، قال ابن سعيد هم من بني أشور بـن سام بن نوح» ولما كان أرباب الزراعة حاضرة ، ومن عـادة المتحضرين عدم التحفّظ العـرقي في الزواج[٦]، فإنه ينبني على ذلك غالبـا اختلاط ألوانهم ، وهو الشقّ الثاني مـن المعنى اللغوي . على أن هناك مواضع باسـم (النبط والنبطاء) ، ووادي النبط[٧] وهذا الوادي قريب من ديار ثمود ، وقد قال بعـض الأسلاف : إن النبط من ثمود[٨] ولا يخفى أن هذا التوجيه قائم على أن نبط وادي موسى في غـرب الجزيرة يلتقون مع نبط العراق ، وهنـاك من يفـرّق بينهم . وبعضهـم يجعل النبـط من البـابليين ثم الكلـدانيين والسريانيين[٩] ، ويـرى الطبري : أن النبـط اختلطـوا مـع العـرب ضـدّ بختنصر[١٠] ، وقيل اختلطوا بهم قبل ذلك حين وجـد العرب الأرمانيين (النبط) يقاتلـون الأردوانيين (ملوك الطوائف) ، فناصر العـرب النبط[١١] . وثمود عرب يتكلمون العربية ، وبُعث لهم نبي عربي[١٢] وبقاياهم ذابت بين القبائل العربية قيل : إن منهم ثقيفا ، وقـد نفى ذلك الحجاج بن يوسف الثقفـي مستدلا بالآية (٥١) من سورة النجم « وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ »[١٣] ولكن الحجاج نسي أو تناسى قوله تعالى : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ » من سـورة فصلت : آيـة ١٧ ، و١٨ ، كما قيل : إن معظم القبـائل العربيـة من نسل نـابت

(نابط) السابق، وأخيه قيدر[١٤] . ويظهر أن العرب يعرفون نبطا كثيرين وإنما خصّوا نبط العراق بالذكر دون غيرهم لأنهم يمثّلون الأكثرية منهم، يدلّك على ذلك ما ورد من أن تجار النبط هم الذين أشعروا المسلمين باستعداد الروم لغزو المسلمين مما سبّب غزوة تبوك[١٥] وذلك النبطي الشامي الذي حمل الرسالة إلى كعب بن مالك رضي الله عنه في قصّة الثلاثة الذين تخلّفوا عن الرسول ﷺ[١٦]، وفي حديث ابن أبي أوفى «كنا نسلف نبيط أهل الشام»[١٧]، وكما كانوا موجودين في العراق والشام، كانوا موجودين أيضا، في الحيرة[١٨]، ودومة الجندل[١٩]، وفي المدينة المنورة كما سبق، كذلك ورد أن النبط شاركوا في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه[٢٠]، كما ورد من تحدي نبطي مدني للفرزدق بهجائه[٢١]. كذلك رووا أن معاوية جلب طائفة من النبط للزراعة باليمامة، استعبدهم بنو عُقيل عندما اختلّ الأمن. وقد ذكروا أن أمّ سلمة بن هشام بن العاص نبطية من دومة الجندل[٢٢]، كما ذكروا أن أم أبي عمرو السيباني الراوية المشهور (ت ٢٠٦هـ على الخلاف) نبطية. كما قيل: إن قريشا من نبط (كوثَى)[٢٣] على أن كلمة (نَبَطِيٌّ) قد مرّت بأطوار لغوية مختلفة، فالأعشى حينما سبّ إيادا العربية التي هاجرت للعراق وعملت بيوتا ذات أبواب تُقفل، وزراعات تُحصد، قد انسلخت من عروبتها وأصبحت نبطية[٢٤]، وسعد بن أبي وقاص «أعرابي في حبوته، نبطي في جبوته»، وعمر بن الخطاب يحذّر: لا تنبطوا بالمدائن. وأيوب بن القِرِيَّة يقول: «أهل عُمان عرب استنبطوا، وأهل البحرين نبيط استعربوا[٢٥]، فكلمة نبط هنا تكاد ترادف الزراعة والتجارة والحِرَف، وهذا يعني أن من انسلخ من قبيلته العربية لسبب من الأسباب، وذاب في المجتمعات المتحضّرة، ينتهي به الأمر، فيما يظهر، إلى النبط، كما ينتهي إلى ذلك تلك العناصر المستعربة المهاجرة إلى المنطقة من غير العرب.

والمتحضّرون بسبب إقامتهم على أموالهم أصبحوا فريسة سهلة للقبائل البدوية التي تضرب وتهرب، فهم أذلاء حتى أن كلمة نبطي أصبحت سبّة تستدعي رفعها للقاضي(٢٦)، ولما قال ابن أبي دُؤاد لابن الزيات: أُضْوي: أي: أُسكت بالنبطية، قال الأخير لماذا؟ والله ما أنابنبطي ولا بدَعِيٍّ(٢٧)بل أنف منها الفارسي أبو العتاهية حينما قال له جزّار يا نبطي، قائلا: إن كنت نبطيا هربت على وجهي(٢٨)، وبلغ الأمر بهم إلى حدّ أن الحجاج بن يوسف كان يضع عليهم علامة تميّزهم عن غيرهم (٢٩)، ويطفح الشعر العربي القديم بنظرة الازدراء إليهم، ولعل هذا من أسباب اشتراكهم في الثورات (٣٠) ويخلص إسرائيل ولفنسون بقوله: إن جهود المستشرقين في البحث عن موطن النبط الأول ذهبت دون جدوى، وإن أعلامهم وأوثانهم ولغتهم فيها الكثير من العربية، وبعضهم يقول هم أعراب يستعملون الآرامية، ويُرجّحُ أنهم آرام وعرب اختلطوا، ويقول: إن العرب خلطوا بين النبط والأنباط(٣١). وهذا يعني أنه ممن يفرّق بينهم.

٢ ـ النبط واللغة:

ذكر الجاحظ أن نبط العراق لا ينطقون بعض الحروف العربية نطقا صحيحا، بل يبدلونها، فالحاء: هاء، والعين همزة، والزاي سينا وليس عندهم ظاء حيث تنطق طاء، كما ذكر أنهم يخطئون في قواعد الصرف العربي فيقولون (تَلَد) بفتح اللام بدلا من كسرها(٣٢). وقال: «قد يتكلم المغلاق [أي النبطي الذي يستعصى عليه الكلام] الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة، ويكون لفظه مُتَخَيَّراً فاخرا، ومعناه شريفا كريما، ويعلم مع ذلك السّامع لكلامه، ومخارج حروفه، أنه نبطي»(٣٣).

وأورد الأصفهاني عن إسحاق الموصلي قوله:

«ذَهَبْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي»

وأنت تعلم أنه لا يجوز في غنـائك إلا أن تقول: ذهبوا، بالـواو، فإن قلت: ذَهَبْتُ، ولم تمدّها انقطـع اللحن والشعر، وإن مددتها قَبُحَ الكلام، وصار على كلام النبط، فبلغ ذلـك إبراهيم بن المهدي، فقال لناقِلِـهِ بعد أن غضِب: هذا من كـلام الجرمقاني . . . قـُل له عنـيِّ: أنتم تصنعـون هذا للبضـاعة، ونحـن نصنعه للهو واللعب والعبث، قال: [أي الناقل] فخرجت إلى إسحاق فحدّثْته بـذلـك. فقـال الجرمقـاني منـا أشبهنـا بـالجرامقـة لغـةً، وهـو الـذي يقـول: ذهبت. . »(٣٤). وهـذا يعنـي أن الجرامقـة وهم مستعـربـون مـن العجـم على الأرجح(٣٥)، لغتهم العربية ليست بتلك عنـدهم. ويذكر المؤرخون أن الحجاج ابن يوسـف حينما انتصر على جيش عبد الرحمن بن الأشعـث، ألحق فلول هذا الجيش مع أبنائهم بقرى الأنباط، فخبثَتْ لغات هؤلاء الأبناء(٣٦). كما ذكروا أن أبا عمـرو بن العلاء طعن في فصـاحة الطِّرِمَّاح؛ لأنه رآه بسواد الكوفـة يكتب ألفاظ النبـط، فلما سُئل عن ذلـك قال: أُعْرِبها وأُدخلهـا في شعري»(٣٧). ولما كانـت الأم أهم مـؤثر لغوي، فـإننا نرى الفـرزدق (ت. ١١٠هـ) لما عـاب عليه عنبسة بن معدان الفيل قوله:

«عَلَى زَوَاحِفَ تزجى مخّها رِير»

قال الفرزدق: وما يدري ابن النبطية (٣٨). وكذلك فعل أبو زيد الأنصاري في خلافـه مع أبي عمرو الشيبـاني حول كلمـة (محزرق كما يقول الأول، أو محرزق كما يقول الثاني) وصف ادعاء أبي عمرو بأنه تحريف نبطي؛ لأن أمه نبطية (٣٩). وقبلَ هؤلاء نقلوا أن أبـا هريرة رضي الله عنه كان يكلّم صبيانه بـالنبطية. كذلك لحّنوا مالك بن أنس رحمه الله بقوله: مُطِرْنا البارحة مطرا أيَّ مَطَرا» واعتُذرَ له بأنه

يُخاطب العامّة بلغتهم [٤١]. إذن كل انحراف في اللسان العربي عن اللغة الفصيحة سواء أكان في مدّ صوت لا ينبغي أن يمدّ كما في قصة إسحاق الموصلي، وطرح الحركات المستحقّة من أواخر الكلمات إذا فسرنا قول الطِّرِمَّاح : (أُعربها) على أنه يعني الإعراب لا الترجمة كما سيأتي، وإبدال بعض الحروف صبحان الله، مثلا، مكان سبحان، والاخلال الصرفي تلَد بفتح اللام بدلا من كسرها، ومحرزق بد من محزرق، أو مخالفة أساليب العرب، كل ذلك يجعل الكلام من كلام النبط منذ القرن الأول تقريبا. والسبب، في نظري يرجع إلى اعتقاد القائمين على العربية أن المستعربين من غير العرب هم أهم أسباب فساد اللسان العربي، بدليل قول عامر الشعبي لما مر على جماعة من الموالي يتعلمون اللسان العربي: إنكم إن أصلحتموه، فإنكم لأول من أفسده [٤٢]. وخصّ النبط بذلك أكثر من غيرهم كالجرامقة الذين سبق ذكرهم مثلا، لكون النبط أكثر وأشهر في بيئة العراق اللغوية صاحبة هذا الاصطلاح، وقيل استنبط بمعنى استحدث[٤٣]. والأول أرجح عندي.

بقي سؤال مهم: هل هؤلاء النبط العرب الذين فسدت لغتهم، أو قُل تطوّرت أكثر بسبب تحضّرهم، وامتزاجهم بمستعربين من أجناس مختلفة، هل هؤلاء جميعا يتكلّمون لغة أخرى غير العربية، أثّرت على عربيتهم؟ لو وجّهنا كلمة الطِّرمّاح السابقة (أُعربها) بمعنى أنقلها من لغتها الأعجمية إلى العربية، وهذا هو ظاهر صنيع ابن الوحشية حينما نقل كتاب الفلاحة المشهور من النبطية إلى العربية[٤٤]، كما هو ظاهر قول القرطاجنّي أبي حازم (ت ٦٨٤هـ):

كمَا رَاطَنَ الزِّنْج النّبيطَ أو القِبطَا[٤٥]. ولا يفوتك أن لغات هؤلاء مختلفة فكيف يتراطنون إلاّ عن طريق التعلّم، ومثله: كالتَّرْجُمانِ لَقِي الأنباطَا [٤٦] لكن

يغلب على الظن أنه يوجد بين هؤلاء المشتغلين بأعمال الحضارة عرب قد انسلخوا عن قبائلهم لسبب أو لآخر، كما يوجد بينهم موالٍ قد انقطعت أجيالهم عن لغة الآباء الأصلية، ثم إنه، فيما يظهر، قد غلب اسم (النبط) حتى على المستعربين من الأعاجم المختلفين، وذلك لكثرة المزارعين في العراق، ممن أطلق على جنسهم اسم (النبط) من ناحية، ولأن من معاني كلمة (نبط) اختلاط الألوان، ومجتمع هؤلاء المتحضرين الحرفيين مختلط من عرب ومستعمربين مختلفي الدِّماء. أما كون النبط كانت لهم لغة قائمة ترجم عنها الكتاب المذكور، فيمكن حمله على أن المقصود جنس أعجمي منهم في القديم، مع جهل حال العربية في ذلك الوقت بُعدا وقُربا من هذه اللغة (٤٧)، على ألا ننسى أن هناك نبطا في الشام، وفي المدينة وغيرهما، وهؤلاء النبط جميعا لا تتطابق لهجتهم بالضرورة، إذ كل فريق يتأثر بلغة مدينته العربية (٤٨)، وخلاصة الأمر أن العربية المخلّة بقواعد التصريف والإعراب هي كلام النبط من ذلك العهد، صحيح أنها تسمية توحي بالاحتقار التاريخي، صادرة من المشتغلين بالعربية الفصحى، ولكن التسميات لا تستقر بالحُسن، وإنما بالتعارف والثبات. ولا شك أن هذا الشعر النبطي يشارك ذلك الكلام في تلك الصفات، حتى اشتهر بهذا الاسم الذي يعتقد الحاتم أنه لم يُعرف به إلا قبل ستمائة عام تقريبا، مستدلاّ على ذلك بأن ابن خلدون قد بحثه، دون أن يذكره بهذه التسمية، كما يعتقد الحاتم، ويوافقه خالد الفرج أن منشأ هذا الشعر من العراق ومشارف الشام، ثم عمّ الخليج ونجدا؛ لأن النبط عرفوا ببطائح البصرة أكثر (٤٩)، ولأن الحواضر والتجمعات السكانية الأكثر ازدحاما، أسرع تطوّرا في اللغة من غيرها، بسبب كثرة الاختلاط. وعلى أي حال فقد سار الخلف على أثر السلف في هذه التسمية، يقول عبد الله آل عبد القادر الأحسائي:

كـــلاَّ وَلاَ النَّبَط الـَّذِي يَعْتَـــاده أمثـالهُ في هـــــذه الأزمــــان (٥٠)

ويقول أبو حمزة العامري من شعراء النبط في القرن التاسع والعاشر الهجري :

كالدُّرِّ إلاَّ أنَّها نبَـــطِيّـــــةٌ تَحْلَـــى عَلَى التّكـريرِ والتّرْدِيدا (٥١)

٣ـ بناء القصيدة النبطية :

من البدايات المألوفة في الشعر النبطي أن يبـدأ بذكر الله وتمجيده، خاصة إذا كان الشعـر في عرض الشكـوى، وطلب العـون، والأمثلة على ذلـك كثيرة منها مطلع قصيدة العوني :

يـَا الله يـَا وَالي عَلَـــى كـــلِّ وَالي يـَا خيرٌ يـــدْعَى لِكَشـفِ الجلِيْلـــهِ(٥٢)

وأحيانا يبدأ الشاعر النبطـي شعره بقوله : يقول فلان الفـلاني، وغالبا يكون ذلك في مجال الفخر:

قَال الشّرِيـف بـــن هـــاشم عَلِي تَرَى كَبـْدِي حرّى شكَتْ مـن زفيرَها(٥٣)

و تقول فتاة الحَي سِعْدَى وهاضَها لَـــهَا في ضعـُون الباكيـن عـَوِيـل (٥٤)

أما النهاية فتكـون، إلا ما ندر ، بالصلاة والتسليم على النبـي وآله . ويظهر أن هذه الظاهرة لا تخصّ الشعـر النبطي، وإنما هي عامّة للأشعـار العربية غير الفصيحة يقـول العقيلي عن نـوع من الشعـر في جازان: «ويفتتـح . . . غالبـا بـالابتهال والاستغفـار والتضرّع وطلب المثـوبة. . . حتـى لتكاد تكـون قاعـدة مطّردة. . . لا في منطقتنا خاصة، بل في أغلب هذا النوع من الشعر في جزيرتنا العربية»(٥٥) ويقـول أحمد رشدي صـالح مـن مصر: «فبـالإضافـة إلى البدايـة

والخاتمة التقليديتين، واللتين كثيرا ما تكونان حمداً لله وصلاة على النبي . . »[٥٦]. وقد تساءل العقيلي قائلا: «فهل لهذه الظاهرة جذور بعيدة في أعماق التاريخ قبل الإسلام في وقت كان الشعر يُرتَّل في المعابد الوثنية . . . ؟»[٥٧]. الذي لا شك فيه أنها بصيغتها الحالية إسلامية، ومن الملاحظ أنهم يخصون هذه الظاهرة بالأشعار الجادة، سواء في الشعر الفصيح أو في رديفه (النبطي) وهذا تأثير إسلامي بحت، كما أنه من البدهيات افتتاح أبي الأغلب العجْلي أرجوزته بقوله:

الحَمْدُ للهِ العَليِّ الأجْلَلِ   أَنْتَ مَلِيكُ النَّاس رَبًّا فاقْبَلِ

كما يشيع هذا الافتتاح والاختتام في النظم العلمي في وقت مبكر، كما يلاحظ عند ابن عبد ربّه (ت٣٢٨):

باللهِ نَبْدَا وَبِهِ التَّمامُ   وَباسْمِهِ يُفْتَتَحُ الكَلَامُ . . . ثم يختمها بالحمد لة والدعاء[٥٩].

وابن مالك (ت ٦٧٢) يبدأ ألفيته المشهورة بقوله:

قَالَ مُحَمَّدٌ هُو ابْنُ مَالِكِ   أَحْمَدُ رَبِّي اللهَ خَيْرَ مَالِكِ

ويختمها بقوله:

فأَحْمَدُ اللهَ مُصَلِّيًا عَلَى   مُحَمَّدٍ خَيرِ نَبِيٍّ أُرْسِلَا

وَآلِهِ الغُرِّ الكِرَامِ البَرَرَهْ   وَصَحْبِهِ المنتَخَبِين الخِيَرَهْ

ومثل ذلك كثير، كقول محمد بن علي المحلِّي (ت ٦٧٣هـ):

يَقُولُ رَاجِي رَحْمَةِ اللهِ العَلِي   مُحَمَّدٌ نَجْلُ المَحَلِّيِّ عَلِي[٦٠]

فهما قد افتتحا بذكر القائل، والثناء على الله في وقت واحد، ويكون الختام بالصلاة على رسول الله وآله، والذي يُقَوِّي أن هذه الظاهرة إسلامية وجودها في الشعر الإسلامي غير العربي كالتركي مثلا.

وذكْرُ الألفية يُذَكِّر بمقارنة بين الألفية في الفصحى كألفية ابن مالك السابقة وقبلها ألفية ابن معط، ويعنون بها ألف بيت، وبين الألفيات في الشعر النبطي، ويعنون بها بناء القصيدة على (أ، ب، ت... الخ) أي على حروف المعجم، اشتقّوا اسمها من حرف الألف الذي يبدأون به، وقد أورد المقارن عدداً من الألفيات مثل ألفية العوني:

أَلْفٍ مَنْ حَلَى مَا يَقَرَّا بَيْنَ الكَيَاتِبْ والصَّيَارِفْ يِقَرَّا

وغير العوني [٦١] وما يجب التنبيه عليه في هذه المقارنة قوله: «حيث ابتدع [الضمير يعود على الشاعر العامي كما سمّاه] بناء القصيدة مرتبة على الحروف الهجائية مبتدء بحرف الألف حتى حرف الياء..»[٦٢]، والحقيقة أن شعراء الفصحى هم الذين ابتدعوا ذلك في العصور الوسطى حينما شاع التزام ما لا يلزم بصوره المختلفة، يقول أبو عبد الله بن عمران:

أَلِفٌ أيا خَيْرَ البَرِيّةِ هَذِي مِدَحي وَمَا أَنَا في مَقَامي هاذِي

باءٌ بِهَا أَظْهَرْتُ صِدْقَ مَحَبَّتي وبِذلك الجَاهِ الكَرِيمِ لِيَاذِي

ويستمر مخصِّصاً كل حرف من حروف المعجم ببيت من الشعر على هذا النمط حتى ختمها بالصلاة على النبي [٦٣]، وهي بإفرادها بيتا واحدا لكل حرف تشبه بعض الألفيات النبطية، مثل ألفية محسن الهزّاني:

أَلْفٍ : وليفَ الرُّوح قَبْلَ أمْسِ زرْتَاهْ غِرْوٍ يسلِّي عَنْ جَمِيعَ المَعَانِي

والبا : بقَلْبي شَيَّدَ الـقَصْـــرِ مبنـاه   وَادْعَى مِبَانِي غِيْرِهُم مِرْمَهَانِي . . الخ[٦٤]

وقد نوّع شعـراء الفصحى القوافي، كـأن يبدأ بالألـف ويجعلها القافيـة أيضا للثلاثة الأشطـر الأولى، مع التزام قافية عـامّة في الشطرين بعـدها، على اعتبار كل حرف يبنى عليـه خمسة أشطر ثم يأتي بالباء على النمـط نفسه، وهكذا حتى آخر حـرف، كما فعل مالـك بن المرحّل المالقي[٦٥] وقـد يفعلون الشيء نفسـه بتخصيص أربعة أشطر تكون قافية لكل حـرف يُبدأ به، يتلوها شطران يلتزمان القافية العامة حتـى آخر حرف، وهو ما يسمى بالتسديـس، كما فعل محمد بن العفيف الحسني[٦٦]. ومن الملاحظ أن الألفيـات النبطية التي ذكرهـا صاحب المقـارنة تتلخـص في إفـراد كل بيـت لحرف، أو لكـل حـرف بيتان، أي أربعـة أشطر، تتغير قافية الثلاثة الأولى في كل حـرف بقافية داخلية خاصة، ويلتزم في الشطر الـرابع القـافية العامـة. وفي ألفية ابن عمار خُصّـص لكل حـرف أربعة أبيات، كل بيتين يشتركان في قافية داخلية خاصة للثلاثة الأشطر منها، ويأخذ الشطر الرابع لهما القافية العامة للقصيدة[٦٧]. على أن هناك ألفية نبطية شائعة لم يذكرها، مطلعها :

أَلـفٍ : أَوَلـفْ مِنْ غـَريـبَ الفُنـُونِ   مِـنْ حُـبِّ بِيْضَ امـْدَعَجَّـاتَ العيـُونِ

مـا هُوَ هـَوَى لِّي يـامـلاَ واعـْذرُوني   بَلـْوَّى عَسَـى مـَا يبتَلِي اللهَ الاجـْـــوَادْ

أَنَا انْ بَلُـــــونَ العَذَارَى فَنـَـا اللِّي   آخِـذْ منَ القِّيفـَـانْ وانْقـَـــــى وخَـلِّي

يَامنْ لـِه الشَّـــكْوَى دُمـوعِي تِهِلِّي   طُـــــولَ اللَّيالي مــــا تَهَنِّيتِ بـأرْقَادْ .

ويستمر على ذلك ، وهـي على نمط ألفية ابن عمار كما تـرى. وعلى أي حال فشعراء النبط في ألفياتهم، مسبوقون، ثم هم في التزامهم فيها ما لا يلزم لم يبلغوا

مبلغ سابقيهم في الموشحات الفصيحة المبنيّة على حروف المعجم، الملتزم فيها فنونا من التزام ما لا يلزم، وكتب البديع تعطي صورة واضحة عن ذلك، بحيث طبق الشعراء الفكرة بتراكيب مختلفة منها ما سبق، ومنهاتخصيص ٢٩ بيتا بعدد حروف الهجاء، مخصصة كلها لحرف واحد به يبدأ البيت، وبه ينتهي، كما فعل صفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠هـ)(٦٨) وبناء القصيدة على حروف الهجاء يردّه بعض الباحثين إلى ابن دريد (ت ٣٢١هـ)(٦٩). وهذا النوع كما هو شائع في الشعر النبطي، شائع في الشعر العربي غير الفصيح عموما (٧٠).

ومن لزوم ما لا يلزم في الشعر النبطي اتخاذهم قافيتين: قافية داخلية ثابتة للأشطر الأولى من القصيدة، وقافية أخرى ثابتة للأشطر الأخيرة، وعلى الرغم من وجود ذلك داخل الموشحات في الدور الذي قد يصل إلى عدّة أبيات(٧١) فإنه يظهر أن البدايات في اتخاذ قافيتين عموما قد بدأ مبكرا كما في أغنية أولاد النجار الذين قابلوا بها الرسول ﷺ:

أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ أَحْمَدْ وَاخْتَفَتْ مِنْهَا الْبُدُورْ

يَا مُحَمَّدُ يَا مُمَجَّدْ أَنْتَ نُورٌ فَوقَ نُورْ (٧٢)

وهذه الظاهرة ـ أعني التزام القافيتين في البيت الواحد ـ لا نجدها في الشعر النبطي الأول سواء في الشعر الهلالي، أو النبطي القريب نسبيّا في القرن العاشر الهجري، وما قبله بقليل، أو ما بعده بقليل كما في أشعار راشد الخَلَاوِي، وأبي حمزة العامري، والشريف جري الجنوبي، والكِلِيف، والسمين، وأضرابهم، حيث المُدوّن من أشعار هؤلاء كالشعر الفصيح العادي بقافية واحد ويقول عبد الله الزامل: «إن هذه الطريقة هي الأصل. . . حتى جاء محيسن الهزاني وابتدع الطريقة التي. . . أصبحت غالبة. . . وهي التزام القافيتين في الصدر

والعجز»[٧٣]، ويوافقه ابن عقيل بعد أن ذكر بيتين لأبي زيد الهلالي اتفقا في قافيتي الشطرين الأولين وقافية أخرى للشطرين الأخيرين: حيث يقول: «ولعل لحنهم في الغناء اقتضى منهم القافيتين، لأننا رأينا الألحان الشعبية في نجد لم تقم على أساس القافيتين، وأول من مهّد ذلك فيما أعلم محيسن الهزاني»[٧٤] والزامل وابن عقيل قد تابعا، فيما يظهر، خالد الفرج في هذا[٧٥] كما تأثر آخرون بذلك، ويعلّق الكمالي على كلام الزامل حيث اقتصر على النقل عنه قائلا: «أقول إن ما بين أيدينا من شعر القدامى البدو يؤيّد ذلك غير أننا لا يمكن أن نجزم بأن محيسن الهزاني هو الذي ابتدع الطريقة المعروفة الآن، لأننا لا نملك دليلا قاطعا»[٧٦] ولا شك أنه مُحِقّ في تحفّظه، ذلك أن ابن حجّة الحموي (ت ٨٣٧هـ) قد أورد قصيدة زجلية تلتزم بهذا الالتزام[٧٧]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن محسن الهزاني عاش في النصف الأخير من القرن ١٢هـ وأوائل ١٣ هـ[٧٨]، على حين عاش بركات الشريف في القرن العاشر، والحادي عشر[٧٩]، وهم يوردون قصيدة لبركات تسير على هذا المنهج، مطلعها:

يَا مَرْقَبٍ بالصِّبْحِ ظَلَّيْتَ ابَادِيْكْ مَا وَاحِدٍ قَبْلِي خَبَرْتِهْ تَعَلاَّكْ

وهي طويلة ومشهورة[٨٠]، كما أن هذه الطريقة كثيرة جدا في أشعار نمر بن عدوان المتوفى ١٢٣٨هـ[٨١] وهو قبل الهزاني. ومن الظواهر المرتبطة بهذه القضية ميْل شعراء النبط، أحيانا، إلى توحيد حرف القافية الداخلية ـ أعني الأشطر الأولى ـ مع القافية الأخيرة لأبيات القصيدة، مع التمييز بين القافيتين بالتزام صوت مدّ (رِدْف) مع الداخلية، يخالف الردف السابق للأخيرة.

وشعراء النبط يسمون ما ركب فيه الشاعر قافية واحدة للبيت الواحد (موحّد)، وما التزم فيه قافية موحدة للأشطر الأولى، ومثلها للأشطر الأخيرة،

وهو ما مرّ آنفـا (مثنّى)، وما التزم فيه لثلاثـة الأشطر قافية، وللرابع قـافية ثابتة عـامة، وقـد مرّ معنـا في ألفياتهم ـ (مـروبَع)، وهـو المربّع نفسـه عند شعـراء الفصيح، غير أن شعـراء النبط، أحيانـا، في مطلع (المروبَع) لا يـوحّدون روي الشطر الثالث فقط مـع الشطرين قبله، ثم يلتزمون توحيـد روي الثلاثة في بقية القصيدة، وقد لا يلتزمـون قافية معينة للثلاثة الأشطـر، والالتزام فيها، للشطر الرابع فقط، ويسمونه (المروبع المنوّع)[٨٢]. والمربّع ذكره ابن خلدون، فبعد أن ذكر أن أهل المشرق يسمونه الشعر البدوي، ويسمّون الغناء فيه (الحوراني) نسبة إلى حوران مسكن العرب في الشام، قال: «ولهم فنّ آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون بـه معصّبا على أربعة أجـزاء، يخالف آخرها الثـلاثة في رويّه، ويلتـزمون القافية الرابعة في كـل بيت إلى آخر القصيدة»[٨٣]. وكما عند شعراء الفصحى (مثمن) كذلك عند شعراء النبط (مثومن)، وهو عندهم عبارة عن ثلاثة أشطر تأخذ رويّا واحـداً، ثم الشطر الرابع يأخـذ قافية أخرى هي القافيـة العامّة، ثم يأتي بعـدها أربعـة أشطر تـأخذ الثلاثـة الأولى منها رويّ ثـلاثة الأشطـر قبلها نفسـه، ورابعها مثـل قافيـة الرابـع قبله وهـي القافيـة العامـة، وتشمل بعـض اللزوميات الأخرى أحيانا[٨٤].

ولا تعدم بعض المطـالع لقصائد نبطية يترسّـم فيها أصحابها قصائد جـاهلية مثل:

زَهَـتِ الـدِّيـَارُ بِحُسْنِهَـا وجَمَالِهَا ... واسْتَبَـشَرَتْ بـالعِـزِّ رُوسُ جِبـَالِهَا.

للكليف[٨٥] وهي تذكّرك بـ (لِمَنِ الدِّيَارُ مَحَلُّهاَ فمُقَامُها . . .).

ولعامر السمين وتسمّى الذهبية:

لِمَنْ طَلَـلٍ بـيْــنَ الخَمَايِلِ والْخَالِي   خَـلاَ وَخَـوَا واخْتـلاَ مِنـْزِلـِهِ الْخَالي (٨٦)

وهي تذكّر بقصيدة امـريء القيس، بل نجدهم أحيانـا يضمّنون أشطرا، أو أبياتا قديمة مثل فعل العامري :

المـال يَحْيِي رجَـالٍ لاَ طِبَـاخِ بُها   كَمَا السِّيلْ يحيي الهِشِيمَ الدَّمْدَم البَالِي (٨٧)

وآخر يأخذ (. . . كجُلْمـودِ صَخْرٍ حطّه السَّيلِ مِـنْ عَالِ)، وهذا التضمين إنما يكـون في الأشعار النبطيـة التي لا تحتـاج إلا إلى إعطائهـا بعض التقـويمات الإعرابية اليسيرة لتقرأ فصيحة، وهذا النوع كثير(٨٨)، كما أن ابتداء المطالع ببكاء المنازل والديار ليس بقليل عندهم(٨٩) . وشعراء النبـط مثل غيرهـم مـن شعراء الفصيح، وغير الفصيـح يطلقون أحيانا على شعـرهـم (القافية) : (القـاف) من تسمية الكل باسم الجزء، ويبدو أن هذه التسميـة في بعض المناطق كجازان قد خصِّصت لنوع خـاص من الشعر(٩٠)، كما أن شعـراء النبط قـد يطلقـون على الشعر (القيل) من وَلّف القيل (٩١).

ولما كان شعـراء النبط يعتمدون على الغنـاء في وزن أشعارهم ، والغنـاء عادة يختلف مـن قبيلة إلى قبيلـة أخرى، ومـن منطقة إلى منطقـة أخرى(٩٢) ، نراهم يلقّبون أشعارهم، فهذا (طرْق هلالي) والطَّرْق : (الطريقة) والطَّرْق الحجازي، والطـَّـرْق الحوطـي، والطـَّـرْق الجوفي، وهكــذا، أو الطـَّرْق القحطــاني (قبيلة)(٩٣). . . الخ . وقد تكون هذه الألقاب مستمـدة من وظيفة الشعر مثل (الهجيني) وهو شعـراء يُغنَّى على ظهور (الهجن) أي الإبـل، والسامري، وهو شعـر يُغنـّي في السّمـر، أو رِدِّيـّة، وبعضهم يسميهـا القلطـة، وهـي أشعـار المنافرات عنـدهم في ميادين يتحاور فيها الشعـراء على البديهية. . . (٩٤). الخ

وهذه الألقاب بالأوزان ألصق .

وعلى العموم فالشعـر النبطي متأثّر بـالشعر المملـوكي العثماني في المحسّنـات البديعيّة بـأنواعهـا ومنها التعجيز بأنـواعه ، والحروف المهملة والمعجمة إلى غير ذلك (٩٥) .

الهوامش:

١) أبو بكر، محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ).
الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م (نبط) ص ٣٩٦.
وأبو منصور، محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)،
تهذيب اللغة، تحقيق: أحمد المردوني، وعلى البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة (نبط) ١٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.
و: أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر وبيروت ١٩٥٥م ـ ١٣٧٤هـ (نبط) ص ٧/ ٤١٠ ـ ٤١٢.
ومحمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار صادر ـ بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، (نبط) ص ٥/ ٢٩٩.

٢) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف ـ القاهرة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م. ص ١/ ٦٨.
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م هامش ١/ ٦٤.
وجواد على، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة ـ بغداد ١٣٧٢ ـ ١٩٥٣م. ص ٣/ ١٢.

٣) محمد عزة دروزة،
تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، صيداء الطبعة الأولى ص ٥/ ٣٤٠، وعلى عبد الواحد وافي: فقه اللغة، مطبعة لجنة البيان العربي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٦٩هـ ــ ١٩٥٠م، ص ١٢، وأبو علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني (ت ٢٣١هـ): الأزمنة والأمكنة، حيدر آباد، الطبعة الأولى ١٣٣٢هـ ـ ص ٢/ ٣٣١.

٤) المسعودي: التنبيه والإشراف ١/ ٦٨. وبعضهم ينسبهم إلى شيث بن آدم، انظر: أبو محمد القاسم بن علي الحريري ت ٥١٦هـ مقاماته، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (بدون تاريخ) ص ٥٧٠. وعبد الله البستاني، البستان ــ المطبعة الامريكانية ــ بيروت ١٩٣٠م ص ٢/ ٢٣٥٠.

٥) أبو العباس، أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٣٣١هـ ١٩١٣م، ص ١ / ٣٧٠.

٦) حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، مطبعة اليمامة ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ــ ص ٤٧١، ومجلة العرب: الجزء ٩ و ١٠ الربيعان ١٤٠٢هـ، السنة ١٦، مقالة (المجتمع البدوي) لروكس العزيزي، ص ٧٤٠ و٧٥٦.

٧) شهاب الدين، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، دار صادر وبيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩ م ـ ص ٥/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

٨) انظر: المسعودي: التنبيه والإشراف ١/ ٦٨، وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر للطباعة والنشر

والتوزيع (تصوير) ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م. ص ٢/ ٢٨.

٩) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة ص ١/ ٢١٤ ـ ٢١٥، والمسعودي: التنبيه والإشراف ١/ ٣٣، والزّبيدي، تاج العروس (كوث) ١/ ٦٤١، وعلى، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/ ٥ و ٦، و٩، و١٠ و١٩، و٢١، و٥٢ و ٧/ ٢٨٠، ووافى: فقه اللغة ١٢ وهو ممن يُفرّق بينهم، وكذلك محمد صادق بخيت، الأنباط والشعر النبطي، مطابع الهدف للتصميم والطباعة الفنية (بدون تاريخ) ص ١١ و١٦ و ٣١ و ٣٢.

١٠) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ١/ ٢٩٣.

١١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٨.

١٢) انظر: عَبيد بن شرية أو سرية الجرهمي (ت ٦٧ تقريبا)، أخبار عَبيد بن شرية (ملحقة بالتيجان في ملوك حمير، لوهب بن منبّه) مطبعة المعارف، حيدر آباد، الهند، الطبعة الأولى ص. ٣٧٠. وأبو عمر، يوسف بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣ هـ) القصد والأَمَم في التعريف في أنساب العرب والعجم، مطبعة السعادة ـ بمصر ١٣٥٠هـ. ص ١٢، والحموي، معجم البلدان ٤/ ٩٦.

١٣) محمد بن يزيد المبرِّد (ت ٣٨٥هـ)
الكامل في اللغة والأدب، الناشر مكتبة المعارف ـ بيروت ـ (بدون تاريخ) ص١ ٢٧٦
وعلى، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/ ٥٢، و ٥٤.

١٤) الطبري، تاريخ الأمم الملوك ١/ ١٦١، والأزهري، تهذيب اللغة ٢/ ٣٦٧.

١٥) الجاسر، في شمال غرب الجزيرة ٤٧٠ ـ ٤٧١ .

١٦) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م، ص ٩/ ٦٠ .

١٧) ابن منظور، لسان العرب (نبط) ٧/ ٤١٢، والزَّبيدي، تاج العروس (نبط) ٥/ ٢٩٩ .

١٨) علي بن الحسين المرتضى الموسوي (ت ٤٣٦هـ)
أماليه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثالثة ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧م ص ١ / ٢٦١ خالد بن الوليد يسأل ممّثل أهل الحيرة أعرب أنتم أم نبيط؟ فيجيب: عرب استنبطنا، ونبيط استعربنا .

١٩) الجاسر، في شمال غرب الجزيرة ١٠٩ .

٢٠) أحمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق د/ عبد المجيد الترحيني دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م ـ ص ٥/ ٥١ .

٢١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/ ١٤٣ .

٢٢) الجاسر، في شمال غرب الجزيرة ١٠٩ .

٢٣) الزّبيدي، تاج العروس (كوث) ١/ ٦٤١ وفسرّ ذلك بأنه للتواضع فقط. وكوثى كانت تسمّى أور .

٢٤) الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: فوزي عطوى الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، (بدون تاريخ)، ص: ٢١٩ والحموي، معجم البلدان ٤/ ٩٧، وأبو الفتح ناصر بن عبد السَّيِّد المطرزي (ت. ٦١هـ أو ٦١٦هـ) المغرّب في ترتيب المعرّب ـ الناشر دار

الكتاب العربي ـ بيروت، (بدون تاريخ) ، ص. ٤٤، وأبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت ٥١٦هـ)، درة الغواص في أوهام الخواص ـ مطبعة الجوائب ـ القسطنطينية، الطبعة الأولى ١٢٩٩هـ كلمة هرّف نبطية ص ٩٢ علّق الشهاب الخفاجي في شرحه ص ١٩٣ بأنه يقصد بالنبط العوام لاختلاطهم بهم.

و البستاني، البستان، ، ٢/ ٢٣٥٠، ويوهان فك، العربية دراسات في اللغة واللهجات، ترجمة عبد الحليم النجار، مطبعة دار الكتاب العربي ٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م، ص ١٤، ومجلة الدارة ع ٤ ، س ١٤٠١هـ / ١٩٨١م مقالة (تعليقا على خطاب النبي ﷺ، لاحمد الحوفي ص ٥٤، وإبراهيم أنيس وآخرين، المعجم الوسيط، مطابع دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م ص ٢/ ٨٩٨.

٢٥) ابن منظور، لسان العرب (نبط) ٧/ ٤١١)، الزّبيدي، تاج العروس (نبط) ٥/ ٢٩٩).

٢٦) انظر المصدرين السابقين بصفحتيهما المذكورتين، ومادة كوث في الأخير أيضا ١/ ٦٤١.

٢٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤ / ١٣٩.

٢٨) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) الأغاني، مطبعة التقدّم بمصر (بدون تاريخ) ص ٣/ ١٢٣

٢٩) انظر : المبرّد، الكامل في اللغة و الأدب، ١/ ٢٩٧ وابن عبد ربه، العقد الفريد ٣/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

٣٠) أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ) فتوح البلدان، مراجعة : رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة ـ بمصر ١٩٥٩م. ص ١٦٤ـ١٦٦.

(٣١) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد بمصر الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ-١٩٢٩م، ملخصا ص١٣٤ - ١٣٥ .

(٣٢) الجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٧٠و ٧٢ و ٧٤، وابن عبد ربه، العقد الفريد ٨/ ١٤٦ ، وعبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ): المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار إحياء الكتب العربية (البابي الحلبي وأولاده)، الطبعة الثالثة ص ١/ ٢٨٣ .

(٣٣) البيان والتبيين ١/ ٦٩ .

(٣٤) الأصفهاني، الأغاني ٥/ ٥٧ - ٥٨ .

(٣٥) انظر: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ-١٩٨٢هـ، حضرم ٥/ ١٩١٤ ، وأبو الفتح، عثمان بن جنى (ت٣٩٢هـ): الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٦هـ-١٩٥٦م، ص ٣/ ٣٩٤ .
والجاحظ، البيان والتبيين (هامش) ١/ ٦٤ .

(٣٦) المبرِّد، الكامل في اللغة والأدب ١/ ٢٩٧ ، وابن عبد ربه، العقد الفريد ٢/ ٣٠٨ .

(٣٧) أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ).
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٣هـ، ص ٢٠٨ .

(٣٨) المصدر نفسه ٩٩- ١٠٠

(٣٩) أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تاريخ الأدباء النحاة المسمى (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) بعناية: علي يوسف

(بدون تاريخ) ص ٦٥

٤٠) جمال الدين، علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ-١٩٥٥، ص ١/ ١٤٠.

٤١) أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، المكتبة السلفية - القاهرة ١٣٢٨هـ-١٩١٠م، ص ٣١.

٤٢) المبرد، الكامل في اللغة والأدب ١/ ٢٧٤، وابن عبد ربه، العقد الفريد ٣/ ٣٦٢ ونسب هذا القول لعبد الله بن الأهتم. كارل بروكلمان (ت ١٣٧٥هـ)، فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م ص ٣١ من الخطأ عزو اللحن إلى تأثير لغات المغلوبين فقط.

٤٣) ظلال عثمان السعيد، الشعر النبطي، أصوله، فنونه، تطوّره، ذات السلاسل، الكويت (١٤٠١-١٩٨١م ص ١٨.

٤٤) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى ١/ ٣٧٠ و ١/ ٤٧٥.

٤٥) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣/ ٤٤.

٤٦) الجوهري، الصحاح (رحم) ٥/ ١٩٢٨-١٩٢٩.

٤٧) مجلة المقتطف يوليو ١٩٠٨م مجلد ٣٣ مقالة (العرب قبل الإسلام) لجورجي زيدان ص ٧٩٨ «عربية الألواح غير عربية أشعار العرب» وانظر «مجلة مجمع اللغة العربية - القاهرة الجزء (٢٣) لعام ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م مقالة: (محاولة في تقدير زمن استواء اللغة العربية ...) لمحمد عزة دروزة، ص ١٩ - ٢٠، ويرى المسعودي، التنبيه والإشراف ١/ ٦٩ أن السريانية والعبرانية والعربية ليس التفاوت بينها بالكثير. ويقول في مروج الذهب ١/ ٢١٤، «أهل نينوى ممن سمّينا نبطا

وسريانيين والجنس واحد» واللغة واحدة، وإنما بان النبط عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم والمقالة واحدة «ويقول المسعودي، التنبيه والإشراف ١/ ٦٩ ـ الكلدانيون هم السريانيون نسبوا إلى دار مملكتهم كلواذي من أرض العراق. وعند السيوطي، المزهر ١/ ٣٠ السريان نسبة إلى سورى أو سريانة بأرض الجزيرة ولسانهم مُشاكل للسان العربي إلا أنه محرّف. وقريب من ذلك ما قاله أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) في: الإحكام في أصول الأحكام ـ مطبعة السعادة ـ بمصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٤٥هـ« . . . إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبدّلت بتبدّل مساكن أهلها فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الأندلس إذا رام لغة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام لغة الأندلس. . . وهكذا في كثير من البلاد، فإنه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدّل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمّله» ص ١/ ٣١. ويرى وافي، فقه اللغة ٨٠ أن لغة الأدب جامدة لا تساير لغة الحديث اليومي.

٤٨) انظر، علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ٢٩٠ و٢٩٢، ٢٩٤ لغة النبط عربية، ومجلة كلية الآداب المصرية (جامعة فؤاد الأول) المجلد العاشر، الجز الأول، مايو ١٩٤٨م، مقالة (بقايا اللهجات العربية. .)لإنّو ليتمان (النبط عرب بلا شك) ص ٢ و١٨.

٤٩) انظر، عبد الله الحاتم، خيار ما يلتقط، ذات السلاسل الكويت الطبعة الثالثة ١٣٨١هـ ص ١/ ٢٢. وخالد محمد الفرج: ديوان النبط، مطبعة الترقي، دمشق ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م، (المقدمة: ي). ويقول: ريجيس بلاشير، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ترجمة إبراهيم كيلاني، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٥٦م، ص ٨٩ شعر نجد الحالي يفهمه أهالي

نخوم الشام وغربي الفرات، وانظر: السعيد، الشعر النبطي ١٢٤ ـ ١٢٥ . ومحمد بن عبد الرحمن بن عقيل، ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد، دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، ص ٣٠ .

٥٠) عبد الفتاح محمد الحلو: شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، مطبعة الفجالة الجديدة ـ بمصر ـ طبعة أولى ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م. ص ٢٣٦ .

٥١) انظر، الحاتم، خيار ما يلتقط ٢٢، وجريدة الجزيرة ـ الرياض، ع ٣٤٢٢، السبت ٢١/٣/١٤٠٢هـ، ص ١٣ .

٥٢) الفرج، ديوان النبط ٢/ ٣٣٤

٥٣) عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، مقدمته (كتاب العبر. . .) مراجعة لجنة من العلماء ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر (بدون تاريخ) ص ١/ ٥٣٤ .

٥٤) المصدر نفسه ١/ ٥٣٥، وانظر أيضا ١/ ٥٣٦ ـ ٣٥٧، وعند الحاتم، خيار ما يلتقط ١/ ٢٤ و٢٧ و ٢٨ .

٥٥) محمد أحمد العقيلي: الأدب الشعبي في الجنوب، دار اليمامة، الرياض، طبعة أولى ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م ص ١/ ٢١ .

٥٦) أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، مكتبة النهضة، المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٥م ص١/ ٢٢٨ . وعبد اللطيف البرغوتي:
الأغاني الشعبية في فلسطين والأردن، مطبعة الشرق العربية ـ القدس، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص٤٦، ٤٧، ٤٨، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٨١، ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٠٧ (نماذج) .

٥٧) العقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب ١/ ٢١ .

٥٨) المرزباني، الموشح ٨٦

٥٩) العقد الفريد ٦/ ٢٧٦ الافتتاح، و٢٨٨ الاختام.
٦٠) محمد بن علي المحلي (ت ٦٧٣هـ) العنوان في معرفة الأوزان، مخطوط ل١.
٦١) جريدة الرياض ع ٦٧٦٦، س ٢٣، وتاريخ ١/٥/١٤٠٧هـ مقالة: (الألفية ماذا تعني: الفصحى والعامية) لأحمد عبد الله الدامغ ص ١٠
٦٢) المرجع نفسه بصفحته، وزعم ذلك أيضا أبو عبد الرحمن بن عقيل، ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد، ١/ ٥٥.
٦٣) أحمد بن محمد المقّري: (ت ١٠٤١هـ):
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، بمصر، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ - ١٩٤٩م، ص ١٠/ ٣٤٦ - ٣٤٨. ولعل هذا الصنيع قد بدأت إرهاصاته قبل ذلك كما عند أبي العلاء المعري، عبد الله بن سليمان (ت ٤٤٩هـ)، رسالة الغفران، تحقيق: بنت الشاطىء، دار المعارف بمصر ١٩٥٠م، ص ٣٠ - ٣٢، و٤٤ و٤٣٠ - ٤٣٢.
٦٤) السعيد: الشعر النبطي ١١٢ - ١١٣
٦٥) المقّري، نفح الطيب ١٠/ ٣٠٥
٦٦) المصدر نفسه ١٠/ ٣١٨ - ٣٢٢، وانظر: أيضا ١٠/ ٣٢٢ - ٣٢٦.
٦٧) جريدة الرياض، ع ٦٧٦٦، س ٢٣، بتاريخ ١/٥/١٤٠٧ مقالة (الألفية ماذا تعني: الفصحى والعامية) لأحمد عبد الله الدامغ ص ١٠
(٦٨) عبد العزيز بن سرايا (صفي الدين الحلي) ت ٧٥٢هـ، أو: ٧٤٩هـ ديوانه، دار صادر، بيروت (بدون تاريخ) ص ٧٠٥، وشفيق الكمالي، الشعر عند البدو - مطبعة الإرشاد بغداد (تاريخ المقدمة) ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ١٤ - ١٥.

٦٩) بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي العثماني، دار الشروق بيروت ـ ١٣٩٢هـ ص ٢١٠ .

٧٠) انظر: محمد المرزوقي، الأدب الشعبي في تونس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ١٩٦٧م ص ١٨٠، وهاشم الرجب، من الشعر العامي المذيل، وزارة الثقافة ـ بغداد ١٩٦٤م ص ٢١، ٣٥، ٤٣، والعقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب، ١/٨٣ و ٨٨ .

٧١) انظر: مصطفى عوض الكريم، فن التوشيح، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٩م، ص ١٣١، ١٦٣، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٩١ ,٢١٦ (على سبيل المثال).

٧٢) صفاء خلوصي: فن التقطيع الشعري والقافية، الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٦٦م، قيل إنها أقدم موشح عُرف ص ٣٧٠ .

٧٣) انظر: الكمالي، الشعر عند البدو ١٧١ .

٧٤) أبو عبد الرحمن بن عقيل، ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد ٥٦ .

٧٥) الفرج، ديوان النبط ١/ يا (المقدمة).

٧٦) الكمالي، الشعر عند البدو ١٧١ .

٧٧) انظرها في: تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد بن حجّة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، بلوغ الأمل في فن الزجل، تحقيق د/ رضا محسن القريشي ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ١٩٧٤، ص ٨٨، وانظر: صفي الدين الحلي، ديوانه ٤٥ بيتان من هذا النوع.

٧٨) انظر: الحاتم، خيار ما يلتقط ١/١٧٧ .

٧٩) المرجع نفسه ١/٦٧، وانظر السعيد: الشعر النبطي ١١٢ .

٨٠) انظر: الحاتم، خيار ما يلتقط ١/ ٧١ـ٧٣ .

٨١) البرغوثي، الأغاني الشعبية في فلسطين والأردن ٢٨٨ و ٣٧٨ .

٨٢) علي العبد الرحمن الماجد
ديوان مظلوم، مطبعة دمشق ١٣٨١هـ ١٩٦٢م ص ١/ ٨٦، والحاتم، خيار ما يلتقط ٢/ ١٩٣ .

٨٣) ابن خلدون، مقدمته ١/ ٥٨٣ .

٨٤) انظر النموذج، الماجد: ديوان مظلوم ١/ ١١٤ وهي ألفية أيضا .

٨٥) الحاتم، خيار ما يلتقط ١/ ٣٩

٨٦) المرجع نفسه ١/ ٦٠

٨٧) المرجع نفسه ١/ ٢٣ .

٨٨) انظر المرجع نفسه مثلاً ١/ ١١، و١/ ١٩ و ١/ ٢٤، والفرج، ديوان النبط ٢/ ٢٥٥ و ٢/ ٣٠٦ .

٨٩) انظر على سبيل المثال: الفرج، ديوان النبط ١/ ١٤١، ١٦٠، ١٦١ ١٦٤ و٢/ ١٤٠، ١٥٨، ١٧١، ٢٥٥ .

٩٠) العقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب ١/ ٢١، و ٢/ ٣٦، وانظر: الكمالي، الشعر عند البدو ١٤ ـ ١٥، والحاتم، خيار ما يلتقط ٢/ ١٩٦ و ٢٣٠ .

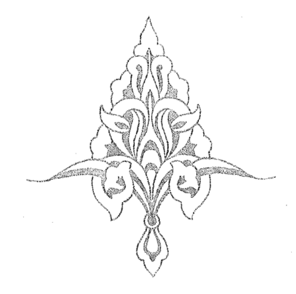
٩١) الفرج: ديوان النبط ٢/ ٥٩ .

٩٢) انظر: جريدة الرياض ع ٤٧٣٢ بتاريخ ١٢/ ٣/ ١٤٠١هـ مقالة (كيف يزن شعراء النبط شعرهم) لزين بن عمير، ص ٧، والكمالي الشعر عند البدو ١٠٨ ـ ١٠٩، والبرغوثي، الأغاني الشعبية في فلسطين والأردن ٥٤ ـ ٥٥ .

٩٣) مرشد البذال الرشيدي، ديوانه: جمع عبد الله الصانع، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٣م ص ٣/ ١٩٦، والماجد، ديوان مظلوم ١/ ١٠١، ١٠٧، ١٠٩، ١٢٨ .

٩٤) انظر المرجعين السابقين، الأول ٣/ ١٧١ ، والثاني ١/ ١٧٧ ، و١٧٨ ، والكمالي الشعر عند البدو ١٣ .

٩٥) انظر ، صفي الدين الحلي، ديوانه (مهملة) ٦١٨ ، (معجمة ٦١٩ ، وأمين : مطالعات في الشعر المملوكي العثماني ٢٠٠ طرد وعكس، و٢٢٢ الإعجام والإهمال. قارن بها عند الفرج، ديوان النبط ١/ ١٥٤ ـ ١٥٦ (قصيدة مهملة الحروف لابن لعبون. على سبيل المثال) والأصفهاني، الأغاني ٤/ ١٠٦ نسب قصيدة مهملة لابن هرمة تبلغ (٤٠) بيتا، ذكر منها (١٤) بيتا، وذكر أن لوزين العروضي مهملة أخرى . .



الشرطة في العصر الأموي



• الغلاف •

مراجعة وتعليق على كتاب «الشرطة في العصر الأموي»
تأليف د. أرسن موسى رشيد وترجمة د. أحمد مبارك البغدادي.

د. سامي خماس الصقار

التعريف بالكتاب:



تلقيت مؤخراً من الأخ الفاضل الدكتور أحمد مبارك البغدادي الأستاذ في قسم العلوم السياسية في جامعة الكويت، الكتاب المشار إليه أعلاه، الذي قام بترجمته إلى العربية. وأصل الكتاب أطروحة قدمها الباحث العراقي السيد أرسن موسى رشيد إلى إحدى الجامعات البريطانية لنيل الدكتوراة، وقد نالها، وهو الآن عضو هيئة التدريس في جامعة السليمانية في العراق. وقام بنشر الترجمة مكتبة السندس في الكويت في عام

١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، وهي تقع في ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط، علاوة على ٢٤ صفحة من الملاحق والفهارس وكشف المصادر. أما محتويات الكتاب فهي:

قدم المؤلف لبحثه بخلاصة موجزة تتضمن محتويات البحث وشكراً للمترجم ولمصحح الترجمة، وأتبعها بقائمة لمختصرات عناوين المصادر الأساسية التي استخدمها المؤلف، ثم نبذة بمقدار صفحة واحدة تتناول المصادر التي اعتمد عليها. أما أصل البحث فإنه ينقسم إلى تسعة فصول هي:

١ ـ الأصول الاحتمالية لمصطلح الشرطة (ص١٥ ـ ٢٤) نتناول فيه معاني الكلمة وأصول الشرطة كمؤسسة، وهنا رجع الباحث إلى فترة العصر الجاهلي في الجزيرة العربية، ومنها اليمن، كذلك رجع إلى نظام البوليس عند البيزنطيين والفرس.

٢ ـ القانون والنظام في بدايات العصر الإسلامي (ص ٢٦ ـ ٣٤): تناول فيه الفترات السابقة على العصر الأموي، بدءًا بفترة النبوة وانتهاءً بخلافة الإمام علي (رضي الله عنه)، فأورد الإشارات المتعلقة بالأعمال والواجبات التي تمتُّ بصلة إلى أعمال الشرطة، وكذلك الإشارات التي تتعلق بوجود منصب صاحب الشرطة في العصر الراشدي.

٣ ـ تطور الشرطة في العصر الأموي (ص ٣٦ ـ ٥٧): وهنا ركز الباحث على تطور الشرطة في عهد كل من معاوية (رضي الله عنه) ويزيد، وفي عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، مع إشارة خاصة إلى دور الشرطة في العراق، ولا سيما دورها في مقتل الحسين رضي الله عنه، ثم دورها في مختلف الأقاليم، وركز

الاهتمام على دورها تحت رئاسة ولاة بارزين كالحجاج بن يوسف الثقفي. وختم الفصل بذكر نشاط الشرطة في أواخر العصر الأموي.

٤ ـ **صاحب الشرطة في العصر الأموي** (ص ٥٩ ـ ٧٥) : يتناول هذا الفصل الصفات المطلوبة في صاحب الشرطة، وطبيعة العلاقة بينه وبين الخلفاء والولاة، ودور القبلية في تعيين صاحب الشرطة، مع إشارة خاصة إلى الخلفاء الذين التزموا بالتحيز القبلي، وأولئك الذي اتبعوا سياسة التوازن القبلي.

٥ ـ **واجبات الشرطة في العصر الأموي** (ص ٧٧ ـ ١٠٩) : وهو يتناول مهمة الشرطة في حماية الخلفاء والولاة من عدوان مناوئيهم في الداخل، و قيامها بمعاقبة المذنبين و إقامة الحدود الشرعية، ومساعدة الجيش ضد أعداء الدولة، ثم تنفيذ أحكام الإعدام وتعذيب المناوئين السياسيين للسلطة، و إدارة أمور السجن والسجناء.

٦ ـ **بعض قضايا خاصة بمؤسسة الشرطة** (ص ١١١ ـ ١٢٥) : يتناول هذا الفصل الموقع المخصص لمرابطة الشرطة داخل المدينة الإسلامية والأسلحة ووسائل النقل التي يستخدمها رجالها والأعطية المخصصة لهم، وأعداد الشرطة في مختلف الأمصار، ثم وجود وظيفة خليفة (نائب) لصاحب الشرطة، وأخيراً العلاقة بين الشرطة وعامة الناس، ولا سيما الشعراء.

٧ ـ **قوات ومؤسسات بوليسية أخرى وعلاقتها بالشرطة** (ص ١٢٧ ـ ١٣٦) : ومن هذه المؤسسات الحرس من العرب وغيرهم، والعرفاء، وصاحب العذاب والاستخراج (أي استخراج الأموال المصادرة من الناس)، ثم متولي السوق، وهو الذي يراقب الأسواق في المدينة الإسلامية، وهي وظيفة تشبه وظيفة «المحتسب» التي وجدت بشكل منتظم في العصر العباسي. (٨) **تراجم أهم من**

تولى منصب الشرطة في العصر الأموي (ص ١٣٨ ـ ١٦٣) : تناول فيه المؤلف تراجم ستة من أبرز الشخصيات التي تولت في وقت ما منصب صاحب الشرطة ، من أمثال مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ، والضحاك بن قيس الفهري ، وعمرو ان سعيد الأموي والحجاج بن يوسف . وقد أورد لهؤلاء تراجم ضافية بمعدل أربع صفحات لكل واحد منهم .

٩ ـ مناقشة عامة لنشاط الشرطة في بدايات العصر العباسي (ص ١٦٧ ـ ١٧٤) : وفيه تناول نشاط الشرطة في عهد كل من أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور، ثم في الفترة اللاحقة حتى عام ٢١٨هـ/ ٨٣٣م . وختم المؤلف هذا الفصل بما سماه «مناقشة عامة» (ص ١٧٣) خلص فيها إلى أن العهد العباسي شهد تطوراً في المناصب الإدارية كان من شأنها ايجاد مناصب جديدة تطورت على حساب صاحب الشرطة ، مثل منصب قائد الحرس ، مما أدى إلى تضييق السلطات التي كانت لصاحب الشرطة في العصر الأموي ، كما أن مسؤوليات القاضي قد توسعت هي الأخرى ، الأمر الذي أسفر عنه تضييق سلطات صاحب الشرطة أكثر فأكثر.

وعلاوة على هذه الفصول التسعة ، هناك ملاحق ثلاثة : الأول (ص ١٧٧) وهو ترجمة لابن وهب الكاتب مؤلف كتاب «البرهان في وجوه البيان» ، وهي منقولة ـ على ما يبدو ــ من مقدمة الكتاب المذكور الذي حققه الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ، ونشر في بغداد في سنة ١٩٦٧ . والملحق الثاني (ص ١٧٨ ــ ١٨٢) وهو بعنوان «صاحب الشرطة» ، والظاهر أنه نص يتناول الواجبات المنوطة بصاحب الشرطة والتعليمات التي ينبغي عليه اتباعها عند أدائه لواجباته . ولم يذكر الباحث المصدر الذي نقل عنه هذا النص ولا اسم

كاتبه. والملحق الثالث (ص ١٨٣ ـ ١٨٤) بعنوان «شرطة الخميس»، وقد نقل فيه الباحث أقوال عدد من المؤلفين الأقدمين في معنى «شرطة الخميس» التي كانت في أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، مثل ابن النديم والكشي والبرقي وغيرهم.

وهكذا فقد سد هذا الكتاب فراغاً مهماً في المكتبة العربية، إذ ألقى الضوء على مؤسسة إدارية مهمة من المؤسسات التي تطورت في العصور الإسلامية، إن لم نقل إنها مؤسسة إسلامية محضة هي من ابتكار المسلمين. ولذلك فإن المؤلف يستحق كل الشكر والتقدير من جانب طلبة التاريخ الإسلامي والمعنيين به. ويستحق مثل هذا الشكر المترجم الفاضل الذي يسّر لقراء العربية الاطلاع على الجهد الذي بذله المؤلف في إنجازه. في الواقع إن التاريخ الحضاري الإسلامي لا يزال يشكو من الإهمال، أو على الأقل من قلة الاهتمام إذا ما قيس بالتاريخ السياسي والحربي، لذلك فإن أي جهد يبذل في حقل النظم والتاريخ الحضاري ينبغي أن يلقى الترحيب والتقدير.

مراجعة الكتاب

قبل كل شيء أود أن أؤكد للقراء، أنني قد استمتعت كثيراً بقراءة هذا الكتاب واستفدت منه. وقد عنّت لي ـ أثناء مطالعته بعض الملاحظات ورأيت أن من المفيد إشراك القراء بها فعمدت إلى تدوينها ونشرها. فالكتاب مع تقديري الخالص لمؤلفه ومترجمه، فإنه كأي عمل انساني لا يخلو من النقص، إذ إن الكمال لله وحده، ولذلك سمحت لنفسي بإبداء بعض الملاحظات، وأود قبل إيراد ملاحظاتي أن أؤكد كل التأكيد بأن تلك الملاحظات لا تبخس الجهد الذي بذله

الباحثان الفاضلان، ولا تنتقص منه . وإن هدفي منها ما هو إلا خدمة البحث والباحثين، والله على ما أقول شهيد. وقد قسمت ملاحظاتي إلى قسمين؛ أولهما يتعلق بالتأليف، وثانيهما يتعلق بالترجمة. وكنت عازماً على تصنيف الملاحظات تصنيفا موضوعياً، فأجمع كل فئة منها ضمن الصنف الذي تخصه، لكنني رأيت من الأفضل إيراد تلك الملاحظات متسلسلة حسب مواضعها في الكتاب، تسهيلاً على القارىء عند متابعتها :

أولا ـ الملاحظات المتعلقة بالتأليف

١ ـ ينقص هذا البحث وجود المقدمة الضافية التي اعتدنا أن نراها في جميع المؤلفات، ولا سيما في الاطروحات الجامعية، إذ هي ضرورية جداً لأنها تلقي الضوء على أهمية الموضوع والدوافع التي حدت بمؤلفه إلى اختياره، مع إشارة إلى الدراسات السابقة إن وجدت، وذكر مزاياها وعيوبها. ولكننا لا نجد شيئا من هذا ، وكل الذي نجده ما سماه المؤلف «خلاصة» وهي تقع في حدود صفحة وربع الصفحة (ص ٧ ـ ٨) ذكر فيها الباحث فصول بحثه ومحتويات كل فصل بإيجاز، وختمها بشكر مترجم البحث الدكتور البغدادي، والأستاذ عبد القادر أحمد عبد القادر الذي راجع الترجمة من الناحية اللغوية، ثم أتى بكشف لمختصرات عناوين المصادر الأساسية، وشفعه بما سماه «نبذة حول المصادر التاريخية» وهي تقع في أقل من صفحة واحدة (ص ١١) أشار فيها إشارة عابرة إلى الصعوبات المتصلة بدراسة التاريخ الأموي لأن مصادره كتبت في العصر العباسي وما إلى ذلك، وأنه اجتهد في استخدام تلك المصادر، لا سيما وأن موضوع دراسته في مجمله لا يثير حساسية معينة. ثم أشار إلى ثلاثة مصادر فقط اعتبرها أساسية في موضوعه، هي تاريخ الطبري وأنساب الأشراف للبلاذري والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. وهكذا فإن ما أورده الباحث لا يفي بمتطلبات

البحث العلمي المعتاد، الذي يوجب بيان أهمية كل مصدر من المصادر الأساسية ومزاياه ومدى الاستفادة منه.

٢ ـ **أهمل** الباحث تناول دولتي المناذرة والغساسنة، وقد بخل عليهما بذكر شيء من أحوالهما وعما إذا كان هؤلاء، قد عرفوا شيئاً من التنظيمات الإدارية التي يمكن أن تكون أصولاً احتمالية لمؤسسة الشرطة الإسلامية، خصوصاً وأن الباحث يرجح تأثر المسلمين بما كان لدى البيزنطيين (حسب ظنه) من مؤسسات بوليسية، فإذا صح هذا فمن باب أولى أن يتأثر بها الغساسنة الذين استقروا في الشام في ظل الدولة البيزنطية.

٣ ـ من الأمور التي أهملها الباحث، وكان ينبغي أن يكون لها موضع في أطروحته، التقسيمات الإدارية لجهاز الشرطة ونظام عمله، ويبدو مما ورد في الملحق الثاني (ص ١٨١ ـ ١٨٢) أن المدن كانت تقسم إلى أرباع، ويعين لكل ربع صاحب (شرطة) عفيف النفس عارف بأحكام الشرطة، ويقرن به عارض يكتب قصص المرفوعين إليه وأسباب رفعهم، وأي صاحب «مسْلَحة» رفعهم، ثم تجمع القصص التي رفعها العُرّاض في الأرباع يومياً وترفع إلى الأمير أو الإمام ليوقع عليها بما يراه مناسباً. وإن القصص والتوقيعات وقرارات الإمام تنسخ وتدون في ديوان الشرطة، كما يدون ما يقع من محاضر الصلح بين المتخاصمين في سجلات ديوان الحكم.

٤ ـ **أهمل** الباحث إفراد فقرة خاصة بالجرائم التي ينبغي على صاحب الشرطة مراقبتها واعتقال مرتكبيها، وإنه وإن أشار إليها إشارات عابرة، فإنه أخفق في استقصائها، لا سيما وهناك فئة من الناس كالمقامرين والشطار والخمّار والقواد الوارد ذكرهم في الملحق الثاني (ص ١٨٢) كانوا ضمن الفئات التي ينبغي على صاحب الشرطة ملاحقتها، ولكن الباحث لم يشر إليهم.

٥ ـ كذلك أهمل الباحث إفراد فقرة يعالـج فيها حجية الأحكام ـ من الناحية الشرعية ـ التي تصدر عن صاحب الشرطة، لأن الأحكام في الإسلام تصدر إما عن الإمام ـ وهـو ولي أمرالمسلمين ـ أو عن القاضي المعين من قبلـه. وصاحب الشرطـة ليس واحـداً منهما، لا سيما وأن الباحـث يـرى أن من حـق صاحـب الشرطة إصدار الأحكام المناسبة (انظر مثلاً ص ١١٥).

٦ ـ في كثير من الأحيان يهمل الباحث ذكـر مصادر المعلومات التي ينقلها، وهي حالات كثيرة، نذكر منها:

أ ـ في (ص ٣٤) في عبارة المؤلف عن توسـع نشاط الشرطة في عهد الإمام علي رضي الله عنه.

ب ـ في (ص ٣٨ حـاشية ١١) الـرواية المتعلقـة بنهب البيـوت والاعتداء على الناس في البصرة.

ت ـ في (ص٥٠) فيما يتعلق بـاشتراط الحجاج بن يوسـف شروطاً معينة يجب توافرها فيمن يُعين في الشرطة.

ث ـ في (ص ٥٧) الرواية المتعلقة بمرابطة بعض جند الشام في المدن العراقية الكبرى.

ج ـ في (ص ٦٠) فيما يتعلق برواية ابن عبد ربـه عن افتقاد صفة الأمانة لدى صاحب الشرطة (لم يذكر الجزء والصفحة).

ح ـ في (ص ٨٧) بخصوص قـول الباحث إن الولاة في العهـد الأموي وليس الخلفاء هم الذين يعينون القضاة.

خ ـ في ص ١٠٥ حاشية ١٢٥) فيما يتعلق بوجود ألبسـة خاصة كان يرتديها السجناء.

د ـ في (ص ١٠٦ ـ ١٠٧) بخصـوص قيـام صـاحـب الشرطـة بتسليم

الأشخاص المقبوض عليهم إلى صاحب السجن .

ذ ـ في (ص ١٣٣ ـ ١٣٤) فيما يتعلق بقيام العرفاء بالتجسس على العامة .

ر ـ أشار الباحـث (ص ١٧٤) إلى أن ابن وهب الكاتب عالـج القواعد التي تحكم منصب صاحب الشرطة ، ولم يذكر مصدره لهذه المقولة .

ز ـ في الملحـق الأول (ص ١٧٧) أدرج الباحـث ترجمة ابـن وهب نقـلاً عن مقدمـة كتاب «البرهـان في وجوه البيان » الـذي حققه أحمد مطلـوب وخديجة الحديثـي ، ولم يكلف نفسـه مشقـة الـرجوع إلى المصـدر الـذي نقـلا عنه تلـك الترجمة .

س ــ في الملحـق الثـاني (ص ١٧٨ ـ ١٨٢) المتضمـن واجبـات صـاحـب الشرطة وقـواعد ممارستـه العمل ، لم يبين الباحث المصـدر الذي نقل عنـه ذلك الملحق ، و إن كنت أميل إلى أنه من كتاب ابن وهب ، ولكنه مجرد تخمين .

٧ ـ تقضي الأصول المنهجية أن يعرّف الباحثون بـالشخصيات التي يرد ذكرها في متون بحـوثهم ، ولكـن الباحـث أهمل ذلك ، ممـا أدى في بعض الحالات إلى الإرباك ، من ذلك مـا ذكره عن وقوع حادثة «في عهـد ولاية يزيد على البصرة» ، ولم يزد شيئاً يوضح متـى كان ذلك ومن هو يزيد المقصود ، ويبـدو أنه يتوقع من القراء أن يبحثوا عن ذلك . ولو أن الباحث عرّف بيزيد لأغنى واستغنى ! ! ولعل المقصود هـو يزيـد بن المهلـب الذي تـولى البصرة لسليمان بن عبـد الملك (ابـن خلكان ج ٦ ص ٢٧٩)

٨ ـ يهمـل الباحث أحيـاناً التعريـف بالألفاظ الغـريبة مثل كلمـة «الأترور» الواردة في (ص ١٢٤ ـ السطر ٨)

٩ ـ عندما تناول الباحث (ص ١٧) الأصـول التاريخية المحتملة للشرطة ذكر «منطقة شبه الجزيرة العربية وبلاد اليمن» ثم كرر القول في الصفحة نفسها فذكر



«فترة العصر الجاهلي وبلاد اليمن». ويبدو من هاتين العبارتين أن الباحث لا يعتبر أولاً بلاد اليمن من «شبه الجزيرة العربية»، وهذا خطأ جغرافي محض لأن المعروف أن شبه الجزيرة (أو جزيرة العرب على الأصح) هي المنطقة المحدودة بالبحار المعروفة، وتقع اليمن ـ بلا ريب ـ ضمن حدودها. ويكفي أن نقول إن كتاب «صفة جزيرة العرب» لابن الحائك الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤هـ، والمعروف بلسان العرب ـ وهو يمني ـ قد تناول اليمن في كتابه هذا مثلما تناول غيرها من أقطار الجزيرة.[١] أما في العبارة الثانية فإن الباحث عطف مفهوماً جغرافياً هو «بلاد اليمن» على مفهوم تاريخي هو «فترة العصر الجاهلي»، وهذا خلط غير موفق. ولكن الأهم أن المؤلف يجعل فترة العصر الجاهلي قاصرة على بعض أجزاء الجزيرة العربية ولا تشمل اليمن، في حين أن العصر الجاهلي هو فترة زمنية تغطي بضعة قرون سبقت ظهور الإسلام، ويشمل نطاقها الجغرافي بلاد العرب جميعا بدون تمييز.

١٠ ـ بالنسبة لنظام البوليس عند البيزنطيين والفرس، فإن الباحث يذكر (ص ١٩) أن العصور الرومانية المتأخرة شهدت أنظمة بوليسية متباينة إلخ . . . ولكنه عندما يفصل القول في الصفحات التالية لا نجد شيئا يؤيد مقولته الأولى، وكل الذي نجده هو أن الجند كانوا يقومان بالمهام المتصلة بالأمن. وينطبق ذلك على الوضع في الأمبراطورية البيزنطية، ما عدا القول بأن توفير الأمن في العاصمة البيزنطية كان منوطاً بشخص معين (ص ٢١)، وهي معلومة منقولة عن مرجع حديث. ويستند الباحث على مرجع حديث أيضاً (ص ٢٢) وهو يزعم أن الافيستا (كتاب زرادشت) تذكر بعض المعلومات عن وجود ضباط بوليس مهمتهم مراقبة البيع والشراء في الأسواق، وأنهم كانوا يتسلحون

بالقضبـان . وينقل (ص ٢٣) عـن ذلك المرجع الحديـث نفسه وجـود شخص أسماه (مؤلـف ذلك المرجع) بـرئيس البوليس ، ولكننـا لا ندري ما هـي الكلمة الفارسية الأصلية التي ترجمها المؤلف بكلمة «بوليس» . ثم ينتقل الباحث سريعاً إلى ذكر الحرس الامبراطوري ، ويخلص إلى القول إن النظام البوليسي لدى الفرس لم يكن مكتمـل الأركان ، إلا أنـه يميل إلى القـول (ص ٢٤) إلى انتقال مـؤسسة الشرطة إلى المسلمين كان عن البيزنطيين عن طـريق مصر والشام ، ويؤكد (ص ٣٢) أن عمرو بن العاص قدب استعار نظام الشرطة من التراث البيزنطي الذي تـرسخ (كـذا) في مصر قبـل الفتوحـات الاسلاميـة ، ولكنـه لم يقدم أي دليـل ملموس على وجود ذلك النظام في مصر قبل الفتح الإسلامي ، لأننا بمراجعة ما أورده الباحث في هذا الصدد عن البيزنطي لا نجـد معلومة واحدة تدعم الزعم بوجود مؤسسـة للشرطة عند البيزنطيين بصورة عامـة ، وفي أقاليم مصر والشام بصورة خاصة بـل إن ما ذكره شاخت (ص ١٥) من أن مصطلـح «الشرطة» قد جاء إلى العربية ، دون شك ـ على حد زعم شـاخت ـ كان من الكلمة اللاتينية COHORT ، وهي إغـريقية الأصل . ولكـن الباحث لم يذكـر لنا ما إذا كـانت هناك مؤسسة بوليسية لدى الرومـان فعلاً تسمى بهذا الاسم ؟! وكل الذي نقله عن شاخت قولـه أنها «كلمة تتصل بالقضايا العسكرية ومـا شابهها»!! وأشار الباحث (ص ١٦ ــ ١٧) إلى ذكر احتمال اشتقاقها من كلمة لاتينيـة أخرى هي SECURITAS ، ولكنه يختم كلامه بالقول بأن مناقشة الموضوع غير حاسمة ولا قاطعـة ، إلا أنه يميـل إلى الرأي القـائل بعدم عـروبة المصـدر الأصلي لمصطلح الشرطة ، ويعتبر كلمة COHORT أكثر تقبلاً من أختهـا ، وينسب الفضل في وصـولـه إلى هـذه النتيجـة إلى أستـاذه الـدكتـور I.D. LATHAM (ص ١٧ حاشية١٣) .

ويتضح مما تقدم أن الباحث لم يأت بشيء قاطع يمكن أن يقنع الباحثين على أن نظام الشرطة الذي عـرفه المسلمون منذ العصر الراشدي هـو نظام مستورد. ولا أدري لماذا لا يكون هذا النظام من ابتكـار المسلمين، وأنه مجرد تطور للعس الذي كـان يمارسه عمـر بن الخطـاب رضي الله عنه إذ كـان يجوب بنفسه دروب المدينة وأحياءها. والغريب أن الباحث على الرغم من رواية اليعقوبي ـ وهو من المؤرخين الأوائل ــ عن وجـود صـاحب شرطـة لعمـر بن الخطـاب (ص ٢٩ و ٣٧)، فإنـه يشك في صحة تلـك الرواية لسبب بسيـط هو أن عمر كـان يعس بنفسه!! ولا أدري أيـن هو موضـع الشك؟! وهل هنـاك ما يمنع عمر ــ وهو خليفة المسلمين المسئـول عنهم ــ أن يطمئن بنفسـه إلى استتباب الأمـن ويتفقد أحوال الرعية، لا سيما وأن أكثر أرباب العوائل كانوا (مشغولين بالجهاد؟! ثم إن الباحث يعدّ ما تقـدم مناقضاً لرواية رواها اليعقوبي أيضا مـــن أن معـــاوية كان أول خليفـة يعين «لنفسه» صـاحب شرطـة. في الواقـع لا تناقـض هناك، فصاحب الشرطة الذي عينه عمر كان لرعاية الأمن العام في المدينة، في حين أن الذي عينـه معاويـة كان لحراسته هـو، وقد أكـد البـاحـث نفسه (ص ٣٦) أن معاويـة جعل لـه حراسـاً يقفون عنـد رأسه لحمايتـه أثناء الصـلاة، إذ خشي أن تتكرر المحاولة لاغتياله.

١١ ــ أشار البـاحـث (ص ٢٧) إلى حـروب الردة، وأنها قـامت بها القبـائل المحيطة بـالمدينة، ويذكـر بعد ذلـك مباشرة، أن جيش المسلمين كـان في أكثر الأحوال بعيداً عن المدينـة مسافة (٤٠) يوماً، وذلك أثناء قتالـه للمرتدين. وفي هذا تناقـض واضح، فضلا عن أن القبـائل التي ارتدت لم يكن بينهـا أحد من القبائل المحيطـة بالمدينـة، وأن أغلب المرتديـن كانـوا في منطقة نجـد (اليمامة) واليمن.

١٣ ـ يـذكر الباحـث (ص ٣٧) أن الكوفة كانـت عاصمة الخلافـة في عهد الخليفة الراشد «الثالث»، وهذا خطأ واضح، إذ كانت العاصمة في عهد عثمان رضي الله عنه وهـو الخليفة الثالـث، في المدينة المنـورة وفيها قتل. ولكـن انتقال العاصمة إلى الكوفة كان في عهد الخليفة الرابع وهو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

١٣) حصل خلط (ص ٣٩) عند الحديث عن البصرة في عهد معاوية (رضي الله عنه)، فقد أورد الباحث بعض الفقرات مـن خطبة زياد بن أبيه التي يتهدد بها أهل البصرة، وقـال إن هدف زياد كان تـوفير الأمن والاستقرار وإقـرار هيبة الـدولة التـي ذهبت في عهـد المغيرة. في حين أن الخطبة ألقيـت في عام ٤٥هـ عندما عين زياد عاملاً على البصرة (ص ٣٨) بينما بقي المغيرة. والياً على الكوفة حتى وفـاته في سنة ٥٠ هـ، وعندها حـل محله زياد (ص ٣٨). وهكـذا ليس لتلك الخطبة علاقة بالمغيرة (٢)

١٤ ـ تنـاول الباحـث (ص ٤٥) تجمـع النـاس حـول مسلم بـن عقيـل في الكوفة، وأن عددهم كان (١٢) رجلاً وأن مسلماً أصبح من القوة إلى درجة يهدد بها الوالي عبيـد الله بن زياد الـذي لم يكن معـه سوى (٣٠) من الشرطـة. ولعل الصحيح أن الذين دعموا مسلماً كانـوا (١٢) ألف رجل. وكنت أظن أن الخطأ مطبعي، لكـن قولـه (رجلاً بدلاً مـن رجل) أكـد لي أن الباحـث يقصد (١٢) شخصاً وليس (١٢) ألـف شخـص (٣). وفي الصفحـة نفسهـا وردت عبـارة مضطربة جاء فيها أن والي مكة أوعز لصـاحب شرطته بمنع الحسين من مغادرة مكة، و«لكنه لم يستطع تنفيذ ذلك بسبب الاضطراب الذي حصل بين مؤيدي الحسين». وهنا يتساءل المرء كيف أن اضطراب المؤيـدين حال دون ذلك، بل العكس هو الصحيح، لأن الاضطراب يساعد على التنفيذ.

١٥ ــ حصل خلـل كبير في ذكـر التواريـخ الهجـرية (ص ٥٠ و ٥١) ومـا يقابلها بالتقـويم الميلادي، فجعلت سنة ٦٧ هـ تقـابل سنة ٦٩٥م و ٧٢هـ = ٦٩١م و٧٥هــ = ٦٩٧ م ٧٩هــ = ٧١٣م، وهذا خلـل واضـح لا يحتـاج إلى دليل.

١٦ ـ ذكر الباحث (ص ٥١) أن الهدف من ثورة شبيب الخارجي عام ٦٧ هـ هو قتل الحجـاج وصاحب شرطته، في حين ورد في (ص ٥٠) أن الحجـاج تولى الكوفـة في سنة ٧٥هــ، ومعنى ذلك أن الثـورة وقعت قبل تـوليه الكـوفة بثماني سنوات!! ومثل ذلـك ما ذكره الباحـث (ص ٥٢) عن ثورة ابن الأشعـث ضد الحجاج، وقد سماها الباحث لأسباب غير معلومة «ثورة خارجية» ولعله يقصد أنها من ثـورات الخوارج، وذكر أنها وقعت في سنة ٨٢هــ، بينما ذكر (ص ٥٠) أن ولاية الحجـاج انتهت في عام ٧٩هـ. والجديـر بالذكر ورود ذكـر ثورة (ص ٥٢) تسمى «ثورة الزنج» ضد الحجاج أيضا، ولكن الباحـث لم يذكر مكانها ولا تاريخ وقوعها.

١٧ ـ أشـار الباحـث (ص ٥٤) إلى تشدد عمر بـن عبد العـزيز مـع شاربي الخمور، ودلـل على ذلك بـأنه أمـر غير المسلمين بإدخـال الخمور إلى الأمصـار (كذا) ثم أمر بمعاقبة من يجهر بشربها!! وهذا أمر في غاية الغرابة، إذ يدل على موقف متناقض (نقل الخبر عن ابن سعد ج ٥/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧) ولكنني وجدت أن ما نقله ابن سعد (ج ٥ ص ٣٦٥ طبعة صادر) يخالف ذلك إذ يقول إن عمر بن عبـد العزيز أمر ألا يـدخل أهل الذمـة بالخمر أمصار المسلمين، فكـانوا لا يدخلونها.

١٨ ـ بعد أن وصف الباحث (ص ٥٧) كيف أن صاحب الشرطة في الكوفة استطاع في عام ١٢٢ هــ، صد الثوار وإصابـة زيد بن علي الذي مـات متأثراً

بجراحه، قال إن الفترة الأخيرة مـن الخلافة الأموية شهدت دوراً ثانـوياً للشرطة بسبب استعانتهم ببعـض الجند الشامي. وقد فاته أن استعانـة الشرطة بالجيش الشامي كانت موجودة قبل ذلـك، بل هو نفسه اعترف بأن الحجاج استعان في سنة ٨٢هـ بجند الشام للقضـاء على ثورة ابـن الأشعث، ومع ذلـك فإن دور الشرطة لم يلغ من الـوجود خلافاً لما يزعمه الباحـث (ص ٥٧). ثـم إنه يقول إن جند الشـام أقاموا لهم مواقـع خاصة بهم في مراكـز المدن الكبرى في العراق وأن العلاقـات بينهم وبين العامة كـانت تتسم بـالكراهية «وفقا لما ذكـره المؤرخون» ولكن الباحث لم يأت بمصدر واحد يؤيـد تلك الوقائع. والغريب أن الباحث يقول (ص ٦٦) إن المدن التـي تتوافر فيهـا حاميـات عسكرية كمـدن العراق، تبرز فيها مكانة صـاحب الشرطة إذ تسمح له بالسيطـرة على الأوضاع الأمنية في المجتمع، ومعنى ذلك أن وجود الجند يعزز مكانة الشرطة ولا يلغي دورها !!

١٩ ـ أورد الباحث (ص ٦٠) رواية مشرقية عـن شرط توافر الأمانة فيمن يلي وظيفة صاحب الشرطة، ثـم تحول إلى الغرب العربي ـ على حد قوله ـ وأتى برواية أندلسيـة، فيظن القارىء أن مثـل هذا الشرط لـه مثيل في المغرب الإسـلامي، لكنه سرعان ما يجد أن الرواية الأندلسية تنصـب على ولاية خراسان، مما أفقدها أهميتها، إذ لم يأت بجديد !!

٢٠ ـ يذكر البـاحث (ص ٦٢) أن من الأمور المستغربة التـي تقع غالبا، أن الولاة يختارون لمنصب صـاحب الشرطة من يماثلهم في الشكل والهيئـة، ثـم يأتي بمثال واحد لا غير، حينما اختار وال أعرج صاحـب شرطة أعرج مثله. وهكذا فقدت كلمـة «غالبا» مالها مـن قوة. وفي (ص ٦٣) استخدم هذه الكلمـة مرة أخرى عندمـا قال إنَّ صاحب شرطة الخلفـاء كان غالبا ما يتـم اختياره من بين الولاة، ولكن الأمثلة التي جاء بها محدودة جداً (وهي ثلاثة) بل إن واحداً منها لم

يكن منصبه في عاصمة الخلافة، وإنما كان في مصر، أي أن صاحبه لم يكن صاحب شرطة للخليفة نفسه. ويبدو أن الباحث يميل إلى التعميم، من ذلك مثلاً قوله (ص ٦٧) إن تعيين صاحب الشرطة يقترن بالوالي شخصيا وإن المصادر التاريخية التي تتطرق إلى صاحب الشرطة لا تذكره مقرونا بالبلد الذي يمارس فيه عمله، وإنما تقرن ذكره بهذا الوالي أو ذاك، ويبني على ذلك أن تعيينه مقرون بتعيين الوالي مباشرة. ولكن الباحث لم يأت بالأمثلة ولا ذكر المصادر التي تؤيد مقولته.

٢١ ـ نقل الباحث (ص ٦٨) عن ابن تغري بردي، أن من واجبات صاحب الشرطة إمامة المسلمين في الصلاة، وقال إن هذا المؤرخ لم يقدم الأدلة على ذلك رغم أن المذكور حدد الواقعة بأنها حدثت في عهد يزيد بن عبد الملك. ويبدو أن الباحث نسي أن خارجة صاحب شرطة الفسطاط كان يؤم المسلمين عندما اغتاله الخوارج ظناً منهم أنه عمرو بن العاص، وذلك في سنة ٤٠هـ، وهو خارجة السهمي (ابن خلكان، ، طبعة إحسان عباس، ج ٧ ص ٢١٦ ـ ٢١٧)

٢٢ ـ تناول الباحث (ص ٧٠) قيام الوليد بتوزيع المناصب على أبناء القبائل المضرية، وأن من بين هؤلاء برز الحجاج، مما يوهم بأن الوليد هو الذي عين الحجاج لأول مرة في ولاية المشرق، في حين أن الذي عينه هو عبد الملك بن مروان. [٥] ثم ذكر (ص ٧٠) أن يزيد بن عبد الملك كان هواه مع مضر أيضا وأن صاحب شرطته كان كعب بن حامد العبسي الذي ظل في منصبه بعد وفاة يزيد« وذلك في خلافة أخويه الوليد وسليمان». وهذا خطأ واضح، لأن الوليد وسليمان سبقا يزيد إلى الخلافة وكان بين الفريقين خلافة عمر بن عبد العزيز،

ثم إن الباحث نفسه ذكر في الصفحة نفسها أن يزيد توفي سنة ١٠٥هـ، وخلفه أخوه هشام !!

٢٣ ـ ذكر الباحث (ص ٧٢ ـ ٧٣) أن شعيب بن حميد البلوي الذي عين لشرطة مصر سنة ١٠١هـ ، قد عزل بعد أيام من منصبه رغم تدينه وسمعته الطيبة، وذلك لكونه من الموالي، ولكنه لا يلبث أن يذكر (ص ٧٥) أن صاحب شرطة الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ وهو روح بن يزيد السكسكي ـ كان من الموالي !! والغريب أن الباحث لم يبين وجه «الولاء» في الشخص الأول وهو «بلوي» والثاني وهو « سكسكي » ، فهل كانت نسبتهما إلى تلك القبائل بالولاء؟! ومثل ذلك بالنسبة لوالدة مصعب بن عبد الرحمن التي قال عنها إنها أمة وهي من قبيلة بهراء (ص ١٣٨ ـ ١٣٩).

٢٤ ـ يروي الباحث (ص ٧٧) أن عدداً من الباحثين الغربيين المعاصرين، يرون أن مصطلح الشرطة الإسلامية وواجباتها تماثل مصطلح (البوليس) وواجباته ويذكر أن السيد أمير علي فنّد هذه النظرية، الا أنه لم يبين كيف فندها، وعلى أي أساس تم ذلك؟ في الواقع أن واجبات الشرطة التي أوردها الباحث (ص ٧٧) ثم تولى شرحها بالتفصيل تؤيد آراء أولئك الباحثين الغربيين، وليس العكس.

٢٥ ـ ذكر الباحث (ص ٨٨) أن واجب القاضي يتمثل بالنظر في المنازعات بين المسلمين من طلاق وزواج وإرث وغيرها من المعاملات المالية. وهذا ـ في ظني ـ انطباع خاطىء، لأن القاضي ينظر أيضا في الجرائم الأخرى كالقتل والسرقة، وقد نقل الباحث (ص ١٧١) عن الطبري أن مهنة «السياف» تنفيذ أحكام القتل الصادرة عن القضاة. وذكر في الملحق الثاني (ص ١٧٨) أن وظيفة صاحب الشرطة معونة الحكام (أي القضاة) وأصحاب المظالم والدواوين في

حبس من أمروه بحبسه الخ . والغريب أن الباحث (ص ٨٨) يعد قيام القاضي بمعاينة جراح المتخاصمين خروجاً على المألوف، في حين أن التعويضات المادية ـ كما هو واضح من الملحق الثاني (ص ١٨٠ ــ ١٨١) ـ تعتمد على معرفة مدى عمق الجراح وخطورتها. والأغرب أنه خرج باستنتاج في غير محله، هو أن القاضي ما كان له أن يقوم بما قام في هذه الحالة إلا بأمر من الخليفة، إذ ليست له السلطة اللازمة للحكم في مثل تلك القضايا الخ . . . في حين أنه ذكر (ص ١٧٣) بين مهام صاحب الشرطة مواجهة المجرمين وإلقاء القبض عليهم وإحضارهم إلى مجلس القاضي لينظر في أمرهم، وليصدر الأحكام المناسبة لجرائمهم. ونقل الباحث (ص ١٧٣ حاشية ٣٤) عن طيفور (كتاب طيفور ص ٤٢ ـ ٤٣) بأن الخليفة أصدر أمره إلى صاحب الجسر في بغداد ألا يصدر أية أحكام إلا بحضور القاضي.

٢٦ ـ يتابع الباحث (ص ٨٩) استنتاجاته ويقول إن سلطات القضاة كانت محدودة، وأنهم بحاجة دائمة لمعاضدة من هو أعلى منهم كالوالي وصاحب الشرطة (كذا). وهذا ـ في ظني ـ خطأ فاحش، لأن الوالي وصاحب الشرطة ليسا بأعلى رتبة من القاضي، وإن كان القاضي يحتاج لمعونتهما في تنفيذ الأحكام، كما هو الحال في عصرنا الحاضر، فإن المحاكم، تصدر الأحكام وتقوم السلطات الإجرائية بتنفيذها، ولا يترتب على ذلك أن المنفّذ هو أعلى رتبة ممن أصدر الحكم، بل العكس هو الصحيح. في الواقع أن الخليفة كان يعين القضاة في مختلف الأمصار [٦] إلى جانب الولاة على قدم المساواة ــ إن لم يكن القاضي أعلى منزلة من الوالي ـ وظل هذا التقليد مستمراً حتى نهاية العهد العثماني عند ما كان القاضي في بلدان الخلافة يعينه السلطان العثماني مباشرة،



مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبد العزيز

٢٩٤٥ الرياض: ١١٤٦١

٤٤١٢٣١٨ – ٤٤١٣٩٤٤

رقم الفاكسميلي: ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

المملكة العربية السعودية



• قسيمة اشتراك •

ارفق شيكاً مقبول الدفع ....

باسم دارة الملك عبد العزيز بالرياض/عن قيمة اشتراك لمدة سنة واحدة على أن ترسل

إلى العنوان الآتي:

الاسم: ....

العنوان: ....

رقم التلكس أو الفاكس: .... ☎ ....

• الاشتراك: ٢٠ ريالاً داخل المملكة العربية السعودية

•• البلاد العربية ما يعادل ٢٠ ريالاً سعودياً

••• ٦ دولارات خارج البلاد العربية.



address:
King Abdulaziz Research Center
2945
Riyadh 11461
4412318-4413944
Facsimile No.: 00/966/1/4417020
Riyadh - Kingdom of Saudi Arabia



• Subscription card •

Please enter my subscription for king abdul Aziz Research Centre

Please bill me ....
check enclosed for $ ....
Name ....
Address ....
City .... Country ....
☎ .... Fax. ....

Annual Subscriptions

- • Saudi Arabia: **20** Riyals
- •• Arab Countries: The equivalent of **4** issues Price: SR **20**.
- ••• Non Arab Countries: US **6**$

ويقوم القاضي بتعيين نواب عنه من أهـل البلاد. كما أن الحال في البلاد العربية هـو أن القضـاة يعينون بمـراسيـم صـادرة عـن الملـك أو رئيس الجمهـوريـة، ويمارسون مهام القضاء باسمه، وليس لأي شخص آخر سواء كان من الولاة أو رؤسـاء الشرطة أيـة سلطـة عليهم، ولعـل من المفيـد أن نشير هنـا إلى ما نقلـه البـاحث (ص ١٧٠) عـن الطبري بخصـوص ما ذكـره المنصـور عن الأسـس السليمة للـدولة التي لا يمكنهـا أن تدار إلا بهم، وذكر أن أول هـؤلاء القاضي النزيه، وثانيهما صاحب الشرطة المدافـع عن الضعفاء إلخ... وهكذا فوظيفة القاضي أعلى شأنا من صاحب الشرطة. وهذا ما توصل إليه الباحثون من أمثال جرجي زيدان (تاريخ التمـدن الإسلامي ـ بيروت، ج ١ ص ٢٣٤) وهو الرأي الذي نقله البـاحث نفسه (ص ٩٠) عندما قال إن الشرطة خادمة للقضـاء، وأن صاحبها يـأتي بعد القضاة، ولكن البـاحث ـ مع ذلـك ـ يظل مصرّاً (ص ٩١) ويزعـم أن الشواهد تشير بشكـل لا لبس فيـه إلى أن منصب القضاة يـأتي بعد منصـب صاحـب الشرطة، وأن صـاحبه أعلى رتبـة من القـاضي. ثم يقـول إن القاضي كانـت لديه سلطة محدودة لايقـاع العقوبة في الجنح كـالحلف الكاذب والخداع والغش، ويـأتي بالشـواهد على حكـم القضاة في مثـل هذه الحالات، وينسى أن إيرادها لا ينفي شمول سلطاتهم القضـايا الكبرى ما لم يأت البـاحث بالأدلة على أن القضـاة قد منعوا من النظـر في مثل تلك القضايـا. أما ما أورده عن شدة أصحاب الشرطة وممارستهم لإنزال العقـوبات الشديدة التي قد تصل إلى القتل والتعـذيب وغيره، لا يقوم ذلـك دليلاً على أن ما قـاموا به هـو ضمن سلطاتهم الشرعية، وأن ذلـك يجعل منزلتهم فـوق منزلة القضاة. وإن مـا ذكره الباحث مثلاً (ص ٩٣) عن قيامهم بمداهمة المنازل حتى بدون إذن أصحابها، فهـو مخالفـة صريحة للشرع ولنصـوص القـرآن الكـريـم، ولا يـدل على اتسـاع

سلطاتهم، وإنما يدل على جبروتهم وتعسفهم. ومع ذلك فقد نقل الباحث نفسه وفي الصفحة نفسها أن أحد الشعراء الذي اتهم بشرب الخمر قد لجأ إلى داره وتحصن فيها، ولم يستطع صاحب الشرطة دخول المنزل!!

ومن الأدلة على أهمية القضاة أن كتبا صنفت عنهم، وكان عدد منها بين مصادر هذا البحث، مثل كتاب «أخبار القضاة» لوكيع، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد خصهم برسالة مشهورة تبين أهمية منصبهم (٧)، ولا نعلم أن أحداً صنف كتاباً واحداً عن أصحاب الشرطة ومن في حكمهم. والغريب أن الباحث اعتبر من الأدلة على علو شأن صاحب الشرطة (ص ٩٢) الموكب الذي يسير بين يديه، بخلاف القاضي الذي يسير إلى مجلس القضاء بدون موكب!! وهذا دليل في منتهى الغرابة، لأن وجود الموكب وعدمه لا يدل على الأهمية في هذا المضمار، خاصة وأن القضاة هم أهل دين وتقشف، بعيدون عادة عن مظاهر الفخفخة التي لا يحتاجون إليها، بل ولا يتقبلونها، وقد أورد الباحث نفسه (ص ٩٢) أن ابن شبرمة القاضي كان يحتقر تكبر صاحب الشرطة.

٢٧ ــ ذكر الباحث (ص ٩٢) ضمن واجبات صاحب الشرطة تنفيذ الحدود، ولكنه لم يحدد الجهة التي تحكم بوجوب إقامة تلك الحدود على من يستحقها. وهذا واضح أن مرجع ذلك إلى القاضي أو الإمام. وقد نقل الباحث في الملحق الثاني (ص ١٨١ ــ ١٨٢) أن من واجبات صاحب الشرطة أن ينهي إلى الإمام الأحداث التي فيها القصاص والحد« فإذا أمره الإمام أن يقيّد أو يقبض فعل ذلك »، وكذلك التعزير وهو أقل من الحد فمرجعه إلى الإمام أيضا، وليس إلى صاحب الشرطة، وأن على صاحب الشرطة أن يعرض على من فوقه من أمير أو إمام الحوادث ليوقع تحت ذكر كل رجل فيما يراه من أمره من

تأديب أو حبس أو إطـلاق. وهكذا فإن الإمام هو الجهة العليـا، وما صاحب الشرطة إلا أداة للتنفيذ.

٢٨) ـ ذكر الباحث (ص ٩٤) في عرض مـدى سلطة صاحب الشرطة، أنه في خلافـة يزيد بن معـاوية عاقب صـاحب الشرطة عبـد العزيز بن مـروان بن الحكم، بسبـب شربه الخمر. وذكر البـاحث أن مكانة عبـد العزيز هذا عـالية جداً، إذ هـو الرجل الثاني بعـد معاوية ابن أبي سفيـان!! وهذه المقولة لم يـذكر البـاحـث مصدرهـا ولم يبين حجته في إطلاقهـا وهي غـريبة في بـابها، لأن عبد العزيـز لا يمكن أن يكون الرجـل الثاني بعد معاويـة مع وجود والده مـروان بن الحكم على قيد الحياة، فضـلاً عن أخيه الأكبر عبد الملك، فلو كـانت له تلك المكانة لكان الأولى بتولي الخلافة منهما، بل لكان أولى بالخلافة من يزيد!!

٢٩ ـ لا يـراعي البـاحث الـدقة أحيـانا، كقـوله (ص ٦٦) «إن المدن التـي تتوافر فيها الحاميـات العسكرية مثل العراق» وكأن العراق مـدينة واحدة وليس قطراً، ومثل ذلك ما ورد (صـ٩٥ ـ ٩٦) عـن والي العراق خالد القسري من أنه كان كثير اللـوم لصاحـب شرطة لعـدم شدتـه على المغنين حتى شـاع الغناء في المدينة» وهنا أيضا يعامل الباحث العراق وكأنه مدينة واحدة، وكان حريًّا به أن يخصص أي مـدن العراق هي المقصودة؟! ومـن أمثلة عدم الدقـة ما ورد (ص ٩٨) عـن قيـام معـارك في« منطقة الفـرات» والسيطـرة على «منطقـة الفـرات» والفرات ـ كما هو معـروف ـ نهر طويل يبلغ آلاف الكيلومترات إذ ينبـع من آسيا الصغرى ويخترق ما هو الآن تـركيا وسوريا والعراق، لذلـك فليس هناك منطقة يمكن تسميتهـا بمنطقة الفرات، ولا بـد من تقييدهـا بموضع محدد كـأن يقال وقعت المعركة على الفرات عند الكوفة وما أشبه، .

٣٠ ـ أشار الباحث (ص ٩٨) إلى رسالة أرسلها الخليفة مروان بن الحكم إلى

ابنه حين عيّنه قائداً لمحاربة الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني في عام ١٢٧ هـ، وهي من أنشاء عبد الحميد الكاتب. وقد وقع خلط كثير في هذه الفقرة. فقبل كل شيء كان على الباحث أن ينبه إلى أن قائد الخوارج هو غير الضحاك بن قيس الفهري أحد الزعماء المهمين في الفترة الأولى من العصر الأموي، والذي قتل في معركة دير الجماجم في سنة ٦٤هـ (ص ١٤٢ ـ ١٤٥).

أما الخلط فقد وقع في اسم الخليفة، لأن مروان بن الحكم توفي في عام ٦٥هـ [٨] وإن الخليفة في سنة ١٢٧هـ، هو مروان بن محمد الذي كان عبد الحميد الكاتب من رجال دولته، ولا علاقة له بمروان بن الحكم.

٣١ ـ لا يتقيد الباحث أحيانا بالتسلسل التاريخي للأحداث، من ذلك مثلاً إشارته إلى أحداث وقعت في سنة ١٣٢هـ، ثم لا يلبث أن يعود إلى الوراء فيذكر أحداثا ذات علاقة وقعت في سنة ١٣٠هـ دون أن يكون هناك مبرر للإخلال بالتسلسل (ص ١٠٠) ويشبه ذلك ما ذكره الباحث (ص ١٦٩) عن طلب أبي مسلم الخراساني من المنصور قبل توجهه لقتال عبد الله العباسي، أن يهب له حياة عدد من خلصاء المنصور للتخلص منهم حتى يصفو له الجو وحده. وذكر أن المنصور وافق على ذلك، وطلب إلى أبي مسلم أن يأتي لمقابلته، وعندها أمر بقتله. ويستفاد من صيغة الخبر هذه أن قتل أبي مسلم قد كان قبل توجهه لقتال عبد الله المذكور، في حين أن قتله كان بعد عودته من القتال منتصراً. وهكذا وقع خلل جوهري في تسلسل الأحداث لم يفطن إليه الباحث.

٣٢ ـ أبدى الباحث (ص ١٠٢) تعجبه لأن أحد القتلة ظل في السجن حتى بلغ ابن القتيل سن الرشد ليؤخذ رأيه في إقامة الحد على قاتل أبيه أو يقبل الدية، وأن المذكور طالب بالقصاص فأعدم القاتل. ولا أدري أين وجه الغرابة هنا؟ المعروف أن تنفيذ الحد في هذه الحالة منوط بولي الدم وهو الابن، ولكن

القاصر لا يملك التصرف في الأمـور الصغيرة، فكيف في مسألة خطيرة كـالقتل ؟ولهذا أوجبت الشريعة الانتظار حتى يصبح القـاصر أهلاً للاختيار. وهذا من مزايا العدالة في الشريعة الإسلامية.

٣٣ ـ تناول البـاحث (ص ١١٨ ـ ١١٩) المخصصات الماليـة للشرطة، وهو يقصد أعطياتهم أو مرتباتهم، وكان الأفضل تسميتهـا باسمها. وذكر من تلك المخصصات الهبات واعتبرها كأنها هي المرتبات المفروضة لرجال الشرطة، إلا أنه يتضح من الـروايات التي أوردها الباحث أنها مجرد هبـات يمنحها ولي الأمر لمن في خـدمته، وأن بعضهـا كان كبيراً جـداً (١٠٠ ألـف درهم) لا يجعلهـا مرتبـاً خصوصًا إذا قارنا ذلك بما رواه البـاحـث من أن المرتب الشهري لرجل الشرطة لا يتجاوز عشرة دنانير. وربما كان هذا المبلغ هو المرتب السنوي لا الشهري.

٣٤ ــ تناول البـاحـث (ص ١٢١ ـ ١٢٢) وجـود منصـب خليفة (نـائب) لصاحب الشرطة، وخلص إلى القول بأنه ليس منصباً دائماً، إنما يقوم به شخص من رجال الشرطـة عند غياب صاحـب الشرطة وتنتهي سلطته بمجـرد عودته. هذا مجرد افتراض، إلا أنه يناقض ما سبق ونقله الباحث (ص ١٢١) عن كتاب «الأغاني» مـن «أن خليفة صاحب الشرطـة كان يقوم بإخصـاء المخنثين إذا أمره صـاحب الشرطـة بذلـك». وهـذه إشارة واضحـة إلى وجـود صاحبـي هذيـن المنصبين في آن واحد، ومعنـى ذلك أن وظيفـة النائب وظيفـة دائمة ويقـوم من يشغلها بأعمال المعاون لصاحب الشرطة الذي يكلفه بأداء عدد من الأعمال.

٣٥ ـ ينقل البـاحـث أحيانا بعض الروايات على عللهـا، ولا ينبه إلى ما فيها من خلل، من ذلك مثلاً ما رواه (ص ١٢٢ ـ ١٢٣) عن قيام شرطي من قبيلة الفرزدق الشاعر باعتقاله، وأنه قال فيه شعراً جاء فيه:

فلو كنت قيسيـاً إذا ما حبستني ولكـــنَّ زنجياً غليـظاً مشـــافره

ولم يتساءل الباحث إذا كان الشرطي المذكور من قبيلة الفرزدق، وهي قبيلة عربية مشهورة (تميم) فكيف يصفه بأنه زنجي غليظ الشفتين؟ والظاهر أن الذي استاء منه الشاعر أن يهان بتكليف زنجي أسود باعتقاله.

٣٦ ـ تناول الباحث (ص ١٣٠) الحرس وأنهم فئة متميزة عن الشرطة، ويورد للتدليل على ذلك شطر بيت من الشعر ورد فيه القول: «وكأنه شرطي بات في حرس» للدلالة على التفرقة بين الشرطة والحرس، على حد ظنه. ولكن في ظني أن المعنى المقصود هو «كأنه شرطي بات يقوم بأعمال الحراسة» وذلك بسبب تيقظه وحذره، أي أنه يؤدي مهمته في الحراسة على أحسن وجه. وهكذا فإن الشطر المذكور يؤيد المفهوم الواسع للشرطة الذي يجعلها تضم الحرس أيضا.

٣٧ ـ تناول الباحث (ص ١٣٢ ـ ١٣٤) العرفاء ورجع الباحث من أجل التعريف بهم إلى قاموس «المنجد»، وهو قاموس حديث لا يصح التعويل عليه مع وجود المعاجم الأصلية. ثم أن الباحث جعل العرفاء مسؤولين عن مراقبة العامة وتبليغ السلطات عن الحركات المشبوهة، دون إن يسند هذه المقولة إلى مصدر معين. ومثل ذلك قوله إن السلطات الأموية استغلت هؤلاء العرفاء لمصلحتها، وهذه أيضا لم يذكر مصدرها. وبنى على ذلك كله أن العلاقة بين العرفاء والعامة كان يسودها الكره وعدم الاحترام، ونقل عن ابن سعد (الطبقات ج ٦/ ٢٧٣) أن الناس يكرهون مجالسة العرفاء والشرطة في المسجد. وهذا ـ في ظني ـ استنتاج في غير محله، لأن الكره لم يتأت عن قيام العرفاء التجسس لحساب السلطة، وإنما لاستيلائهم على أعطية الناس، إذ كان العرفاء هم الذين يقبضون الأعطية نيابة عن أصحابها فيسيئون التصرف بها . في الحقيقة أن زياد بن أبيه عين العرفاء عندما كان والياً على العراق ليتولوا توزيع الأعطيات

على أبناء عشيرتهم وليكـونوا مسـؤولين أمامه عما يحدث في نـاحيتهم وليـوافوه بما يحدث هناك (عمر العقيلي : معاوية ص ٨٧)

٣٨ ـ يعتمـد الباحـث أحياناً على مـراجع حـديثة ، كما هـو الحال في الفقرة السابقـة ، وقد تكرر ذلـك ، إذ نراه ينقل معلومـات تاريخية قـديمة (ص ١٠٦ حاشية ١٣٣ و ١٣٤) عن مـرجع أجنبي حديث هو (روزنتـال) ، وقد كان من واجبه أن يعـــود إلى مصـــادر (روزنتال) ، أو على الأقـل أن يتحفظ في حـالة تعذر الوصول إليهـا . ونراه أيضا (ص ١٣٩ حاشية ١٠) يعتمد عنـد التعريف بمدينة أيلـة على «المنجد» ، وكان من الواجـب أن يرجع إلى المعاجـم الجغرافية للتعـريف بها ، وهـي متـوفـرة ويأتي في مقـدمتهـا «معجـم البلدان» ليـاقـوت الحموي .

٣٩ ـــ أضاع البـاحـث حوالي (٢٦) صفحـة مـن أصل (١٧٠) صفحـة في تـراجم أبـرز الشخصيات التـي تولـت منصب صـاحب الشرطـة (ص ١٣٨ ـ ١٦٣) ، إذ توسع كثيراً في ذكر تفاصيل تراجـم تلك الشخصيات ، مما لا علاقة له بعملهـم في الشرطة . فذكـر كل شيء عن حياتهم ومـا مارسوه مـن نشاط . وكان يكفيه ذكر مكانتهم الخاصة وأهم المنـاصب التي شغلوها ، ومنها منصب صـاحب الشرطـة ، وإحالـة القـاريء على المصادر. فترجمة مصعـب بن عبـد الرحمن مثـلاً وقعت في حوالي أربـع صفحات (ص ١٣٨ ـ ١٤٢) ومثلهـا ترجمة عمرو بـن سعيد . أما تـرجمة الحجاج فقـد وقعت في أكثر مـن خمس صفحات (ص ١٥٠ ـ ١٥٥) ، وكأن الحجاج بحاجة إلى تـرجمة أو تعريف . في الواقع أن مثل هذه التراجم ، وبمثل هذا التفصيل لا مبرر لها من الناحية المنهجية .

٤٠ ـ ذكـر الباحث (ص ١٤٠) وجـود بطن من قريـش باسم بنـي «عُدي» بضم العين خلافـاً لما هو معروف من أن البطـن هم بنو «عدي» بـالفتح ومنهم

عمر بن الخطاب. والملاحظ أن الباحث أخطأ في إيراد الصيغ الصحيحة لأسماء بعض القبائل، من ذلك مثلاً ما ورد (ص ٥٣ حاشية٨٦) عندما سمى كندة «بني كندة» و(ص ٧١) عندما سمى مضر «بنى مضر» و (ص ٧٥ حاشية ٧٦) عندما سمى كلب «بني كلب» و (ص ١٤٦) عندما سمى قضاعة «بني قضاعة»، وهذا كله خطأ.

٤١ ـ يقع في البحث بعض الخلط، من ذلك ما ذكره الباحث (ص ١٤٦) عن سعيد بن ا لعاص بن أمية الأموي من أنه رزق بعشرين من البنين، وكان من بينهم عمرو بن العاص (كذا)، وهكذا وقع الخلط بين عمرو بن سعيد بن العاص وبين عمرو بن العاص الصحابي المعروف. وقد كان حرياً بالباحث أن يكون أكثر دقة. ومما له علاقة بالدقة أن الباحث عندما ترجم (ص ١٥٠) للحجاج بن يوسف الثقفي، قال «هو الحجاج بن حكم بن أبي عقيل الخ...»، ثم قال «وأبوه يوسف»!! وهكذا جعل لأبي الحجاج اسمين خلافاً للمعروف عنه بأن والده هو يوسف الثقفي لا غير، والحكم هو جده[٩]

٤٢ ـ في الواقع أن الباحث أخطأ في تسمية بعض المؤلفين وبعض الشخصيات التاريخية، من ذلك مثلا ما ورد في (ص ٩ و ٥٠و٥٢ و٥٩ و٦٥ و٨٤ و ٩٩ و١٢٥ وص ١٤٠ و ١٦٩ وحواشي بعض هذه الصفحات) من تسمية ابن أعثم إذ سماه «ابن الأعثم» بدون مبرر، في حين سمي الزبير بن بكار «زبير» بدون تعريف. كما أنه ذكر (ص ٨٩ و ١٣٦ و١٥٧ ـ ١٥٩ وبعض حواشي هذه الصفحات) المؤلف وكيع وسماه «ابن وكيع». أما الماوردي فقد صار اسمه «أبي بن محمد» (ص ١٨٩) وابن أبي الحديد سماه الباحث (ص ٩، ٨٨ و١٠٤) ابن أبي «حديد»، وأبو الفرج الأصبهاني سماه (ص ١١) أبا «فرج».

أما ابن الزبير فقد سقطت كلمة«ابن» من اسمه في عدة مواضع (ص ٤٤ ـ السطر ٤ و ٥ و ص ٥٠ ـ السطر ١٥)، وقد أدى ذلك إلى خلل في معرفة الشخص المقصود، ومثله ابن الأشعث فقد صار (٥٣ ـ السطر ٥) الأشعث . وفي (ص ٨٩ ـ السطر الأخير) سمى الحسن البصري «حسن» بدون تعريف، في حين عرّف (ص ١٢٣ ـ السطر ١٠) بإضافة (الـ) لاسم مروان بن الحكم فصار «المروان» وسمى بلال بن أبي بردة بن موسى الأشعري (ص ١٠٧ ـ السطر ١٤ وص ١٥٥ ـ السطر ٦) والصحيح أن جده هو «أبو موسى الأشعري». وذكر (ص ١٢٣ حاشية ٥٤) الشاعر زياد الأعجم [١٠] باسم زياد بن العجم. وكذلك ورد (ص ١٣١) ذكر سعيد بن عثمان الوالي على بخاري ثم ورد اسمه مرتين على أنه «سعد» [١١] وفي ترجمة ابن وهب (ص ١٧٧) ورد اسم جده «سليمان» ثم صار «أبو سليمان» فأيهما الصحيح ؟!

٤٣ ـ جرى العرف منهجياً أن نذكر تواريخ وفيات المؤلفين إزاء أسمائهم عند إدراجها في كشف المصادر، ليتسنى للقارىء أن يتعرف على مدى قرب المؤلفين من الأحداث التي يؤرخونها، ولكن الباحث أهمل هذه النقطة، ومن الملاحظات المتعلقة بكشف المصادر أنه ذكر (ص ١٨٧) ابن الأثير علي بن محمد إزاء مصنفه «الكامل» وأتبعه بذكر «ابن الأثير» دون ذكر اسمه، أو إيراد إشارة تفيد أنه علي بن محمد نفسه، وذكر إزاءه كتاب «أسد الغابة». في الواقع أن أبناء الأثير ثلاثة، ولذلك فإن عدم ذكر أسمائهم كاملة قد يؤدي إلى تشويش القارىء وذكر الباحث في هذا «الكشف (ص ١٨٨) كتاب «الإمامة والسياسة» ضمن مؤلفات ابن قتيبة، دون أن ينبه إلى ما انعقد عليه إجماع الباحثين من كون هذا الكتاب منسوباً إلى ابن قتيبة وليس له. وذكر أيضا في

الكشف (ص ١٩١) الموسوعة الإسلامية في طبعتها الثانية ولا شيء غير ذلك، خلافاً لما جرى عليه العمل لدى الباحثين من ضرورة ذكر عنوان المقال الذي تم الرجوع إليه واسم كاتبه، لأن الموسوعة هي مجموعة من المقالات بأقلام متعددة، وتقوم أهمية المقال على شخصية كاتبه، شأنها شأن المجلات العلمية.

٤٤ ـ لا يفطن الباحث إلى التناقض الذي يقع فيه أحياناً، فنجده (ص ٥٤) ينقل عن وكيع (ج ٢ ص ٢٧) أن بلال بن أبي بردة الذي كان يتوق لتولي منصب كبير في خلافة عمر بن عبد العزيز، قد وعد العميل الذي دسه له عمر، بأنه سينفحه بمبلغ كبير إن هو عُيّن في المنصب الذي يريد، بينما نجده (ص ١٥٤) ينقل عن وكيع في الجزء نفسه والصفحة نفسها أن بلالاً هذا قد وضع في يد العميل المذكور مبلغاً من المال. ولم يحاول الباحث التوفيق بين الروايتين كأن يقول إن مصادر أخرى، كالذهبي وابن حجر هما اللذان ذكرا ذلك ليبرىء نفسه ويبرىء وكيع من تهمة التناقض.

٤٥ـ ذكر الباحث (ص ١٧٧) في ترجمة ابن وهب، أنه برز من عشيرته رجال أكفاء ساهموا في إدارة الدولة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب، ولكنه لم يقل لنا من هي عشيرته؟ كما لم يذكر أحداً من أولئك الأكفاء على سبيل المثال!!

٤٦ ـ أخطأ الباحث في جعل الفقرة المتعلقة بشرطة الخميس (ص١٨٣ ـ ١٨٤) ملحقاً، إذ إنها ليست نصاً بحد ذاتها منقولاً عن مصدر واحد، وإنما هي مجموعة من المعلومات التي استقاها الباحث من مختلف المصادر كابن النديم والكشي والبرقي وابن حجر، وقد ناقشها الباحث. ومثل هذه الأمور لا يصح أن تكون ملحقاً، وقد كان بوسعه ـ إذا رأى ضرورة لذلك ـ أن يضعها ضمن الفقرة المخصصة للشرطة في عهد الإمام علي رضي الله عنه.

٤٧ ـ وأخيراً كان من واجب المؤلف أن يذكر عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية ما دام هو أطروحة، ويبين بوضوح الدرجة التي حصل عليها والجامعة التي منحته الـدرجة، وتاريخ ذلـك واسم الأستاذ المشرف، لكي يسهـل على القراء الذين يهمهـم الرجوع إليها بلغتها الأصلية، أن يصلوا إليها.

ثانيا ـ الملاحظات المتعلقة بالترجمة

قبل إيراد الملاحظات المتعلقـة بالترجمة لا بد لي من التأكيد مـرة أخرى من أن المترجم كان بصورة عامة موفقاً جداً في نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، حتى ليظن القـارىء (الذي لا يعلـم أنه كتاب مترجـم) أنه مكتوب بـاللغة العـربية أصلاً. فقد تمكـن المترجم من تخطي العقبات ولا سيما عقبات صيـاغة العبارات الإنكليزية بصيغة عربية سليمة. ومع ذلك فإن لي بعض الملاحظات التي رأيت من المفيد إيرادها لفائدة القراء:

١ ـ لم يتفضل المترجم بكتابة مقدمة وفقاً لما جرى عليه العرف لدى المترجمين، يبين فيهـا العـوامـل التـي دفعتـه إلى ترجمة الكتـاب وبيـان أهميتـه، ومـا هـي الصعوبات التـي واجهته ـ إن وجدت ـ وعما إذا كان قد رجع إلى الأصـول التي اعتمد عليها المؤلف أم لا، وغير ذلك مما ينبغي بيانه في المقدمات.

٢ ـ لو لم يـرد في خلاصة المؤلف (ص ٧) من أن الكتاب أطـروحة، لما علمنا أنه أطروحة جامعية. ولكن المؤلف ـ كما أسلفنا ـ لم يذكر عنوان الأطروحة باللغة الإنكليزية ولا الجامعة التي قدمت إليها والأستاذ الذي أشرف عليها والسنة التي أجيـزت فيها، وغير ذلـك ممـا يسهل على القـارىء الذي يهمـه الـرجوع إليهـا مباشرة. ومثل هذا النقص لم يعمل المترجم على تلافيه.

٣ ـ لم يقم المترجم باستدراك ما فات على المؤلف أو بالتعليق على ما يحتاج إلى تعليق أو تصحيح ما ينبغي تصحيحه، لا سيما وأن المترجم الفاضل مؤهل جدا للقيام بهذه المهمة، إذ هو أستاذ في قسم العلوم السياسية، ثم إنه تولى تحقيق أهم كتاب عربي في تاريخ النظم الإسلامية، وهو الأحكام السلطانية للماوردي. وهكذا جاءت الترجمة خالية من التعليقات والتصويبات، خلافاً للمعتاد.

٤ ــ ترجم الدكتور البغدادي (ص ١٥) كلمة JUDICIARE الفرنسية بـ «القانونية» وصحتها «القضائية»

٦ ــ ورد (ص ٢٢) ذكر زرادشت ولكن المترجم سماه «الزرادشت» خلافا للمتداول.

٧ ــ خص المترجم (ص ٣٣ و ٧٧) المؤلف الهندي السيد أمير علي بلقب «العالم» دون غيره، ولا أعرف ما هو الأصل الإنكليزي لهذا «اللقب، ولعله SCHOLAR. وفي ظني أن الترجمة المناسبة هي «الباحث». أما إذا كان المترجم يصر على كلمة «عالم» فإن هناك من يستحقها أيضا، وهو جرجي زيدان الذي سماه المترجم أو المؤلف) «المؤرخ المعاصر»، وهو بلا شك مؤرخ ولكنه ليس معاصراً إذ توفي جرجي زيدان في سنة ١٩١٤م وهو على أي حال يستحق لقب «العالم»، لكن لم تجر العادة على إطلاق مثل هذه الصفة على المؤلفين في البحوث العلمية.

٨ ـ لم يوفق المترجم أحيانا في الإتيان بالكلمة المناسبة، من ذلك مثلا «عند ذكر المسجد الكبير (ص ١١١ ــ السطر ٦ و ص ١١٤ ــ السطر ٩) إذ كان يسميه المسجد الذي يصلي فيه العامة أو المسجد العام، ولعل الصحيح أن نقول «المسجد الجامع».

٩ ـ توهـم المترجم أن كلمة (ANON) الواردة في (ص ١٦٧ حـاشية ٢) هـي اسم مـؤلف كتاب «أخبـارالدولـة العباسية» الـذي حققه الدكتـور عبد العـزيز الدوري، فعـرّب الكلمة إلى (أنـون)، وقد فـاته أن المقصـود بها هو أن المؤلـف مجهول، وهو مـا يرمز إليه بالإنكليـزية بكلمة ANONYMOUSX وقد سبـق له أن ترجم في (ص ١٣٩ حاشية ١٠) شيئا مماثلا فـذكر (توتال) على أنه اسم المؤلف لقاموس «المنجـد»، في حين أن مؤلفه هو لـويس معلوف الوارد ذكـره في كشف المراجع (ص ١٩٢)، هذا ولم أهتد إلى سبب ورود كلمة (توتال) مقرونة بقاموس «المنجد»، مما يحملني على الظن أن خللا مطبعيا قد وقع في هذا الموضع.

١٠ ـ عند الإشارة إلى مقدمة كتـاب «البرهان» في (ص ١٧٧ حاشية ١) ظن المترجم أن حـرف K الوارد في اسـم أحد محققي الكتـاب المذكور، أنه يـرمز إلى حرف (ك) وقد فـاته أنه يرمـز إلى حرف (خ) من اسم خـديجة الحديثي، وتكرر هذا الخطأ (ص ١٨٩). ووقع خطأ مماثل عند الإشارة في (ص ١٨٦) إلى كتاب «أخبار الدولـة العباسية» آنف الـذكر، عندما ظـن المترجم أن حرف A الوارد في اسم أحد محققي الكتاب المذكور يرمز إلى حرف (أ) بينما هو في الواقع حرف (ع) من اسم عبد الجبار المطلبي.

١١ ــ يبـدو أن المترجـم أبقـى ترتيب الأسماء في كشـف المصـادر الأصليـة والحديثة، على مـا هو عليه في الأصـل الإنكليزي، مما أدى إلى خلـل في الترتيب وفقاً للحروف العـربية، من ذلك مثـلاً تقدمت أسماء من تبـدأ أسماؤهم بحرف (م) على من تبـدأ أسماؤهم بحـرف (ت) وتقديم حـرف القاف على حـرف الراء (ص ١٩٠). وقد أدى ذلك أيضاً إلى تأخير أسماء المؤلفين الـذين تبدأ أسماؤهم بحرف (ز) إلى آخر الكشـف (ص ١٩١ و ١٩٢)، لأن حرف Z اللاتينـي آخر الحروف. وقد كان من واجب المترجم إعـادة ترتيب الأسماء وفقا لترتيب الحروف

الهجائية العربيـة ليسهل على القارىء مراجعة الكشف، وعمـلاً بما هو جار في المؤلفات العربية.

١٢ ــ أبقى المترجـم كشف المصـادر الحديثة (المراجـع) على حالـه، مع أنـه خليط مـن مراجع عربيـة وأخرى أجنبية (ص ١٩١ ـ ١٩٢) بينما جـرى العرف على فصل المراجـع الأجنبية في كشـف مستقل وتـرتيبها تـرتيبا حسـب حروفهـا اللاتينيـة، وهو ترتيـب يختلف ـ كما رأينـا آنفا ـ عـن ترتيب الحروف العـربية. ولكن المترجم لم يفعل مما أدى إلى اختلاطها.

١٣ ـ وقعت في الكتاب أخطـاء لغوية سنذكر بعضها على انفـراد لأهميتها ثم نتبعهـا بكشـف بالأخطـاء التـي هـي دونها في الأهمية. ولا شـك أن الأخطـاء اللغوية تعود مسؤوليتها على المترجم ثم المراجع من بعده. وهذا بيانها:

أ ـ وقع المترجم في خطأ شـائع إذ جمع بين مضافين إلى مضاف إليه واحد، كما في الأمثلة الآتية:

ص ١٧ ـ السطـر ١٥ في عبارة «شمال ووسط شبه الجزيـرة» وصحتها «شمال شبه الجزيرة ووسطها».

ص ٣٣ ــ السطـر ١١ في عبـارة «بتجميع وتنظيـم القـادريـن على القتـال» والصحيح بتجميع القادرين على القتال وتنظيمهم».

ص ٧٢ ـ السطر ٦ في عبارة «تقبل وتفهم ما قام به» وصحتها «تقبل ما قام به وتفهمه».

ص ١٢١ ـ السطـر ١٦ في عبارة «خــــارج أو داخــل المدينـة» وصحتها «خارج المدينة أو داخلها».

ص ١٣٢ ـ السطر ١٥ في عبارة «قبل أو في أثنـاء» والصحيح «قبل ذلك أو في أثنائه».

ص ١٤٢ ـ السطر ٨ في عبارة «قوة وهيبـة مصعب» والصحيح «قوة مصعب وهيبته».

ص ١٤٤ ـ السطر ٥ في عبـارة «أهميـة ومكانـة الضحـاك» وصحتها «أهميـة الضحاك ومكانته».

ويشبـه ذلك مـا وقـع (ص ٥٤ سطـر ١٩) في عبارة «تبـاع أو تشرب فيهـا الخمور» وصحتها «تباع الخمور فيها أو تشرب».

د ـ ومـن الأخطاء الشائعـة استخدام المترجم لصيغـة «توافـر يتوافر المتـوافر» وصحتها «توفر» بدون حرف الألف، ومثلها استخدامه كلمة «التواجد» بمعنى الـوجـود، في حين أن للتـواجـد معنـى آخر هـو إظهـار الـوجـد، وهـو مـن مصطلحات الصوفية (انظر ص ١١ ـ السطر ٩ وص ٥٩ ـ السطر ٤ و٧ و ٩ و ص ٧٩ ـ السطر ٤ وص ١٢١ ـ السطر ١٠ وص ١٢٢ ـ السطر ٨ وص ١٢٩ ـ السطـر ٢٠ وص ١٣٥ ـ السطـر ٣ وص ١٤٨ ـ السطـر ٣ بخصوص الصيغـة الأولى. وبالنسبة للثـانية انظر ص ٦٨ ـ السطـر ٢ وص ٨١ السطر ١٠ و ١٧ وص ١٠٤ ـ السطر ٧ وص ١٤٢ السطر ١٠ وص ١٦٠ ـ السطر ١٤).

تـ ـ استخـدم المترجم (ص ٦١ ـ السطر ٢١ وص ١٠٤ السطـر ١٧) عبارة «لا يجب» بمعنى «لا يجوز»، في حين أن عـدم الوجوب يعنـي «الجواز»، وكان الأفضل القول «ولا ينبغي» بدلا منها.

ث ـ وقـع في (ص ١٠٣ حاشية ١١٢) خلـل في قافية البيـت الأول في كلمة (ذاك) إذ هـي لا تتفق وقـافيـة البيت الثـاني في كلمـة (بـارِك)، ولعل الكلمـة المناسبة هي (ذلك)، وبها يستقيم الوزن.

ج ـ استعمل المترجـم في كثير من المواضع مثل (ص ٢٣ ـ السطر ١٢ و ص

٦٨ ـ السطر ١١ و ص ١٠٩ ـ السطر ١٢ وص ١٤٣ السطر ١٥ وص ١٤٤ ـ السطر ١١) صيغة «الرئيسية والرئيسي» وما إليها ، ويقصد بها «الكبرى والأكبر» وصحتها «الرئيسة والرئيس» بدون ياء النسبة ، لأننا هنا لا ننسب شيئا إلى رئيس معين ، وإنما قصدنا الإشارة إلى شيء كبير أو أساسي .

ح ـ نوّن المترجم (ص ٢٩ ـ السطر٤) اسم عمر بن الخطاب فسماه (عمراً) وهو من الأسماء التي لا تقبل التنوين ، أما إذا لحقه التنوين فهو «عمرو» . في حين أن المترجم في (ص ٣٦ ـ السطر ١٤) لم ينون (عمرو) ، بل حذف الواو وكفى !!

خ ـ ورد في (ص ٢٩ ـ السطر ٧) تفسير لكلمة «درة» على أنها «السوط» ، وليس واضحاً هل هذا «التفسير من عمل المؤلف أم أنه من المترجم . والمعروف أن الدرة هي عبارة عن عصا قصيرة بخلاف السوط .

د ـ ورد في (ص ١١ ـ السطر الأخير) الإشارة إلى مؤلف يزودنا بالمعلومات حول مصر ، وذلك في عبارة «على غرار الذي يزودنا بكثير من المعلومات عن مصر الخ . . . » ، ولم يرد ذكر أي شيء عن ذلك المؤلف ، مما أدى إلى غموض هذه العبارة ، ولم يحاول المترجم تفسير ذلك الغموض .

ذ ـ أدرج فيما يأتي الأخطاء اللغوية التي تقل في الأهمية عما سبق:

ص	س	خطأ	صواب
٣٢	٩	عليا	علي
٣٧	٤	البوابون	البوابين
٣٨	١	مؤيدوا	مؤيدو
٣٨	٨	افتلات	انفلات
٤٩	٢	بفوضية	فوضى
٦١	٢٠	شروطاً	شروط
٧٢	١٧	بل لا	بل
٧٣	الأخير	قيسا	قيس
٧٤	١٨	أبو نائل	أبا نائل
٨٠	١٥	تأوي	تؤوي
٨٢	٦	يأوي	يؤوي
٩٣	حاشية ٧٣	فسلو	فسلوا
١٠٥	٥	لابناء	لابني
١١٢	١٠	دعى	دعا
١١٧	١	مجال خاص	مجالاً خاصاً
١١٧	١	غرض خاص مخصص	غرضاً خاصاً مخصصاً
١١٨	١٧	بغيره	بغيرهم
١٤٧	٧	ينتمي	يمت
١٤٨	٣	قادرون	قادرين
١٤٩	٤	عمرا	عمرو
١٤٩	١٦	عمرو	عمرا
١٥٤	٩	مخلصاً	مخلص
١٥٦	١٠	بلالاً	بلال
١٥٩	١٤	يرافق	يرافقان
١٦٠	٥	موقعاً أو إقطاعاً خاصاً	موقع أو إقطاع خاص
١٦٠	الأخير	يستعفى	يُعفى
١٦٣	٣	واليا جديداً	وال جديد
١٦٩	١٧	احتوت	يقطنها
١٧٧	٩	حديث	قريب

١٤ ـ الأغلاط المطبعية

ص	س	خطأ	صواب
١٧	١٧	بذل	بدل
١٨	٢٠	يعدو	يعود
١٩١	٦	ASHORT	A/SHORT
٣٣	حاشية ٣٤	ASHORT	A/SHORT
٣٩	١٨	صاحبة	صاحب
٥٩	١٥ و ١٦	الاشعت	الأشعث
٦٣	١٧	أبية	أبيه
٦٣	ح١٦	الشرطة	صاحب الشرطة
٦٨	٩	السملمين	المسلمين
٧٠	١١	بني كعب	بني عبس
٨٢	١١	بني سعد	آل الزبير
٨٣	ح٢٨	سارق	سارق الكفن
٨٤	٢	بين	بن
١١٣	٢٠	ويرى	ويروي
١٦٠	٤	ويرى	ويروي
١١٤	ح١٣	لواسط	لواسطة
١١٨	٩	متهجناً	مستهجناً
١٢٨	٢ و ٦	ويرى	ويروي
١٢٨	١٢	الريان	بن الريان
١٣٠	١١	السيابجة	السيابجة
١٣٣	١	من الكوفة	في الكوفة
١٤٠	١٣	مصعب لمعاوية	معاوية
١٤١	٨	ابن	بن
١٤١	١٣	الهدف	تحقيق الهدف
١٤٦	١٢	أحد أعضاء	أحد
١٥١	٤	يستند	يستلذ
١٨٧	٢٢	جبيب	حبيب

الموسوعات وأهميتها في التطور الثقافي والعلمي

للأستاذ عبد الله بن حمد الحقيل

الموسوعات ودوائر المعارف هي خلاصة جهود العلماء والباحثين وتبين ما بذله أولئك من عطاء في مختلف ألوان العلوم وضروب المعرفة وصنوف الثقافة، وهي دليل على اتساع آفاق المعرفة في كل اتجاه كما أنها تقوم بجمع وحصر المعارف المتجددة، فهي ثمرة تجربة متميزة ومن المصادر الأساسية للعلماء والباحثين تضافرت عليها جهود العديد من العلماء والمفكرين بعد دراسات مستفيضة.



وللموسوعات أهمية عظمى ودور بالغ في التطور الثقافي والعلمي وللباحثين الذين يسعون إلى الدراسة العميقة المستوعبة بل هي من الركائز المهمة للنهضة والمعرفة لأنها تتسم بالشمول والإحاطة الدقيقة بكل جوانب وأبعاد الموضوع محل البحث والدراسة ، وعمل الموسوعات يحتاج إلى جهد شاق وعمل متواصل ونشاط فعال يتميز بالدقة والبحث ووضع الإطار السليم للتنفيذ لأنها تقدم للباحث والدارس ما يريد أن يصل إليه ويتعرف على جوانبه وتفاصيله . . وقد تبين من الدراسات التي تناولت هذا الجانب أن عمل الموسوعات يطول مداه ، وربما تطوى فيه أعمار دون أن تدرك غايته ومنتهاه ، ومن أجل ذلك فلا بد من تقدير وإدراك الأبعاد المتعددة وتجميع المعلومات والدراسات وتحديد أهداف العمل من خلال البحث ووضع الخطط اللازمة لذلك ، ورسم إطار التنفيذ . .

ولتحديد مفهوم الموسوعة على مصنف ما فلا بد أن يكون ذلك المصنف جامعا شاملا لكل مصطلحات المعارف الإنسانية ، أو على الأقل شاملاً لأكبر مجموعة منها ، بمعنى أن يكون ذلك المصنف شاملاً للتعاريف والمصطلحات لكل المعارف والعلوم والفنون والآداب التي تتداولها الأمم والشعوب في مراحل تاريخها وحضاراتها وهذا يتطلب المتابعة المستمرة والسريعة لملاحقة ذلك التطور المذهل في شتى فروع المعرفة والعلوم .

وبهذا المفهوم فإن الموضوعات أشمل في موضوعها من المعاجم وأوسع إطارًا ؛ ذلك لأن المعاجم تقتصر في منهجها على توضيح مصطلحات وتعاريف علم معين دون غيره من العلوم كمعاجم البلدان أو اللغة أو التاريخ . .

أما الموسوعة فهي تقدم للباحث زادًا موفوراً من المعرفة وقد تغني القارئ عن السعي إلى الحصول على مراجع أخرى لاستكمال معرفته بها . . .

ولكي تكون الموسوعة هدفا للعلماء فلا بد من جهد علمي صادق وبحوث ودراسات متواصلة إلى جانب شمولها لروافد المعرفة والمتابعة المستمرة والسريعة لملاحقة ذلك التطور العلمي ورصده وتسميته ومراجعته من قبل الباحثين، ولقد صدرت في الأعوام الأخيرة الكثير من دوائر المعارف والموسوعات في موضوعات متخصصة وتتميز من بينها دائرة المعارف البريطانية . . ودائرة المعارف ماكجروهيل .

وسوف يتوالى صدور العديد من دوائر المعارف المتنوعة حيث برزت حركة موسوعية في العالم العربي في مصر ولبنان تحرص على العناية بالتراث العربي الإسلامي في شتى الميادين، ولقد سبق أن ألف أسلافنا كتبا عن الأدب وأخرى عن اللغة والتاريخ بشكل موسوعي كما هو في كتب الجاحظ والقلقشندي وبن منظور والنويري وبن النديم وبن حزم وأصحاب كتب المعاجم وأعلام الرجال .

ولقد أخذ العرب يحاولون اليوم أن يأخذوا دورهم في اللحاق بالركب، فبدأت مجموعة من العلماء في نهاية القرن الماضي في التأليف على نمط دوائر المعارف كدائرة المعارف التي أصدرها البستاني، وواصل أبناؤه من بعده إصدارها . . ودائرة معارف القرن الرابع عشر لمحمد فريد وجدي وأحمد زكي باشا، حيث أصدرا موسوعة العلوم العربية وقد طبعت في مصر عام ١٣٠٨هـ.

كما أن المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم تزمع إصدار الموسوعة العربية الكبرى . . وكذا المجمع العلمي الأردني يعتزم إصدار موسوعة الحضارة الإسلامية وتراثها وكذا الموسوعة العربية في سورية وغيرها . . وتقديم ذلك تقدمة علمية ومنهجية . .

وفي سبيل تحقيق الأهداف العلمية وبلادنا اليوم يتوافر فيها بفضل الله خيرة الأساتذة والباحثين ممن هو قمين بالعمل في هذا المجال ولتحقيق الأهداف المرجوة

فكم يكـون جميلاً ومناسبًا وضع دراسة لإنشاء دائرة المعـارف العربية الإسـلامية بحيث تكـون شاملـة ومستدركـة ما فـات مع الانتفـاع بآراء البـاحثين ووجهات نظرهم مما استجـد من المعارف والعلوم ولكي تصدر متكـاملة أو قريبة إلى الكمال فلا يؤمن تقويمها بالنقد و إثرائها بالمراجعة والبحث والتّوجيه والتوجيه حتى تخرج متميزة ومتفردة وتختلف عـن غيرها من المعارف بحيث تتسم بـالموضوعية والاهتمام بالإطار العلمي للموضوع .

وندعو الله أن يعين الجميـع على تحقيـق هـذا الهدف العلمـي العظيـم فما زال الفراغ في المكتبة العـربية قائما والحاجة ماسة إلى دائرة معـارف يكتب مادتها علماء متخصصون في شتـى فروع المعـرفة والحضـارة العربيـة الإسلاميـة وتراثهـا الغني الغزير . .

وهذا ولا شك يستـدعي التعاون ، وتـوثيق الصـلات مع أقطار العـالم العربي والإسلامي والأجنبي لتحقيق دائرة المعارف ، بحيث تـولي اهتمامًا خاصًا بالحضارة العربيـة والإسلاميـة ، ومن شـاركوا في ازدهارهـا ولتقدم روائع المعـرفة وخـلاصة البحوث العلميـة المتعلقة بالحضارة العـربية والإسلاميـة . . وتحقيق الرسالـة التي اضطلعت بها هذه البلاد وهي الاهتمام بالتراث الذي هو حصيلة فكر الأمة وتجاربها وتاريخها والعمل في هذا الميدان وفاء للأسلاف و إحسانا للأجيال اللاحقة وبذلك تكون عونًا لجمهرة المثقفين ومرشدًا وخدمةً للعلم و إثراءً للمعرفة ومعطيات تراثنا العربي والإسـلامي المجيد وما يحفـل به من الكنوز الثمينـة في شتى حقوله المعـرفية و إثراء الساحة الثقافية بكل مفيد . .

حقق الله الآمال ووفق الجميع .

التاريخ الدبلوماسي للمغرب



• غلاف الكتاب •

(من أقدم العصور إلى اليوم)

تاليف : د. عبد الهادي التازي

عرض أ. عبد الله بن إبراهيم الحقيل

موسوعة تقع في عشرة مجلّدات من الحجم الكبير ألفها الدكتور عبد الهادي التازي عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، وعضو المجمع العراقي، ومجمع اللّغة العربية بالقاهرة ودمشق، وعضو أكاديمية المملكة المغربية.

خصص المجلدين الأول والثاني للمقدمة: حيث أبرز العناصر التي استرعت نظره وهو يحرر أبواب الكتاب وفصوله: هنا حديث عن مصادر

التاريخ الدولي للمغرب، وحديث عن أصالة الممارسة المغربية في باب التعامل مع الممالك، والدول، وهنا حديث عن قيام المغرب بمساعيه الحميدة بين الدول منذ العصر الوسيط إلى اليوم ـ حديث عن السفراء المغاربة القدامى واهتماماتهم ومذكراتهم. وأهداف السفارات ودور الشعر في تسجيل الحدث السياسي ـ اللغة العربية بوصفها لغة أساسية لتحرير الاتفاقيات والخطابات، وهنا حديث عن الرموز السرية المتبعة في المراسلات، وحديث عن العواصم الدبلوماسية المغربية ـ انطباعات الزوار الأجانب عن المغرب ـ الأسطول المغربي ـ وسائل المواصلات ووسائل الإعلام.

ويتناول المجلد الثالث موضوع: المغرب في حديث الأقدمين ـ والعلاقات المغربية الأولى مع غيره من الأمم ـ والمغرب وظهور الإسلام. . .

ويتناول المجلد الرابع ظهور الدولة الإسلامية الأولى بالمغرب وعلاقات الملوك الأدارسة بملوك الأمم الأخرى. . . وهنا حديث عن الصراع العُبَيْدِي والأُموي على المغرب.

ويتناول المجلد الخامس الحديث عن دولة المرابطين وعلاقاتها بباقي ممالك إفريقيا. . . ثم علاقتها بممالك الحوض المتوسط والخلافة في بغداد.

ويتناول المجلد السادس العلاقات الدولية للمغرب في عصر الموحدين: مع باقي ممالك إفريقية ـ مع قشتالة والبرتغال وممالك وجمهوريات الحوض المتوسط ـ الاتفاقيات المبرمة ـ الصلات مع الخلافة في المشرق. . .

أما المجلد السابع فقد اختص بتاريخ العلاقات الدولية للمغرب أيام بني مرين وبني وطاس.

ويتناول المجلد الثامن علاقة السعديين بالعثمانيين وعلاقتهم بالبرتغال وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا وجمهوريات البحر المتوسط.

أما المجلدان التاسع والعاشر فهما يتناولان الفترة الأُولى من تاريخ الدولة العلوية، ابتداءً من القرن الحادي عشر الهجري = السابع عشر الميلادي، وهي ثرية بما تزخر به من وثائق سواء منها ما هو موجود بالمغرب أو ما هو موزع في أرشيفات عواصم القارات الخمس.

لقد كان للمغرب مع كل دولة من دول العالم، وبدون استثناء، علاقات جيدة، هناك عدد من المراسلات، وهناك طائفة من الاتفاقيات التي ربطت المغرب بالمجموعة الدولية والتي نجد أثرها في كل مكان. . .

وعندما يتحدث المجلد العاشر عن الأزمة التي عرفها المغرب نتيجةً لمناصرته للجزائر في أعقاب احتلالها ١٨٣٠، يتحدث عن فترة الحماية الفرنسية ١٩١٢ التي تميزت بالمقاومة الوطنية الشرسة التي بلغت قمتها عندما نفي الملك محمد الخامس وأسرته، وألقي بالزعماء الوطنيين في السجون. . .

ويخلص هذا الفصل إلى الحديث عن عودة الملك محمد الخامس إلى عرشه وبالتالي عودة المغرب إلى حياته الأولى التي بدأت بها هذه الموسوعة. ويستمر المجلد العاشر في استعراض العلاقات الدولية للمغرب وعمله المتميّز في حظيرة الأسرة الدولية وعلى صعيد المجموعة الأوروبية، والعلاقات الإسلامية والعربية والإفريقية وخاصةً مع دول المغرب التي ربطها منذ اليوم ميثاق اتحاد المغرب العربي. . .

« . . . لقد كان قصدي من كتابة هذا التاريخ ـ يقول المؤلف ـ أن أسهم بالتعريف ببلادي التي قدمت للمجموعة الدولية، عبر التاريخ، عطاءً أسهم في ازدهار الإنسانية ورخائها ورفاهها. . . »

الكتاب يقع في ثلاثة آلاف وثلاث مئة صفحة من الحجم الكبير ومزود بعدد كبير من الوثائق والرسوم والصور والخرائط وقد طبع على ورقٍ صقيل بمطابع المحمدية، فضالة سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. . .

نيابة عن خادم الحرمين الشريفين

صاحب السمو الملكي
الأمير سلطان
ابن عبد العزيز



سلم جائزة الملك فيصل العالمية
للفائزين بها

في مساء يوم الثلاثاء ٣٠ من شهر شوال ١٤١١هـ، الموافق ١٤ من شهر مايو ١٩٩١م، نيابة عن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز «حفظه الله» سلم صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز «حفظه الله» النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء، ووزير الدفاع والطيران، والمفتش العام، جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١١هـ، للفائزين بها وهم:

١ ـ د. عبد الله عمر نصيف «سعودي».
٢ ـ الأستاذ أحمد محمود نجيب «مصري».
٣ ـ الأستاذ عبد التواب يوسف أحمد «مصري».
٤ ـ الأستاذ علي عبد القادر الصقلي «مغربي».

«في خدمة الإسلام» بالاشتراك في الأدب العربي للأطفال



أما في مجالات الدراسات الإسلامية، والطب، والعلوم، فقد قررت لجان الاختيار حجب الجائزة في كل منها هذا العام، لأن الأعمال المرشحة فيها لا ترقى إلى مستوى الجائزة.

كما تقرر أن تكون موضوعات الجائزة في السنة المقبلة ـ بإذن الله تعالى ـ ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، كما يلي:

أ ـ **في الدراسات الإسلامية**: «الدراسات التي تناولت تأصيل مناهج البحث في الدراسات الإسلامية المعاصرة».

ب ـ **في الأدب العربي**:

«ترجمات الدراسات الأدبية والنقدية إلى اللغة العربية» .

ج ـ في الطب :

«أمراض شرايين القلب التاجية» .

د ـ في العلوم :

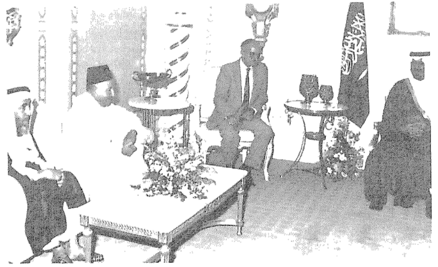
علم الحياة (البيولوجيا) .

لقطات من حفل جائزة الملك فيصل العالمية لعام ١٤١١هـ.

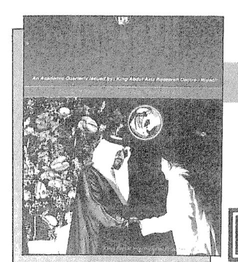












King Faisal International Prize 1991 A.D. "p. 250"

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine

Annual Subscriptions

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent of 4 issues prices : SR 20.
- Non-Arab Countries : US . 6$

- Articles can not be returned to authors whether published or not.
- Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.

• PRICE PER ISSUE •

- Saudi Arabia	: 3 Riyals
- U.A.E.	: 4 Dirhams
- Qatar	: 4 Riyals
- Egypt	: 40 Piastres
- Morocco	: 5 Dirhams
- Tunisia	: 400 Millimes
- Non-Arab Countries	: 1 U.S.$

• Distributors •

Saudi Arabia : Saudi Distribution Co.
✉ 13195, Jeddah 21493
☎ 6694700
Abu-Dhabi : ✉ 3778, Abu Dhabi,
☎ : 323011
Dhubai : Dar-Al-Hikma Library.
✉ 2007, ☎: 228552
Qatar : Dar-Al-Thakafa,
✉ 323, ☎ : 413180
Bahrain : Al-Hilal Distributing Est.,
Manama, ✉ 224, ☎: 262026
Egypt: Al-Ahram Distributing Est.,
Al-Gala'a Street, Cairo, ☎ : 755500
Tunisia : The Tunisian Distributing Company 5, Nahg Kartaj.
Morocco : Al-Sharifia Distributing Company,
✉ 683, Casablanca, 05.

Articles

Articles should be directed to the Editor-in-chief

☎ : 4417020

Editorial Board

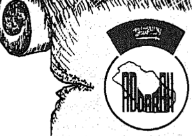
All Correspondence should be directed to:

☎: 4412318 - 4413944

Fax 4412316

Subscriptions

Subscriptions should be directed to king Abdul Aziz research centre



IN THE NAME OF ALLAH
THE MERCIFUL. THE BENEFICENT



An Academic Quarterly Issued by:
King Abdul Aziz Research Center - Riyadh

King Abdul Aziz
Research Centre - Riyadh

- Established by a Royal decree No. M/45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent jurisitic identity
- Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

objectives :

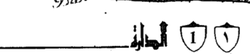
- To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.
- To issue a cultural magazine carrying its name.

ADDARAH.

- In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

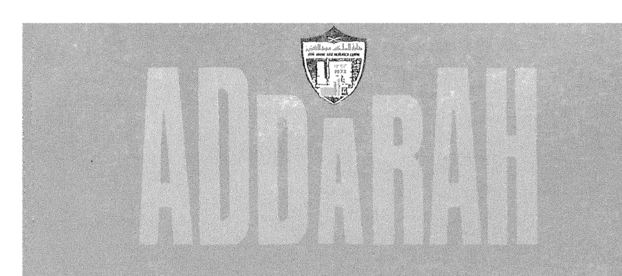
No. "2" • Year <<17>> • Aug, Sep, Oct. 1991 A.D.
P.O.Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia
Facsimile No : 00/966/1/4417020

آب، أيلـــول، تشـــريـــن الأول





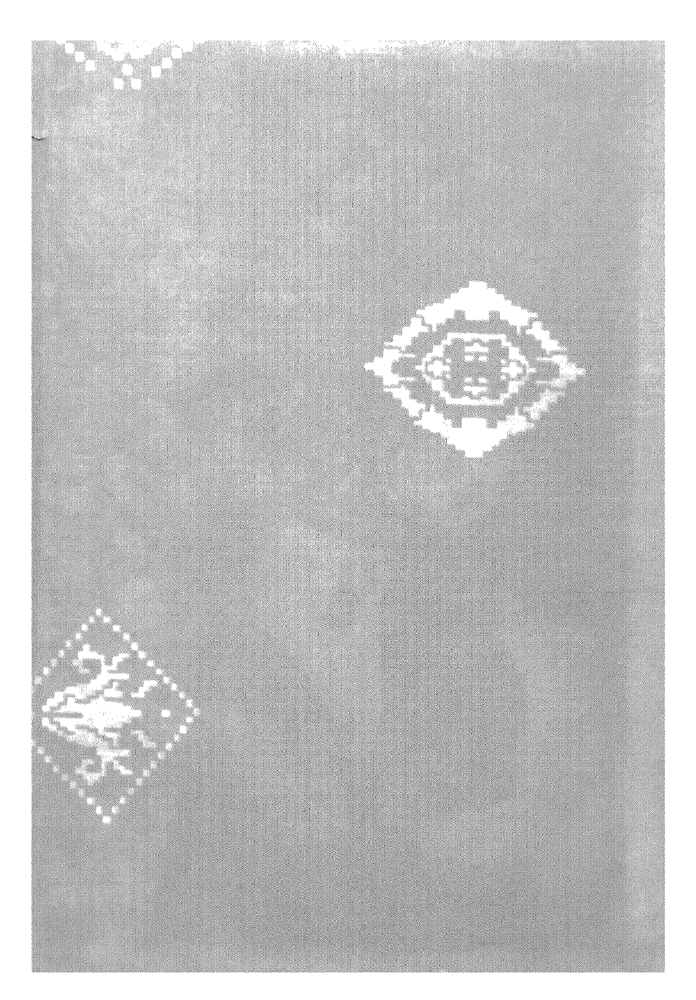
• لقطات من حفل
العالمية لعام ١٤١١

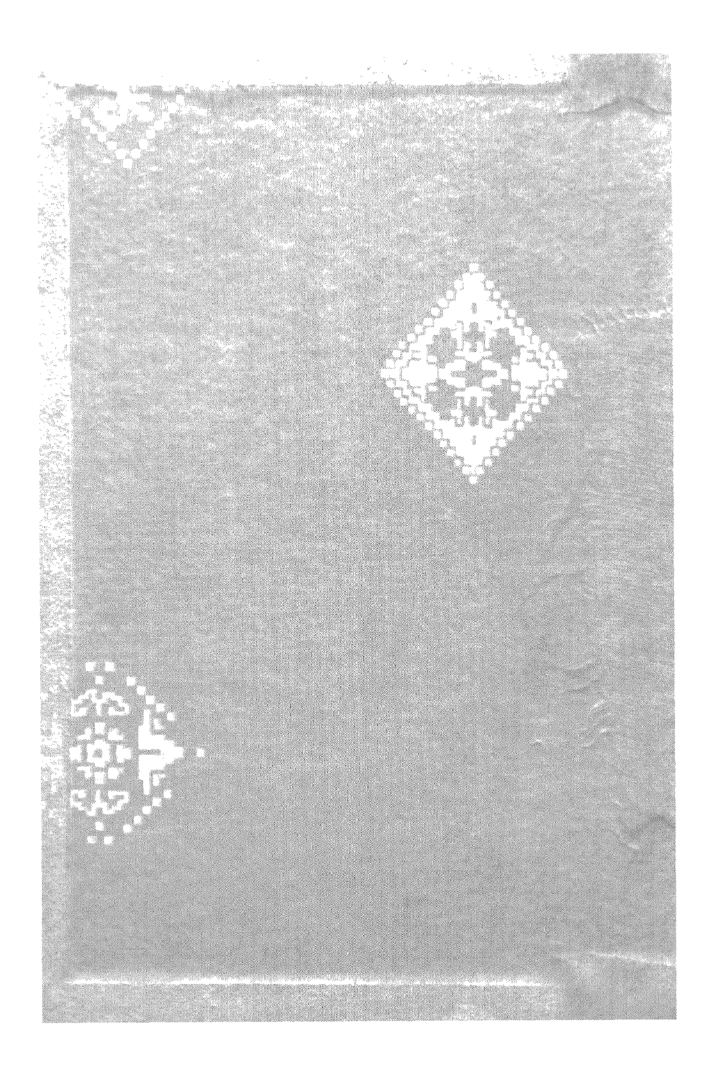


n Academic Quarterly Issued by: King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

No. "2" • Year "17" • July.,Aug.,Sep.1991 A.D.

King Faisal International Prize






Bibliotheca Alexandrina
0530552